

اعترافات راهبة

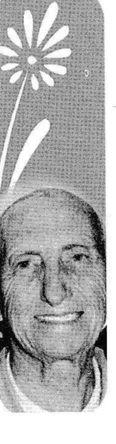
سيرة ذاتية لحياة الأخت



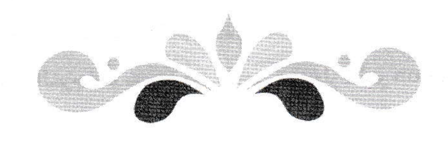
الراهبة الفرنسية الحاصلة على الجنسية المصرية

حياتها وخدمتها

" الآن وقت مناسب لتقديم الحب الأعظم"

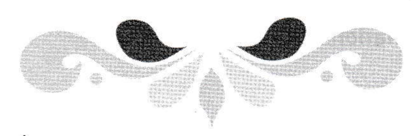


الأخت إيمانويل
سيرة ذاتية



اعترافات راهبة

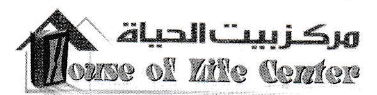
تعليق في نهاية الاعترافات
بقلم
فيليب أسو



ترجمة : چورچ أنسي - حكيم ميخائيل - سعاد راغب - نيللي فارس

تحرير : عادل فرج عبد المسيح - عادل عبد الملك غالي

حقوق الطبعة المصرية محفوظة للناشر



طبعة أولى يناير 2010

الكتاب : اعترافات راهبة " الأخت إيمانويل"

الناشر مركز بيت الحياة ت: 26377033 - 26440220

حقوق الترجمة : تمت الترجمة بترخيص خاص من دار نشر Flammarion

المؤلف : الأخت إيمانويل

الترجمة : چورچ أنسي - حكيم ميخائيل - سعاد راغب - نيللي فارس

تحرير : عادل فرج عبد المسيح - عادل عبد الملك غالي

تصميم الغلاف و الداخلي: مركز بيت الحياة

رقم الايداع : 2010/3259

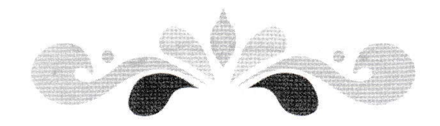
المطبعة : دار نوبار للطباعة

شكر خاص للدكتور عادل عبد الملك على صورة الغلاف التي أهداها للمركز لتضمينها هذا الكتاب، وهي من أرشيفه الخاص.

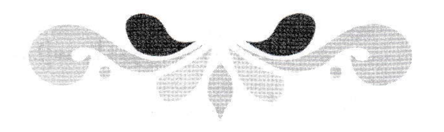
Originally published in France under the Title:
Sœur Emmanuelle Confessions D´UNE RELIGIEUSE
 ISBN: 978-2-0821-2519-2

Published by Flammarion.





المحبة أقوى من الموت



المحتويات

الباب الثانى

زمان الحب الأعظم

(1971- 1993)

الباب الثالث
اعترافات

الملحقات



افتتاحية

في مساء ليلة الميلاد عام 1989م، في القاهرة، أحسست أنني قريبة من الطفل الذي ولد في المذود، لأنه سمح لي بأن أُشارك الزبالين حياتهم في أكواخهم الصفيحية. وقبل ذهابي للترتيل في أفراح قداس منتصف الليل - "المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام!" - بدأت في كتابة السطور الأولى في هذه "الاعترافات". هل لديّ الجرأة لمشاركة الملائكة تراتيلهم في تناغم سام؟ بالتأكيد لا! فأنا على العكس أُحاول سرد حكاية الأعوام التي مضت بضحكاتها ودموعها، بكل ما فيها من بغض ومن حب، بعظمتها ووضاعتها. فلابد لي أن أنزل إلى أعماق الوحل الذي يحيط بقلب الإنسان... مع ما في ذلك من مخاطرة بتشويه الصورة المثالية التي رسمتها لي وسائل الإعلام وأن أُخاطر أيضًا - ربما - بأن أصدم بعض القراء. ولذا فأنا أعتذر مقدمًا، فالحقيقة قد تتسم ببعض الفجاجة! وهذه الصفحات لا تبتغي تقديم صورة مثالية ولكن بالأحرى صورة صادقة حقيقية.

إن الهدف الأول لهذا الكتاب هو ببساطة "الاعتراف" بالحقيقة. إن الإنسان بطبيعته مخلوق عارٍ. الخطية هي التي أجبرته على أن يتستر بالأوراق. عارية، خرجت من بطن أمي، وعارية أقدم نفسي أخيرًا. ما فائدة هذا "التعري"؟ وما جدوى البحث عن "الزمن الضائع"؟ حسنًا، فالغاية

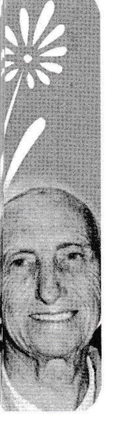
هي الوصول إلى النقطة المحورية للتقارب مع الموجود البشري؛ سواء النظر إلى إحياء دموع طفلةٍ من جديد، أو في جيشان انفعالات مراهقة، أو في نضال امرأة، في محاولات التخفيف من آلام وعذابات الإنسانية. وعندئذ يستطيع القارئ أن يصرخ من أعماق قلبه: "هذه هي، وهذا أنا!"

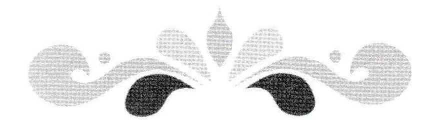
وبعيدًا عن المغامرة التي هي حياتي، فأنا أريد أن أبحث عن التاريخ الغريب للحب بين الموجود الدائم الاضطراب والشره إلى "الطعام الأرضي"، وبين المسيح الإله المتأنس والذي نحتفل بميلاده هذه الليلة.

وهذا الكتاب يروى بالتفصيل كيف التقيت به في وجوه كثيرين من البشر، في قسمات وجوه الأطفال، وفي الوجوه الدموية. وعلى وجه الدقة: متى قيلت الحقيقة العارية عن الإنسان، فالله يظهر دائما بصورة مستترة في الخفاء. وأنا هنا أريد للمرة الأخيرة أن أُعبر عن إيماني بالإنسان وعن إيماني بالله الذي رفعني طوال حياتي.

عند الميلاد خلف المذود يرتسم الصليب... الألم لم يكن بعيدًا أبدًا عن الطفل المولود. وفي الوقت الذي تنشر فيه هذه الكلمات، سأكون قد التقيت مع الله، ووجدت فيه ميلادًا جديدًا.

فأنا أؤمن: أنه من بوتقة الموت ينبثق نور القيامة.





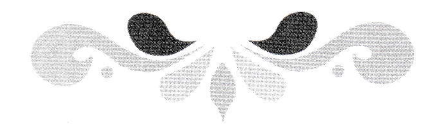
الباب الأول

صراع نحو حب كبير

1914م–1970م

الذين يحيون هم الذين يكافحون

"ڤيكتور هوجو"







الجزء الأول

الشباب

1914م – 1931م



مأساة البحر

واجهت أكثر مأساة مؤسفة في حياتي، عندما كان عمري ستة أعوام. كان ذلك في عام 1914م، استأجر أهلي في الأجازة ڤيللا في "مارياكيرك"، في الساحل البلچيكي، وقد اندلعت الحرب فجأة. كان أبي ضابطًا احتياطيًا فرنسيًا، وقد ذهب لتلقي الأوامر، وأبلغوه أنه عليه انتظار استدعاء فرقته.

تركنا الڤيللا في صباح يوم الأحد 6 سبتمبر، وذهبت والدتي لحضور القداس، واصطحبنا أبي إلى الشاطئ، أختي الكبرى "ماري-لو"، أخي الصغير "چولو"، وأنا "مادلين"، مع الآنسة "لوسي" مربيتنا. ظل هذا المشهد محفورًا بداخلي حتى الموت؛ كان أبي ممسكًا بنا وهو يضحك من تحت الأمواج، ثم أعطيناه أيدينا لنرقص في وسط الأمواج وجرينا معه على الرمال. وقَبّل وجوهنا المبتلة وعهد بنا إلى الآنسة "لوسي" - لنلعب في الرمال - قبل أن ينطلق إلى عرض البحر. اقتربت سيدة قائلة: "نادوا والدكم يا أولادي، إنه يبتعد كثيرًا، فالبحر سيئ والسبّاح المنقذ قد ذهب إلى الخدمة العسكرية"، وظهرت رأس أبي هناك من بعيد. وقد كُنت أنا و"چولو" نلعب في الرمال.

تجمع الناس فجأة، ودوى صوت في أُذني. أسمعه حتى الآن: "المساكين الصغار، لقد غرق والدهم". صرخت بكل قوتي: "أبي! أبي!" لكن اختفت الرأس هناك. قادتنا الآنسة لوسي على عجل، "ماري- لو" وأنا مختلجتين بالدموع، ولم يشك "چولو" الصغير في شيء.

رجعنا إلى الڤيللا، وانفتح الباب، ووجدتني أمي غارقة في الدموع:

- "ماذا حدث، هل تشاجرتم ثانية؟ ومع من؟"

- لا، لقد غرق أبي!"

كيف أنسى نظرتها إلى المربية المتلجلجة، ووجهها الذي أصبح داكنًا فجأة، وجسدها المرتعش. استندت إلى الحائط، وتمتمت هامسة: "يا قديسة مريم اختفى في وسط الأمواج؟"

وبعد مرور أيام قليلة، لفَظ المانش جسد والدي، والذي تحول فيما بعد إلى شيء "لا يمكن وصفه تحت أي مسمى ولا أية لغة". لم أتم الأعوام الستة بعد، بمثل هذه البساطة يكون لقاء الموت؛ فعندما ينكسر شيء ما في الطفولة يعتم مفهوم التفاؤل في الحياة في ذات الوقت.

لقد كنا عائلة سعيدة، فقد كان أبي وأمي متحابين بشدة. كانت أمي تُنعش المنزل ببهجتها وشبابها وضحكاتها. في المساء، كانت تعزف لنا على البيانو وتغني بعض الأغاني العاطفية. كنت أختبئ بين أرجل والدي الذي كان يرتدي زِيّه المنزلي الرمادي اللون. كنت أشعر حينئذ بالأمان الذي يضفي دفئًا على جسدي الصغير. وفي غمضة عين، جاء البحر ليبتلع سعادة الطفولة.

شعور أساسي بعدم الأمان في الحياة، وهروب السعادة التي لا يمكن أبدًا السيطرة عليها، كل هذا ترك بصماته عليّ. ويرجع أصل هذا

التاريخ بلا شك إلى السادس من سبتمبر 1914م. بدا لي أن اللذة زائلة دائمًا. بالإضافة إلى ذلك، كنت أترقب اللحظة بانفعال، كذلك عندما تهرب الفرحة، تنبثق خيبة الأمل. ومن خلال النشوة المغوية، لم يعد بين يدي سوي قليل من الماء المر!

بدأ يتكون في أعماق قلبي فراغ، ثم يتوقف ببطء ، ويتحرك نحو السماء، ثم مايلبث أن يقطعها انجذاب جديد نحو الأرض. فتختفي السعادة ويُخلق الفراغ من جديد، وهكذا دواليك كحركة بندول الساعة ما بين قطبين.

في تلك الساعة المأساوية؛ عند اندلاع الحرب في الخريف، كانت أمي وحيدة في الساحل البلچيكي، مع ثلاثة أولاد ووالدتها العجوز. تقدمت الآلة الحربية الألمانية وحاصرت الحدود الفرنسية، أين المفر؟ الذعر في كل مكان. والمرأة الشابة التي كانت منذ وقت قليل غير مبالية وضاحكة، عليها من الآن فصاعدًا أن تواجه الموقف؛ تضع جسد زوجها في نعش مؤقت وتبحر بنا على آخر سفينة في اتجاه انجلترا. لكن البحر لم يتوقف عن تعذيبها؛ فأعلن الكابتن عن وجود ألغام تندفع مع الأمواج. وإذا غرقَتْ أيضًا مثل أبي؟ وإذا أفلت الأبناء وحدهم من الموت؟ أراها تطرز باضطراب على ثيابنا الأسماء وعنوان جدتي لأبي "سانكان" في باريس. أفهم بشكل غامض أن شيئًا فظيعًا يمكن أن يحدث أيضًا؛ فهل بعد أبي، ستكون أمي؟ ولكن السفينة لم تتحطم، وها هو الساحل الإنجليزي، لقد نجونا!

في لندن، وجدنا ممثلاً لمصنعنا ـ للملابس الداخلية ـ حيث كانت القطع مخزنة لديه. أمي التي كانت تساعد أبي – في بروكسل – في أعمال التصدير تولت بسرعة زمام الأمور في يدها. إنها امرأة قيادية،

"امرأة حين يغيب الرجال"، وفقًا لعبارة تداعب فكري الأنثوي...

وما كان يميز أمي، شعورها بالواجب. وهذا الشعور لم ترضَ أمي عنه بديلاً، وقد لقنتني إياه، وأدركت معنى هذا الشعور، حتى إنه في بعض الأحيان، يجب عليّ أن أعترف، أنني أريد التخلي عن ذلك. لا توجد أية قوى في العالم تستطيع أن تضعف من طاقتها حين يتعلق الأمر بخير القريب وبخاصة لأحد العاملين لديها. ومن خلال التجربة أعرف أنني أمتلك القليل من قوتها والكثير من سيطرتها. والمعارك التي خاضتها كأرملة شابة هي التي أدت إلى نمو شخصيتها، فلم تكن تقبل أن يقاومها أحد، مثلي تمامًا. لكنني فضلاً عن ذلك اضطررت إلى مواجهة نوبات من التمرد لم أعهدها منها.

هذه الدفعات من نوبات تصلب الرأي قد ظهرت منذ طفولتي. أرانا مرة ثانية، نحن الأطفال الثلاثة نلعب في أحد المتنزهات الخضراء الإنجليزية. وعند دخول المساء، أمرتنا الآنسة "لوسي" بالذهاب، فأعلنت لها أنني أستمتع بشدة ولا أرغب في الرحيل. إنذارات... إلحاح... ولكن دون جدوى. وتعلقت بشجرة ولم أرد التحرك. وبرهانًا على ذلك، لَفّت الآنسة "لوسي" الحبل حول خصري وشدتني بكل ما لديها من قوة، فصحت وأنا غاضبة ومدافعة: "نحن في بلاد حرة". منذ وقت چان سان تير أصبح الإنسان مقدسًا، فرؤية طفل يصيح من أعماقه، ومسحوب من حبل يظهر، فضلاً عن ذلك، أنه شيء غاية في القبح! توقف المارة وقذفوا المربية البائسة باللعنات بالإنجليزية وهي لم تفهم منها شيئًا، لكن الكارثة عندما رأت أنه ينبغي عليها أن تحلني من الحبل، أما أنا - الطفلة الشقية - بدوت كأنني الضحية التي سُلمت إلى أيدي معذب فظيع!

ماذا يختفي وراء هذا التمرد، سوى سر الجرح الذي لا يريد أن يندمل؟



لم أتحدث قط عن والدي، لكنني شعرت بفراغ غيابه مثل ثُقب في قلبي. كنت أظن أنه لو كان موجودًا لأصبحت كل طلباتي مجابة. مررت هكذا من الثورة إلى البكاء، فلم يكن بإمكان أي شخص أو حتى أي شيء تهدئتي.

ولكن ذاتَ يومٍ، دار بخُلد جدتي البسيطة - لأمي- إحدى إلهامات الجدات. مررنا من أمام واجهة محل ألعاب. توقفت مذهولة أمام دمية إنجليزية فاتنة، فقالت لي جدتي الطيبة: "إذا توقفتِ عن البكاء لمدة شهر، هذه الدمية سوف تكون لكِ". وعندما يُحفز الطفل، يمكنه أن يبذل طاقة غريبة، فكانت الدمية تمد لي أذرعها. أفهمتني جدتي الساحرة - منذ بداية حياتي - أن الكفاح يأتي بالغنيمة. في النهاية، لم تكن هذه الدمية هدية عادية، كانت تمثل الانتصار الأول لي على نفسي، فكنت أشعر بالفخر عندما كنت أضمها إلى قلبي. بدأت أفهم بصورة غامضة، أنني أنقل خطواتي الأولى في الحياة وبدأت أظهر طاقاتي، وابتعد عن مزاجي الإنفعالي. هذه الفترة كانت إرهاصات معارك المستقبل...





أول الاضطرابـات

بـاريس 1915–1918

كانت جدتي "سانكان" تلح علينا دائمًا أن نلحق بها في باريس. أخيرًا، وفي عام 1915م، عَبَرت السفن المانش، وهذه المرة بدون مآسي، ووصلنا إلى العاصمة وسط انفعال اللقاء، ووسط آتون الحرب، بالإضافة إلى ذكرى من اختفى إلى الأبد!

أبلغ السابعة، الثامنة، التاسعة، أذهب الآن إلى المدرسة، لكنني ظللت دائمًا تلك الطفلة الصغيرة الجامحة. نحن الآن في شارع "روشوشوار"، وقالت الآنسة لوسي:

- "ألا تريدين أن تطيعي؟

- كلا!

سأقودك إلى قسم البوليس وستذهبين إلى السجن.

إن الأمر سيان عندي!"

أمسكت بيدي بقوة قائلة: "هذه طفلة غير محتملة سيدي الشرطي،

لتتصرف معها كما ينبغي". وفهمت النظرة المتآمرة التي يتبادلونها، ولم أتردد، وانتظرت ما سيحدث. أنصتُ مترقبة الشرطي الذي تساءل: "ماذا أفعل مع هذه الصغيرة؟" طبعًا، تعود الآنسة لوسي ولم أجد نفسي في السجن. يجتاحني نوع من الفرحة الخبيثة :" لم ينالوا مني!" إذا كان وعد الدمية قد أيقظ في داخلي طاقة نحو الخير فإن هذا التهديد الفاشل - الذي لا يمكن أن يتحقق - قد أثار في داخلي المزيد من التمرد.

إلا أنه مع أمي لم يكن هناك سبيل إلى الالتفاف؛ طبق الأرز المرفوض بعناد يرجع إليّ ثانية في الوجبة التالية، إلى أن أستسلم من الجوع.

"إن لم تأكلي ملعقة كبد الحوت، لن تذهبي مع جدتك إلى مسرح الشاتليه.

- ستصطحبني جدتي معها بالتأكيد!"

تصر أمي علي موقفها وأجد نفسي أعاني من الضجر وحدي في المنزل. لديّ وقت - وأنا وحدي - للتفكير مليًا في حساباتي الخاطئة ورفض بذل أي مجهود انطلاقًا من أهوائي الشخصية. ضاع عليّ العرض المسرحي "80 يومًا حول العالم" فهو يستحق فعلاً ملعقة من كبد الحوت.

تلك التربية الشديدة والمألوفة في ذلك العصر، كانت تعدني للظروف غير المتوقعة. كم من مرة أعدت التفكير فيكِ يا أمي بامتنان. وحدكِ، ودون مساعدة والدي، استطعتِ النضال معي ودون أن تضعفي. فمن خلال أحداث الأرز وكبد الحوت استطعتِ تلقيني معنى التعقل وتفاهات الأهواء.

وفيما يخص الدين، فقد ربتني أمي في بيئة مليئة بالحب حيث ذابت جميع المخاوف. وقد كان سائدًا بين بعض العائلات أسلوب "القديس يوحنا اللاهوتي"، إلا أنه في بيتنا كان يندر أن يتحدث أحد عن الخطية

والنار. كانت أمي تبرز لي أن كل ما هو جميل وطيب ما هو إلا إنعكاس للمحبة الالهية التي هي مَثَل يُحتذى به. والمأساة التي كسرت شباب أمي لم تتلف في داخلها مفهوم الحب الإلهي. كانت تسمو فوق كل ثورة، باحثة في الصلاة عن القوة لمواجهة الأحداث. ومقتنعة بأن الله يترك الإنسان حرًا في تشكيل حياته بنفسه، وكانت تريد تأهيلنا لحياةٍ ناجحة. وجدت نفسي غاضبة بسرعة أمام إله غضوب، يعاقب بقسوة على كل عصيان، بينما صورة هذا الحنان كانت تطمئنني، ظلت هي الأساس لعلاقتي مع الله. ورويدًا رويدًا، أصبحت صورة والدي الذي ترك فراغًا في النفس، تحل محلها صورة أب مليء بالحب لا يتخلى قط عن أولاده.

"أبانا الذي في السماوات"، هذه الرؤية القوية والرقيقة تحولت شيئًا فشيئًا إلى ملجأي عند اضطرابات الطفولة والمراهقة؛ وانتهت أخيرًا إلى ازدهار حوار الحب.

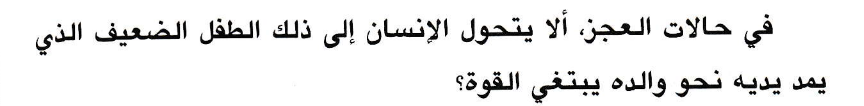
لكن قبل الاعتراف بالأعاصير التي كانت توشك علي قلب مسار حياتي، أُفَضِّل وصف أول إعلان عن سر حياتي وأكثرها إبهارًا. كنا جميعًا متعلقين جدًا بالآنسة "لوسي" والتي كانت تحبنا بعمق، حتى أنا، بالرغم من إزعاجي لها دائمًا. كانت تحدثنا بحرارة عن خطيبها المجند، والذي لم تره منذ الحرب 1914م..1915م...1916م...1917م... الوقت يمضي: فهل كان يفكر بها دائمًا؟ أرتنا صورته، كانت تحتفظ به في قلبها، وماذا عنه؟ كنتُ متأثرةً بشدة ومستعدةً للبكاء معها. لقد كتبت له من خلال الصليب الأحمر. وأخيرًا يصل خطاب: أجل، فقد ظل وفيًا لها، وعندما تنتهي الحرب سيتزوجان. قفزنا نحن الأطفال من الفرحة، ورأيتُ وجه الآنسة "لوسي" مشرقًا من السعادة. نعم! لقد جعلها الحب جميلة! لقد تغيرت، فهي الجادة والحزينة أحيانًا، أصبحت مرحة، وضاعفت لنا الأغاني والألعاب.

ما هذا الشيء الغامض بالنسبة لي، هذا الحب الذي غَيّر - لهذه الدرجة - الآنسة "لوسي"! يوجد إذن على الأرض إحساس بهذه القوة، يُمكنه تجميل كل الأشياء مثل العصا السحرية. كم تلمع عينا الآنسة "لوسي" عند روية هذه الصورة! كم يبدو لها جميلاً هذا المجند، الغامض بالنسبة لي! عندما كانت تتكلم معنا عنه، كانت تتخلى عن تحفظها المعهود، ولا تتوقف عن مدحه، فقد كان قويًا، جميلاً، ذكيًا، طيبًا، إلخ ... يقدمون دائمًا إله الحب الصغير معصوب العينين، فهل الآنسة "لوسي" كانت أيضًا معصوبة العينين؟ أنا، في كل الأحوال لا أريد أن أكون كذلك. هل من الممكن عند سن العاشرة أن أحتاط من خدع الحب؟ يمكنني فقط القول بأنني أريد أن أعيش "الحقيقة" وألاّ أبني حياتي علي سراب.

عندما كنت في السادسة، علي شاطيء البحر، في يوم عاصفٍ، أظلمت صورة السعادة ولم تعد أبدًا مرةً أخرى. انفتحت عيناي - في الوقت الحاضر - على صورة أخرى من السعادة، وهذه المرة مع علامة استفهام. دخلت إلى المغامرة الإنسانية بأعين فضولية، بأذنين مفتوحتين، وبقلب شره، لأجد شيئًا لايختفي أبدًا.

إلا أن فترة مراهقتي كانت مضطربة. ليس كما يُعتقد، لكن بسبب اضطراب العاصمة وقت الحرب. لم أُعانِ منها، إلا خلال الساعات التي أمضيتها في المخبأ. كما أنني كنت أنام أحيانًا. وكان ساكنو العقار يسرعون عند سماع الإنذار. كنا نبقى هناك مرتعشين منصتين بأذنٍ، نترقب صوت الانفجار. يُصلي الجميع بصوتٍ عالٍ، بدون مراعاة للآخرين، فما أسرع ما يتولد الإيمان من الخوف. لا أحب هذه النوعية من الصلوات التي تنادي الله عندما تختفي كل السبل. ومع ذلك، فهل عندما أشعر أنني وحيدة، لن أرفع أيضًا إلى السماء نداء يشق كل العصور: "انقذني يا إلهي؟"





في حالات العجز، ألا يتحول الإنسان إلى ذلك الطفل الضعيف الذي يمد يديه نحو والده يبتغي القوة؟

إن مشاركة المآسي التي يحدثها العالم حيث معظم الناس لا يستطيعون أن يتحكموا في هذا السيل. دائمًا أُدهش الآخرين بتسامحي. وفي الحقيقة، أظل مقتنعة بأن ما يُطلق عليه "خطايا الجسد" هي الخطايا الأقل خطورة أمام أعين الرب. كم من مرة تذكرت في قلبي العبارة المخلصة للسيد المسيح التي قالها للمرأة الزانية: «وَلاَ أَنَا أَدِينُكِ. اذْهَبِي وَلاَ تُخْطِئِي أَيْضًا [1].» كم أنعشت هذه الكلمات نفسي!

لنرجع من جديد لمادلين الصغيرة، وهي أنا. إذ وقع فجأة شعاع من النور على هذا الجسد المشوش. وقالت لي أمي في يوم ما: "ستبلغين العاشرة عما قليل، وهي سن المناولة الأولى." قفزت من الفرحة، وأنا أرى نفسي مرتدية ثوبًا أبيض اللون ويغطي شعري الأشقر غطاءً من التُلِّ الجميل. أذهب فرحة إلى كنيسة "القديس ڤان سان دي بول" حيث أنصت إلى قسٍ شاب يحكي لي عن المسيح المخلص، قصته من الميلاد إلى القيامة. سمعتُ بالتأكيد من قبل عن هذه الملحمة الجميلة، لكن مقتطفات منها فقط. سحرتني مغامرة هذا الرجل الذي واجه الموت ليخلصنا، ليخلصني أنا، مادلين.

تقترن دائمًا كلمة "الحب" بكلمة "الموت". لقد أحبنا، أحبني حتى الموت، الموت على الصليب! هذه المرة، هذا الحب يُطمئنني. ماذا فعل من أجلها مجند الآنسة لوسي؟ هل كان مستعدًا ليموت من أجلها؟ حتى أبي العزيز، الذي مات أمام عيني، لم يمت من أجلي. هل سأجد يومًا إنسانًا يحبني إلى هذه الدرجة؟

1- يو 8: 11

وذات يوم، أعطانا القسُ الكتابَ المقدس لإحضاره معنا إلى المنزل قائلاً: "عليكم قراءته بترو، وحاولوا حفظ آلام المسيح وسأعطيكم صورةً جميلة، ولتبدأوا بجثسيماني، الحقل الذي ذهب إليه يسوع."

حقل! بدأت القراءة ببطء، والقراءة مرةً ثانية للحصول على الصورة الجميلة. يقول يسوع: "نفسي حزينة جدًا حتى الموت..."[2] "صار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض[3]"! جاءني الإحساس أنها تقع على قلبي. ومازال الإحساس بوجودها مستمرًا حتى الآن.

"ماذا ستفعلون من أجل يسوع؟ يقول لنا القس. وقد طلب منا شيئًا واحدًا: "أحبوا بعضكم بعضًا كما أحببتكم أنا". حقًا إن كلّ ذلك كان يُدهشني. فلم يعد هذا الإحساس بالدهشة تجاه دميتي الجميلة، بل تجاه يسوع الذي وددتُ بذل مجهود وتضحيات من أجله... "تضحية، هذا يعني شيئًا مقدسًا، فقد شرح لنا القس شيئًا "مقدسًا" جميلاً وصعبًا؛ مثلاً: لن تأكلوا وحدكم الحلوى التي تحبونها، ستشاركون فيها الآخرين." هذا يعني أول علاقة للشركة المقدسة. لا يُمكننا مشاركة يسوع مباشرةً، لكن مع البشر الذين على الأرض، وبخاصةً أكثرهم شقاءً. بدأت فجأة الحياة الفاقدة كل حيوية تصبح ذات قيمة، إذ يمكن إضفاء بعض القداسة عليها، ببساطة عن طريق الحب والمشاركة.

وأخيرًا، جاء يومُ امتحان الضمير والاعتراف. استلمنا قائمةً تحتوي على: "خطايا الجسد، خطايا الروح، غرور اتخاذ قرارات الخير والشر بأنفسنا، خطايا الأنانية، وخطية التمركز حول الذات، أما عن الخطايا الأخرى فكانت ذات أهمية أقل". وجدت من جديد كل خطية من أخطائي على حدة. لكن، إذا كانت نفسي سوداء مثل الفحم، فسيجعلها يسوع

2- مت 38:26

3- لو 44:22



بيضاء مثل الثلج وسيساعدني أن أكون أفضل، كان هذا رائعًا بالنسبة لي!

سمعتُ أحيانًا أن من يذهب للاعتراف يمثل أمرًا رهيبًا بدرجة أو بأخرى بالنسبة لبعض الناس حيث "يكشف" الغطاء عما ارتكبوه من انتهاكات للوصايا قد تقود مباشرةً إلى الجحيم. ولا غرو إذن إنهم عندما يكبرون يطرحون عنهم هذا القيد جانبًا. إلا أن تعاليم "القديس ڤان سان دي بول" لا تحتوي على شيء من ذلك. والاعتراف بالنسبة لي كان تجربة لمحو آثامي ومناسبة لانطلاق أفراحي الروحية.

خلال هذا الجهاد ضد عيوبي، كانت الهزائم أحيانًا مؤلمة. كذلك ليلة الاحتفال بتذكار أول مناولة. وفي اليوم التالي، عند ارتدائي مرة ثانية للملابس البيضاء، كانت نفسي مضطربة لأخطائي، هل يمكنني حقيقةً أن أستقبل يسوع في قلبي؟ ماذا إذن، الكل ينتظرني، فأيُ خزي إذن، لو لم أسر مع الموكب! سأذهب إذن للمناولة. ظلت هذه اللحظة درسًا مهينًا لي. أعلم لحسن الحظ أن يسوع يشفق عليّ، لأنه يحبني. لقد أخطرنا القس: "نقع أحيانًا، ولكن ذلك ليس بالأمر الخطير إذا بدأنا نستند من جديد إلى يسوع".

بدأتْ خطة حياتي في التشكل. دخلت دون خبرة في هذا الصراع الجبار؛ رفض جسدي الأنثوي ، في محاولة لاكتساب الطبيعة الملائكية، وكان الفشل أكيدًا. وللأسف، لم أستطع البوح للحصول على بعض النصائح، كنت أُواجه صراعات طويلة أثناء الليل بشكل عنيف، ودون مخرج، ضد ذاتي وبصورة غاية في التعقيد بالشعور بالذنب. كان يلزمني سنوات من الخبرة في الطبيعة البشرية والوصول أخيرًا إلى تسجيل رغباتها وانتظار اختفائها بسلامٍ عند التركيز على نشاط الوقت الحاضر.

حدث آخر متعلق بمناولتي الأولى، وكان له عظيم الأثر في تغيير

مجرى حياتي. تلقت أختي "ماري- لو" كتابًا جميلاً كمكافأة، وهو ملحمة عن الخدام في أفريقيا ويحتوي على صور رائعة، أكثر غرابة من كتاب "أليس في بلاد العجائب"، رحلات ممتلئة بالفخاخ، حيوانات متوحشة، عبور أنهار عميقة، وتصل إلى متوحشين يقتلون البعض، يعذبون البعض الآخر، ويأكلون الباقين، ولكن الفقراء المتوحشين - الذين هم أكثر بؤسًا من كونهم أشرارًا - انتهى بهم المطاف ليهتدوا إلى المسيحية، وقد دخل حبُ المسيح إلى قلوبهم المتحجرة عن طريق المدارس التي أسسها الخدام التي امتلأت بالأطفال الطيبين الذين لم يأكلوا أحدًا قط! لعبت هذه الفكرة برأسي! وأخذت القرار؛ فعندما أكبر سوف أُسافر إلى أفريقيا لأُخدم المسيح ليحب الناس بعضهم البعض وليصبحوا سعداء. إذا قُتلت وقطعوني إلى قطع فليكن، كنت مستعدة لأؤكل. أعلنت بانتصار على المائدة: "سأصبح راهبة، خادمة وشهيدة!" تعالت الضحكات. وأكد "چولو" الصغير و"ماري- لو" أنهما سيجهزانني للشهادة، قائلين: "وفي انتظار ذلك، امسكي الأطباق واحمليها إلى المطبخ، واغسليها، ثم اذهبي إلى المخبز عند الناصية لشراء الخبز، وإذا قبضوا عليكِ، سيكون ذلك شيئًا جميلاً وسوف نقرصك فلا تغضبي، وسنجهزك حينئذ!"

آه! لكن لا! لا ينفع هذا، أريد متوحشين حقيقيين. صُدمت لأن أول تصريح لي قد أخفق، واتخذتُ القرار مع نفسي بعدم التحدث ثانيةً عن الاستشهاد. كان هذا أكثر القرارات تعقُلًا، ولكن ظلت الشعلة الصغيرة تشتعل في أعماق نفسي، ولم تنطفئ قط؛ فقراءة طفلة كانت ذات تأثير غريب على حياة امرأة!

وفي عام 1918م، بدأت سماع الحديث عن الهدنة دون فهم معنى هذه الكلمة وإسقاطاتها. لاحظت أننا لم نعد ننزل مرةً أخرى إلى القبو. فلم تعد جارتنا "برثا" الضخمة الجسم تجلجل مرة أخرى.إذ يبدو أننا



انتصرنا في الحرب، ومع ذلك لا يمكن ادعاء النصر في الحرب، علي الرغم من ملايين الجثث! شاركت في ذلك الوقت سعادة باريس الكبري بالنصر. قفزت من الفرح من فكرة رجوعنا إلى منزلنا الكبير في بروكسل!





أولى المعارك

بروكسيل، 1919م– 1926م

نعود من جديد إلى بلچيكا "مسقط رأسي"، التي تسعى إلى تضميد جراح وآلام الحرب. في الوقت الذي أحيت فيه والدتي عملية تصدير الملابس الداخلية تقيدت أنا بدراسة الآداب القديمة اليونانية واللاتينية لدى "سيدات مريم" وهن اللاتي أسّسن ببلچيكا هذا النوع من الدراسات للفتيات. وبما أنه لا يُتقن هذا النوع من الدراسات سوى الرجال فإن راهبات سيدات مريم قد اخترن أفضل الأساتذة البارعين في هذا المجال لتعليم الفتيات. وكان هذا هو المنفذ الوحيد الذي دخل منه الأساتذة الرجال دير سيدات مريم. فأنا أكن لهن دائمًا كل احترام وتقدير لكفاءة التعليم والأساتذة بالإضافة إلى تقديري واحترامي لوالدتي التي أعدت لي مستقبلاً باهرًا.

وساهمت اللغتان اللاتينية واليونانية بقوة في نموي الفكري، فلا يوجد في هذه الدراسات دور للذاكرة ولكن للذكاء والعمل.

وفجأة وجدت نفسي في مناخ آخر؛ فكان عليّ التنقيب في النص

- كلمة كلمة - ثم القيام بترجمة هذا النص إلى لغة أخرى بدقة شديدة، وساعد هذا التمرين في تدريبي على كيفية التفكير بموضوعية. انبهرت باكتشاف حياة هوميروس وبليوس فرجيليوس، فساعدني أستاذ "مازوان" أستاذ اللغة اللاتينية وأستاذ "فريزون" أستاذ اللغة اليونانية، على تذوق جمال اللغة ونُبْل أخلاق الأبطال الإغريق. بالإضافة إلى الشعور بسمو المشاعر، فهما لم يكونا ماهرين في مجالاتهما فحسب بل كانا أيضًا شغوفين بدراسة حياة القدماء. فبفضل مجهوداتهما أصبح أوليس، بينيلوب، هكتور، أندروماك، إنيه، وديدون أشخاصًا أحياء وننجذب إلى مصيرهم المأساوي.

وبفضل الجهود المبذولة - لاستيعاب خصائص وعبقرية اللغتين اليونانية واللاتينية - نمت قلوبنا وتفتحت أذهاننا في مناخ يسوده الجمال، ذلك المناخ اليوناني واللاتيني الذي ينمو فيه الإنسان للكفاح والنضال، فبدت الحياة وكأنها صراع. كان النصر ينتظر شخصًا قوي العضلات مثل أوليس، ليطلق السهام ويواجه الأعداء بمفرده دون أن يهاب كثرتهم. أصبحت ألعاب السيرك التي تتميز بقسوتها، يتخللها قصص إنسانية مثل الأسد الذي تهيأ لافتراس أندروكليس والذي توقف فجأة وتسمرت رجلاه حينما تذكر أن هذا الشخص الذي يريد افتراسه هو نفس الشخص الذي أخرج شوكة من رجله عندما كان في البرية.

أصبحت هذه النصوص التي انصبت عليها دراستنا موضوعًا لأحاديثنا. فكل واحدة تُدافع عن أبطالها المفضلين. فبالنسبة لي جذبتني قصة ديدون الحزينة التي ماتت بسبب حبها لإينيه، فقد حُكم عليها بالإعدام حرقًا، وماتت وهي تنظر نظرة الوداع الأخيرة تجاه السفينة التي تحمل إينيه حبيبها! وبالتأكيد فهو شيء عظيم أن يحب الإنسان، ولكن هل إينيه - هذا البطل العظيم القاسي الذي تركها بمفردها وحيدة





- يستحق أن تموت من أجله محترقة في النار؟ هذه الفكرة المتحكمة عن الموت مازالت تعاودني حتى الآن.

وتَكّون الفصل الخاص بالدراسات الأدبية القديمة من إثنتي عشرة فتاة مرحة وشجاعة، منعزلات عن العالم، عن عنفه وظلمه، لذلك فأنا أعتقد أننا كنا نتعامل ونفكر بطريقة "العقل السليم في الجسم السليم". فعند تحمل أيةً مسئولية تبدو كل فتاة منا كسيدة حكيمة هادئة مستعدة لمواجهة صراعات الحياة.

ويبدو لي أن هذه الدراسة والتعليم اللذان تلقيتهما من عائلتي يمثلان الوسيلة التي ساعدتني كي أسير بالفطرة تجاه كل ما هو صعب وجميل في آن واحد، وأن أدفع بمصيري إلى ما هو أعلى دائمًا، وذلك وفقًا للشعار الذي تبنيته أنا وصديقاتي ألا وهو: دائمًا إلى الأعلى. وساعدني هذا التكوين على فهم قيمة الإنسان، كما أنه كان يحثني دائمًا للعمل على تحرير الإنسان من قيوده.

ذات ليلة، كُنت أقوم بترجمة أول النصوص اللاتينية التي أقوم بدراستها فدخل أخي مسرعًا وقال لي:

- صرح لنا الأب الكاهن بإمكانية التناول من القربان المقدس كل يوم!

- مستحيل، في الأعياد السيدية فقط.

- مادلين، أتعلمين أكثر من البابا؟

- أي بابا؟

- البابا بيو العاشر، الذي سمح بالتناول من القربان المقدس كل يوم.

- حتى للأطفال الصغار؟

- نعم، حتى للصغار.

وقبل ذلك كان ينبغي الحصول على إذْن خاص - ونادرًا ما كان يمكن الحصول عليه - وذلك للتناول من القربان المقدس كثيرًا. وكان أثر هذا الخبر الجديد مرعبًا. فشعرت فجأة بانجذاب سري نحو يسوع المسيح في سر الإفخارستيا: "فقررت أنني سأتناول كل يوم بدءًا من الغد!..." وهذا القرار صادر من فتاة مراهقة، غير متزنة. والأمر الذي يصعب تصديقه، هو أنه منذ خريف عام 1920م، أصبح القداس الإلهي بالنسبة لي محور حياتي والمصدر اليومي لفرحي وقوتي وتعمقي في المحبة الإلهية. سواء كانت الكنيسة بعيدة أو قريبة، وقت عمل أو راحة، ليالي يشوبها التوتر أو السكون، فكل هذا لا يعنيني، فنادرة تلك الأيام التي لم أُلَبِّ فيها النداء، لا تتعدى الأربع أو الخمس مرات في السنة.

وفي هذه الأثناء كان عمري إثنتا عشر سنة، وأبلغ من العمر أربعة وثمانون عامًا عند إدلائي بهذه الاعترافات. فقد حصلت إذن من الرب يسوع على هذه القوة آلاف المرات، هذه القوة التي كانت تنتشلني من سقطاتي وتساعدني لأقوم مرة ثانية وتنير أيامي حتى اليوم.

هذا هو السؤال الذي كنت أطرحه دائمًا على نفسي: ما هو الشيء الذي يجعلني أركض كل صباح مُسرعة لأتناول من القربان المقدس منذ عدة سنوات ليست بقليلة؟ هل هو المسيح الحي الذي يناديني، أم هو نوع من الحماسة الروحية التي تتملكني؟ هل أصبحت هذه الحالة عادة مثل الأكل والشرب والنوم؟ ما سر هذه الوداعة التي تغمرني حينما أُفكر في سر الأفخارستيا الذي تناولته بالأمس وسأتناوله في الغد؟ فأنا أشعر بعلاقة حب وثيقة توطدت عبر السنين، إنني لا أستطيع وصف هذه العلاقة الحميمة. وهذه الحالة ليست حسية - فأنا كنت حذرة دائمًا من الحس الذي يمكن أن يندفع إلى ما هو فان - كما أنها ليست حالة فكرية، لكنها "حالة تتغلغل في أعماق الروح" وفقًا لوصف القديس فرانسوا دي



سال. انتابني صمت مقدس فقدتْ فيه كل الأشياء رونقها وتحول العنف إلى وداعة إلهية، وأعادني هذا الصمت إلى الفرح الحقيقي الذي يفوق كل سعادة يمنحها لي الرجال: فهذا هو الفرح والسلام المنبثق من مصدر أبدي.

لكن جسدي المراهق ظل متلهفًا "للحياة الأرضية". فكنت أشعر بأنني مرغمة على الاختيار بين متعة الوحدة أو متعة التواصل مع الآخرين، وهذا هو الصراع: هل سأستطيع تحمل الليل بمفردي، نعم أم لا؟ ففي بعض الأحيان كنت أتحمل العيش بمفردي وأحيانًا أخرى لا أستطيع. وفي هذه الحالة أستيقظ مبكرًا مُسرعة إلى الكنيسة لأعترف وأتناول من يد الأب الكاهن. وأحيانًا في نفس الليلة، كنت أضعف مرة أخرى! يا لها من صراعات، يا له من ضعف ووهن! ولكن رغم كل هذه الصعوبات كنت أشعر أن الله - الذي أعطى الحرية للإنسان - دائمًا مستعد أن يمنحني السلام مع كل صرخة أصرخها له. أشعر كأنه يتحدث معي ويقول لي: "مادلين، أيتها الفتاة البريئة التي تخاف من حروب الجسد، المشكلة ليست أن لكِ جسدًا، ولكن يجب ألا تكوني عبدة لهذا الجسد."

بدأت صراعات أخرى تعدو تجاهي. فلم أدرك أن ثمة مشاعر "حب" تستيقظ بداخلي تجاه أستاذ "فريزون" أستاذ اللغة اليونانية. ففي بعض الأحيان كنا نسير معًا عقب انتهاء اليوم الدراسي فكان يتحدث معي عن الفنون والآداب ويعطي لي كتبًا أقرأها ونتحدث عنها فيما بعد، ولكني كنت أظل شاردة الفكر أمام حديثه المشوِّق، وتبدو هذه الأحاديث نمطية لكن النار ظلت تشتعل.

اجتاحني يومًا الحماس؛ قررنا أنا وزملائي اختيار شعار لكل منا، ثلاث كلمات للكاردينال نيومان، بطل الإيمان، وكانت تعجبني: "الله وأنا."

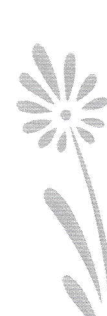
وكتبتها بافتخار على رأس تراجمي. ناداني السيد فريزون: "الآنسة سانكان، ما هذه النزوة الجديدة! الله وأنا؟" أجبت مشتعلة: "كيف؟ هل تجرؤ على تسمية هذا نزوة، إنه برنامج كامل للحياة!" نظر نحوي قائلاً: "وأنا، أين موضعي؟" تقلص وجهه. رمقته بنظرة مختنقة، هل يغار من الله!

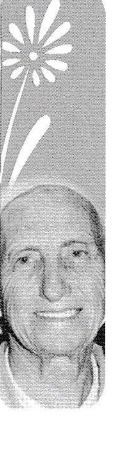
تقترب دراستنا من النهاية. فمنذ قرابة خمسة أو ستة أعوام، كان معلمونا على غرار سقراط، يستخرجون "الخير والجمال" المطمورين في داخلنا. قررنا إلقاء خطاب بليغ عرفانًا بالجميل بأسلوب ديموستين أو شيشيرون، ليس أقل! من الطبيعي، اخترت مدرسي الغيور لأوجه له خطابًا جميلاً منمقًا، ولأصرح له بمكانته في "قلوبنا". كان التأثر واضحًا عليه وطلب أن يأخذ ورقتي، فأعطيتها له بانتصار. قهقه زملائي قائلين:

ـ "هل جننتِ يا مادلين، لقد أعلنتِ له عن حبك!

ـ كلا، هذا خطأ."

ما هذه السذاجة! بصراحة، لم أكن أدري إلى أي مدى كان الحب يشتعل في قلبي! إذا ظهرت أيةً بادرة منه، ما كان لشيء أن ينقذني. أية غواية بالنسبة إليه، أن تعرض حبيبة ذات السادسة أو السابعة عشر ربيعًا نفسها عليه، وتُظهر استعدادًا لارتكاب كافة الحماقات... ومن ناحية أخرى، هناك زوجته المحترمة العاقلة. يبدو لي، وهو الشخص الجاد ذو الأربعين عامًا والذي يُدافع عن عائلته عندما يتحدث عنها أحيانا، يبدو أنه في صراع مع نفسه. وأخيرًا، حسم كل شيء وأنهاه. وعند انتهاء دراستنا، اجتمعنا مع مدرسينا القدماء. وفي يوم جميل، توقف عن المجيء. لقد كانت لديّ الجرأة لمطاردته، لكنه تماسك جيدًا، ولم أعد أراه من جديد. بعيد عن العين بعيد عن القلب! انطفأت شُعلتي الجميلة، وأعتقد شُعلته كذلك!





لو كنا في الوقت الحالي، حيث الفتيات أقل حذرًا، والأخلاق أقل صرامة، ربما كان كل منا في أحضان الآخر وبسهولة. أسمع بعض القارئات يقلن لي: "كلاكما أحمق، إذا كنتما متحابين لماذا ترفضان المتعة؟ أين الخطأ في ذلك؟" بالنسبة لي، لا خطأ في الحب. يتحدث الكتاب المقدس ببساطة في بداية الخليقة: "وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأةً وأحضرها إلى آدم. فقال آدم: «هذه عظم من عظامي ولحم من لحمي...»، «ويكونان جسدًا واحدًا. وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته، وهما لا يخجلان". (تك 2: 22–25) إن نص التكوين ليس متزمتًا!

أود أن أسرد أيضًا بعض السطور النادرة جدًا، والمبهمة أيضًا: "عن علاقة الرجل بالمرأة، هذا اللقاء القوي الذي يوقظ كل شيء، يبعث إلى الحياة كل ما هو قديم، والذي يفتح الطريق أمام قوى الحياة كي تعمل بشكل طبيعي، وهي هبة سليمة تستخدم في الوقت المناسب[4]". ومن المهم أن نسأل، لماذا رفض السيد فريزون هذا "اللقاء البالغ القوة" معي؟ لأن ذلك كان ـ بلا شك ـ سيحطم زوجته امرأة شبابه، أم أولاده. لكن أعتقد أيضًا أنه كان يحبني، ووفقًا لعبارة أخري لموريس بيليه: "هناك ما هو أعظم من الحب". رفض أن يستفيد من شعورغوايته تجاهي، لأن ذلك لن يؤدي إلى: "هبة صائبة في الوقت المناسب". لم يكن هناك داع لتحويل "قوة الحياة" التي كانت تسكن فينا عن "طريقها الطبيعي". بعد وقت طويل من انفعال مجنون وفرحة عارمة، كنت سأخرج من هذه المغامرة خافقة كالطير الذبيح، دون أن أرتوي، أجري بنَهم باحثة دائمًا عن حب أكثر التهابًا. وعلى النقيض، كنت في حاجة ـ أكثر من غيري ـ إلى أن أتلقن معايير الحب القويم، بما يضمن لذاتي المهتزة علاقة متوازنة تبني بيتًا وتنمو فيّ وتزدهر.

4- M. Bellet, L'Épreuve ou le tout petit livre de la divine douceur, Desclée de Brouwer, 1992.

عزيزي السيد فريزون، عند كافة المعارك المتمثلة في كل حبٍ، فضلت أن تتغلب على ذاتك لا أن تغزوني، لقد رفضت أن تُدنس الكأس المسكرة التي قدمتها لك، لقد تركتني أرحل، غير منتهكة نحو مصيري. أشكرك علي حبك لي: "هناك ما هو أعظم من الحب"!

خلال هذه الأعوام العاصفة، جاءتني نعمة أن ألتقي بصديقة لا مثيل لها، "ماري لويس مايو"، الوقورة جدًا بينما كنت أتصف بالمرح، كانت هي مهتمة بالعلم، فقد كنت أُفضل التسكع. ومما يثير الدهشة أننا كنا طرفي نقيض لكننا التقينا في نقطة واحدة؛ كل واحدة منا كانت تفكر أن تكرس نفسها لله، هي لدي سيدات مريم (اللائي طلبن منها إتمام دراستها الجامعية)، أما أنا الخاطئة الهوائية، فإلى إحدى الأنظمة الكرازية.

أنا ممتننة لها بالكثير؛ رائع ما تجلبه لك هذه الصداقة العميقة، كانت ماري لويس مصدر "سكينتي". كان مزاجها المعتدل يخفف قفزاتي الفجائية، وتقواها الصلبة مصدر توازني. كانت في قلوبنا نفس الجراح، فقد خضعت هي أيضًا لمأساة الموت، موت أمها. كنا نحب أن نتقاسم سويًا كل ما يتعلق بالموت والأبدية، البحث عن الوجود وعن هبات الذات، حوارات غريبة لفتيات صغيرات جدًا في السن، لكنها كانت تروي العطش الذي كان يتجاوزنا ويسكن في داخلنا. هذه المشاركة الوجدانية كانت ممتدة الجذور ولا تسقط أبدًا. وبعدما لعبت دورًا مهمًا عند سيدات مريم، أصبَحَت نصف كفيفة، وأرادت المجيء إلى القاهرة لزيارة جامعي القمامة. وقبل أن تموت طلبت إلى جماعتها أن توصي بميراثها إلى المدرسة التابعة لهم؛ شهادة أخيرة لوفائها وإخلاصها!

أردت أن أُسجل معها في جامعة لوفان؛ تلك الجامعة التي منذ القرون الوسطى احتفظت بروح عدوانية تجاه المرأة، منذ قصص الحب البائسة



لأبيلارد وتلميذته هيلويز. كان ينبغي عقد اجتماعات طويلة وشائكة بين أساتذة وسيدات مريم للموافقة على دخول جنس الغواية إلى قلعتهم التي يدافعون عنها بغيرة. لكن عارضتني أمي رسميًا: "لم أشاهدك تعملين أبدًا بجدية، تهتمين أكثر بالشوارب عن اهتمامك بالدروس!" شعرت باضطراب، وأن معها حق. قلت لنفسي أنه ليس من الضروري الحصول علي شهادة جامعية لأصبح راهبة ... وشهيدة، حيث لن أتخلى عن هذا! رأيت بوضوح أكثر، من هنا فقط، أن التكريس من أجل مثل أعلى، سيُمكِّنني من الوصول إلى تحقيق الفرح الكامل في نفسي.

تسببت "ماري- لو" ـ أختي الكبرى ـ في وقوع أحد مراقصيها في الحب من أول نظرة، في حفل تنكري حيث كانت ترتدي زي بائعة بنفسج. وتمكن من الحصول على إذْن من أمي للحاق بنا في رحلة إلى غابة كامبر. بدأت فجأة بعض قطرات المطر في الهطول، ففتحت "ماري- لو" مظلتها. "آنستي، هل يمكنني حملها لك؟" كيف يمكنكم السير تحت نفس المظلة دون أن تقتربا؟ أرى "ماري-لو" تنزل بخجل متأبطة ذراع فيليب، فهكذا إذن في الربع الأول من القرن يولد الحب، تحت مظلة. وصلت إلى أمي في أول مايو، سلة ممتلئة بزنبق الوادي، لم يستطع المتنهد إرسالها إلى من اختارها قلبه. تعطرت قاعة الاستقبال، وتشجع الفتى الشاب... في وقت الخطوبة فقط كان مسموحًا للعروسين أن يرى كل منهما الآخر على انفراد أحيانًا، في قاعة الاستقبال، كما أن الباب كان مفتوحًا!

جاء يوم الزواج، وها أنا خلف المأدُبة المخصصة، أرقص مختلجة من الفرح وأنا متعلقة بذراع محام شاب وأنيق. وسألني بحنو:

ـ"آنسة مادلين، هل أتممتِ دراستك؟

ـ نعم، سيدي.

ـ ألا تفكرين في الزواج؟"

أدرت وجهي الذي كسته حمرة الخجل. شهيدة المستقبل تبدلت فجأة بفتاة شابة مثيرة مع أول لقاء لها بفتى شاب. ولكن ابن خالتي ماريوس الذي ترك راقصته، مر من أمامي ورأى اضطرابي. "مادلين، هل ترقصين معي؟" جذبني بقوة وعزم، محذرًا بسنه الأربعيني، ومنشغلاً بتحرير قريبته ساذجة القلب والشعور، والمتأثرة بالمفاجأة.

هذا الحدث الصغير قد كشف لي الكثير. وصلتني بطاقات دعاوي الحفل الذهبية. وقالت لي أمي مبتسمة: "هذا دورك، مادلين، هل تريدين الذهاب؟" أدهشها رفضي، غير فاهمة. لكنني كنت أعلم أن عليّ إما أن آخذ الأمر أو أن أتركه، إما أن أظل مخلصة لنداء المسيح وأن أحفظ جسدي ونفسي متحررين، أو أن أذهب إلى الرقص، وستخطفني الدوامة سريعًا.

مفارقة أخرى حدثت لي أيضًا، فاستجابة لرغبتي، دفعت أحد أبواب المراقص، حيث كنت أعلم بوجود من يجذبني. بعض الأشخاص الذين كانوا يلتقون في أوقات الصباح (في المساء، كانت أمي بإمكانها أن تعلم، فلا يمكنني المخاطرة بذلك) كانوا رجالاً في سن معينة، على استعداد للاستيلاء عليك. كان هناك أحد من أمريكا الجنوبية يلح بشكل خاص... لكنني - أخجل من مغامرة مخجلة كهذه- كالعادة أنهيت الأمر بالهروب.

تلك المغامرات السيئة لقلب شاب مضطرب- وغيرها أيضًا لا جدوى من سردها- قد تظهر بوضوح اليوم "رومانسية ساذجة" وتدعو إلى الابتسام. يتلقى الآن الأولاد والبنات ثقافة إرشادية في هذا المجال، مما يجعلهم ـ بدون شك ـ أقل سذاجة في هذه الانفعالات. ولو كان لي أن أتحدث في مثل هذه الموضوعات ـ وهي من الموضوعات المثيرة للسخرية بأكثر مما تبدو ـ فذلك لأنها تطلق العنان ـ في دخيلة نفس لها طابعي





ومزاجي ـ إنه لضرب من الجنون الذي لا نعرف إلى أين يفضي بنا... وما من أحد يتكلم بعمق عن هذه الموضوعات إلا ويشعر جمهوره بأنها من "المحرمات".

هل أستسلم للتردد طويلاً من أقصى اتجاه إلى آخر؟ يجب الانتهاء إذن!

قررت الرحيل إلى أي دير لمحاولة البحث عن سلام النفس والجسد. أتحدث مع أمي عن ذلك، وكانت إجابتها قاطعة: "ليس بكِ شيء يجعل منكِ راهبة! لن تستطيعي البقاء في الدير أكثر من أسبوع. لا أُريدك أن تكوني مثارًا للسخرية عند رجوعك في الحال! انتظري عندما تبلغين سن الرشد، ستفعلين حينئذ ما تريدين."

كان هذا واضحًا، لم تكن أمي من نوع السيدات اللاتي يرجعن بسهولة عن قرارهن. كنت أبلغ التاسعة عشر وكان سن الرشد هو الواحد والعشرون. يا إلهي، هل سأستطيع الصمود سنتين أُخريين؟

ماري- لويس مايو، صديقتي المخلصة القوية، لم تكن موجودة لمساندتي؛ فقد دخلت إلى سيدات مريم حيث كانت تتابع دراستها الجامعية في لوفان. لكنني وجدت سندًا جديدًا في كنيسة القديس نيكولاوس، كنت أرى أحيانًا فتاة شقراء تحضر قداس الساعة السابعة صباحًا. خلال أعوام، كنت أحييها دون توجيه أية كلمة لها. كانت تبدو لي خجولة ومتزمتة بشدة، لم تكن من النوع الذي أُفضله، لكنني كنت أشعر أنني بحاجة إلى تكوين صديقة جادة من جديد. أعجبتني على الفور وذات يوم قلت لها: "منذ وقت طويل أرغب في التعرف عليكِ، لكنكِ تبدين جادة جدًا ـ ثم ابتسمتُ قائلة – تملأك "التقوى" التي لا أجرؤ عليها!" انفجرت ضاحكة. كم ننخدع بالمظاهر! "تعالي لنأخذ القهوة سويًا عندي

في الساعة الخامسة، إنها مفعمة بالحياة!" تسكن مادلين ستيفين في شارع ڤيرت، على بُعد ثلاث دقائق من منزلي في شارع باربان.

آه! يا أصدقائي، ما كل هذا المرح! مع إخوتها الأصغر منها كان يوجد دائمًا صداقة مرحة من نفس العمر. كنت بالنسبة لهم أختًا ثانية أكبر سنًا. ما هذه الصحبة البريئة! كنا نلتهم سويًا الفطائر اللذيذة المدهونة بالزبد، ولم تكن الضحكات تتوقف. وكان لويس إيفلي من بين هذه المجموعة. وكان يستعد لدخول المدرسة الإكليريكية مع أندريه، أحد أولاد ستيفين. سيصبح فيما بعد مؤلف كتاب من المتوقّع أن يُحدث أصداءً عالمية: "إنه أنت، هذا الرجل[5]". حياته فيما بعد ستكون ممتلئة بالمغامرات.

كان هذا الشباب المرح يتحاور أحيانًا حول موضوعات مثل الله، الكنيسة، الثقافة أو حول المشاكل الاجتماعية. مكوثي عند آل ستيفين كان يمثل بالنسبة لي أفضل ترياق لمشاعري الجياشة. "من يجد صديقًا وفيًا يجد كنزًا... .بلسمًا للحياة." آثرتني "ماري- لويز" بقلبها المتجه تلقائيًا نحو الحق، الخير والجمال. ومنحتني مادلين "بلسم الحياة"، حيث الأسرة المتماسكة، المنفتحة على العالم وحيث نستنشق عطر السعادة. من كان يدخل إليهم مهمومًا، يذهب دائمًا فرحًا. اكتسبت منهم صفة لا غنى عنها؛ ألا وهي الفكاهة التي تسمح بتحمل مآسي المسكونة دون أن نتحطم.

كانت ترغب صديقتي مادلين في الزواج، لكنها كانت ترفض الذهاب إلى الحفلات الراقصة. رقيقة وحساسة، تتردد في قبول العلاقات مع الغرباء. قررت أن أُنشئ من أجلها دروسًا في الرقص بين الأصدقاء، ندعو



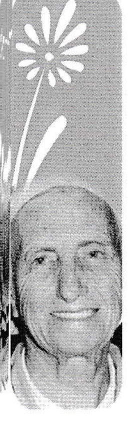
5-L. Évely, c'est toi, cet homme (1957), rééd. Desclée de Brouwer, 1996 .



بعضنا البعض. بالنسبة لي، كانت رأسي تدور بشكل أسرع قليلاً في الحفلات، في وسط الغزل. هذا ما كان يحدث بالضبط. كان هناك مناخ من الصداقة المرحة. من الطبيعي، أنني أحببت الرقص مع الفتيان الوسام، وكنت أصر على أسناني غاضبة في اليوم الذي تصلني فيه دعوات قليلة، ولكن هذا الشعور لم يذهب إلى أبعد من ذلك.

انتهت صديقتي مادلين بالعثور على زوج لها. كان هوائيًا، لكنها تمكنت من الاحتفاظ ببهجتها في المنزل من أجل أولادها.

وفي أحد الأيام، قالت لي أمي: "هل تريدين الذهاب إلى إنجلترا عند الأم فيديليس كي تتعلمي الإنجليزية؟" كانت ابنة خالة أبي، رئيسة مدرسة نوتردام دي سيون، في لندن. لم تكن أمي لترسلني إلى موضع آخر! جهزت متاعي مبتهجة. إلى الأمام، سأذهب إلى دير!





القرار

لندن 1927 م

أتاحت لي الإقامة في إنجلترا الحصول على فترة من السكينة بشرط أن أعرف كيف أستفيد من تلك الفترة بدون ارتكاب حماقات. سارت الأمور على ما يرام في بادئ الأمر. وما أعجبني - على وجه الخصوص - هو احتضان مدرسة سيون للأطفال الفقراء. كانت غرفتي داخل الركن الخاص بالراهبات. كان الجو هادئًا مما يساعد على التأمل. قادني تناغم القداسات في الكنيسة إلى أن أغوص في صلاة عميقة. كنت في غاية السعادة أعيش في سلام حتى أنني أخبرت الأم "فيدليس" عن رغبتي في أن أحيا حياة الرهبنة، وقلت لها:

- "لكني لا أزال غير قادرة على تحديد أية جماعة رهبانية سوف أنتمي إليها وأحتاج فقط نظامًا كارزًا...

- شأنك شأننا، ولكن عليكِ زيارة العديد من المؤسسات الرهبانية حتى يكون اختيارك حرًا".

وأعطتني العديد من العناوين لمؤسسات مختلفة، إلا أنني ظللت متحيرة.

وذات يوم دخلت أحد المطاعم وفوجئت بالنادلة تُجلس شخصًا على طاولتي وترفع باقة الزهور التي تحجب الرؤية بيني وبين ذلك الشخص بمهارة. وكان فرنسيًا، يا له من حظ! التفت إليّ وقال: "ياه! هل تعلمين أن الإنجليزيات غاية في الفتور، تختلفن كل الإختلاف عنا نحن الفرنسيين. يتم دعوتهن للذهاب إلى السينما أو لتناول العشاء أو... ويتهربن!" ثم نظر إليّ نظرة تخفي الكثير، ذلك يقنعني. في هذه المرة ستكون المغامرة سريعة، وأمي بعيدة. أجبته ضاحكة: "آه! الإنجليزيات! نحن نستطيع أن نفهم بعضنا البعض!" مضت المحادثة بيننا على هذا النحو، وبدت لي مشوِّقةً. ثم افترقنا بعد أن ودعته على أمل اللقاء ثانيةً، كنت مفتونة بحديثنا. وبوصولي إلى جو الدير ثانيةً تبدلت الأحوال. حكيت للأم "فيدليس" قصتي متجنبة، بالتأكيد، التفاصيل التي لا تفيد!

ولكنها سرعان ما تفهمت قائلة:

ـ"اسمعي يا مادلين، دعينا نتكلم بجدية، أنتِ سوف تقومين بزيارات لأديرة لتحديد اختيارك وفي الوقت ذاته تجلسين شخصًا غريبًا، أتفكرين في رؤيته ثانية؟

ـ وهل هذا ممنوع؟

ـ ليست هذه هي المشكلة، ولكن عليكِ أن تختاري: إما أن تتسلي مع الفتيان أو أن تستعدي للحياة الرهبانية.

ونظرتْ إليّ ضاحكة: "إنهما طريقان مختلفان تمامًا، هل أنت مقتنعة؟"

بالطبع كنت مقتنعة... نظريًا، ولكن عمليًا؟ وفي نهاية المطاف، لم أعد ثانيةً إلى المطعم. أما عن ذاك الفتى الفرنسي الساحر فبلا شك قد





هَوّن على نفسه الأمر بالبحث عن أية إنجليزية فاتنة.

وفي بضعة أشهر، أتقنت الإنجليزية وأصبحت أتحدثها بطلاقة وحان موعد عودتي لبروكسل فسألتني الأم فيدليس:

- "إذن، هل انتهيتِ يا مادلين من جولتك في الأديرة؟ هل اتخذتِ قراركِ؟"

- لا، ليس بعد.

- هل تريدين أن تتراجعي عن اختيارِك؟

- ...؟

- سوف تبتعدين لمدة ثلاثة أيام بعيدًا عن هنا حتى تشعري أنكِ حرة، وما عليكِ سوى أن تطلبي من الرب نورًا ليرشدكِ إلى دعوتكِ: ماذا سيفرحني أكثر هل الزواج أم الحياة الرهبانية؟ وعند اللزوم، في أية جماعة رهبانية؟

والأهم من ذلك كله ألا تتوتري وألاّ تُرغمي نفسكِ، لأن الله يريد سعادة الإنسان يا مادلين، وعلينا وعليك إيجادها. أنت تعلمين ما قاله القديس "بولس": "لأن المعطي المسرور يحبه الرب"[6]؛ أي الذي يعطي وهو مبتسم وفرحان بعطائه. صلي، ونحن سنصلي معك والرب يعطيك النور ويرشدك."

لم أكن واثقة ولكني وافقت بقطع بضعة الكيلومترات من لندن لأذهب عند راهبات المطهر، وحين وصلت وبدأت في فتح حقيبتي كانت الكارثة! الحقيبة لا تحتوي إلا على كُتب. يبدو أنني أثناء مغادرتي كنت مرتبكة فأخطأت وأخذت حقيبة خالية! بقيت في فقر مجردة من كل شيء. رأيت

6 - 2 كو: 9-7

في ذلك إشارة من الرب إلى أنه يجب أن يترك الإنسان كل شيء حتى يتجه إلى النور!

أعطاني الأب لورو - كل صباح دون تعليق - موضوعات التأمل طيلة اليوم. تابعت ببساطة خطوات المسيح: حياته وتعاليمه في الإنجيل، وكي أُعَمِّق موضوعات تأملي استرجعت موضوعات أول مناولة لي. آه! يا جثسيماني، قطرات الدماء تسقط على قلبي... تؤجج مشاعري. ومع أول اتصال، يسكن الجسد أما الروح فتنطلق.

في اليوم الثالث قال لي الأب، بدون تعليق كعادته: "احضري ورقة كبيرة واثنيها إلى جزءين؛ في الجانب الأول: ابحثي واكتبي الأسباب التي "مع" الزواج وتلك التي "مع" الحياة الرهبانية، وفي الجانب الآخر: الأسباب التي "ضد" الزواج و"ضد" الرهبنة، ولا تنسي أن الهدف من البحث هو نوال السلام والفرح، وأما أنا فسأصلي من أجلك." احتفظت بالورقة كثيرًا، ولكن لم ألبث أن كتبت بعض الكلمات وهذه بعضًا منها:



الهدف: سلام وفرح

I.الزواج

الأسباب "مع"

1ـ إشباع غرائزي بطريقة شرعية.

2ـ البحث عن المطلق لا يشبع الغرائز بل يثيرها.

3ـ سلام جسدي.

4ـ الفرح بإنجاب أطفال.

5ـ الزواج مبارك من الله، فهو سر مقدس.

الأسباب "ضد"

1ـ لا يشبع حاجتي للمطلق.

2ـ البحث عن المطلق قد يساعدني على تهدئة غرائزي بفضل الحياة الرهبانية.

3ـ سلام الجسد لا يعني سلام الروح.

4ـ دائرة مغلقة: والأطفال قد يشقون في هذه الدنيا.

5ـ حياة رهبانية مكرسة للآخرين وكذلك نوال بركة كبيرة.

II.الحياة الرهبانية

الأسباب "مع"

1ـ إنعدام الاتصال المباشر بكل ما يثير الغرائز. قراءات جادة وغذاء بسيط.

2ـ مساعدة يومية سواء عن طريق الصلاة، ممارسة الأسرار المقدسة، العيش في حياة تخلو من الإثارة.

3ـ مصدر عظيم للسلام: التضحية بالذات لإسعاد الآخرين خاصة الأطفال.

4ـ السيد المسيح قال: «أنا قد غلبت العالم». أنقذني الرب من كل حماقاتي ولا يزال ينقذني.

5ـ كل حياة هي عبارة عن مخاطرة وبخاصة فيما يتعلق بطبيعتي ولكن كم من امرأة متزوجة تضيق بجسدها وبروحها؟

الأسباب "ضد"

1ـ تثار الغرائز تلقائيًا حينما لا تجد ما يشبعها.

2ـ مساعدة غير كافية مقارنة بوجود زوج يخفف عني بالإضافة إلى أن كل الراهبات لسن أخوات. هناك البعض منهن حانقات وقد تتسبب حياة هادئة كهذه في إثارة غيظي.

3ـ مصدر السعادة الروحية غير قادر على تهدئة الجسد.

4ـ فكرة جيدة أثبتت جدارتها في الماضي ولكن في المستقبل ليس هناك دليل على نجاحها فالمخاطرة كبيرة.

5ـ في الدير حياة بلا مخرج فهي مجازفة قد تسبب اختناق الجسد والروح.

وازنت بين الأسباب التي "مع" والأسباب التي "ضد" وكان هذا قراري:

1. في الحالتين هناك مخاطرة، ومن ثم سأختار الحياة الرهبانية.

2. اخترت أن أبدأ حياتي الرهبانية في سيون، فتلك الجماعة تعجبني؛ فحياة الراهبات فيها مكرسة للفقراء ولتعليمهم، وخدمتهم مصحوبة بحياة الصلاة في جو أخوي مع الأخوات، وفي جو من السلام يسود الحياة في الدير. يبدو هذا متوافقًا مع مثلي الأعلى. وبمجرد الابتعاد عن إغراءات "العالم" يستطيع قلبي أن ينطلق بمنتهى الحرية في آفاق الفرح الذي مبعثه أنني كرست نفسي جسدًا وروحًا لله وللأطفال الأكثر حرمانًا.

بكل ثقة، وضعت نقطة النهاية على الورقة، فمن خلال القرار الذي اتخذته قد وجدت معنى لحياتي. سوف أصبح "أختًا صالحة"؛ أي نافعة للجميع. هيا، إلى الأمام!

إنني في حاجة لأختبر كي أؤمن. الأم فيدليس كانت على حق حينما قالت: "حين أمضي في الظلام، أرجع ممتلئة بالنور. وأنا، مادلين سانكان لم يعد لديّ أدنى شك أن اللهاث على الأرض خلف السعادة لن أجني منه سوى الفشل واليأس. ثمة شيطان في جسدي، أنا واثقة من ذلك، نحن لا نستطيع أن نغيِّر جلدنا، ولكن الرب يسوع قد غلب العالم وسيغلب نقائصي أنا أيضًا...

في الواقع، كان ذلك منذ أكثر من خمسة وسبعين عامًا مضت! ومن المؤكد أنه حينما كنت أقوم بتحديد اختياراتي، كنت أفعل ذلك بدراسة الأسباب "مع" والأسباب "ضد" والتي تبدو فيما بعد مقنعة بشكل أو بآخر. أردت بكل السبل الوصول إلى قرار قد يمنح نفسي السلام الدائم وسط نشاط روحي أبدي. كنت أبحث في الأصل عن اختيار حقيقي ينبثق





من داخلي، عن قرار له أسباب. لم أندم لحظة - طوال أيام حياتي - على قرار اتخذته بل أكثر من ذلك كان هذا القرار بمثابة أساس راسخ لحياتي بأكملها.

عدت إلى سيون، وكانت الأم فيدليس تنتظرني، جلستْ تنصت إليّ في صمت. يا له من احترام لحريتي! لقد جعلتها تعرف أنني اخترت ذلك عن قناعة، كان الأمر كذلك مع الأب ليرو. إن مجرد منحي الفرصة لأختار وحدي دون ضغط، دفعني ألا أعدل عن كلامي أبدًا. ابتسمت الأم فيدليس قائلة: "هناك فرصة لتحكمي على قوة أسباب قرارك. وصلني خطاب من والدتك تحدثني فيه عن وصول أحد طالبي يدك للزواج من باريس. تقول والدتك أنه يشتكي من طيش الفرنسيات وسمع عنكِ أنك فتاة جادة. سوف ترينه. قلت للتو: "جادة، همم؟ خيال الفتى الطيب يرسم له أوهام. يا إلهي أرجو ألا يكون فتى فاتنًا جذابًا: يجب أن أعيد قراءة ورقتي! انتظرني عبثًا طالب يدي، وعاد وحده من حيث أتى. وبالتأكيد قابل فتاة أحلامه؛ لأنه لم يظهر ثانيةً. كان ذهابه فرصة له... ولي أنا أيضًا!"

عبرت من جديد المانش على متن سفينة نقلتني إلى مدينة "دنكرك". وقفت أولاً مستندة إلى حافة السفينة، ولم ألبث أن جلست على سطح السفينة واضعة ساقًا فوق ساق، وأخذت أدخن سيجارة. لم يكن وضعي لائقًا حينئذ، دائمًا كانت أمي تنهاني عنه... لعلي لذاك السبب أجد متعة شديدة؛ كوني أبرهن لنفسي على ممارستي لحريتي حتى وإن كان كل نفس من تلك السيجارة يزيد من صداعي النصفي!

ذلك المظهر لإنسانة متحررة كان لابد وأن يلفت نظر فتى وسيم (في كل الأحوال، أتذكر أنه كان وسيمًا). جلس بجانبي مقلدًا وضعي وأخذ يتبادل معي أطراف الحديث. فسارعت بالرد عليه:

ـ"هل تدخنين يا آنستي؟

ـ كما ترى، يا سيدي.

ـ وإلى أين تتجهين، يا آنستي؟

ـ إلى الدير، يا سيدي.

ـ بتلك العيون، يا آنستي؟

ـ لن أتركهم خارجًا، يا سيدي.

ـ أنا متجه إلى برلين، يا آنستي.

ـ هذا أفضل لك، يا سيدي.

ـ ألا تودين الذهاب معي، يا آنستي.

ـ وهل تود حضرتك أيضًا أن تذهب معي إلى الدير، يا سيدي؟

ـ بالطبع لا، يا آنستي.

ـ إذن، فلن نلتقي أبدًا سيدي.

الحقيقة هي أن خالتي كانت تنتظرني على رصيف الميناء... وذهب ذلك الفتى الأشقر وحده إلى برلين!



المعركة الكبرى

بروكسل، 1928م

سارت الحياة في بروكسل: في الصباح دروس التفصيل حسب رغبة أمي التي كانت تريدني أن أتعلم كيف أُفصِّل ملابسي، وفي المساء أذهب إلى مركز سان- لويس لتلقي محاضرات في الفلسفة واللاهوت. كما قمت أيضًا في هذا الشتاء بتنظيم أمسية مسرحية حملت عنوان "البشارة لمريم" من تأليف كلوديل.

في وسط هذه الأنشطة المتنوعة لم يضعف قراري الذي اتخذته في لندن. وكنت أعلم حاجتي الشديدة إلى مرشد روحي، وقد كان اختياري للأب ريكمانز، أستاذ مادة الميتافيزيقا الذي أقدره. ذهبت لرؤيته. فهو أب حنون يستمع دومًا إليّ ولقصصي المجنونة، بما في ذلك رغبتي عن حياة الرهبنة والالتحاق بالدير. لقد طلبت منه مرارًا أن يقنع أمي بأن تتركني أذهب للدير قبل وصولي لسن الرشد. انتفض مذهولاً:

- "هل أنتِ جادة، يا آنسة سانكان؟

- كل الجد، يا أبي.

- هل حقًا تريدين نصيحة؟

ـ لقد جئت لهذا.

ـ تزوجي، بأسرع ما يمكن

ـ لن يحدث هذا إطلاقًا. فأنا قد نذرت نفسي للرهبنة!"

وكان هذا الحوار حوارًا للطرشان.

في الحقيقة، إن حالة الهدوء التي كنت عليها في لندن لم تدم طويلاً. فقد أعقب ذلك اضطراب، استثارة، اعتراف، ثم عدت للتناول من جديد. وذات مساء أحسست أن السيل قد بلغ الزُبى، فقد كنت مضطربة. لابد من مغامرة. كانت الساعة الثامنة إلا ربعًا. وقبل الخروج لحضور محاضرات الميتافيزيقا ذهبت لأقَبِّل أمي. وكانت نائمة من التعب على غير عادتها، ولكنها كانت كعادتها كل مساء، تحمل بين أصابعها سبحتها التي كانت تُسبح على حباتها قبل أن تخلد للنوم. فهمست أمي بصوت:

ـ "هل معكِ المفتاح؟

ـ نعم، يا أمي.

ـ تصبحين على خير، يا حبيبتي، لا تتأخري."

قبّلتها ثم تسللت مسرعة إلى الخارج. بحثت عن شارع مظلم وأنا أجر قدمي. اقترب مني رجل تفحصني وأمسك بذراعي، مشينا جنبًا إلى جنب. الحمى التي كانت تتملكني تلاشت لا أدري لماذا. فجأة سَرَت برودة في كياني. بالكاد كنت أرد عليه، اندهش وسألني: "تبدين فتاة جادة، فماذا تفعلين هنا؟" يجب أن أخترع شيئًا: "هجرني خطيبي." توقف للحظة: "يا صغيرتي، المخطوبون كثيرًا ما يتشاجرون ثم يتصالحون، اذهبي ولا ترتكبي حماقة!" تركني وبصوت أبوي همس لي: "يا طفلتي عودي إلى بيتك."





هل هي صلوات أمي الخافتة على السبحة هي التي وقفت سدًا منيعًا بيني وبين هذا الرجل، وجعلته فجأة يغمغم لي: "يا طفلتي عودي إلى بيتك"؟ لا تضحكوا مني لكني أؤمن بقوة صلوات الأمهات، وأنها دائمًا مقبولة أمام الله بطريقة أو بأخرى. لن أحكي قصتي لمرشدي الروحي. كان مرعوبًا وهو يحدق فيّ:

ـ "آنسة سانكان، لقد فقدتِ عقلك.هذا الرجل الذي تركك لا يوجد حتى بنسبة واحد بالمائة على كوكبنا. أنتِ تندفعين مباشرة نحو الدعارة وتجرؤين على أن تتحدثي معي عن حياة الرهبنة؟

ـ طبعًا أتحدث معك عن حياة الرهبنة، وها أنت تكمم فمي.

ـ آنسة سانكان، هل تفهمين ما تقولين؟ هل تعين ما تفعلين؟ إن نذر الرهبنة معناه أن ترتبطي بالحياة في الدير!

ـ بالضبط هذا ما أريده، أن ألتزم بحياة الفقر، بحياة العفة، وبحياة الطاعة. هذا ما يجب عليّ أن ألتزم به!"

اغتاظ ورماني بنظرة حادة:

ـ الفقر؟ إن السيدة والدتك أخبرتني أن نقودك لم تكف أبدًا ما تنفقينه على أدوات الزينة.

ـ بالضبط يا سيدي الأب، ففي الدير لن يكون لديّ سوى ثوب واحد وهو يستمر عشرات السنين فلا حاجة للنقود!"

كست أساريره سيماء الاستهجان:

ـ "والطهارة، أتسمعين ا ل ط ه ا ر ة؟

ـ ليست هناك مشكلة! فليس هناك رجال في الدير، ماذا تريدني أن أفعل؟"

و أُسقط في يده، ولكن غيظه تصاعد، ثم واصل:

ـ "والطاعة؟ أنتِ لا تطيعين أحدًا، يا آنسة سانكان والدليل أنكِ اخترتني مرشدًا روحيًا ولا تسمعين كلامي. في الدير هناك كلمة صغيرة ليست في قاموسك، يا آنسة سانكان، هي "نعم"... أتسمعين؟ "نعم".

ـ لكنك لا تفهمني يا سيدي، لأني لهذا السبب أريد أن أدخل الدير فإن ذاتي لم تعد تعجبني. لم تعد قادرة على إدارة شئون حياتي، أريد من يضع لي القواعد ويلزمني بها حتى أكون مضطرة أن أقول "نعم...حاضر".

ـ بالضبط خذي لكِ زوجًا وسوف يمسك هو بزمامك وبمقاليد أمورك. هذا ما أراه!"

بدأت أستشيط غضبًا شيئًا فشيئًا: "لا أريد لرجل أن يمسك بزمامي، فلا حق له في ذلك، أنا إنسانة حرة وأريد أن أظل حرة!"

بدأنا ـ الأب وأنا ـ نفقد أعصابنا. فلم يعد يستطيع أن يواجه اعتراضي الذي يصعب إخضاعه للمنطق. "آنسة سانكان، إننا لن نتوصل لشيء. أخيرًا، لماذا أتيت إليّ، لقد سبق وأن سألتك؟"

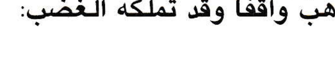
بدأت أضغط على كل حرف من حروف كلماتي:

ـ "لكي تقول لأمي أن تتركني أذهب إلى الدير. هذا كل ما في الأمر.

ـ أقول هذا كلا. سوف تكونين حمقاء ومعكِ كل الدير الذي يقبلك راهبة فيه!

ـ إذن فأنت تدفعني إلى الدعارة هذا ما قلت. وستكون مسئولاً عن ذلك أمام الله وأمام الناس."

هبّ واقفًا وقد تملكه الغضب:





- "لننفصل، يا آنسة سانكان، كيف تجرؤين على قول هذا لي؟

- هذه هي الحقيقة المجردة.

أخرجت منديلي وبدأت أنتحب: "أنا ضائعة وأنت لا تريد إنقاذي!" الأب المسكين لم يعد يدري إلى أي قديس يلجأ أو لأي قديس... يوكل أمري! قلت له: "سيدي الأب أتوسل إليك أن تزورنا غدًا على الغداء في بيتنا. وأن تقول لأمي: "اتركي الصغيرة ترحل إلى الدير وإذا عادت عندئذ فلتتزوج."" وأضفت وسط دموعي: "نعم أُقسم لك إنني إذا عدت من الدير فسوف أذهب إلى حفلة رقص وسوف آخذ أول من يتقدم لي أو الثاني... وينتهي الأمر عندئذ بأن أتزوج."

اهتز الأب، فالدموع سلاح نعرفه نحن النساء، وقال: "لا تبكي، يا آنستي، سوف أذهب غدًا للقاء السيدة والدتك."

وجاء إلى بيتنا واستسلمت والدتي.

أخيرًا، قُضي الأمر! ليس هناك وقت لأُضيعه. سارعت بالكتابة إلى الأم فيدليس لكي يُسمح بقبولي راهبة تحت الاختبار في مقر الدير في باريس. وأسرعت أمي من جانبها بإرسال رسالة إلى رئيسة الدير تشرح فيها أن ابنتها تفتقر إلى الصفات الضرورية للحياة الرهبانية. فمن الحكمة اختبارها قبل قبولها!

لنتوقف هنا لحظة. فهل أنا لا أتحلى بأي من الصفات المطلوبة لمن تريد أن تصير راهبة، كما أكدت أمي؟ لقد كانوا صارمين عام 1929م: أخلاقيات بلا لوم، روح الانضباط، الطاعة، تقوي مشهود لها، أدب، تواضع بدون ظل من الغطرسة والخيلاء، إخلاص، وتفان عند كل تجربة... وأنا في العشرين، هل كنت على نقيض كل تلك الفضائل؟

ها نحن وصلنا إلى قلب السر. كلمة Vocare اللاتينية تُعني "النداء". و"الدعوة" هي الشعور بأن المرء مدعو للقيام بشيء يتجاوز قدراته، وهي تخرج منه قدرات هائلة وتمنحه قوة لا يتوقعها أحد... وهي الانجذاب للغز سري غامض نحو ما يبدو للآخرين بعيدًا عن ومجردًا من المصلحة. وهو ما يبدو للآخرين ضربًا من الجنون، لكنك تسير إليه مبهورًا مسلوب الإرادة.

ولكن فعل التكريس أو نذر الرهبنة هو بالطبع نذر يقدم لله الذي عليه أتكل. كنت أقول لنفسي: "إنني عندما كنت طفلة، حين كنت أقفز إلى ذراعي أبي فإنه لم يدعني أسقط أبدًا؛ أليس الله هو "أبونا الذي في السموات"؟"

أبحرت وحدي بلا أمتعة؛ استجابة لنداء مزدوج وحب مزدوج؛ هو حبي للمسيح الذي التقيت به في أول مناولة، الذي مات وقام، وحب الإرساليات البعيدة لخدمة الفقراء التي تجذبني إليها أكثر فأكثر. لا تخافي يا مادلين ولتتقدمي! ففي كل الأحوال فإن المسيح هو الشخص الوحيد الذي لن يخدعك أبدًا ولن يخذلك أبدًا.





أخيرًا حرة!

باريس 1929م–1931م

قرعت باب منزل جماعة أمهات نوتردام دي سيون الرهبانية، 61 شارع نوتردام دي شان، في باريس. انفتح باب الدخول الضخم.

ـ "أنا الآنسة سانكان وأريد الدخول إلى مكان الراهبات المستجدات.

ـ إنهن ينتظرنك".

وقادوني إلى الأم الرئيسة قسطنطينا، رئيسة الدير التي كانت في الأربعينات من عمرها، وكانت ممتلئة الجسم قليلاً، ذات ابتسامة مشجعة، تبدو جادة، وقالت:

ـ"تلقينا خطابًا من الأم فيدليس، أتريدين حقًا الانضمام إلى الراهبات تحت الاختبار؟

ـ نعم، لقد جئت من أجل ذلك. هل سأدخل غدًا؟"

فابتسمت ـ وكان هناك أيضًا خطاب والدتي! ـ وقالت: "سنختبرك أولاً. غرفتك بجوار الفتيات الشابات والراهبات المتقدمات الساكنات هنا.

أعددت لكِ النظام الخاص بكِ". وأعطتني ورقة: "ستتبعين مهام التراتيل في القداس مع المستجدات، ستقومين بأعمال النظافة، والحراسة في الداخل وفي الرواق. لكن ليس مسموحًا لك بالخروج أوالنزهة في باريس، أليس كذلك؟ فصرخت بحماس: "آه! كلا، كذلك، لم أُخبر أيضًا عماتي بوجودي هنا".

الاستيقاظ في الساعة الخامسة. في الخامسة والنصف: تأمل، ثم قانونك الرهباني، وبعد ذلك قداس مع الجماعة حيث أكون هناك مع الملائكة! أُطبق نظامي نقطةً بنقطة. أما في غرفة الطعام، فأنا مُهَرِّجة الشباب، وتتوالي الضحكات المجنونة. لاحظت فيما بعد أن الأخت الخادمة وضعت المنشفة الخاصة بي بجوار الراهبات، وأشرح لهم ـ وأنا دائمة الضحك ـ أننا نأكل أسلافنا من جذورهم. ونجح أيضًا الصخب في كسب الراهبات الأكبر سنًا!

عند ذلك، رأيت وصول فتاتين مرتديتين ثيابًا متواضعة وتأكلان بهدوء. فتعرفت عليهما:

ـ "جئنا من روما للانضمام إلى المستجدات تحت الاختبار.

ـ آه! وأنا كذلك، سوف نكون سويًا".

كانت الأخت المكلفة بالملابس تنتظرهن لرفع مقاييسهن. فجريت إلى الأم قسطنطينا قائلة: "ماذا يحدث؟ لماذا لا تجهزون ثوبي؟" فردّت عليّ بحرج: "مادلين لم يتم قبولك بعد، أنتِ مزاجية قليلاً، أتفهمين؟ مصيرك سيتم تقريره غدًا، مع أمهات المجلس".

الأم ماري ألفونس، المشرفة على الراهبات المختبرات، أخذت حذرها بلا شك من خطاب أمي، وأبلغت التعليمات للأم الخادمة: "طالبة الرهبنة





المستجدة؟ إنها تحرض حتى الراهبات المتقدمات". لا يوجد حاجة لشخص مجنون يُثير الاضطراب بين المختبرات!

دعتني الأم جونزالي، الرئيسة العامة، وهي راهبة ذات هيبة، أنصتت إليّ باهتمام، وقد أُعجبت بمرحي، لكنها لاحظت عزمي أيضًا. انعقد المجلس، وبالرغم من التصويت السلبي من قِبل رئيسة المستجدات، فقد تم قبولي للاختبار. وقد أولى الاهتمام لخطاب الأم فيدليس الرئيسة الشابة في الجماعة الرهبانية، أكثر من خطاب أمي.

اخترت بالفعل اسمي من الإنجيل، المذكور في إنجيل متى، عندما يذكر النبي إشعياء في الترجمة السبعينية، وكنبوءة عن التجسد الإعجازي للمسيح: "ستلد العذراء طفلاً وسيدعى عمانوئيل، وتفسيره الله معنا [7]." وتنطبق تلك العبارة على المعنى العميق لدعوتي: وهي اتحاد التقليد اليهودي القديم برسالة المسيح الجديدة، أن أكون جسرًا بين إسرائيل والكنيسة، حيث جميع البشر، بغض النظر عن جنسيتهم، حيث يمكنهم الالتقاء. هل يجب عليّ أيضًا الخروج من مادلين سريعة الاضطراب إلى إيمانويل حاملة اسمه في قلبي "الله معنا"[8]؟

اليوم، الخامس من مايو 1929م، الساعة الخامسة مساءً. انسلخت من الملابس المبرقشة التي للفتاة المهذارة، لكي أستتر بثوب أسود وطرحة سوداء بلا زينة. سوف أحاول أن أصف لنفسي أين سأصل؟ فيضان من الفرحة غمرني فجأة لدى شعوري بأنني تحررت. في هذه اللحظة بالتحديد لم أعد أشعر كما كان الأمر فيما سبق؛ بأنني ابنة حواء التي يمثل لها

7- مت 23:1.

8- فيما بعد، تلقيت صورة جدي لأمي، وقرأت عليها من الخلف، بدهشة، عمانوئيل مويس دريفوس، 1820-1901. اتخذت اسمه من جديد دون أن أعلم! فمن خلاله ومن خلال أسلافي، أصبحت أيضًا أكثر قربًا من عمانوئيل الإنجيلي!

الجمال الجسدي القيمة الأساسية: بريق العينين، شكل الشفتين، تورد الوجنتين، نعومة البشرة، لمعة الشعر، جمال الصدر، ودقة الساقين... لم أعد أسيرة الرغبة المتفردة في البحث عن إعجاب الآخرين؛ إعجاب الذكور، ويكفي هذا. طالما ضايقتني تلك الرغبة لكنني تخلصت منها فيما بعد! لقد تخلصت من الأنثى الأبدية، التي دائمًا تعرض نفسها على الآخرين ولا تعرف الشبع. أفلتت روحي من الجسد المستعد دائمًا لأن يصبح محبوبًا مملوكًا ومحبًا متملكًا . لقد شعرت فجأة أنني حرة، حرة جسدًا وقلبًا وإرادة. لم أعد "مادلين سانكان" لكن "الأخت إيمانويل" أخت الجميع: رجالاً ونساء! التناقض هنا في فعل التحرر المنتصر - إن جاز لي القول - بينما حريتي لم تتركني أبدًا. التناقض إنني كنت حرة... ولم أكن كذلك... سوف أشرح ذلك؛ فقد "أصبحت الأخت إيمانويل الحرة" التي لم تعد عبدة للرغبة، لكن تحرري هذا لا يعني أنني قد غيّرت جلدي وانسلخت عنه، فمازلت الفتاة الأنثى ابنة حواء. هذه الفتاة التي تتحد فيها مادلين مع إيمانويل، تريد في أعماقها أن تختفي مادلين اختفاءً لا رجعة فيه، اختفاءً إعجازيًا، لكي تتوحد إيمانويل مع المسيح؛ تتحد قوته في ضعفها وسوف تنجذب إليه منذ هذه اللحظة وحتى "الأبدية" بفعل نفحة من "الحب الأسمى". ستتضاءل الشكوك والأزمات التي تقتحم عليها حياتها وسوف تصبح أمورًا سطحية تافهة لا وزن لها: تطفو من آن لآخر فوق السطح، سطح العقبات التي تقف في طريقي. أضع يدي في يد المسيح المُحب، اليد التي تُعطي - فيما وراء شهوات الجسد - لكل واحد وواحدة عطية مجانية من الحب المشرق بالرجاء والأمل. مجدًا لله. تهللي يا إيمانويل! لا تخافي، اسرعي في طريقك، فالراهبات المستجدات في انتظارك!

قادتني الأم ماري-الفونس التي استقبلتني بترحاب رغم كل شيء،



فتقدمت في وسط صفين من الراهبات اللائي تحت الاختبار، بتراتيل المزامير: "فرحت بالقائلين لي إلى بيت الرب نذهب."[9] قَبّلتني كل راهبة، مبتسمة وفرحة. بداية جيدة!

جلس الجميع على كراسي صغيرة بجوار رئيسة المختبرات. تحدثنا عن الكتاب المقدس، لم نستطع قراءته بالكامل، ولكن قطع منه فقط. في ذلك العهد - في الكنائس الكاثوليكية - كان مصرحًا للقساوسة، وبعض العلمانيين، والمكونين تكوينًا خاصًا، قراءة النص الكامل. وبدون تفكير، تمردت: "لكن لا، يا أمي، في بروكسل، كان لدينا الكتاب المقدس بأكمله لدراستنا!" فأجابتني بلهجة جافة: "بأي تصريح يا أختي الصغيرة؟" أجبت بثقة من نفسي: "بتشجيع من الكاردينال ڤان روي، كبير أساقفة مالين." صمت يشوبه القلق من الحاضرين... رمقتني بنظرة محتقنة حادة: "نحن لسنا هنا في مالين، إننا هنا لا نخالف رئيسة الراهبات". وانتهت فترة الاستراحة في جو يجثم عليه البرود.

دعتني الأم ماري-ألفونس في مكتبها وجعلتني أركع على ركبتي. اعترفت لي - فيما بعد - إنها أرادت أن تفقدني على الفور حماستي للحياة الرهبانية: بالنسبة لي، كان من الأفضل الرحيل؛ وفقًا لأمي التي معها حق. سألتني بقسوة: "وصلتِ توًا، وتجرؤين على مخالفتي، وفي وسط الراهبات!" نظرت إليها وأجبت:

- "لست أنا، بل الكاردينال ڤان روي!

- لا يقرر الكاردينال ڤان روي أي شيء هنا، ألم تفهمي هذا بعد؟ إنك لستِ سوى مغرورة، ومستعدة لنشر التمرد في وسط الراهبات المستجدات!

---

9 - مز 122: 1

ـ لكن أيتها الأم، أنا...

ـ اصمتي واخفضي عينيك. اذهبي إلى الكنيسة واتبعي مراحل درب الصليب، وقبّلي الأرض عند كل مرحلة قائلة: "أنا صفر، لست شيئًا، مغرورة، سامحني يا رب"، هل فهمتِ؟ اختبار الراهبات هي فترة صعبة، الكل حر في البقاء أو الرحيل."

ذهبت إلى الكنيسة الصغيرة ورددت لنفسي: "أنا حرة، إذن سوف أبقى. تماسكي جيدًا، هذا أول توبيخ عنيف". تأملت طويلاً كل لوحة وقلت: يسوع بريء، أدانوه حتى الموت، مصلوب. حبيبي الغالي، لست سوى مغرورة، غير مُحبّة، غيّرني يا الله!

في اليوم التالي، دعتني الأم ماري-الفونس، متوقعة أن أطلب رحيلي. ركعت على ركبتي وخفضت عينيّ.

ـ "إذن، كيف حالك؟

ـ آه، على ما يرام."

فأجابتني بدهشة:

ـ "ارفعي عينيك إذن لمحادثتي. ماذا فعلتِ؟ وفيما فكرتِ؟

ـ سرت في درب الصليب وفكرت: صحيح، أنا مغرورة، وهذا أول توبيخ عنيف. لقد جئت إلى مكان المختبِرات لأُصلح من ذاتي. لننتظر التالي.

ـ هل لديكِ فعلاً النية في البقاء؟

ـ "لقد جئت من أجل هذا!"

أصبحت نظرتها أكثر رقة: "حسنًا، سوف نرى. أطلب منك الكتابة كل



يوم، بصراحة عما تفكرين فيه."

بدأ الحوار بشكل سيء، ولكن عندما بدأت تفهم استعدادي للاندماج في حياة الرهبنة، شجعتني. فهمت أنا أيضًا، إنني معها سأتقدم بأقدام راسخة نحو المطانية، رجوع المخلوق إلى الله. اعترفت لها بماضيّ دون إغفال أي شيء. فأجابتني ببساطة: "كم أحبك الله! يجب أن تكوني أداته للحب. أنصحك بعمل اعتراف كامل، ومع التناول سيمحو الله ماضيكِ. سينسى الله كل شيء، إن جاز التعبير، وأنتِ أيضًا عندما تعود إليكِ الذكريات، ستسقطينها بهدوء، دون أن تدعيها تسبب لكِ اضطرابًا. تشجعي إيمانويل، الله معك."

اتبعت بصرامة رأيها، وما ترتب على ذلك، كان خيرًا وفيرًا. كان لديّ انطباع أنني غيرت جلدي! وكما سبق، صور الماضي كانت تهاجمني أحيانًا بعنف. فقالت لي الأم ماري-ألفونس من جديد مبتسمة:

- "الكلب الموثوق لا يعض، إيمانويل! دعي اضطراباتك تعوي. لكن حذاري! إذ شَعُرتِ باختناق، وإنك مقيدة، سيكون هذا دليلاً على أن أب اعترافك كان على حق، فتزوجي إذن!

- آه! كلا، يأتي القلق مع الذكريات، لكن حسب نصيحتك، أُحاول ألا أُبالي. فهو يدخل ويخرج، سريعًا، أعود إلى مسيرتي مرتلة!"

لماذا أحب هذه الحياة في مكان المختبرات؟ حقًا، فقدت حرية الذهاب والمجيء، والرقص والجري من مغامرة إلى أخرى. لكن قبل مجيئي إلى الدير، عشت في جو من عدم الرضا الدائم، أما الآن فالصلاة تعيش في داخلي، تُفرح جسدي ونفسي وقلبي معًا، تشع على أيامي الرتيبة.

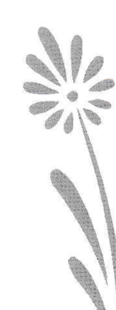
في الساعة الخامسة، دوى جرس في عنبر النوم، وصوت يعلو:

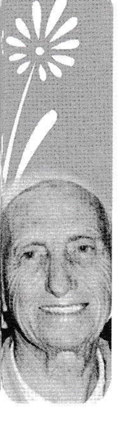
"ارفعوا قلوبكم!" قفزت من السرير مجيبة: "هي عند الرب!" أعلم إلى أين أتجه.

في الخامسة والنصف، على ركبتي في الكنيسة، أرتشف بهدوء من نبع الحياة. أتلقى سر الإفخارستيا - بدون اضطراب الآن - مع من أُحب. يحيط الهدوء بكل شيء، ويسمح - حتى عندما استعمل المقشة - بمخاطبة السيد الرب. وفي وقت القراءات الروحية، أترك ذاتي تحترق من حمم اعترافات القديس أغسطينوس (كنا نتفاهم جيدًا، سويًا نحن الإثنان): "جمال أزلي ومتجدد دائمًا، أحببتك في وقت متأخر جدًا!" أذهب بعد ذلك - خالية من الهموم - لأُحضر موائد قاعة الطعام مفكرة في السماء.

إلا أنه خلال محاضرات الأم ماري-ألفونس، تعرف كيف تقود مرة أخرى المختبرات إلى الحقائق الأرضية: "إذا كنتم قد جئتم إلى الدير ليكون لكم حياة صغيرة جيدة، وفي منأى عن صعوبات العالم، أنصحكم بالرحيل، وفي أقرب وقت. ومثلما يحدث للجميع على هذه الأرض، تنتظركن تجارب. إن اختبارات حياة الرهبنة تأتي أولاً من عذرية الجسد والقلب، فيبحث المخلوق عادة عن حب حسي يُشبع به جسده وروحه. إن دعوة العفة التى تستعدون للنطق بها تبدو في وقت ما ليس لها فائدة، لكن ثمار الحب خصبة جدًا. وعندما تعشن حبًا أكبر تجاه الله والبشر، سينفجر في داخلكن نبع من الحياة. ستمنحن هبة ثمينة يتعطش كل إنسان على الأرض إليها، وهي: الحنان ومجانية الحب".

كل شيء متاح في مجانية الحب. أصبح المثل الأعلى الذي أشعلته الأم ماري ألفونس في صباح تكريس رهبنتي، هو شعلتي التي لم تنطفيء قط طوال حياتي. أكتب تلك السطور الآن في عشتي، في قلب





حي الزبالين، في مساء تحديد مصيري، عندئذ سأستطيع منح الدفء إلى إخوتي وأخواتي الزبالين.

"فيما يتعلق بدعوة الطاعة ـ أردفت الأم ماري-الفونس ـ يبدو أنها تغزو إحدى أثمن الممتلكات، وهي الحرية. لكن ما هي التجربة الأكثر شيوعًا في العالم؟ أن نكون معيارًا لأنفسنا، نقرر بأنفسنا الخير والشر. تبدو وصايا الله عائقًا غير محتمل، ونقصد أنه يجب تحطيمها في أقرب وقت. بينما، كما قال المسيح، يتلخص هذا في عبارة بسيطة: "أحبوا بعضكم بعضًا كما أنا أحببتكم". الثورة ضد الحب هي سبب الشر، والشقاء. ولاستئصال جذور التمرد، قرر المسيح أن يطيع حتى الموت، موت الصليب. هذا هو معنى دعوتكم، أن تطيعوا مثله، مهما يكلفكم ذلك. وهذا هو التناقض: هذه الطاعة المختارة تصبح مخلِّصة، لو أن جماعة رهبانية اجتمعن حول رئيستهن، حيث تطيع كل راهبة بإرادتها الأوامر المقدمة من أجل الخير المشترك، سيصير هذا المكان من أكثر أماكن العالم امتلاءً بالسلام. ولا يوجد شيء يبعث على الفرح سوى البحث عن سعادة الآخرين!"

نظرت إلينا الأم ماري-ألفونس مبتسمة: "هذه اللوحة المثالية لا تتحقق دائمًا. هذه الأخت أو تلك، تفكر في نفعها الشخصي قبل نفع الأخريات، وتعكر السلام. هذه الرئيسة تبدو أحيانًا متسلطة جدًا، ويمكن أن يؤدي هذا إلى شقاء إحدى الراهبات التي لا تعجبها تصرفاتها. في ذلك الوقت، تصبح الطاعة عبودية قاسية جدًا".

بدت نظرتها فجأة أكثر عمقًا: "إذن، هذه ساعة الحب الأعظم. هل ستتعلمون النظر إلى مصلوبكم، وحمل صليبكم؟ كثير من النساء والرجال في هذا العالم يتعين عليهم الخضوع أحيانًا لمواقف عصيبة. وبعد هذا

الاختبار الرهيب، ستصبحين الأخت العالمية للبشرية كلها، المتحررة من ذاتها، التي في استطاعتها التفهم والمساعدة أثناء كل الضيقات الإنسانية."

هذا الحديث القوي والقاسي، وصل إلى ذاتي، إلى النقطة الحساسة داخلي. في الدير، لم تكن الطاعة تساوي أي شيء بالنسبة لي. ذهبت إلى حيث يجب أن أتشكل، إلى الحياة الرهبانية الصادقة، لأسيطر رويدًا رويدًا على طبيعتي العنيدة، الأنانية، والحسية. رأيت بوضوح أن الصلاة والنشاطات البسيطة اليومية تؤدي إلى هذا الهدف. كانت الأم ماري- ألفونس تفهمني، تحبني وتساندني. لكن لو كنت وجدت نفسي في مواجهة رئيسة لا تفهمني، تعطيني أوامر تخالف العقل، فكيف لي ـ أنا المتشددة المسرفة في الاستقلالية ـ أن أُطيع؟

إذن، هذه ساعة الحب الأعظم! عندما جاءت هذه الساعة ـ سوف أتحدث عنها ـ منحتني تجربة مدهشة. هاجَمَتْ الطاعة بعنف كل ما كان قاسيًا ومتمردًا في داخلي، علمتني أن "الحب الأعظم يتطلب ـ كما يقول باسكال ـ التخلي الكامل والرقيق". وللوصول إليه، سأمر في يوم ما من خلال النار.

تشرح الأم ماري ألفونس: "إن دعوة الفقر ليست الأكثر سهولة على الفهم... في الواقع، يجب أن تعطي الرئيسة كل راهبة، يوميًا احتياجاتها من الغذاء، الملابس، والعناية، إلخ. لكن يجب ألا تملكن أي شيء خاص. يجب أن ترضين بما يُمنح لكنّ. إن الإنسان العادي مع مرور الأيام يبحث عن شيء ثابت كي يتعلق به، وأن يكون المالك الأوحد له. احذرن من التعلق بأي شيء: "هذه غرفتي، هذا مقعدي." سمعنا بعض الراهبات يقلن "مقشتي" الويل لمن تجرؤ على المساس بها!... لا شيء يبتر أو



يناقض دعوة الفقر سوى فعل الاستحواذ الصغير؛ إنه يقطع كل علاقة بالفقر الاختياري.

إذا تحررتن من الهموم المادية، تستطعن من منح صداقة مجانية، مستعدة وبلا تخاذل. يجب أن تكوني، كما سبق وذكرت، الأخت الملائمة للجميع والمتجهة بطيبة خاطر إلى الصغار والمحتقرين. وللذهاب إليهم، يستلزم ذلك قلبًا فقيرًا!"

هذه الدعوة الثالثة يجب أن تُشَكِّل مصيري. كان هذا مثل المُثْقِب الذي يغرس دائمًا أعمق وأبعد. قد دفعني بعيدًا إلى أعماق التعاسة الإنسانية حيث شاركت الآخرين الألم لكي أتمكن من الانتصار عليه.

عامان من الاختبار المحرر أوشكا على الانتهاء. شعرت الأم ماري-ألفونس، بقليل من القلق من جانبي. وطلبت أن تتحدث معي:

ـ "الأخت إيمانويل، إن توقيت دعوتك الأولى اقترب. هل تشعرين في أعماقك أنكِ حقًا فرحة؟

ـ آه، أجل! وكيف!

ـ هل ستتحملين دائمًا حياة الرهبنة، أنتِ ممتلئة بالحيوية المفرطة؟

ـ لمَ لا؟ اختبار الرهبنة لم يُكلفني شيئًا."

ابتسمت قائلة:

ـ "عامان... بل خمسون، ستون، أو أكثر؟

ـ أو أقل يا أماه. ماذا يهم!

ـ أنتِ لازلتِ حرة في الذهاب. هل تريدين حقًا الالتزام بهذا النذر؟

ـ بالطبع! الحب هو الارتباط... طوال الحياة، وحتى الموت!"

بعد عدة أيام، يجب أن أخضع "للاختبار الكنسي" لدى مندوب رئيس أساقفة باريس. وهو مكلف باسم الكنيسة، بالفحص في عدم وجود أي ضغوط قد تم ممارستها على الراهبات المختبرات. دخلت إلى غرفة الاستقبال وجلست بهدوء خلف مائدة حيث ينتظرني كاهن موقر.

ـ "أيتها الأخت، ما هي الدوافع التي أتت بكِ إلى هنا؟

ـ الرغبة في أن أُكرس ذاتي لله، أبي، ولمن يتألمون في العالم.

ـ ألم يضغط عليكِ أي أحد؟

ـ على العكس، الجميع كانوا ضدي، بمن فيهم أب اعترافي.

فأجاب بدهشة:

ـ كذلك أب اعترافك؟ لماذا؟

ـ لأنني كنت مستقلة، طائشة، ومتأنقة.

امتنعت عن ذكر التفاصيل، والقصة بأكملها لكي لا أصدمه.

ـ ألم تُثقلكِ حياة اختبار الرهبنة؟

ـ آه! كلا، لقد حررتني من ذاتي.

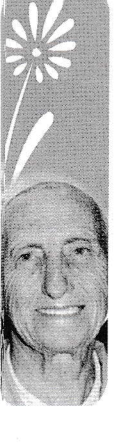
وأصر الممتحن:

ـ ألا تخافين من الارتباط بهذا النذر؟

ـ أنا، لا على الإطلاق. على العكس، أُريد أن أشعر أنني مرتبطة ليساعدني ذلك على ألاّ أنظر إلى الوراء.

ـ هل تشعرين بأنكِ قادرة على الاحتفاظ بدعوات الفقر، العفة، والطاعة، أليست صعبة بالنسبة لشخصية مزاجية، كما وصفتيها لي؟





أجبت بنبرة مقتنعة (قلق الأم ماري-الفونس نفسه والتي دعتني للصلاة لأجله والتفكير مليًا به): "في الحقيقة، أنا وحدي بالقطع غير قادرة، ولكن بمساندة المسيح والسيدة العذراء وجماعتي الرهبانية، أثق أنني سأستطيع التماسك". أكدت على كلمة "أثق". فعاد إلى مهمته من جديد:

ـ هل تشعرين بأنك متوترة، مضغوطة، أم فرحة ومتهللة؟

استغرقت في الضحك:

ـ آه! لست متوترة أو مضغوطة، لكنني متهللة، فرحة، نعم. وفي سلام مع نفسي

بدا القس راضيًا:

ـ "في سلام، هذا كل شيء أيتها الأخت، ما اسمكِ؟

ـ الأخت إيمانويل!

ـ حسنًا، سأُوقع على موافقتي. ليحفظكِ الرب مخلصة وسعيدة.

ـ شكرًا، يا أبتي.

ابتعدت محلقة. لم تعد هناك أي عوائق في الطريق...

ترددت عبارة غامضة في همهمات الراهبات المختبرات: "الراهبة العجوز الأم ماري-ألفونس ستكشف عن سر" في المساء انتظرنا طويلاً وتحلقنا حولها. دقيقة استقبال، ابتسامة لكل واحدة منا، ثم جاء صوتها: "جئتن إلى هنا من بقاع مختلفة من العالم (فرنسا، إيطاليا، ألمانيا، رومانيا، إلخ.) ، وشعرتن من جديد بنفس جرح الحب. لكن أية واحدة منكن لا تعلم حتى الآن ماذا يعني الحب. إنه علم لا تعرفه إلا القلة، لأنه

يتطلب العطاء المطلق.

أحبّ يسوع حتى عرف آلام العبد المصلوب. جعل من الحب ترياقًا للكراهية ومن الموت، مدخلاً للقيامة. غدًا، بعد النطق بالتكريس الرهباني، ماذا سوف تتلقين؟ سلسلة ومصلوب. المصلوب الذي تردن أن تربطن حياتكن به، الذي تدعونه زوجكم، هو زوج دم. لقد أحب حتى الموت... وأنتم؟" ونظرت لكل واحدة طويلاً...

"إذا كنتن وفيات، وتركتن حب المصلوب يستولي عليكن، جرح اليوم الصغير، سوف يوسعه الألم في قلبكم الصغير؛ لأن أي ألم تلتقون به عند رجل أو امرأة أو طفل سيحرقكم مثل الحديد الملتهب، ستصبح كل منكن أختًا للكل تمنح للمتألمين دواءً طيبًا، للقلوب المجروحة من آلامهم، لكي يعلم كل واحد منهم أنه من خلال المسيح، الموت يؤدي إلى القيامة. ستؤدون إذن الاختبار الغامض، ومن خلال الجرح الكبير ينبثق النبع. ستنشرن السلام والفرح الذي سيعود عليكن. ستفهمن أن أجمل مغامرات الحب على هذه الأرض تنطوي على أقسى الآلام، ولكن أيضًا على بهجة الأفراح!"

يأتي أخيرًا اليوم العظيم، العاشر من مايو 1931م، الأحد الخامس بعد عيد القيامة. جاء الأهل والأصدقاء لحضور الحدث غير المعقول. مادلين، بعد مرور سنتي الاختبار لم تتخلّ، بل تلتزم بحياة الرهبنة.

بدأ طقس القداس بتلك العبارت التي يرنمها قلبي: "بتهاليل الفرح، نُعلن... هليلويا... يطلق الله سراح شعبه، هليلويا، هليلويا [10]." في القراءة الأولى، يوجه القديس يعقوب الحديث إليّ مباشرةً: "يا أحبائي، الديانة الطاهرة النقية عند الله الآب: هي افتقاد اليتامى والأرامل في

10- إش 48:20.



ضيقتهم، حفظ الإنسان نفسه بلا دنس من العالم [11]." وفي الإنجيل يدعوني المسيح إلى الفرح: "اطلبوا تجدوا، ليكون فرحكم كاملاً [12]." وفي تلك الأثناء، امتلأت نفسي بالفرح!

قبل التناول مع قريناتي الثمانية، سرت بخطى ثابتة نحو المذبح ونطقت بصوت ثابت: "باسم الآب والابن والروح القدس. أنا، الآنسة مادلين سانكان وفي الرهبنة الأخت ماري - إيمانويل، غير المستحقة أن أكون خادمة لله، وفي حضور الأب الموقر شافينر، رئيس قساوسة نوتردام- دي- سيون، وبين يدي الجزيلة الوقار الأم ماري-جونزالي دي سيون، الرئيسة العامة، أنطق من كل قلبي لله القدير، نذري لفترة عام، وهي الفقر، العفة، الطاعة وفقًا لدستور رهبانية نوتردام- دي- سيون. اقبلوني في قلب يسوع وقلب مريم، مع المحتقرات والخادمات المخلصات. اعطني، أيا إلهي، القوة لأتم بإخلاص قواعد هذه العائلة المقدسة وواجبات نذري. أمين." كم من مرة، خلال حياتي، في وقت القربان المقدس، رددت بحماس هذا التكريس!

أعطاني الأب شافينر السلسلة والمصلوب، التي قبلتها بحب ولمست عنقي. رددت داخل قلبي: "حبيبي الغالي، كل شيء قد تم. شكرًا! عهد بيني وبينك أن تكون حياتي لك حتى الموت." وطبقًا لقاعدة الرهبنة، تعين عليّ النطق خلال ستة أعوام بهذه الدعوات المؤقتة قبل الالتزام نهائيًا. هذه هي حكمة الكنيسة...

وقد رنم الكورال ترنيمة للعذراء مريم وهي إحدى التراتيل المحببة لديّ: "إليك يا طاهرة، أتعهد لكِ بوعدي. أنتِ، يا شعاع الذهب، يا من

11-يع 1:27.

12-يو 16:24.

تحتوي على كل نور، احفظيني. احفظي عينيّ وشفتي وقلبي. استقبليني أنا خادمة السيد الرب." وكنت واثقة أنها ستحفظني.

ذهبت المعترفات الجدد بعد ذلك إلى الصالة الكبيرة حيث تنتظرهن مئات الراهبات. قبلنا الجميع واحتفلن بنا. الراهبات المسنات ترقرقت عيونهن في تأثر: "ستحلين محلي، تشجعي! أمضيت خمسين عامًا في أستراليا!" قفزت من الفرحة: "أمي، أحلم بالذهاب إلى أستراليا! صلي لكي أذهب إلى هناك!" ابتسمت لي: "سننفذ إرادة الله، أليس كذلك، يا أختي الصغيرة!" أجل! الطاعة... نطقتُ بلهجة صارمة " نعم يا ربي وإلهي!".

هبطت على الدرج مسرعة إلى قاعة الاستقبال وارتميت بين ذراعي أمي ، وكنا متأثرتين بشدة:

- "شكرًا يا أماه، هذا كله بفضلك!

- بُنيّتي، أطلب منك شيئًا واحدًا: كوني راهبة صالحة!"

لم أنسَ أبدًا أمنية أمي هذه.

لماذا أنا بالذات، لم أطعها بالفعل أبدًا، هل خضعت خلال عامين إلى تعليم كامل؟ لماذا رفضت دائمًا "سيطرة " زوج، وتحملت بفرح كبير نير حياة الرهبنة الأكثر ثقلاً. بدا لي هذا غريبًا من الوهلة الأولي. وعندما فكرت في الأمر، وجدت أسبابًا أخرى. السبب الأول، والذي وجدته طبيعيًا: أنني مثل كثيرين على الأرض، من أجل هدف محبوب تم اختياره بحرية، يبذلون مجهودًا مدهشًا، مثل أي مُرشح لبطولة أو لسباق. والسبب الثاني: منذ القرن السادس، العديد من المسيحيين عاشوا حياة الطاعة من خلال قواعد قبلوها عن طيب خاطر، لقد آمنوا - وأنا من بينهم - لإتمام مشيئة الله. وأنا أشارك بدوري في السير وراء خطوات المسيح التي لا تُمحى أبدًا،

والنتيجة هي الاقتداء بالمسيح. السبب الثالث: أشعر بضرورة الارتكاز إلى المعايير التي يقبلها عقلي والتي تساعدني على اتقاء المخاطر. بينما فكرة الارتباط برجل وبأهوائه! تشمئز منها نفسي للغاية. والسبب الرابع: إن "أسمى ما في الطبيعة" يتمثل في حقيقة حية تُعشش في داخلي واضحة صلبة أكثر صلابة من ضميري، ولا يمكن أن تنقلها أية كلمة بشرية أخرى. حقيقة تؤثر دون أن تفرض نفسها، مثل النسمة الناعمة التي تنقلها رسالة الله، كما يقول الكتاب المقدس؛ وتتلخص تلك الحقيقة في قول المسيح: "اترك كل شيء واتبعني." كان النداء ملحًا. كنت أنصت إليه وأهرب منه، ورويدًا رويدًا على دربي الضيق، أطعته منتصرة. من يعش حضور هذا الحب يُدرك ثبات التجربة في عمق النفس. إن القَسَمْ يبدو في عيون البعض علامة من علامات التطرف في التصوف. ليست هناك مشكلة: فكل فرد له الحق في الاحتفاظ بحكمه.

كنت مهيأة إذن بفرح إلى قبول أي آلام وأحزان أُواجهها، سوف يتم إرسالي! أرسلت في استدعائي الأم ماري- جونزالي. دخلت إلى مكتبها بقلب خافق:

- "الأخت إيمانويل، بشهاداتك الدراسية، أُفكر في إرسالك إلى السوربون.

- آه يا أماه، أريد أن أُكرس نفسي للفقراء، لقد طلبت منك ذلك ووعدتني به. لا يوجد احتياج لانتظار أربعة أعوام للحصول على الليسانس.

- بالتأكيد، يمكنك الذهاب إلى إسطنبول للاشتغال بالمدرسة الابتدائية المجانية. كم من المآسي هناك عند هؤلاء الأطفال!

- آه ! أجل، يا أماه، ارسليني هناك إلى إسطنبول.

ـ لا أريد إرغامك على الدخول إلى الجامعة، لكن فكري جيدًا.

ـ لقد فكرت جيدًا يا أمي، وإني على عجل من أمري للدخول في نشاط، ولأكرس نفسي للفقراء."

نظرت إليّ صامتة ثم أضافت أخيرًا:

ـ " أجل، بعد مرور عامي الاختبار في الدير، أفهم أن أربعة أعوام، فترة قاسية، بالنسبة لكِ في السوربون. حسنًا، فقد قررت لكِ تركيا، ستلتقين هناك بالأم إلڤيرا، رئيسة لكِ، ستتفهمك وستسعدين بالأطفال."

باركتني مبتسمة. تركتها وكلي سعادة. ها أنذا مكرسة رسميًا، كارزة... عند الأتراك!

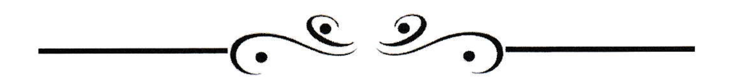
لن أرحل إلى وسط أفريقيا السوداء عند المتوحشين المستعدين لافتراسي، لكن الأتراك الصغار يمدون يدهم إليّ. سأساعدهم في الانتصار على مصيرهم. سيتحررون يومًا ما من بؤسهم. أراهم يمشون في الحياة مرفوعي الهامات. يقفز قلبي من الفرح.

إلى الأمام، يا إيمانويل، فلتحيا تركيا!









الجزء الثاني

إسطنبول

1931م – 1955م







أعاصير وهدوء

إسطنبول، 1931م – 1940م

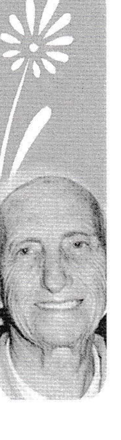
كانت الأم جونزيلا تعلم إلى من تعهد بي، في أولى خطواتي في الحياة الرهبانية. واستقبلتني الأم الرئيسة بحنان في إسطنبول. كانت تنشر الفرح والسلام بين الراهبات، حيث لم يكن ذلك بالشيء الهين، بين ستين امرأة! إنها الهبة التي تمتلكها الأم إلڤيرا؛ فهي تعرف كيف تنصت، تفهم، وتحب كل واحدة كما هي. في الحقيقة، عاطفة المحبة القوية والرقيقة، يمكنها حل كل الصراعات، حتى التي لا يمكن تحاشيها.

تم تكليفي بالعناية بخمسين طفلاً، معظمهن من الفتيات، والتي تشكلن الفصل الأول من المدرسة المجانية. يأتون من أسر مسيحية فقيرة، من أصول يونانية أو أرمينية، وكانوا مهمشين. ولحسن الحظ كانت الآنسة مادلين، معلمة عجوز، بصحبتي. وبدونها، كان سيغدو الفصل في فترة استراحة دائمة. كنت مولعة بأطفالي، ولكن لم يكن ذلك كافيًا. كنت عديمة الخبرة، وكثيرة المرح. كما لم أكن أريد، كذلك، أن يصبح الفصل شديد الصرامة. عند أوقات تدريبي على التدريس، كنت أقوم بتجزئة

الدروس بالأغاني والرقصات، فينبغي تواجد بعض من النماذج الحية! أغمس دمية بقوة، في وعاء ممتلئ من المياه والصابون، ثم أُمشط لها شعرها: "هل ترون كم هي جميلة الآن! من سيأتي غدًا نظيف مثلها؟" ترتفع الأصابع الصغيرة بحماس في وسط صيحات الفرح. وتُرجع الآنسة مادلين النظام مرة أخرى وتستأنف القراءة.

كانت قاعة الفصل قريبة من الكنيسة. ومن وقت إلى آخر كنت أرفع عينيّ نحو نوافذه الزجاجية قائلة: "أشكرك يا إلهي الحبيب، لأنك أعطيتني هؤلاء الأطفال لأحبهم معك أنتَ!" ديانة كل فرد كانت يجب أن تُحترم؛ فأترك أحيانًا الأطفال الآخرين في عناية الآنسة مادلين، بينما أذهب مع الأطفال من المسيحيين إلي الكنيسة، حيث نرنم أو نصلي درب الصليب. حينئذ أشرح إلى أي مدى أحبنا المسيح، وكم أراد أن يتألم من أجل خلاصنا. وعندما أستأنف معهم المسيرة من وقفة إلى أخرى، متأملة منذ اليوم الأول للمبتدئين، نشيد ابتهاج يخرج من جديد من قلبي: "سيدي، لقد أحببتني، حملتني، وقدتني إلى هنا. أشكرك!" إن نفسي مثل أغنية ربيع.

إذن، كل الأشياء تعمل معًا من أجل الخير، ومن أجل الأفضل للجميع، كما يقول كانديد. وبالرغم من ذلك، ذات ليلة بدأت أرتجف. وقاست الأخت سالوميا، الممرضة، حرارتى فكانت 40 درجة مئوية. إلى العيادة! سريعًا، إلى السرير! إنه مرض التيفود. تم نقلي إلى المستشفي الفرنسي للعناية بي بشكل جيد. وخشي الطبيب على حياتي، فتم إرسال تلغراف إلى بروكسل؛ تُعجل أمي بالمجيء. أمي الحبيبة، أنت دائمًا موجودة عندما أحتاج إليكِ! كانت موجودة وحدها، مع الأم إلڤيرا، من أجل تهدئتي. مع الحمى، كنت مثل من مسها مس شيطاني، فقمت بسب الراهبات، الأطباء، والممرضات. وفي هذيان، دعوت الرئيسة لكي أعلن لها: "ليس لديكم



سوى حمير في مستشفاكم. اطردوهم جميعًا بسرعة!"

اقترب الموت حتميًا، وقد قرأت والدتي مقتطفات من صحيفة: "محاولة نقل دم تتمكن من إنقاذ مرضى التيفود". وقرأ الدكتور جاسان هذه السطور وأومأ برأسه: "إنها مفقودة، فيمكننا محاولة أي شيء". أرادت أمي إعطائي دمها، ولكن جاءت نتيجة التحاليل سلبية. منحتني جميع الراهبات دمهن لإنقاذي، إلا أن تلك العملية في هذا العهد كانت تبدو خطرة للمانح وكذلك للمتلقي. وأخيرًا إثنتان من المتبرعات جاءت نتيجتهن متوافقة. الأم تيودوريا لأول عمليتين نقل الدم، والأم ماري-جونزاج للمحاولة الثالثة. كن مستلقيات في غرفة قريبة حيث تم سحب الدم منهن لنقله إليّ على الفور.

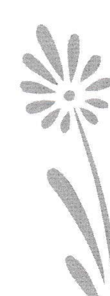
كتبت هذه الذكريات في كاليان، كنت أتجه دائمًا إلى المدافن حيث ترقد راهبات معروفات ومحبوبات، وأتوقف أمام مقبرة الأم تيودوريا القريبة لقلبي. كان من المعتاد في الثقافة التركية، تبادل نقطة دم وامتصاصها بين الأصدقاء؛ أصبحت كذلك الأم تيودوريا "أختي في الدم". يجري دمها حتى الآن في دمي ونفسي، وبت متحدة مع نفسها!

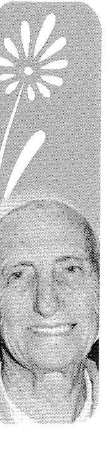
تكونت بعض القرح، وكانت تؤلمني بشدة، فأصبحت غير محتملة، حتى أنه في يوم ما تعجب أحدهم: "إيمانويل، "ليكن الله معك"! كلا، الشيطان معنا!" كما أن المرض قد عطّل كل شيء جميل في داخلي. وفي مخيلتي المجنونة، رأيت شياطين سوداء مهيجة تجري على طوال الأسقف.. لأختبر عبارات "Taine تان"، حيث أستشهد بما قاله من الذاكرة: "حُك زينة هذا الرجل المتحضر، ستجد خلفها غوريلا متوحشة!" هذه الذكرى المذلة جعلتني أحتفظ أحيانًا بحكمي المعثر على فساد أخلاق هذا أو ذاك... وماذا إذن عني أنا؟

كما أن حب أمي والأم إلڤيرا وأخواتي الراهبات هو ما أنقذني، أكثر من عملية نقل الدم. ورفضت بعناد الطعام "المسمم" للمستشفي، فجهز طباخو "سيون" الأطباق الصغيرة المفضلة إليّ. وقامت أمي والأم إلڤيرا بإطعامي لقمة بلقمة. الخطاب المرسل بانتظام من بيت سيون إلي بيت الرهبانية، قد قام بإبلاغ راهبات الإبراشية، والبالغ عددهن ألفان، بأن إيمانويل الشابة ذات الخمسة وعشرين ربيعًا تحتضر في إسطنبول. كم من الصلوات اتحدت مع مثيلاتها للأم ماري-ألفونس التي كانت تعيش شهورها الأخيرة على الأرض، وتوسطت أيضًا من أجل راهبتها القديمة والمبتدئة! لا يوجد مثيل للاختبار الموصوف لسفر المزامير رقم 133: "هوذا ما أحسن وما أجمل أن يسكن الإخوة معًا. مثل الدهن الطيب على الرأس، النازل على اللحية، لحية هارون، النازل إلى طرف ثيابه." الكناية مضحكة، خاصة بالنسبة للراهبات! بلحية أو بدونها، فزيت سيون قد انسكب عليّ بوفرة، وقادني برقته إلى النقاهة.

قالت لي أمي، قبل رحيلها بفترة قصيرة: "هل أنت فعلاً سعيدة يا مادلين؟ ألا تريدين المجيء معي؟" أجبت عليها بحيوية: "آه يا أماه! أُفَضِّل الموت عن الرحيل". في الحقيقة إن إحساس التحرر الذي اجتاحني ليلة دخولي إلى رهبانية المبتدئين، من خلال مرور الأيام قد أخذت جذوره في الاستقواء، وفي أعمق أعماق ضميري، سكن في داخلي السلام والفرحة. عزز الوقت الماضي في الكنيسة علاقتي بالسيد الإله، وسقى الوقت المكرس إلى صغيراتي عطشي للدعوة. فعلاقاتي مع الراهبات، بالرغم من المعارضات بسبب طباعي الحادة، قد انتعشت بصداقة حقيقية. وأخيرًا، خاصة العاطفة القوية والملتهبة مع الأم إلڤيرا كانت بالنسبة لي سندًا يوميًا.

كيف أستطيع أن أشك أن هذه الفرحة تُعِد لي عاصفة جديدة؟ لم تكن





قواي قد عادت كاملة عندما مررت من جديد إلى مرحلة من الإثارة من نوع آخر. مديرة المدرسة، الأم أودو- ماريا، كانت امرأة تزن ثقلها ذهبًا. كانت تكبرني بعشرين عامًا، متزنة تسيطر على ذاتها بصورة كبيرة، بينما كنت متقلبة وقليلة السيطرة على نفسي، إلا أننا كنا نشترك في نقطة واحدة، وهي حبنا المتقد لله، فتبلورت صورته أيضًا تجاه الأطفال والفقراء، فكانت بمثابة المنقذ في هذا الوسط، وكان كل فرد واثقًا من تلقي المساعدة في وقت الضيق. لقد منحتها دائما إعجابًا بلا حدود. كانت بالنسبة لي الراهبة المثالية المكرسة جسدًا ونفسًا، لله وللبشر. لذلك ظننت أنني أشعر بالطمأنينة.

إلا أنني دخلت إلى ساحة ألم جديدة و صراع صعب. ولحسن الحظ كانت الأم إلڤيرا بجواري، والتي أطلقنا عليها في العادة "أمنا"، وكم كانت تعلم كيفية الاحتفاظ بهذا اللقب! ذهبت للقائها، وسردت لها بخجل اضطرابي، فأنصتت إليّ، ثم قالت لي مبتسمة:

"لن تفقدي صوابك، أليس كذلك، أيتها الشابة إيمانويل! تألم جسدك بشدة خلال مدة المرض الطويل. إنه يثأر لنفسه، ينفجر، هذا طبيعي!

ـ لكن يا أماه، هذا سيئ، أليس كذلك؟

ـ الإحساس ليس بالشيء السيئ يا أختي الصغيرة، بينما الرضوخ له.

ـ أظن أنني أشعر وأرضخ في نفس الوقت.

ـ هذه هي الطبيعة البشرية، فمن هنا يجب أن يبدأ الصراع. في كل مرة تلوح سهام الحرب، اتجهي مباشرة إلى الله، وإلى مريم العذراء، وبـ"لا" قاطعة، هذا كل ما في الأمر!"

وباركتني قائلة: "فكري خاصة في أولادك. أنتِ تحبينهم! ابحثي عن

كل ما يساعد على نموهم. فقد تعهد الله بهم إليك، ليتفتحوا معك بالفرحة."

يجب أن أعترف بأن الحرب بدت لي رهيبة. كنت غير متأهبة لها، وكنت مقتنعة بأن الماضي قد دفن إلي النهاية، وإنني سوف أسبح في سلام أبدي. رجعت رويدًا رويدًا إلى نداءاتي من خلال نافذة الكنيسة: "لا تتركني يا إلهي! لا أستطيع قول لا، لا، لا!" ولم يتركني قط وجاء لينقذني من جديد، هذه المرة من خلال صغاري الساحرين. ووفقًا لنصيحة "أمنا"، ملت أكثر وأكثر إلى كل واحدة منهن. ومن أجل أن تستحوذن على مكان أكبر في قلبي، وانخفضت حُمتي!

جاء الصيف، وأمضينا الإجازة في ثيرابيا، على ساحل البوسفور. اشترت الأم إلڤيرا مبنى، حيث كان لدينا طلاب داخليين خلال أيام الأجازات. ولم تكن المدرسة تتيح متنزها، وكانت أمنا تريد أن يتنفس جميع من لديها، أطفال وراهبات.

كانت هناك قائمة معلقة في التجمع: "من يريد أن يستحم في البحر؟" ما هذه النعمة غير المتوقعة! ... لقد أصبحت أفضل الآن، لكن الأرض لا تزال هشة! تطلعت إلى الله ، وقررت: "لن أذهب." نادتني الأم إلڤيرا والقائمة في يدها:

ـ "لا أرى اسمك إيمانويل؟ بينما هذا شيء ممتاز بالنسبة إليك!

ـ أجل بدون شك، أعشق الاستحمام.إلا أنني لا أود الذهاب!

ـ أحسنت، لديك الشجاعة!

ـ لقد استشرت الله سريعًا".

سخرت الأم إلڤيرا قائلة: "حسنًا لديّ استشارة أخرى من الله. سوف يكون هناك دورتي استحمام: واحدة في الصباح المبكر، قبل القداس،



والثانية قبل القيلولة. ولا يذهب أحد في تلك الساعة.

لم ير أي أحد قط راهبات في بحر البوسفور. كانت أمنا في هذه النقطة وفي غيرها رائدة. فقد تلقت تأنيبًا من شخص ما، فأجابت بأنها تفحصت القواعد بحذر، فلم تجد دفاعًا أفضل من الغطس في الماء. أما بالنسبة لي، فقد ألقيت بجسدي الضائع في الأمواج. كم أن ذلك منعش وممتع. شعرت بنفسي متحررة مرة أخرى، ومرحة مثل الدرافيل التي كانت تقفز من فوق الأمواج. لا يوجد شيء أفعله يا الله! فمعك أعبر أشد العقبات خطورة، وفرحة بالحياة. ومستلقية فوق الأمواج ومثبتة عيناي نحو السماء، تمكنت من غناء آيات التهليل، المزمور (136): "هللويا. سبحوا اسم الرب... لأن الرب صالح... لأن إلى الأبد رحمته!" بالحرية اللاهوتية، فقد سمح إدراك وحكمة الأم إلڤيرا بإنعاش جسدي ونفسي معًا.

منح لي شكلاً آخر من أشكال المتع، من خلال المكتبة الممتلئة بالأعمال القيمة: علم اللاهوت، الفلسفة، الأدب، التاريخ، والفن... شجعت الأم إلڤيرا تنمية عقل الجماعة كذلك التلميذات الحاضرات والقديمات. استهوتني القراءة، ودونت الملخصات في كراسات ملاحظات وخصصت واحدة لكل مجال. ووقع تحت يدي حياة سليمان العظيم. أنها قصة رائعة. ماذا إذا رتبت مؤتمرًا للراهبات؟ احتفظ قلبي بعرفان للجميل شديد من أجل الحب التي أحاطتني به كل واحدة منهن خلال مرضي بالتيفود، وكنت أبحث دائمًا عن طريقة لبث السرور في نفوسهن.

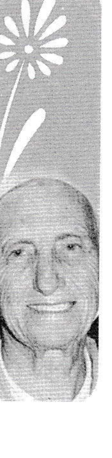
عرضت صورة لفرونسوا الأول المحفوظة في شانتيي وكذلك صورة مصغرة لسليمان وسردت بحيوية علاقتهما ضد شارل كوان. وصفت بحرارة چيورچيان روكسلان تلك المرأة المغوية التي تمكنت من إزاحة السلطان وخليلاته. قمت بتنظيف الرسم الكائن في ڤيينا حيث بدأت

الحوائط تتساقط بشدة. ثم رجعت إلى الموت المفاجئ لسليمان، جثة صامتة مرفوعة فوق محفة، وراجعًا مرة أخرى على رأس فرقته العسكرية. وتنتصر أخيرًا روكسلان، وتنصب ابنها على العرش، الذي كان نذير شؤم للإمبراطورية العثمانية حيث بدأت في الاضمحلال.

اندهشت مديرة المدرسة بشدة، وذهبت للقاء الأم إلڤيرا: "لماذا تتركين الأخت إيمانويل في المدرسة، مع الصغيرات؟ ستصبح مدرسة بارعة في فصولنا المتوسطة." وتعلن لي الأم إلڤيرا وظيفتي الجديدة، وترنح قلبي. أأترك أطفالي الصغار الفقراء الأعزاء من أجل هؤلاء الثريات بنات الباشاوات؟ ويقترب وقت دخول المدارس، أصبحت شديدة الاكتئاب. كنت على وشك القبول مرغمة إلا أن الأم إلڤيرا لم تصر. فقد تفهمت أن ذلك الأمر سيسبب لي ألمًا مبرحًا وكانت لديها الحكمة لتنتظر.

وبعد مضي عام، قامت باستدعائي وقالت لي بهدوء: "أيتها الأخت إيمانويل، لقد تركتك مع أطفالك الصغار الأعزاء، لكن الآن سأطلب منك التفكير. إنك تحبين الفقراء والصغار، هذا حسن. إلا أنك تمتلكين صفات التعليم للأكبر سنًا. ستتمكنين في المدرسة إعطاء خدمة أكبر. ألا تفكرين في تكوين شبيبة الطبقة المنتقاة، فالمشاركة والاهتمام بالفقراء لغرض الارتقاء بهم، سيكون عملاً حاسمًا من أجل مستقبل الأطفال أنفسهم ومن أجل مستقبل البلاد أيضًا؟ فهذا ما نحاول عمله مع تلميذاتنا. ستلعب بعضهن دورًا حاسمًا في تركيا. ألا تريدين الاشتراك في هذا العمل حيث أعطاك الله تلك الصفات؟"

تغلب المنطق إذن. فقررت هذه المرة أن أُكرس نفسي كاملة. حيث عُينت مُدرسة لفصل تلميذات في سن اثنا عشر إلى ثلاثة عشر عامًا. وفيما بعد، كُلفت بالعناية بشباب أتراك، يونانيين، أرمن ويهود، حيث



أرادوا تعلم اللغة الفرنسية بعد المرحلة الثانوية. كانت بيئة مثالية بالنسبة لراهبة من سيون، إذ أن الدعوة الكاثوليكية كانت ترتكز على العمل على تقريب وتفهم الديانات المختلفة. وكان هذا العهد يتصف بالحماس؛ كانت هؤلاء التلميذات متعطشات تمامًا لمعرفة ثقافتنا. قد مكثن معي ثلاثة أعوام متتالية. وسمح مناخ الحب السائد في الفصل بتبادل كل الآراء. ولم أكن أفوقهن كثيرًا في العمر.

لم يكن هناك شيء قط لم نتطرق إليه، من نقاش وإنجازات! وكان مقرر علينا مسرحية "Le Cid". كانت تبعث الإثارة داخل كل تلميذة منهن، حيث أصبحت كل واحدة "شيمان" المنتظرة لـ"رودريج". وكنت على يقين أن كل واحدة منهن كانت، عن طريق والدهن، توشك على الزواج بشخص ما، ثري، وسوف يكون على غرار "رودريج"! حينئذ سيؤدي استقرارهن إلى المضي مباشرة في طريق الأمومة، ولكن ليست الأم بائسة دائمًا. لقد أردت أن أفتح قلوبهن على أن الحب هبة لا غنيمة، فنظرة المحبة تجاه كل ضيق أفضل من النحيب أمام إحباطاتهم الخاصة. أردت أن أتبنى طريقة سقراط ، ابن امرأة حكيمة، في استنباط الأشياء. كان خبيرًا في فن توليد المعاني الإنسانية من كنوز ذات الإنسان . إنه لشيء أثير بالنسبة لي أن أرى النمو المطرد، لذكاء وإرادة هؤلاء الفتيات!

اصطحبت معي متطوعات لمشاركتي في يوم من الأعمال الشاقة في مصنع للف الخيوط. حملنا جميعًا، من ناحية أخرى، هدايا لليتامى وللمسنين المتروكين. رأينا أشياء عديدة؛ أتذكر بشكل خاص، خمسين امرأة عجوزًا مكدسات في قاعة واحدة، ولم تكن تمتلكن من متاع سوى طاولة ليلية. وكم تقاسون من نقص المحبة! وتفتتن بأقل إيماءة من الحنان. جهزنا أيضًا في أوقات الأعياد هدايا مغلفة من أجل المصابين بالجزام. رافقتني دائمًا جماعة من المتطوعات إلى منطقة أكواخ المعدمين

في تينيك ماهاليسي، بغية توطيد علاقات الصداقة مع هؤلاء الساكنين الفقراء. اتبعت في ذلك روح التعليم الاجتماعي التي علمتنا إياه الأم إڤيرا لكل واحدة منا. دعت الراهبات التلميذات للاهتمام بصور الفقر المختلفة "في المدينة". واليوم أيضًا، تخبرني تلميذات قديمات باستمرارهن على التفاعل في نفس الاتجاه، لمؤسسات جمعيات الإغاثة، ومنبهات أطفالهن إلى العدالة الاجتماعية.

أحببنا أيضًا تحضير كل عام، عرض مسرحي. رأيت كذلك تطور الفتيات بالنعمة، في موسيه، "يجب أن يصبح الباب مفتوحًا أو مغلقًا". وفي ماكبث، أليكساندرا، ذات الشعر الأسود الطويل المموج، وصلت إلى الظليلة، ممسكة بشمعة مضيئة، وناطقة بصوت حزين: "كل العطور العربية لن تتمكن من تبرئة تلك الأيادي الصغيرة!" وبالنسبة لأنتيجون لسوفوكليس، قد جاء خبير من الجوقة الموسيقية القديمة لمساعدتنا. فأحضر إلينا الملابس، والديكور، وألعاب الإضاءة ودرّب التلميذات على إيقاع الأبيات القديمة. وكان مظهرًا جذابًا لتلميذات المدرسة. وأخذتنا "المعجزة اليونانية"- منذ ألفي عام- إلى الجمال، الجمال الذي تحدث إلينا به ديوتيم إلى سقراط: حيث يرتفع من جمال إلى جمال، من الأجساد الجميلة إلى العلوم الجميلة، ثم إلى الجمال الداخلي، إلى الجمال الإلهي! كنا نتعمق سويًا ونرتفع رويدًا رويدًا من خلال دروس الفن الذي كنت ألقنه. فأعمال النحت والرسم الرائعة كانت تعرض بالتناوب أمام أعيننا المندهشة. كان لديّ في الفصل تمثال لـ "ڤينوس دو ميلو". لم ينقصني ملاحظة أن جمالها العاري، كان قليل الإثارة من سيدات في لباسهن الغريب. هذا من أهم الأشياء التي ينبغي أن تنصت إليها الفتيات الشابات.

كنت مسئولة عن وظيفة شائكة، إذ كان يتعين عليّ أن أدعو مائتين وأربعين تلميذة للالتزام بالصمت في قاعة الطعام، وقت تناول وجبة



الأكل، الساعة الثانية عشر. وكانت المديرة صلبة الرأي في ذلك الأمر. إذن فما العمل؟ أتزود بـ"جراموفون"، وأعطي شرحًا موجزًا عن المؤلف الموسيقي وفنه، وها هي فتياتنا تأكلن وجبة السلاطة على أنغام السيمفونية التاسعة لبيتهوفن، نشيد الفرح للعبقري الأصم! أراد الكل، بدون شك، سماع إيديث بياف: "عندما تأخذني بين ذراعيك، أرى الحياة وردية!" لم يستطع البعض نسيان هذه المبادرة الموسيقية الأولى.

أصررت، خاصة، على أهمية الجهد. وتعلمت تلميذاتي هذه العبارة عن ظهر قلب لڤيكتور هوجو: "من يحيون، هم من يكافحون". سردت لهم مارك أورال: "إن العوائق هي مادة للتفاعل". إنه خلال الكفاح تصل قوة المخلوق إلى ذروتها. اختبرت أن هذا التعليم النشط والجميل معًا، والذي تلقيته في شبابي، قد أدى إلى فرحتي وقوتي في أيام الشمس المضيئة كما في الأوقات المظلمة. وأكدت طالباتي القديمات، اللائي قابلتهن أحيانًا بعد أعوام قليلة من تكوينهن، لهذه القيمة. وتحديدًا هذا الأسبوع، خلال مرور إيلجان التركية إلى باريس. فقد أتى صوتها بالفرح والدفء إلى قلبي: "شكرًا لإعدادي للنجاح في حياتي!" يخفي الإنسان كنزًا خفيًا، ويستطيع نقله من جيل إلى جيل. لقد تسلمت مشعلاً، حيث أن شعلته المتوهجة بدورها انتشرت في قلوب أخرى، واستمرت باكتناف سواحل أخرى.

خلال تلك الأعوام الذهبية، اقترب وقت النطق بنذوري الدائمة. ومضت ستة أعوام منذ تكريسي الأول. وفي يوم ما، عندما كنت في لقاء الأم إلڤيرا، رفعت شعرة من تحت ردائي واستجوبتني:

- "الأخت إيمانويل، هل تتركين شعرك ينمو؟

- كلا! لماذا؟... يبدو أن هذه سقطت من تحت الطاقية.

ـ ألم تفكري في جعله ينمو؟"

أجبت بدهشة:

ـ "لماذا هذا السؤال يا أماه؟

ـ هل تفكرين بالالتزام نهائيًا بالحياة الرهبانية... يجب عليك التفكير جيدًا إذا رأيت أنه من الأفضل أن تدعي شعرك ينمو!"

وفهمت فجأة، إنه "في ذلك الوقت"، لم يكن في استطاعتنا التعرف على طريقنا بشعرنا الطويل هذا. " أماه هل تعرضين عليّ الرجوع إلى العالم؟"

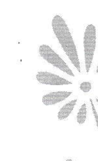
بدت لي نظرتها شديدة البعد:

ـ " أشعر أنني أصبحت عجوز يا إيمانويل. ولازلت أسهر على تفتحك، لكن عندما سأتغيب عنكِ. فمن الممكن أن يصبح لديك رئيسة لن تستطيع تفهمك. إنك لست سهلة يا صغيرتي. ولا أريدك الاختناق فيما بعد. فقد أراد الله لكِ السعادة. إنك شابة، فكري في مستقبلك!

ـ لقد فكرت في كل شيء يا أماه، واتخذت جميع قراراتي. ستتركينني في يوم ما إلى السماء. لكن المسيح لن يتركني أبدًا. وسنصطدم معًا سويًا بغية أن أتماسك!

دندنت نغمة لموريس شوفالييه، من أجل تخفيف تلك الأفكار السوداء: "عندما نكون إثنان، لن يكون هو الأمر نفسه! " لقد سخرت دائمًا أمي من جهالتي.

أرسلت إلى باريس، بطلبي بالالتزام الدائم، وقد قُبل. نطقت بفرح دعوتي الأبدية في الثامن من سبتمبر 1937م. لقد اتحدنا سويًا يا إلهي الحبيب، في الحياة وفي الموت!



وفي وسط تلك الأحداث الصغيرة،عام 1938م، عاشت مدرستنا من جديد ومعها كل البلد: كارثة قومية لموت أتا-تورك، مؤسس تركيا الحديثة. وكان ينبغي عليّ فيما بعد، حضور نفس الانفجار المؤلم في مصر، لجنازة جمال عبد الناصر. فقد تصارع هذان الرجلان حتى الموت من أجل تحرير أوطانهم. أتا-تورك، "أبو الأتراك"، هذا الضابط الشاب أمضى بضعة أعوام في باريس. وقد تفتحت نفسه على الديمقراطية. وفي عام 1920م، خلع السلطان الضعيف ، وأخذ قيادة الحكم ووافق على بتر الإمبراطورية العثمانية، ذلكم "الرجل العجوز المريض". فطرد يونانيي آسيا الصغرى، وعلى الحدود الضيقة، أنشأ دولة حديثة، علمانية، ومتحررة. فقد أراد دولة تركية 100٪، وبدون تأثير أجنبي. وقام بتأسيس تعليم حديث في المدارس والجامعات، كما دعا الفتيات إلي التعليم، وحرم تعدد الزوجات، و غيرها. ودعا البرلمان للتصويت إلى القانون، حيث أسست الديمقراطية. مع العلم أن كثيرين من النواب الأقوياء، كانوا ضده. ووصل مصطفى كمال إلى الساحة وأخرج مسدسه بشكل واضح، ووجهه نحو المساعدين، وتحدث بصوت مدوٍ: "أتوقع أنكم سوف تصوتون من أجل تركيا حديثة، حرة " وأمسك بمسدسه بقوة. ويعلم الجميع تمامًا أنه سيستعمله بدون تردد. وأضاف: "تصويت حر، وبأيدٍ مرفوعة". الديمقراطية - إذا أردنا القول- إنها قد أعلنت كما لو كانت بصوت رجل واحد !

لكن دعونا نرجع إلى بطل تركيا، الذي لم يكن يتعدى عمره سوى ثمانية وخمسين عامًا. كانت لدى هذا الرجل الخرافي، شهوة مخيفة نحو الخمر. فكان يحتسي كل ليلة، على ما يبدو، لدرجة التدحرج تحت المنضدة، وكان يُحمل من خدامه. وكان "أبو الأتراك" أكثردهاءً من خصومه؛ فتخلص منهم بحجة مظهر وشكل الشرق. فأصدر قانونًا بدأ في 13 يونيو 1935م، يوم تاريخي لتركيا، فقد يتعين على الجميع الخروج

بالزي المدني. لن يسمح بأي زى ديني على أرض الدولة!

حرص أتاتورك على إخطار الأم إلڤيرا، إذ يجب على جميع السكان تطبيق القانون، لكن الراهبات غير مطالبات بمغادرة البلاد. نحن في عام 1935م، فلن يمكنكم أبدًا، وعلى الإطلاق، مقابلة قبعات راهبات، ابتداء من راهبات فتيات الرحمة، وراهبات ألريبوفيليه، إلى الطاقية الصغيرة لل"شانوانيس". ارتدينا شريطة منتشية تحت تُل أسود وقميص أبيض مطرز. كان هذا شيئًا بسيطًا، لكنه جعل منا سيدات عظيمات! بالتأكيد، صدم البيت الأم في باريس لفكرة رؤيتنا بالزي المدني. وكان ينبغي علينا الاتجاه نحو نواحٍ أكثر تحررًا! وقررت الأم إلڤيرا خوض المعركة ورحلت إلى باريس، حيث فشلت محاولتها. حينئذ جاءتها فكرة مضيئة بأخذ رأي الكاردينال المسئول في روما. ولم يتفهم هذا الرجل الوقور، التمسك بعمل نموذج ما لزي ثابت وملائم. يمكننا إذن، البقاء في تركيا. ونجحت الأم إلڤيرا بأن تدعو باريس لإصدار أمرًا رسميًا بعدم الخضوع للزينة!

إنها مسألة رهيبة، إلباس ستين فردًا، من عمر خمسة وعشرين إلى خمسة وسبعين عامًا، الانشغال بموضة اليوم واختراع لكل منهن شكل مختلف (الالتزام بالعلمانية!) والاحتشام (يجب طمأنة البيت الأم!). وانتهى بنا الأمر باكتشاف أم من أسرة شريفة، كانت تحيك ملابسها بنفسها، وبدون تأنق متعجرف. ألم يعلن فينيلون تلك الشائبة المشتركة عند الفتيات؟ وجاءت النتيجة مُرضية. أكدها شاهد: "ترتدي الراهبات زي خدم زهيدة الثمن". اختفى التأنق، واطمأن "البيت الأم" ومعه فينيلون! ثم اجتمعنا سويًا ولبسناه، وبكت كل واحدة منا من زيها المضحك، وسخرت مرة أخرى من صورة الراهبات الأخريات عند النظر إليهن!



كان نيافة رونكالي، يوحنا الثالث والعشرون القادم، منتدبًا رسوليًا في تركيا وكان خاضعًا بدون شك للقانون نفسه. وجاء لزيارتنا بطيبة قلب، وكان شديد السمنة. فهل كان يعتقد حائكه أنه بتضييقه سيتمكن من جعله رشيقًا؟ فكان ذلك يعطي دائمًا تأثيرًا عكسيًا. وكان أسقفنا يشجعنا متضايقًا من نفسه، ومحتفظًا بذراعيه متأبطتين على كرشه. ولم يكن هناك ما يدعو إلى الضيق، إذ بكل وضوح، لم تكن التفصيلة المطلوبة قد وُجدت بعد. واختبرنا جميعًا زيًا آخر، وكان أكثر نجاحًا من الذي قبله. وتركنا الأسقف مباركًا لنا، بابتسامة أخيرة.

بالنسبة لي، كنت دائمًا مهيأة للثورات، ولم يكن ذلك يمثل لي مشكلة ما، بل كانت مشكلة بشكل آخر، بالنسبة للراهبات القديمات. وبتحفيز من الأم إلڤيرا، وبغية البقاء في خدمة شباب الأتراك، كانت تعلمن الراهبات كيفية التضحية بالزى الذي كان يبدو لهن مقدسًا. هذا التفوق كان درسًا جيدًا بالنسبة لراهبة شابة.

أرشدني أيضًا ،المثل اليومي المعطى من الأم إلفيرا، إلى الطريق الذي ينبغي عليّ اتباعه. وفي يوم ما كنت في غرفتي، كانت تعاني حينئذ من صداع نصفي رهيب، ودق التليفون:

- "أجل، إني قادمة.

- لكنكِ تتألمين يا أماه!

- "يمكنني الاعتذار، إذا كان هذا من سفير فرنسا، لكنها المسكينة ماريا، فهي تحتاجني أكثر من أي سفير."

وفي يوم آخر، أراها تُقدِم على اقتصاد قائمة بالطعام من أجل إعطائها لشخصين قد قاما بمحاولة ابتزاز ضدها في حملة صحفية.

فكانوا يستبقون أموالاً من أجل أن يكفوا عن وشايتهم. وتألمت الأم إلڤيرا من ذلك الأمر، لكنها لم تتعثر. ولم يتمكنا من بلوغ غايتهما، ووجد المبتزان أنفسهما في العوز.

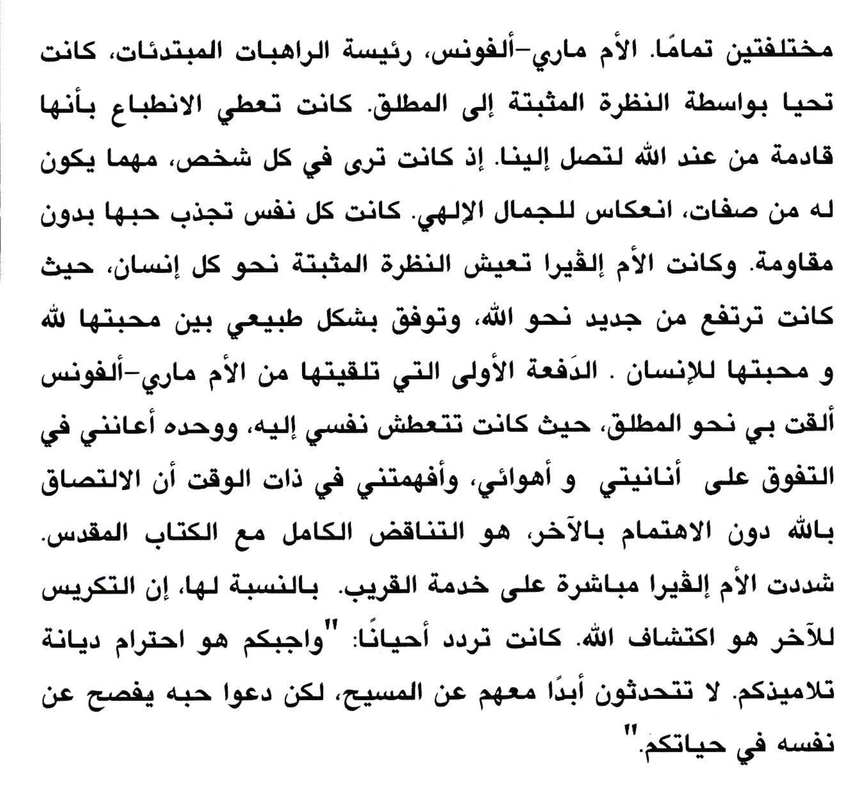
- "لكن يا أماه لقد أخطأ هذان الوغدان في حقِّك! وتمنحيهما خبزًا وجبنًا، إن ذلك أكثر مما ينبغي.

- إيمانويل، ألم يدعنا المسيح إلى الغفران؟ وإلى محبة أعدائنا؟"

كما تعلمت تلميذاتي في " Le Cid"، "فإن الأمثلة الحية ذات قوة أخرى." ومما تلقيته يوضح بقوة النظرية التي تعلمتها في رهبانية المبتدئين.

في عام 1939م، كانت سنة الاختبار العظيمة. مات بيوس الحادي عشر، بعد أن أعاد الاستقلالية للكنيسة بواسطة "اتفاقيات لاتران". بعد مرور عدة أيام، في السادس عشر من فبراير، سقطت الأم إلڤيرا من جراء هجوم، وتركتنا لتلحق ببيت الله الآب. وجاء نيافة الأسقف رونكالي في ذات اليوم ليحتفل بالقداس في وسط جماعتنا. آخر تحية، بالنسبة لها، والعزاء الأخير بالنسبة لنا. كانت مرتدية ومن جديد، الزي الديني العظيم، ولم ينقطع الموكب حول جثمانها، من جميع الأصدقاء، وبدءًا من سفراء جميع الدول المختلفة حتى أفقر الناس، مثل ماريا المسكينة. انبعثت رسالة كبرى، فيما وراء الكلام الطنان المنتشر على مر الأزمان، وهي التأثير غير العادي التي يمكن أن تمارسه امرأة على رأس فريق مكرس من أجل تعليم الشباب، فعندما يتمكن هذا التعليم من تخطي حواجز الجنسيات والأديان؛ فإنها فرصة هائلة بالنسبة لراهبة شابة، عند بدء حياتها الدينية، حيث الغوص في مساحة ذات أفق كبير... كم تساوي أيضًا نعمة استقبال بصمات امرأتين فريدتين، وحاملتين لشخصيتين





مختلفتين تمامًا. الأم ماري-ألفونس، رئيسة الراهبات المبتدئات، كانت تحيا بواسطة النظرة المثبتة إلى المطلق. كانت تعطي الانطباع بأنها قادمة من عند الله لتصل إلينا. إذ كانت ترى في كل شخص، مهما يكون له من صفات، انعكاس للجمال الإلهي. كانت كل نفس تجذب حبها بدون مقاومة. وكانت الأم إلڤيرا تعيش النظرة المثبتة نحو كل إنسان، حيث كانت ترتفع من جديد نحو الله، وتوفق بشكل طبيعي بين محبتها لله و محبتها للإنسان . الدَفعة الأولى التي تلقيتها من الأم ماري-ألفونس ألقت بي نحو المطلق، حيث كانت تتعطش نفسي إليه، ووحده أعانني في التفوق على أنانيتي و أهوائي، وأفهمتني في ذات الوقت أن الالتصاق بالله دون الاهتمام بالآخر، هو التناقض الكامل مع الكتاب المقدس. شددت الأم إلڤيرا مباشرة على خدمة القريب. بالنسبة لها، إن التكريس للآخر هو اكتشاف الله. كانت تردد أحيانًا: "واجبكم هو احترام ديانة تلاميذكم. لا تتحدثون أبدًا معهم عن المسيح، لكن دعوا حبه يفصح عن نفسه في حياتكم."

لم تكن لديّ أنباء سارة من بروكسل. أعلنت لي أمي بدورها، عن مرضها الشديد. وحصلت علي إذن الذهاب لرؤيتها خلال الأجازات. كم أن ذلك مفرح، وهو أن أجدها دائمًا كما هي، قلقة على الآخرين أكثر، من قلقها على نفسها! كان يجب عليّ أيضًا، زيارة القس ريكمان الطيب. وتطلع إليّ بنظرة ثاقبة، في شقته الصغيرة:

- " قولي لي الحقيقة: كيف تمكنت الآنسة سانكان التي أعرفها من التحول إلى الأخت إيمانويل؟

- هكذا أحبني المسيح، واستجبت إليه. هذا كل ما في الأمر!

- لكن لنرى أخيرًا، ألم يكن لديكِ مشاكل؟

- أجل، بدون شك، لكن مع المسيح، هناك مخرج دائمًا... خاصة، سيدي القس، لقد أصبحت حرة، حرة، هل تفهمني؟

- تتكلمين عن الحرية... ألست مرتبطة بالنذر؟

- أجل، إذا أردت. لكن بالنسبة لي، فإن هذا يحررني. إنه مدهش!

- ألا تختنقين في الدير؟"

انفجرت ضاحكة: "أنا؟ لديّ دائما الرغبة في الغناء، وفي الرقص!"

أخذ يفكر:

- "من ساعدك على الغناء؟

- آه هذا هو حظي: معلمة عظيمة من رهبانية المبتدئات وكذلك إحدى الرئيسات... الرائعات! ومن جهة أخرى، أُطبق كل يوم اختبار القديس بولس: "أستطيع كل شيء...كل شيء في المسيح الذي يقويني." نقطة ومن أول السطر! هل تتفهم ذلك كقس؟ ألست أدعى إيمانويل، أي "أن الله معنا؟" ماذا تريد أفضل من ذلك؟ "

بدا وجهه وقورًا:

- الحق معك، إنه الإيمان الذي ينجي. أيتها الأخت إيمانويل، استمري في الغناء!

- أمين سيدي القس.

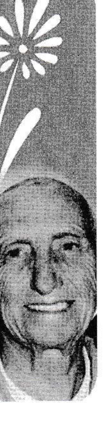
وتركته، فخورة بانتصاري على شكوكه الماضية!

تحسنت صحة أمي، فاطمأننت عليها. وبدأت أصوات الحرب في الانتشار في صيف عام 1939م. فكان ينبغي عليّ الرحيل بدون تأخير إلى تركيا. وبدا الفراق صعبًا. علمت كل منا أننا لن نرى بعضنا قط.



وعند رؤيتي لها - تلك السيدة القوية فيما مضى - شديدة الضعف الآن، وملقاة في فراشها، سألت نفسي: "هل لديّ الحق في الرحيل؟" وتكهنت عن ما يدور في خلدي: "لا تخافي من أجلي، مادلين. هل ترين، إن الهاتف بجانب فراشي. أختك ماري-لو، أو أطفالها يأتون إليّ كل يوم. إنهم يرعونني بشدة. اذهبي، يا عزيزتي إلى حيث ينادي الله عليكِ!" لقد تأكدت الآن من صحة دعوتي، من السعادة التي وجدتني عليها. فكيف لها أن ترنو إلى الاحتفاظ بي، إلى جوارها؟

ضغطة يد وقبلة أخيرة، إذن فإلى الأمام، إلى تركيا...



من الشك إلى الانفتاح

إسطنبول، 1944م-1949م

كانت تنتظرني في إسطنبول رئيسة جديدة، وهي الأم چان-بابتيست، إبنة الجنرال ريبيل، عاشت سنينًا طويلة مع الأم إلڤيرا وأرادت المضي في نفس الاتجاه. كنا سعداء برؤيتها على رأس البيت. كان يبدو لنا أن روح وقلب "أمنا" لا يزال يضيء من حولنا.

كان يتعين عليّ، الحصول علي ليسانس في الآداب، لأصبح على نفس مستوى تلميذات حائزات بالفعل علي شهادة البكالوريا. ووافقت على ذلك الأم چان-بابتيست. ولكن في تلك الأعوام من الحرب، الاتصال بالسوربون كان من الأمور المستحيلة. سجّلت إذن في جامعة إسطنبول للحصول علي ليسانس الآداب. مقرر السنة الأولى، كان يحتوي، من بين جملة أمور أخرى، على مادتي الفلسفة وعلى فقه اللغة. كان أستاذي، في هذه المادة الأخيرة، الأستاذ أورباخ، وكان الأستاذ فيزي يعطيني دروسًا خصوصية في اللغة التركية. استرعى انتباهي قدرتهم الفكرية، والأخلاقية والدينية. وها أنذا، في لقاء مع أديان أخرى. كل واحد منا يتمسك بإصرار بمعتقدات أسلافه الراسخة. ماذا إذن، هل أنا كاثوليكية

لأن أهلي كانوا كذلك، وهذا كل ما في الأمر؟ علام ترتكز إذن ديانتي، والتي هي أغلى شيء بالنسبة لي؟ وما هو دليلي على سموها؟

ومنذ تاريخ هذا اليوم، بدأت أزمة الشك. لم يكن فقط جسدي مشوشًا، بل روحي كذلك. ارتبط الصراع بأرق نقطة في نفسي، في قلب إيماني، وفي معنى حياتي أيضًا. دامت هذه المعركة ضد الشك أعوامًا طويلة ولازالت تحتفظ ببقاياها حتى يومنا هذا...

في البداية، قليل من النجاح، دخلت إلى الحلبة بتوقدي المعتاد. بالصدفة، خلال أبحاثي الدينية، كان عندي أيضًا مقرر تاريخ الفلسفة. اخترت على أساس المنطق، بعض العلوم اليقينية للبحث عن الحقيقة، الحقيقية (بألف لام التعريف!)

في البداية، انغمرت في البحث في فكر الفلاسفة الإغريق لأن ثقافتي الكلاسيكية تدفعني إلى حبهم. أولاً بارمنيدس والوجود الواحد الأبدي غير المتغير، ثم أرسطو ومجهوداته الفائقة في المادة والتي امتدت إلى الفعل الخالص، وبالطبع كان ذلك مرورًا بسقراط وأفلاطون، وانطلقت بمسيرتي إلى الأمام. لكن تبينت بهلع فيما بعد، أن تلك العقليات العظيمة، والتي كانت أضواء باهرة لعصرها، أصبحت موضع تساؤل من آخرين والذين لمعوا بدورهم كقادة للفكر في عصرهم. عشت بخيبة أمل صورة من صور الكوميديا الأدبية، لكن السيناريو كان في تلك الكوميديا أُحادي الجانب. وتوالى بدورهم كل من أرليكان، سكاراموش وغيرهم فلاسفة وقورون آخرون علي الساحة. وفي آخر الأمر، يأتي برجسون، فتنني هذا الحبر الأعظم، للكوليج دي فرانس. لكن عندما رأيت خسوف أسلافه اللامعين كنت واثقة من أن دوره سيأتي ليختفي من سماء الفلسفة.

لم يثبط ذلك من عزمي. لم أكتشف بعد أساسات معبد الحقيقة، لكن

الشيء الجوهري هو الدخول والالتفات إلى خباياه. هأنذا أقتحم تاريخ الديانات. بدأت في دراسة مؤثرة، مؤلفة من أكثر من ألف صفحة. مما وضع قدرتي على الصبر والمثابرة موضع الاختبار واتجهت إليها بقلب طيب. كما عند الفلاسفة، هل ميزت ذلك بالقدر الكافي؟ أجد في كل مكان شعاعًا من النور. ومع مذهب الإحيائية (الذي تقابلت معه فيما بعد في السودان)، ملت نحوالطبيعة وجمالها حيث تحييها الأرواح. فالديانات الشرقية جذابة: بوذا الملقن للشفقة وللهدوء الأسمى، وكنفوشيوس صاحب علم الأخلاق الأسمى. بعد رحلة طويلة، أرجع أخيرًا إلى المسيح حيث أجد - ليس فقط - بعضًا من شعاع الضوء، لكن عقيدة سامية تعلو فوق شمس أية قمة. أجل، لكن أصبح فكري متعقلاً بفعل الفلسفة، أردت براهين على تجسد الله في صورة إنسان، بحثت عن برهان هندسي، وما يجب استنباطه، ولم يتمكن عقلي "المدقق" من الاقتناع.

إلى أين أذهب؟ وما هو المحور الثابت الذي لابد أن أتعلق به للوصول إلى الحقيقة؟

يمر سارتر نجمًا جذابًا يظهر بدوره في سماء الفلسفة. وجوديته الملحدة، حيث يخلق الإنسان نفسه وهو يعمل، لم يتمكن من إفتاني. جذبني على الأكثر كامي، لكن تحليله المتعمق بحث دون جدوى عن مخرج اللا معقولية العالم، دحرج سيزيف صخرته في اتجاه القمم، بيد أنه وجد نفسه غير قادرعلى إيقاف السقوط.

مجهودات هؤلاء العباقرة الأفذاذ من أجل الهروب من كائن ذو شأن رفيع، أعادتني إلى العصور القديمة، إلى بروتاجوراس: "الإنسان هو مقياس جميع الأشياء." أجل، ولكن أي مقياس؟ أخيرًا، هذا الغذاء الأرضي، لم يجلب معنى للحياة. بحثت عن انبعاث للنور والحب. مكثت في الفراغ.

هل سأترك شعاع الكتاب المقدس الذي يتحدى الزمن من أجل عتامة عابرة؟ لا، وألف لا! فليكن إذن، وسط بحر الشك العبثي، أختار الشك، فليعذبني ويضايقني، سأُدافع عن إيماني! أفضل السير في الليل عن أن أذوب في العدم.

في سكون الكنيسة، قراءة الكتاب المقدس تنعش من عقلي الثائر. رددت مع القديس بطرس: "سيدي إلى أين أذهب؟ كلام الحياة الأبدية هو عندك." هذه الكلمات لم يتمكن أي فيلسوف من منحها لي! مضيت والسلام في نفسي، حتي هاجمتني مبارزة شك جديدة.

تلك دراما الإيمان ـ الأكثر إيلامًا ـ أن ميزتها الضئيلة هي أنها كسرت النظرة الضيقة الأحادية الجانب، "فخارج كنيستي، لا سلام على الإطلاق." لكن بعد مرور عدة أعوام، بدأت الكنيسة بأكملها في الإنفتاح كما فعلت، مُظْهِرة احترامًا وصداقة للديانات الأخرى، والتي كانت تقصيها وتنكرها من قبل. بدأت أُدرك أنني لا أمتلك الحقيقة الكاملة والواجبة الوجود. ومن ثمّ سرت بصعوبة للبحث عنها. فالإيمان بحقيقة الكنيسة الكاثوليكية، لا يعني امتلاك كل النور.

اكتشفت قيمًا أصيلة في ديانات وفلسفات أخرى. لماذا أهملتها؟ حدث إذن شكل من أشكال تبديل الفكر البطيء. ما القيمة التي كانت تتاح لي من الإثراء النادر لعذاب شك الرأي المخالف؟ ومن ثم تمكنت من الوصول إلى حوار مفتوح وصريح مع رجال ونساء من جميع المعتقدات في العالم.

في الغرب، كانت الحرب العالمية الثانية (1939–1945) بعيدة جدًا عنا. لم نتخيل مدى قسوة الاضطرابات التي ستقع فيما بعد على الأرض. كنا قلقين على أوطاننا، أسرنا وأصدقائنا. ظلت تركيا محايدة، ومانحة





الأمن. أما البلاد الأخرى، بعيدًا، فكان ينقصها الكثير؟

في ذلك الوقت، عقدت صداقة قوية مع السيدة مانو، إحدى السيدات الآتيات للاستجمام في منزل ثيرابيا في العطلات. علم زوجها اليهودي - مثلها - أن هتلر قتل أسرته. لم يستطع تحمل هذه الصدمة الرهيبة. وجدته زوجته، يومًا ما، راقدًا على الأرض، مختنقًا من الغاز الذي تركه مفتوحًا. ها هي مآسي الحرب قد طالتنا. احتاجت زوجته إلى الحنان لتسترجع ثقتها بالله وبنفسها.

قمت مع الراهبات بذلك الواجب. كانت ابنة لأحد الحاخامات الكبار في تركيا، رجل لا يمكن مقابلته دون احترامه أو الإعجاب به. طلبت منها دراسة الأصحاحات الأولى من سفر التكوين في التوراة معًا. وأن ننقل كل ما ليس علينا فهمه لأبيها. تعب جسدها وفكرها من تلك الأبحاث، وبدأت تسترخي، ورويدًا رويدًا ملأها السلام. استهوتنا رؤية العالم والإنسان المقدمة بالشكل المصور والملائم لشعب لا يزال طفلاً. لم نكن نبحث طبعًا عما لم يتمكن النص من تقديمه (مثلاً: النظرية العلمية لتطور الأرض)، لكن بالأحرى على إجابات للأسئلة الأبدية: من أين يأتي العالم؟ من هو الله؟ من هو الإنسان؟ ما هو الخير، الشر، والموت؟ وفي وسط أبحاثي القلقة، جلب إليّ هذا الغمر التوراتي فيضًا من الانتعاش والسلام.

يهودية ومسيحية منحنيتان سويًا على نصوص مقدسة. حينئذ دخل الحاخام الأكبر في السياق. لم نصل بعد إلى عصر البابا چون بول الثاني في 1990م، فقبل خمسين عامًا لم تكن ثمة علاقة بين اليهود والكاثوليك! دخول حاخام إلى بيت راهبات كاثوليك كان بمثابة معجزة. مع هذا العجوز النبيل ذي اللحية البيضاء، تنزهنا ببطء سويًا بطول البوسفور.

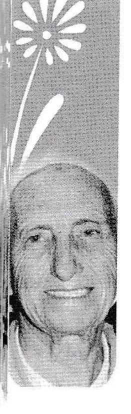
سألته عن المزامير التي يتلوها كل يوم لتمجيد الله، بغية الانضمام

أيضًا. شعرنا نحن الإثنين بنفس "طول الموجة" . ووعدني بمنحي القائمة. جاءت إلينا إحدى الراهبات السابقات، الأم آن-ماري، مسرعة: "صاحب الغبطة، هل يمكنك الدخول إلى الكنيسة؟ ـ بكل سرور!" رأيناهما بانفعال يتقدمان يدًا بيد وينحنيان سويًا أمام المذبح. تبتسم أم المسيح، من تمثالها، إلى ابن شعبها، الذي كان يصلي مثلها إلى إله إبراهيم، وإسحق ويعقوب.

انتهت العطلات، وتركنا البوسفور متجهين نحو المدينة. وبعد قليل، دق الهاتف: "الحاخام الأعظم سابان أسلم روحه إلى إله آبائه". ذهبت بقلب مثقل مع راهبة أخرى إلى قبره. يرقد جسده مباشرة على الأرض، مكسوًا بالزينات الطقسية، ومحاطًا بالشموع. التف حوله حاخامات متمتمين بالمزامير. أمدتني السيدة مانو، باكية، بورقة كان قد كتب فيها والدها، ليلة وفاته، المزامير التي يرفعها كل يوم إلى الله. ويخيل إليّ سماع شفتين متمتمتين: "أكملي صلاتي". وأتأمل وجهه إذ يكسوه الهدوء، فأجبته "أجل".

اقترحت في نفس تلك الفترة، على تلميذاتي اليهوديات، إعطائهن كل سبت بعد الفصل الدراسي، درسًا عن الكتاب المقدس. وافقن في حماسة ولاحظت عند بنات إسرائيل هؤلاء تعطشًا لله. انغمرنا في العهد القديم. استهوتهن قصص البطاركة الأوائل. بحثنا معًا لمعرفة: "إشارة الله" لشعبه المختار.

سألتهن يومًا ما: " اسردوا لي الوصايا العشر". لم يعرفها أحد! دعوتهن لفتح سفر التثنية الأصحاح السادس، في الكتاب المقدس. إحداهن شرعت في القراءة باحترام: "اسمع يا إسرائيل.. الرب إلهنا رب واحد... فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك." عادت فجأة



تلك الشابات اليهوديات ثلاثين قرنًا إلى الوراء، حيث الزمن الذي نطق فيه موسى هذه الكلمات أمام أسلافه. شرحت لهن: "هذا النص هو من أكثر النصوص المقدسة في العالم، كما أنه أيضًا أصل اليهودية". خيم الصمت كما يحدث عند إدراك أي شيء مقدس. ثم أضفت أخيرًا: "لو كنت مكانكن، لرددته كل يوم. كما كان يفعل أسلافكن، في كل جيل، فلترنموه أنتن أيضًا من الآن فصاعدًا!" بعد عدة أعوام، كانت لديّ الفرصة لمقابلة إحداهن، حيث قالت لي مبتسمة: "أيتها الأخت إيمانويل، هل تعلمين؟ أسرد كل يوم من كل قلبي، الشيما (الوصايا العشر) إنها من أكثر الهبات التي أخذتها عنك، أليس كذلك؟"





رواد الحوار

كانت طالباتي اليونانيات الأرثوذكسيات متعصبات جدًا. فمجتمعهن لم يزل يختزن في ذاكرته ـ بمرارة، وأي مرارة! ـ تلك الذكرى النافذة لحملة الفرنجة الرابعة التي دمرت القسطنطينية، وأضعفت الإمبراطورية البيزنطية مما سمح بانتصار الأتراك عليها. كيف يمكن هدم الجدارالمرتفع، منذ ذلك الزمن (والذي نعيه تمامًا) ضد كل ما هو كاثوليكي؟

لقد اقترحت عليهن يومًا: "أتردن أن نصلي معًا ثيئوطوكية، "أم الله"؟ إن الأم وحدها هي التي تستطيع أن تقرّب بين أبنائها المنفصلين". فرنمن لها واحدة من ترانيمهن المريمية الجميلة، ثم قلت لهن مبتسمة: "بولي كالا! حسن جدًا! إذن يا فتياتي، سنذهب يوم السبت بعد الظهر إلى فانار لكي نصلي عند القديسة إيفيمي، ونرى قداسة البطريرك أثيناجوراس؟" فنظرن إليّ، متعجبات. قالت بولشيري باسم الجميع:

ـ "أيها الأخت، أتريدين أن تذهبي إلى بطريركنا "نحن"؟

ـ بكل تأكيد، ولمَ لا؟

ـ إن فاجأكِ باستقبالنا نحن من دونك (في تلك الفترة، لم يكن لنا، نحن الراهبات الكاثوليكيات السماح حتى بدخول كنيسة أرثوذكسية:

كان يجب الإعتراف بذلك أمام كرسي الاعتراف.)

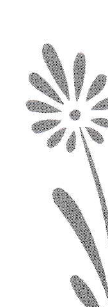
ـ لا يبدو أن أثيناجوراس من ذلك النوع، أليس لديكن ثقة بالقديسة إيفيمي؟

ـ آه أجل!" رددن كلهن في نفس واحد.

وفي يوم السبت التالي، صلينا أولاً بكل تقوى أمام القديسة إيفيمي والتي كانت، متسربلة بوشاح شهاداتها العذراوية الجميل، تستقبلنا في هدوء الأبدية. ثم حييت الجسد في ذات المكان الذي منه انتهر القديس يوحنا ذهبي الفم، كما يقولون، سيدات البلاط الملكي الجميلات: "ويل لكن يا نساء طبقة النبلاء اللاتي يستعملن أحواض حمام ذهبية بينما يتهاوى الفقراء جوعًا على أبوابكن!" إن ذاك الأسلوب المتشدد أصبح للأسف منذ ذلك الوقت غير قابل للتطبيق في الكنيسة! ويجدر القول هنا أن ذلك الكلام العنيف كلف القديس يوحنا ذهبي الفم غاليًا: فلقد أرسلته الإمبراطورة تيودورا إلى المنفى حيث مات هناك.

وصلنا إلى مكتب يسبق صالة الاستماع، فرماني كاهن أرثوذكسي يلبس غطاء رأس مهيب بنظرات قوية. إذا كانت عيناه أسلحة نارية لكنت سقطت فاقدة الحياة! أخذ يناقش باللغة اليونانية طالباتي بسرعة قصوى. وفي النهاية، ذهب لينبه أثيناجوراس بتلك الزيارة التي لا تصدق: راهبة كاثوليكية تطلب لقاءً مع بطريرك أرثوذكسي!

حسنًا، لقد كانت معجزة ليس إلا: فقد تم استقبالنا بأقصى احتفاء، بأقصى احترام، بأقصى رحابة صدر، وبأقصى رقي! رفع ذراعه ليأخذني للحظة تحت معطفه الكبير ورأيت ابتسامته لي بين شعر لحيته البيضاء: "شكرًا لحضوركن! قالها لي بحرارة، لن نضطرب بالأحداث التي تجري من حولنا فالبانتوكراتور (المُعزي، الروح القدس)، القادرعلى كل شيء، أقوى من الإنسان!"





تحادثنا كثيرًا كأننا أصدقاء قدامى وبدأ يحكى لنا وهو ينظر من وقت لآخر إلى (حورياتي) فتياتي إيوتيرب وكليو ومن معهن: "لما كنت في بوسطن، كثيرًا ما كان للكاثوليك والأرثوذكس أعيادًا مشتركة فأمريكا، كما تعلمن، بلد الحرية!" كانت الفتيات تنظرن إليه بشيء من الدهشة. "لابد من الصلاة، يا صغاري: أود مقابلة البابا بولس السادس، ولكن السؤال هو أن نجد المكان. الروح القدس، هو الذي سيعرف كيف يقودنا إليه!" كانت عيناه العميقتان تنظران إلى المدى البعيد. لقد صمتنا معه وكلنا تأثر. لقد كان ذلك الرجل رمزًا للرائد، نبي. لقد تكلم إليه الله: فقريبًا، كان سيبعث به إلى أوروشليم ليعانق أخيه بولس.

لقد كان لذلك اللقاء مع البطريرك أثيناجوراس، رائد العمل المسكوني، تأثيرًا عظيمًا في حياتي. لقد ذكّرني بصلاة المسيح في العلية، الليلة التي سبقت موته: "ليكن الجميع واحدًا، كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضًا واحدًا فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتني[13]". لقد حثني أثيناجوراس لأن أستخدم كل ما في وسعي لكي أعيد ولادة الحب، مثله، بين طوائفنا المسيحية المنقسمة. كم هو أمر مشين ذلك الذي تسببه، أمام العالم، صراعاتنا التي لا تتعدى كونها تافهة!

كان أساسيًا أن أعرف لغة وثقافة البلد التي قد أقمت خيمتي على أرضها. لم يكن في نيتي أن أفعل هذا في ذلك الوقت. ومع هذا فقد شجعتني على ذلك الأم إلڤيرا بأن عهدت لي بالأستاذ فيزي كمدرس، أعظم رجال العالم، "الموهوب" في مفردات اللغة التركية القديمة والحديثة،. وتقدمت معرفتي باللغة التركية إلى الكمال.

لقد أصبح ذلك معروفًا؛ فجاء خطاب من الأسقفية: هل يقدر الأستاذ

13- يو 21:17.

فيزي، بمساعدتي، أن يترجم برنامج التربية المسيحية إلى التركية؟ لقد كان ذلك عملاً رائعًا، تتخلله حوارات مشوقة مع ذلك المسن. ووصلنا إلى فصل تجسد المسيح. بابتسامته المعهودة، بدأ يروي لي ببساطة حلقة من حياته: لما كنت صبيًا، كان أبي يكلمني عن مريم العذراء التي ولدت يسوع حسب الإعتقاد الذي يعلمه ديني. فتجرأت بتعليقي معترضًا: "ولكن، يا بابا، لا يمكن أن يكون لعذراء ابنًا!". فما كان من أبي إلا أن أعطاني كفًا مازلت أحسه على خدي حتى الآن؟" أنت ستؤمن بعذراوية مريم، نعم أم لا؟ لقد أعانني ذلك الكف طوال حياتي: فمنذ ذلك الوقت لم أعد أتشكك أبدًا!" كأنه، عند البعض، الحجج القوية تظل هي الأفضل دائمًا!

كنا نترجم الأسئلة والإجابات الخاصة ببرنامج التربية المسيحية حول الإفخارستيا، المسيح الحاضر في الخبز المقدس في القداس. تلك المرة، توقف الأستاذ فيزي:

- "أيتها الأخت إيمانويل، أنتِ رغم كل شيء سيدة ذكية، كيف يمكن أن تؤمني بذلك؟"

- سيد فيزي، أنت رغم كل شيء رجل ذكي، كيف يمكنك أن تؤمن بعذراوية مريم؟ أبسبب الكف الذي أعطاك إياه والدك؟"

فضحك من كل قلبه، وقال:

- "حقًا، إنه الإيمان، هذا لا يمكن مناقشته!

- أترى يا سيد فيزي، كنت أتقدم إلى سر التناول كل يوم منذ سن الثانية عشر. وعشت الاختبار الشخصي بالقوة التي يأتي بها ذلك الذي آمنت بأنه حاضر في ذلك السر.





- إنني لا أُجادل في اختبارك هذا، ولكنه شخصي، لا يمكن إعلانه.

- بالتأكيد، فيجب معايشته أولاً لكي نفهمه.

- حسنًا، حيث أنني لم أعشه..."

وبابتسامة عريضة انكب على النص لترجمته.

لقد كان السيد فيزي، الجدير بالإعجاب، يريد أن يساهم في إعطاء الشباب المسيحي ذي الجنسية التركية برنامج التربية الدينية .لقد رفض أي مقابل مادي، سعيدًا بأداء الخدمة: لم يكن هذا على الإطلاق بالشيء العادي، فقد كان ذلك سيجعله، بلا تراجع، موضع انتقاد من متعصبي اليوم. لقد كان الرجل نموذجًا فعليًا للا تعصب. لقد عرفت الأم إلفيرا من ستعهد به إليّ لدراسة اللغة التركية، ولكن أيضًا وفوق كل شيء، لتَعَلّم احترام الآخر في إطار هويته. هل كنت سأقبل، أنا، أن أُترجم إلى الفرنسية برنامج تربية دينية لشباب المغاربة الذين لا يعرفون العربية؟ لست متأكدة من ذلك؟ حقيقي إننا، في مدارسنا، نحرص كل الحرص على أن يتم تعليم الدين لغير المسيحيين بواسطة أستاذ متخصص من دينهم. وفي واقع الأمر، منذ إرسال المرسلين الأوائل، كان البابوات يطلبون من المرسلين دائمًا احترام حق الوالدين المقدس في تربية أبنائهم في إطار ديانتهم الفعلية. ولقد قرأت بإعجاب الوثائق القديمة المرسلة بذلك الصدد منذ القرن السادس عشر. إنهم، بنوع خاص، حازمون بشأن ذلك الجانب الخاص باحترام الحرية الدينية. وفي ذلك الشأن، ليس لنا ما نُلام عليه من العالم . ومن دواعي السرور، أن المرسلين الذين يجذبهم العمل في أفريقيا، الآباء البيض، يكنون دائمًا احترامًا عميقًا للإسلام وتقاليده.

ترك رجل آخر ذي قيمة كبيرة، الأب جوتييه، بصمته على تلك الفترة من حياتي. إنه راهب فرنسيسكاني كان يجمع بين حياة روحية متعمقة

وذكاء نادر. ولكونه أستاذًا للفلسفة، عندنا في المدرسة الفرنسية- التركية للبنين، فقد أصبح "أب اعترافنا غيرالعادي". وكان هناك أب آخر يأتي كل أسبوع لسماع اعترافات الأخوات. أما هو فكان يحضر على فترات متباعدة أكثر لأولئك اللاتي يردن استشارته. كان اتجاهه الروحي ملزمًا ومتحررًا في نفس الوقت. فمن ناحية، لم يكن يسمح بأي تقصير في المحبة ("أتتجرأن على القول بأنكن تحببن المسيح، وتجرحون أعضاءه؟"). ومن ناحية أخرى، كان يخفف عبء الشعور بالذنب عن الضمائر، مكررًا بكل رضا مع القديس أوغسطينوس: "أحب وافعل ما شئت". لقد كان يسعى لأن يضع في أذهاننا أن الحب الذي يحيي كل شيء هو بالحري أهم من النظام، وأنه يغطي أي تعديات لا يمكن تجنبها. لقد كانت محاضراته الروحية تلهمها نفس الروح، فنفحتها كانت كتابية، ومدخلها السيكولوچي كان يلتحم بالواقع.

لقد قبل أن يعطيني محاضرات الفلسفة لكي أستكمل الإعداد للإمتحان الجامعي. وفي نفس الوقت، وجّهني إلى اللاهوت، هذا المجال الذي كان ينقصني حتى ذلك الوقت. ولم تدهشه تشككاتي المستمرة حول الإيمان: فقد كانت روحه متسعة جدًا وذلك من خلال علاقاته مع خيرة مفكري إسطنبول، الأتراك والأجانب. لقد كان يعي أسباب اللا يقينية المعاصرة. لم يكن الملحد بالنسبة له أكثر من "خاطئ ليس له علاقة بالله"، ولكن في الكثير من الحالات، يكون إنسانًا سالكًا بحسب ضميره المستقيم: وإذ أنه قد تشكل على ألا يؤمن إلا بعد التجربة أو التفكير العقلاني (الترجيح)، فهو لا يمكنه الموافقة على ضمان إله لا يراه في وسط كون مأساوي.



لقد كان الأب جوتييه يعيش على إيمان أستاذه، فرنسيس الأسيزي. وبعيدًا عن مناقشات العارفين، كان يثبّت أنظاره على المسيح والصليب. كان عقله يُعمِّق البحث عن الحقيقة، ولكنه كان يعرف حدود العقل. لقد كان يتبع فلسفة باسكال ووجد في ديانته "ما يكفي من النور للذين يؤمنون، وما يكفي من الظلام للذين يشكون". وإذ تمت سيامته أسقفًا للكاثوليك اللاتين في تركيا، استمر في العمل للتقارب مع الحكومة التركية ذلك العمل الذي استهله "المندوب (الزائر)" الرسولي في تركيا ويوحنا الثالث والعشرون المقبل، المونسنيور رونكاللي. ولما خبا نور الأسقف جوتييه في سن الثلاثة والثمانين، جمعت جنازته، مثل الأم إلڤيرا، مسيحيين، وغير مسيحيين في نفس الصلاة . واتحدت الصحافة التركية، بالإجماع في تلك المناسبة لتأكيد تسامح الأستاذ وولاء الصديق ووفاء خادم الشعب التركي.

لقد أسعد واحد من تلاميذه القدامى والذي أصبح أستاذًا بالكلية، أن يكتب: "إنني ابنه الروحي، لقد قادني إلى الله من خلال احترامه لعقيدتي" وكثير من الآخرين استعملوا نفس التعبير. وقلته أنا بدوري: لقد قادني إلى الله. لقد قادني أيضًا إلى الإنسان، على طريق بدأت أستشعر فيه الرحابة الحقيقية: بالتركيز على قيمة الشخص بما يتجاوز كل انتماء ديني، سياسي أو ثقافي.

لقد كان ذلك المنظور الجديد يتجسد في نفسي: أن لا يستغرق المرء في هويته بل يلتحم مع الآخر. ولقد شاركني الأسقف رونكاللي تلك الرؤية. فقد كنت حاضرة في كاتدرائية إسطنبول يوم العنصرة الشهير ذاك حيث، قرأ معلنًا بصوت راسخ، أمام حشد ضم سفراء وقناصلة، الإنجيل بالتركية! وعلى ما يذكر المسيحيون، لم تتردد أبدًا تلك اللغة في الليتورچية (الصلوات في القداس) المقدسة! لقد كانت تلك المبادرة أول

فصل من فصول "لقاء الثقافات". فأخذت الكنيسة في تركيا على نفسها أن تتواءم مع الثقافة التركية وصولاً، حتى، إلى لغتها، حتى إلى تجسيد كلمة الله في "جسد" أجنبي. ولما أصبح البابا يوحنا الثالث والعشرون، شرع يدعو كل الكنيسة الكاثوليكية الجامعة للدخول في طريق الانفتاح وهو، طريق الاحترام والحوار.





في النضال

كانت الأم إلڤيرا تخشى الصعوبات التي كان عليّ أن أجتازها مع رئيسات أديرة أقل انفتاحًا. لم أجد أبدًا أي مشكلة في طاعتها أو طاعة الأم ماري-ألفونس. لقد فرض سمو ذكائهما وقلبهما نفسه عليّ. لم يكن للاتي خلفنها بعد ذلك نفس باقة المواهب النادرة تلك دائمًا. ولو كنت أقل تعاليًا لتمكنت من تفهم الموقف ومساعدة كل منهن، بدورها، على أن تأخذ الخلافة المتزايدة في الصعوبة. إنني أتكلم هنا عن واحدة من أكبر ضعفاتي: اعتقادي بأن وجهة نظري هي وحدها القيِّمة ورفض - باحتقار أحيانًا - وجهات نظر الآخرين. كان عدم استعدادي للتوافق يبث مشاعر عدائية بشكل يجعلني في أغلب الأحيان ألحق الضرر بأفضل ما كنت أريد الدفاع عنه.

كانت الطيبة الفطِّنة التي تتحلى بها الأم إلڤيرا تخفف من الانضباط البالغ الصرامة. كانت توصي بالترفع السلس فوق التعديات الصغيرة. وللأسف، جاءتنا، يوم ما، رئيسة من نظام أنجلو-ساكسوني للتحكم في كل شيء.

لقد حملت تلميذات الفصول النهائية مسئولية مراقبة ارتداء بقية التلميذات قبعة مدرسة سيدات سيون في الشارع ومراقبة صمت الطوابير

في ممرات المدرسة. وكان يجب عليهن تسليمها أسماء المتمردات. فرفضت بشدة ذلك التشجيع على القيود. ولما كانت تلك الأم، التي كانت تعاني من صحة ضعيفة، تحاول أن تماثلني، مرضت. وذهبت لأعرف أخبارها. ولما اقتربت من سريرها وجدتها تتنفس بصعوبة فخطر لي خاطر فظيع: "فلتمت! وتغرب عنا!"

في الكنيسة الصغيرة وقفت في صمتي، لم أكن معتزة بنفسي أمام الرب: "ماذا فعلت بوصيتي: "أحبوا بعضكم بعضًا" حب غريب يتمنى موت الناس!

كان الحوار، الذي من نوع "دون كاميللو"، مستمرًا:

- "يارب، أنت على حق، ولكن ألم تكن هي إنسانة لا تُحتمل؟" وبدا لي أن الرب يجيبني:

- "وأنا، ألا أحتملك منذ زمن بعيد! وتلك الأخت، ألم يكن لديها إلا أخطاء؟"

- لا إنها دائمًا، وفية، عادلة، إنها حتى طيبة، وتحبها تلميذاتها إلى حد العبادة ولكني لن أتوافق أبدًا معها!

- ولو كنت أقل تشددًا؟

- أجل سأحاول، يارب، ولكنها ستكون، مع ذلك، أفضل في الفردوس، بالقرب منك... ولكن، إن أردت لها أن تعيش ساعدني على تحملها!

لم تمت وبذلت أنا مجهودًا وهي أيضًا: ومشى الحال بصورة أفضل إلى حد ما!

لقد كُتب لي أن يقوم قدري على النضال. كنت أزور في أغلب الأحيان المتاحة مدينة العشوائيات (عشش الصفيح) في تنك ماهاليزي "حي



عشش الصفيح" والذي جذبني أكثر فأكثر. لقد كنت أتأمل في أي وضع كان هؤلاء الناس يعيشون. أكواخ حقيرة في صفائح قديمة، بدون ماء ولا تدفئة، ولا ضوء. وإذ رجعت إلى الدير، الله يعلم أنني لم أجد فيه أي تنعم. فقلايتي قد كانت محشورة تحت سقف مائل، كان عليّ أن أحني رأسي لكي أنفذ إليها. وبعد ذلك كنت مسئولة عن عنبر المقيمات بالدار. لم يتح لي ذاك إلا مجرد مكان لسرير ومنضدة. ولكن كان عندي الكهرباء وسخان وصنبور مياه على بعد أمتار. وفي المقصف، كان الطعام بسيطاً، ولكنه وفير. كنت آكل جيداً. وفي عام 1940م بدأت فكرة تستحوذ عليّ: أن أذهب لأعيش في تنكي ماهاليزي، مثل الفقراء ومعهم. لم يكن هناك ما يمنعني، إذا ما شاركتهم حياتهم، أن آتي كل صباح إلى المدرسة. إنني سأستطيع بذلك، بطريقة أسهل، أن أجعل تلميذاتي الغنيات يفهمن واجبهن في التضامن مع الآخرين.

كتبت إلى باريس، إلى رئيستي العليا. ووصلت الإجابة: "الأخت العزيزة إيمانويل، للأسف، يستحيل عليّ تلبية رغبتك. إنها رغبة حسنة ولكن قواعدنا تستلزم، كما تعرفين، الرجوع عند غروب الشمس. كيف أستطيع السماح لك بمشاركتهم الحياة ليلاً في ذاك الحي الفقير؟ يجب عليك الإختيار: إما أن تمكثي في رهبانية سيون متمسكة بالقواعد التي أخذتيها في المرحلة الإبتدائية للرهبنة أو ـ إذا ما كنت تعقدين العزم على أن تتبعي ميلك هذا ـ فلتبعثي لي طلبًا رسميًا للرحيل وسأقدمه إلى روما. صلي وفكري قبل اتخاذ قرارك. أما بالنسبة لي، فأنا أطلب من الله أن يعطيك التمييز بشأن دعوتك."

ماذا كان عليّ أن أفعل؟ كنت أصلي كثيرًا لكي أستنير. لم أكن أعرف جيدًا إلا ضعفي. في إطار الدير، أياً كان "صهيل" (جموح) طبيعتي، كان "الحيوان الرابض" على باب روحي يمكث مقيدًا. كنت في مأمن: فالحياة

في وسط الجماعة كانت تأتيني بدعم مستمر: الصلاة الجماعية في كنيسة الدير والتي تذوقتها بنوع خاص، المحاضرات الروحية، نصائح أب الإعتراف المستنير، العلاقات الأخوية ـ والتي توّلد أحيانًا الصعوبات ـ كل شيء من حولي كان يتسابق لكي يغمرني في مناخ من الاسترخاء والسلام. ولكن وأنا وحدي، متروكة لطبعي الذي يتقلب بسرعة بالغة، ما الذي سيثبت لي أنني، آجلاً أم عاجلاً، لن أترك نفسي أنجذب بعيدًا، وربما بعيدًا جدًا، عن هدفي الأسمى الجميل؟

هناك، مرت بإسطنبول راهبة من النمط الغير العادي الذي يمكن أن يرفعني: الأم مادلين يسوع، مؤسسة رهبانية دي فوكو . لقد عبرت أوروبا على عربة في طريقها إلى أوروشليم! مكثت عدة أيام عندنا، وخلال نزهة مع الجماعة، شرحت لنا قاعدة جديدة كانت قد أسستها: المشاركة في الحياة، في المأكل وفي المسكن، مع أشد الناس فقرًا، وذلك بالعيش بشكل أولي في بلاد أفريقية والعالم الثالث. لقد اتخذت، كنموذج للملبس، "السارو" الذي نرتديه عند العمل الشاق. لقد كنت منبهرة. تبعتها إلى مخدعها وقلبي ينبض بقوة:

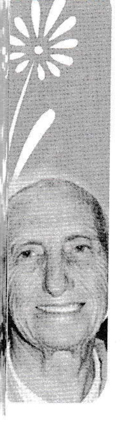
ـ "يا أمي، لقد تحقق حلمي! إنني أستطيع أن أبقى راهبة وأعيش فقيرة مع الفقراء! خذيني في معهدك.

ـ أيتها الأخت إيمانويل، إن هذا مستحيل."

فانتفضت قائلة:

ـ "لماذا؟ إنني مستعدة لكل شيء، أن أحيا أو أموت، ولكن وسط الفقراء.

ـ مستحيل، لا أستطيع أن أقتلع أختًا من رهبانية سيون.



ـ تقتلعيني! كلا! إنني أنا الذي أهرع إليكِ!

ـ لا، أنت لا تفهمين. إنني أدين بإمتناني الأكبر لأخواتك، أخوات سيون. لقد بدأنا في تونس، من لا شيء ولا مكان. واستقبلتنا الأم مارثان بكرم غير معقول. وضرب التيفود الدار، فقارب أخواتها وأخواتي على الموت. فكرست نفسها كل يوم وكل ليلة. كرست الوقت والمال، لم تمنع شيئًا عنا حتى نجونا كلنا. لا أقدر أن آخذ أختًا من أخوات سيون!"

انهار كل شيء... يا له من عذاب مرير: فالهدف الأسمى الذي كنت دومًا أظمأ إليه بكل جوارحي كان متجسدًا أمامي، يعتنقني جسدًا وروحًا، وها هو لم يعد إلا سراب! كنت يائسة. كنت أتكلم بكل كياني عن مدينة العشش الصفيح بتنك ماهاليزي. فختمت الأم مادلين يسوع بقولها لي: "يجب الانتظار، أيتها الأخت إيمانويل، لعامين أو ثلاثة، حتى تكتب لي رئيستك العليا... ولكن الآن، لا، إنني سأرفض."

ذهبت إلى كنيسة الدير أشكو: "لا يصح أن يكون الأمر هكذا يارب! ما كان يجب أن ترسلها لي... إنها تشعل النار وبعد ذلك، تنجو بنفسها وأبقى أنا في اللهيب. ألا يؤثر معك هذا يارب؟" وفي عمق روحي، كانت الحكمة تتكلم قائلة: "لابد من عبور النار لا الارتماء فيها." "إن الصبر ينال كل شيء"، كما كانت القديسة تريزا دافيلا تقول.

إن ضيق صبري وكلامي المباشر هما بالأخص اللذان حددا رحيلي من إسطنبول. وكنت قد لاحظت أن نفسي، التي تتجاوز ثوريتها وعدم استعدادها للتفاوض كل الحدود، قد جعلت صبر رئيساتي ينفذ فقد شعرن بأقصى درجات الرفض من جانبي للنظام الجامد الذي تنوء التلميذات تحت ثقله والتطبيق الصارم للقوانين الدينية.

وبخصوص ذلك، كان هناك مثل بسيط يرجع إلى ذاكرتي. فبعد ظهر

يوم ما، في ثرابيا، في وقت الراحة، كنا نتمشى في ممشى يطل على البوسفور. حيث كانت الريح تهب، والأمواج تفيض على الكورنيش. لقد رأينا صيادًا يرمي حباله إلى المرساة دون جدوى، فتأرجح مركبه منعه من الإمساك بعمود الرصيف. كانت الأخوات يشاهدن المنظر مع رئيسة الدير، وهم يتمنين أن يستطيع الصياد ربط مركبه بعد كل هذا العناء. وما كان مني إلا أن صحت:

- "ولكن يا أمي الرئيسة، هل سنظل وقتًا طويلاً نتأمل بشفقة ذلك الرجل، ألا يمكنني أن أنزل على الطريق لأساعده؟

- لا أيتها الأخت إيمانويل، لا تخرجي!"

لم أجب بشيء وابتعدت عن الأسنان التي تصر غضبًا. لم أكن أعرف كيف أتمسك بموقفي بلطف، بابتسامة: "آه! يا أمي الرئيسة، الرجل المسكين، إنه لم يعد يقدر!" تلك الرئيسة، التي تستند إلى القواعد، كانت مع ذلك طيبة جدًا. فبقليل من الأدب كنت سأصل بها إلى أن تترك قلبها يتكلم أكثر من القواعد: "إن الأخوات لا يجب أن يخرجن إلا في أندر الحالات الممكنة."

وتحت الإضاءة الخافتة بكنيسة الدير، قدمت شكواي إلى الرب: "أليس من الغباء تفضيل حرفًا ميتًا على مساعدة نفسٍ حيةً! بكل تأكيد، لم يكن هذا المسكين في خطر، ولكنه كان يعاني!" ودوت الإجابة في أعماق قلبي: "متى ستعرفين أن تجعلي طلباتك مقبولة؟"

أخيرًا، جاءت لنا رئيسة أصغر مني سنًا، لم تكن على استعداد لتحمل شخصيتي الحادة. وفي يونيو ١٩٥٤م، تلقيت من الرئيسة العليا بباريس "طلب طاعة" للذهاب إلى تونس.



"الرحيل، هو الموت إلى حد ما"، إنه موضوع أحبت طالباتي صياغته. وكان عليّ أن أعيشه في ذلك الوقت. الأخوات، الأطفال، الدار، والبلد... كم كنت أتمسك بهم: الحصة المفعمة بالمشاعر مع الشباب الذين يبحثون، الصداقة العميقة التي ارتبطت أواصرها مع جماعتي، تركيا التي خطت خطوة عملاقة مع أتا-تورك، إسطنبول ومزاراتها الرائعة مع تلميذاتي - القديسة صوفيا والقرن الذهبي، البوسفور والمارمارا - وفوق كل شيء، كنيسة الدير التي كنا نصلي فيها مع العذراء التي كانت تبتسم لي! لقد كان قلبي ملتصقًا حتى بحجارة الفناء، وهناك، بالقبر الذي رقدت فيه الأم إلڤيرا التي قد عاشت أمام عينيّ حبًا كبيرًا حتى الموت.

لقد توقفت الحرب مع تقدم قوات الحلفاء بزحف القوات من الشرق ومن الغرب تجاه برلين، وانتحار هتلر، والمأساة الذرية في هيروشيما وناجازاكي. تملك منا الرعب، كنا نهرب من "الألم الأقصى للإنسان[14]"، ولم نتلقّ إلا القليل جدًا من صدى المآسي التي عذبت العالم!

أما بالنسبة لي، فقد كنت أسمع دعوة الله من جديد لإبراهيم: "اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أُريك.[15]" حسنًا أن نعرف كيف نشارك تباعد آلاف الأنفس عن ديارهم، رحيلهم بعيدًا، تجاه أراضي الوحدة! هيا! إلى الأمام، مثلهم، يا إيمانويل، لكن إلى تونس!

كنت سأعبر صحراء التجربة.

---

14 - مز 73 (72):5.

15- تك 12: 1-3.

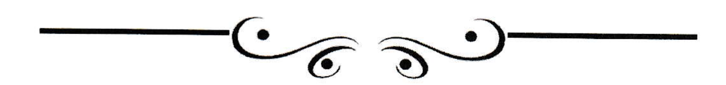




الجزء الثالث

ارتحال من بلد إلى بلد

1955م–1971م







صحراء التجربة

تونس، 1955م– 1959م

وصلتُ إلى تونس وكنت أتمتع بسمعة جيدة، كمعلمة يمكنها فرض النظام، محبوبة وموضع احترام. ولكن بنات المستعمرات الفرنسيات في طيش وتذبذب يبلغن من العمر اثنتي عشر وثلاثة عشر عامًا، وهو عمر الفصلين الذين كنت مسئولة فيهما عن أربعين فتاة، لم يكن لهن أي وجه شبه بتلميذاتي الأتراك ذوات الأعمار ما بين السادسة عشر والعشرين، الراغبات في التعلم.

مازلت أتذكر الساعة الأولى التي كنت فيها واقفة بين فصلين تصيح فيهما ثمانون فتاة. درت بناظري وسألت نفسي من سيكون المنتصر؟ تلك الصبايا المشاغبات أم أنا؟ ولحسن الحظ وصلت مدرستان أعادا الهدوء، واستطعت الخروج وأكثر من مائة وستين عين صغيرة ثاقبة كانت ترقبني. لقد كانت تلك السنة تمثل لي فشلاً ذريعًا. فالفصلان كانا في الدور الثاني وكان يجب صعود الطوابير في صمت. إلا أنني كنت غير قادرة على التحكم في تلك القافلة الطويلة التي كانت تلعب على كل درجة من درجات السلم. كانت الفوضى خلال حصصي تؤذي عملي. لقد

كان ينقصني أيضًا الاستعداد التربوي من أجل هذا السن. كان الأهالي يأتون ليشتكوا للرئيسة، الأم مارتان، والتي استندت إلى سمعتي، كانت تتمنى أن أستعيد سيطرتي على الأمور. لقد كانت امرأة مرموقة تلعب في تونس دورًا مماثلاً لدور الأم إلڤيرا في إسطنبول، كرمز لتنوير الكثيرين والترحيب بهم.

كان الجو بالغ الحرارة في تونس، والذي لم أواجهه أبدًا قبل ذلك، وهو ما أضعف أيضًا من قواي. فقد كنت أشعر أكثر فأكثر بالتعب بدون أي إمكان لأن أستريح خلال اليوم. لأن سريري المنطبق القابل للطي كان موجودًا في دولاب أحد فصولي. لقد كنت أتمتع حتى ذلك الوقت بسيطرة كاملة على ذاتي ولكنني فوجئت بي أصيح في طفلة بدون سبب كافٍ. ذهبت لأعترف عند الرئيسة وأطلب منها عقابًا بحسب التقاليد المتبعة. فأجابتني مبتسمة: "أنتِ مجهدة للغاية، ستعملين طوال هذا الأسبوع نصف ساعة بعد الجميع!" وإذ كان خمولي يتزايد، وضعت المكتبة تحت تصرفي لأنام نصف ساعة في الظهيرة. لا شيء من ذلك أثّر فيّ. لم يتوقف شغب تلميذاتي الماكرات اللاتي وجدن، في ذلك السن، سعادتهن القصوى في استغلال ضعفي.

لم تعد الأم مارتان تقول لي شيئًا، ولكني كنت أشعر، أكثر فأكثر، بعدم رضاها بالموقف. في إسطنبول، حيث علاقاتي برئيساتي لم تكن دائمًا سهلة، كان عملي ـ مع ذلك ـ يرضيهن تمامًا، الشيء الذي غالبًا ما كان يخفف من التوتر. ولكن في تونس، لم يكن الأمر كذلك!

لم يفلح شيء؛ فبالنسبة لتلميذاتي، كنت لُعبةً مضحكة، وبالنسبة لرئيستي كنت مُدرسة غير قادرة، وبالنسبة لجماعتي كنت أختًا يشفقن عليها دون أن يستطعن مساعدتها. ذلك الإحساس بأنني كنت في نظر





الكل موضع إشفاق كان بالنسبة لي غير محتمل وأبعدني عن كل علاقات الود.

بينما كنت في إسطنبول أعيش محاطة بعواطف حارة، كنت في تونس أقاسي من الشعور الغريب بأنني جبل جليدي يطفو فوق بحر من الثلج. لقد كان يحدث لي بالضبط ما قد تنبأت به الأم إلڤيرا: "أتقدرين أن تتحملين يا إيمانويل عندما لا تكون رئيستك بعد سندًا لكِ بل تناضلين بمفردك؟" أنا الذي كنت أسير دائمًا مصحوبة بالآخرين لم أجد بعد إلى من أستند. جسدي كان مستهلكًا، قلبي متجمدًا، وروحي في حالة غثيان. لقد دقت ساعة التجربة في الصحراء.

بديل واحد: إما أن أترك كل شيء كي أرجع إلى أسرتي بجانب أمي وإما أن أتعلق بالرب لكي أصمد. أعتقد أنني نادرًا ما ناديت الله، خلاصي الأوحد، بهذا القدر طوال حياتي. في الصباح، في الساعة الخامسة، أول تضرع: "يا رب تعال لمعونتي فليس عندي الشجاعة للنهوض!"... وبسرعة أمسكت الإبريق والطشت لكي أغتسل، ولبست الرداء الرهباني الطويل وضبطت الطرحة وغطاء الرأس الذي كان سيبتل عن قريب، وطويت السرير في الدولاب، وفي عجالة ذهبت إلى عنبر نوم التلميذات لكي أوقظهن. وكلما كان اليوم قاسيًا كنت أناديه: "أسرع لنجاتي فقد فقدت قواي." وفي المساء، كانت الكنيسة الصغيرة أكثر طراوة والصلاة أكثر استرخاءً. كانت العذراء تبدو لي أكثر تبسمًا: "شكرًا يا سيدتنا، لقد صمدت!" وأخيرًا، بعدما انتظرت أن تخلد تلميذاتي الخبيثات للنوم رجعت إلى عنبر النوم والسلام في قلبي لأقول تحية مساء أخيرة للرب.

كان كل يوم يسلمني، فاقدة القوة، إلى اليوم التالي. ولكن كل يوم، كانت الغواية، التي تغريني بأن أترك كل شيء، تنهزم. إن كثيرين منا

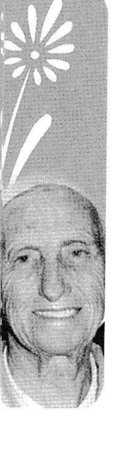
في تلك الصحراء المعنوية يعيش مرة أخرى التجربة الكتابية التي عاشها العبرانيون. وإذ ننتمي لنفس الطبيعة البشرية، تبدو لنا المسيرة، التي كانت واجبة لتحريرنا، عقيمة وفانية: "لقد قال الشعب المتألم من العطش لموسى: "لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش؟[16]" نحن إذن مجربون بأن نقع من جديد تحت نير العبودية القديمة، حيث "إذ كنا جالسين عند قدور اللحم[17]" آه! تلك التجربة بأن نبقى جالسين في هدوء أمام بعض القدور، بدلاً من النضال طوال الليل من أجل هدف أسمى يتلاشى! ومع ذلك، كم من الناس يجدون، بعون الله، بفضل أصدقائهم، القوة في أنفسهم للاستمرار في التقدم في ذلك النضال. إنه لاختبار رائع يجب أن نكون قد عشناه لكي نصدقه: أن يوحد المرء، في نفسه الهشة، الإبادة والطاقة، جاذبية الموت وقوة الحياة. وفي صحراء العطش، نحن نرتوي بالله بدون أن نراه، بدون أن ندركه بحواسنا.

لقد كانت هناك مشكلة تشغل خاطري: تلك الهوة التي كانت تفصل تلميذاتي عن سكان البلد الأصليين. كان شعارهن: حمار الفلاح الصغير يسير جنبًا إلى جنب مع سيارات المستعمرات الفخمة. لقد استفاد أولئك من أفضل الأراضي وتحصلوا منها على أقصى عائد. ومع ذلك، كان منهم من ينشغل بتوفير الحياة الكريمة لعمالهم. كانت تزور زوجاتهم الأسر، وترعين المرضى، وينظمن فصولاً لمحو الأمية، ويدعمن الفتيات ماديًا، إلخ. إننا اليوم نسمي ذلك شيئًا من قبيل المنهج الأبوي، ولكنه كان له قيمة عالية في ذلك الوقت!

هكذا، كان عندنا ثلاث فتيات شقراوات بلون القمح. كان آباؤهم، على وعي بمسئوليتهم الاجتماعية، يؤمّنون كرامة العيش لكل موظفيهم. ومع

16- خر 17:3.

17- خر 16:3.



ذلك، أبلغ واحد من هؤلاء الموظفين، كي يحصل على مكافأة، عن مخبأ أسلحة مدفون في الحديقة. وكانت الحكومة تخشى أن تتمرد المستعمرات ضد القوانين الجديدة التي تقيّد أنشطتهم وهو مايعني التوقيف والسجن. كانت تلك الأسلحة مجرد بنادق قديمة يرجع زمانها إلى الحرب الأخيرة، ولكن كان يجب عدم حيازتها. وعمت الكآبة كل المنطقة لأشهر طويلة. وأخيرًا، توصلت الأم مارتان لأن تجعل والد واحدة من تلميذاتنا التونسيات يتحرك وصولاً إلى حل: كان له مركز مهم عند بورقيبة الذي صدّق على أمر الإفراج عن الرجل.

ذلك الذي كان يشارك حياة المساجين بحكم القوانين العامة جاء ليقابلنا عند خروجه من السجن. كان شخصًا آخر! ارتمى على وجهه المنهك كمن عانى أعمق المعاناة، ولكن كان هناك نوع من اللهب يسطع عليه. "أجل، لقد كانت أيامًا رهيبة، جنبًا إلى جنب، مع مجرمين حقيقيين بعيدًا عن أهلي وأنا في أشد القلق على مصيرهم. ولكني لم أندم على شيء. فإنني قد فهمت المعاناة البشرية. فحياتي كانت ميسرة ومريحة للغاية. كنت بعيدًا كل البعد عن ألم الناس!" كنا نستمع، مبهوتين، إلى ذلك الحديث الغير العادي: "عشت في ذلك الإخاء الحقيقي، أصبحت أخًا لأولئك المساكين. فهمت كيف يسقط الإنسان!" أصبحت نظرته قاسية. ولم يجرؤ أحد على أن يتكلم. وأخيرًا! انتهى بقوله: "أشكر الله. لقد كان في السجن معي." بدون بلاغة وبدون حماسة أعطاني واحدًا من أعظم دروس حياتي: "يجب مشاركة البشر في آلامهم بدون التوقف أمام آلامنا نحن." لم أكن الوحيدة في العالم الذي أحس بأنني مهددة في الصحراء.

كنت أجد نفسي من جديد أمام مشكلتي: كيف أستجيب لهذا النداء تجاه الفقراء الذي لم يكن يصمت داخلي؟ في تونس، لم أكن أستطيع عمل شيء مما كنت قد أنجزته في إسطنبول. كانت هناك أختان سيذهبان إلى

العشوائيات ولم يكن مسموحًا لي أن أذهب معهما وكان من المستبعد أن أصطحب تلميذاتي إلى هناك. سنوات الانتظار التي فرضتها عليّ الأم مادلين يسوع في إسطنبول كانت قد مضت. وكان أخواتها يعيشن في حي فقير للغاية في تونس. كان كل كياني يتطلع إليهما. وكما طلبت مني مؤسسة جماعتهم، كتبت إلى رئيستي العليا، الأم ماري فيليكس: "أمي الرئيسة، أنت تعرفين رغبتي في أن أعيش فقيرة مع الفقراء، وهو الأمر الذي يستحيل تحقيقه وسط رهبانية سيون، ولكنها يمكن أن تتحقق عند راهبات شارل دي فوكو. لقد انتظرت سنوات طويلة فلا تمنعيني من مشاركة فقر الناس. اسمحي لي أن أتبع الأم مادلين يسوع." وصل تلغراف: تم استدعائي إلى باريس.

كانت الأم ماري فيليكس امرأة ذات نظرة بعيدة وروح منفتحة للأفكار المختلفة عن أفكارها فضلاً عن تمتعها بعطية نادرة للإنصات. كانت تعيرني أسماعها بتفهم مفعم بالمشاعر وتجيبني: "لقد كنت قلقة بشأنك، لم تكوني سعيدة وفكرت في أن أرسلك إلى كاسنادار وسط الريف على بعد خمسة عشر كيلو مترًا من تونس حتى تنتعش نفسك. ولكن منذ مدة طويلة كنت تشعرين بأنك مدعوة لأن تعيشي مع الفقراء وكنت لا أستطيع أن أسمح لك بذلك. إن نظام أخوات فوكو مختلف. اكتبي إلى الأم مادلين يسوع وسأضيف كلمة لكي أؤكد موافقتي." فقفز قلبي من الفرح. كنت أتذكر الأم مادلين يسوع بشروطها التي احترمتها، ها أنا سأستطيع، أخيرًا، أن أحقق في الجماعة حلمي بأن أشارك حياة المهمشين.

وها نحن في سبتمبر 1957م. ويمر أكتوبر دون أن يأتي أي رد. وها أنا أكتب مرة أخرى إلى اكس- أون بروفونس، المقر الابتدائي للراهبات... ولم يأتني أي رد أيضًا! لقد أصبح الموقف أكثر حيرة يومًا بعد يوم. لقد وجدت نفسي في مأزق. كنت هناك في باريس في المقر الرئيسي بدون أي نشاط



مع الأخوات المسنات. ذكرتني الأم ماري فيليكس بدون إلحاح بالموقف:

ـ "أيتها الأخت إيمانويل إني أريد أن أتركك حرة ولكنك ترين أن الأخت مادلين يسوع لا ترد... إن مكانك في كازنادار موجود.

ـ أمي، أنت تعلمين أنني إذا ذهبت إلى كازنادار سأكون مجبرة على البقاء حتى نهاية السنة الدراسية على الأقل. إنني منذ أكثر من عشرين سنة أحترق بهذا التعطش: مشاركة حياة الفقراء. إنني على وشك الوصول ربما غدًا... وضعي مؤلم، أعرف ذلك: لا أعمل شيئًا هنا إلا الكنس.

ـ أجل، بينما في كازنادار الأخوات لديهن الكثير من العمل بسبب غيابك!

ـ أجل، وهذا هو الأسوأ. ولكن، يا أمي لا يجب أن أستسلم. إن معنى دعوتي من أجل الفقراء هو كل شيء بالنسبة لي!

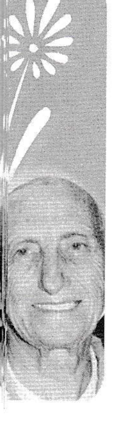
ـ تصرفي حسب ضميرك أيتها الأخت إيمانويل. حاولي أيضًا أن تكتبي إلى روما حيث تشرف الأم على دير هناك موضحة كلمة "مستعجل" على المظروف.

كان الفقراء ينتظرونني، كنت سأجري إليهم، كانوا هم الرجاء. وتقترب الأيام الأولى من ديسمبر. وبعد ثلاثة أشهر من الانتظار، يأتي أخيرًا خطاب: كانت الأم مادلين في مكان ما في أمريكا عند قبائل بدائية حيث كانت تقوم بتسكين راهباتها في أماكن متعددة وبالطبع بدون مكتب بريد! اعتذرت لتأخرها في الرد: "للأسف، ليس من المستطاع الآن استقبال الأخت إيمانويل. كثيرات من الأخوات من الراهبات طلبن أن يدخلن عندنا. ولقد أضفنا على نظامنا هذا القرار الذي لا رجعة فيه: لن يتم قبول أي أخت من جماعة رهبانية أخرى..."

مفاجأة! في إسطنبول كان الأمر سابقًا لأوانه... واليوم فات عليه الأوان! تسعون يومًا من الانتظار لكي أحصل على ذلك الرد. حسنًا! قبل كل شيء، لا يجب فقدان الثقة بل المواجهة! لا تستسلمين أمام تجربة الرحيل يا إيمانويل، مكانك في دير سيون. في البداية، حيث إنه يجب أن أبقى في التعليم فيجب في نفس الوقت أن أنال شهادات الدبلوم. إنني، بكل تأكيد، لا أنجح مع المراهقات، ولكن مع فتيات أكبر سنًا، أكثر انفتاحًا على العالم ومشاكله. أحتاج إلى ليسانس في الآداب. كنت قد حصلت، أربع سنوات قبل ذلك الوقت، في إسطنبول على شهادة في الفلسفة. أما الآن، فإن السوربون مفتوحة!

كنت سأسجل نفسي لمحاضرات اللغة اللاتينية بالمراسلة. وفجأة، أشد رحالي إلى كازنادار. وقد قوبلت بفرح، كنت أدخل في أسرة كبيرة تحس كل واحدة فيها أنها مندمجة ومحبوبة. وكانت الرئيسة، الأم مارت نويل، تجعل الانسجام والفرح يسودان الجماعة. كان الإطار يهب نفسه. فبينما كانت المدرسة في تونس محتشدة حول فناء واحد، كان العقار في كازنادار قائم في جو من الانتعاش بين الحقول الممتدة لشجر البرتقال واليوسفي وكان به حوض سباحة خلال أشهر الحر. كان وصولي سيخفف مهمة أخواتي الراهبات. وكما شعرت مسبقًا الأم ماري فيليكس، إنني سأسعد بذلك الوسط.

كل شيء كان يسير على ما يرام مع التلميذات: كنت مسئولة عن المراحل النهائية. في المساء، كنت أستذكر اللغة اللاتينية. كنت أهاجم مؤلفي البرنامج الواحد بعد الآخر. استطعت أن أتقدم إلى الامتحان التحريري في تونس... ويا لحسن الحظ! لقد نجحت. كان يجب أن أسافر إلى السوربون للامتحان الشفوي. ولقد كان هناك كتب لم أدرسها بعد. فقضيت وقتًا من الليل لكي أنهيها. ولم يبق لي إلا الأدب اللاتيني. لم يكن



صعبًا، فنويت مراجعته في المركب.

آه! ولكن الباخرة كانت تتأرجح. الإبحار والدوار... أحسست بألم فظيع في قلبي. نزلت من المركب بصعوبة وجررت نفسي حتى القطار. وشعرت أكثر فأكثر بالإعياء. كنت أتحرك مجيئًا وذهابًا بلا انقطاع بين كابينتي ودورة المياه! وما كدت أصل محطة باريس إلا وأنا بلا حراك كحزمة من اللفائف الرثة! نقلني أناس طيبون على رصيف القطار، ووضعوني - بدلاً من تركي - على نقالة الحقائب. واتصل أحدهم بدار راهبات سيون. بعد نصف ساعة، فحضرت أختان منهن لتلملما جسدي وشدا الرحال إلى المقر الرئيسي. كانت الأم ماري فيليكس تنتظرني مع الطبيب. كان صدري تقريبًا لا ينبض ولم يعد لديّ قوة للكلام. استبد بالطبيب القلق: بسرعة! حقنة لإنعاش القلب.

ولما استقريت في المستشفى، استعدت الحياة. كانت الأم ماري- فيليكس قلقة بجانبي. قلت لها بقلق:

- "أمي الرئيسة، غدًا، الامتحان...

- لا تقلقي، سيعد لك الطبيب شهادة مرضية، ستقدمين نفسك بدون مشاكل."

وإذ اطمأننت، خلدت للنوم. وبعد بضعة أيام، وجدت نفسي أقف على قدميّ معافاة. "أيتها الأخت إيمانويل، لقد شعرنا بالقلق من أجلك! لقد كان الطبيب يخشى أن يتوقف قلبك! ها هي شهادتك المرضية. تم إخطار أستاذك الممتحن، وسينتظرك صباح الغد."

وصلت إلى السوربون وقلبي يخفق بشدة. فقد فتحت بالكاد كتاب الأدب اللاتيني. كان معي على أمل أن أتصفحه في عجالة قبيل وصول

الممتحن. ويا للكارثة! لقد وصل في التو: "حسنًا، يا أختي، ها قد تحسنتِ! هذا سؤالك، سأتركك لمدة ربع ساعة لكي تفكري فيه وسأرجع." واختفى بنفس السرعة التي دخل بها.

ألقيت نظرة على ورقته: قصيدة من قصائد الإلياذة. لم أكن قرأتها! يا للشقاء! لم أكن أذكر إلا الإله الصغير كيوبيد وهو يرمي بسهامه إينيه وديدون فيلتهب قلباهما بحب حار. ولكن ديدون لم تقدر على إبقاء محبوبها في قرطاجنة وتمددت على خشبة المحرقة عندما رأت شراع مركبه تأخذه بعيدًا. كان من المستحيل عليّ أن أروي أي شيء أكثر من ذلك. وكان معي كتاب الأدب، وفيه ملخص لكل القصائد. لم يكن عليّ إلا أن أفتحه، فربع ساعة كانت تكفي لكي أصل إلى ما أريد. إنها حيرة الضمير المضحكة. ووجدت نفسي وسط التجربة:

- "هيا، ستفتحين الكراس، نعم أم لا؟

- بسرعة، أسرعي وافعلي ذلك!

- أجل، ولكني أقول دائمًا لتلميذاتي أن لا يغششن في الامتحان، يجب أن يكون للمرء الأمانة كي لا يسقط.

- هراء! أنت أتيتِ، من تونس، وسترحلين بفشل: ليس هناك ما يؤنب ضميرك!"

نعم... لا. لا... نعم. تركت الكتاب مغلقًا على ركبتيّ.

رجع الممتحن: "هل أنتِ مستعدة، أيتها الأخت؟ ها أنا منصت." تشجعي، يا نفسي، تكلمي عن ما ستقدرين على قوله! وألقيت بنفسي في قلب التحدي. إينيه، ديدون، حرب طروادة، إينيه يأتي بأبيه العجوز أنشيز على ظهره: جمال الحب البنوي، أندروماك ووفاؤه لهكتور: جمال





الحب الزيجي، انتصار ساموتراس: جمال الفن الإغريقي، معبد البارثينون مزدان بزخارف النحات فيدياس: جمال المعجزة الإغريقية، ڤيرجيل يقود دانتي عبر الجحيم والمطهر: جمال الكوميديا الإلهية، ولم أعرف كيف أدخلت الموسيقار ڤاجنر في تلك السلسلة: جمال الموسيقى!

توقفت مع آخر أنفاسي... ومع آخر ما قلت عن الجمال! أنصت إليّ الممتحن في صمت تام: "أختي، ثقافتك العامة تثير إعجابي، ولكن ما قلتيه خرج عن موضوع السؤال، على ما يبدو لي!" فبادرت بإمساك الكتاب أمامه: "أجل، تلك هي الحقيقة. لقد كنت مريضة ولم أستطع دراسته." وأضفت وأنا أشعر بغبائي الشديد: "لم أرد أن أفتحه مستغلة غيابك." فابتسم ووجدنا نفسنا نتكلم عن الموسيقى. كنت في مطعم المدرسة بإسطنبول أجعل تلميذاتي يسمعن كثيرًا من قطع الموسيقى الكلاسيكية. واعتقدت أنه كان موسيقيًا! افترقنا في تناغم... وحصلت على شهادتي في الأدب اللاتيني!

كنت اختلج فرحًا. سأعد للعام التالي، اللغة اليونانية، والتي أعطاني قواعدها الأستاذ فريزون، والأدب الفرنسي الذي كننت أعرفه جيدًا. أحسست بأجنحة قادرة على انتصار ساموثراس.

أرسلت لطلبي الأم ماري- فيليكس:

- "رئيستك تفضل أن توقفي دراستك، يبدو لها أنه من الصعب الجمع بين دراستك والتعليم.

- ولكن، يا أمي، السنة الماضية كنت أعمل طوال اليوم ومع ذلك نجحت. إذن لماذا لا تدعني أستمر؟

- أفهم وجهة نظرك يا أخت إيمانويل ولكن يجب أن أترك كل رئيسة

حرة في تنظيم ديرها. لا أريد أن أتدخل في ذلك..."

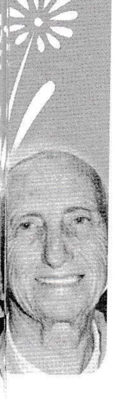
لو كان ملاكم قد وجه لي ضربة مباشرة في وجهي لكان ذلك له نفس التأثير: دارت رأسي. كيف يمكن أن يُعطى لي أمرًا بهذا الغباء؟ تمرّد عقلي، وارتفعت السخونة إلى رأسي. وجدت نفسي مرة أخرى في عزلة وفي قمة توتر النفس. رحت أنفث غضبي في الكنيسة: يا رب إني أنفجر! إنها قمة العته: هل أكمل التعليم، نعم أم لا...؟ أيجب أن أحصل على ليسانس، نعم أم لا...؟ أنجحت في أول شهادة لي، نعم أم لا...؟ كنت أعمل بالتدريس طوال اليوم، بدون إزعاج أحد، نعم أم لا...؟ كان يمكنهم أن يستشيروني، نعم أم لا...؟ أيجب أن أخضع لأمر بهذا الغباء، نعم أم لا...؟ بدأت أضيق بأولئك الراهبات في الدير. واحدة تمنعني من الحياة مع الفقراء والأخرى تمنعني من أن أكون على مستوى التعليم. يا رب، إنني لن أنصت بعد لأحد وسأرحل إلى الفقر الذي يناديني!"

لم أكن قد هدأت بعد، ولكن حرارة الانفعال قلّت شدتها شيئًا فشيئًا. صوت آخر بدأ يتهادى لأسماعي: "نذرك للطاعة مازال قائمًا، نعم أم لا...؟ رئيسة المبتدآت حذرتك، نعم أم لا...؟ تعهدت بطاعة كل أمر لا يتعارض مع الأخلاق، نعم أم لا...؟ وفي هذا الموقف، الأخلاق لها دور، نعم أم لا...؟ أتجرؤين على النظر إلى الصليب وجهًا لوجه، نعم أم لا...؟" كنت أشعر أن كل شيء كان يتركني في دوامة الغضب والتجربة، وكان سيجرني في طريق الفقر الأكيد، ولكن أيضًا إلى الضعف الشديد. هل كنت على مستوى أن أعتمد على قوتي الشخصية؟ أحكمت قبضتي على صليبي، وتأملت المسيح على الصليب وأنصتُ إلى كلمة الأم ماري-ألفونس:

ـ "إنها ساعة الحب الأعظم!

ـ أجل، بحرية وبملء إرادتي اتحدت بك يا رب. نعم، مهما كان الثمن





فمعك ومثلك سأطيع."

لقد كانت تلك المعركة الجديدة تبدو لي أفظع من سابقاتها، لأنه لم يكن هذه المرة الجسد وإنما النفس التي يجب السيطرة عليها، شخصيتي المتعالية والمزهوة بنجاحها التي كنت يجب أن أروضها بداخلي.

المعركة الحامية بين "نعم" و"لا" سحقتني وأنا في طريق العودة إلى كازنادار. وفي السنة السابقة، كنت أتحرك بين تلميذاتي وكتبي، وأنا ممتلئة بالحماس والطاقة. والآن أجد نفسي وحيدة كما كنت في تونس، محطمة القلب والروح. ولكن المعجزة الدائمة في حياتي كانت تتفجر من خلال كل منعطف صعب: مثلما يقفز الجواد المنطلق في مضماره بمدربه فوق الحواجز كانت قوة روحية تدفعني إلى الأمام. بالفعل، كان القديس بولس على حق: "أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني." لقد عشت هذا في جسدي المنهك، لقد كانت تلك هي تجربتي التونسية: كانت قدميّ تمشيان، ويديّ تكتبان، وشفتاي تبتسمان ومعجزة المعجزات، عقلي كان يهدأ. كنت أقترب من "التخلي الكامل والهادئ".

ولكني كنت مصممة على نفس الفكرة المسيطرة عليّ منذ كنت في تونس. كانت تصطف عشش السكان المعدمة بطول أراضينا الواسعة. وكنت أحس بالحرج عندما أشاهد الأطفال الحفاة الذين كنا نعطيهم الخبز واليوسفي الذي لم يكن أفضل ما عندنا. كان لخادمنا التونسي غرفة واحدة يعيش فيها هو وأسرته، بينما أسكن السائق الإيطالي أسرته في منزل. لماذا هذا الفرق؟ الإجابة: لا يجب تغيير طبقة السكان الأصليين فقد تعودوا على التزاحم في غرفة واحدة. وما هذا! ألا يجب علينا، على العكس، مساعدتهم على أن يرتقوا بالعيش؟ لقد كان ذلك يجعلني أثور. فلنتذكر أن رهبانية سيون كانت قد بنت فصولاً لقبول الأطفال التونسيين

الفقراء ولإعداد مستقبل أفضل لهم. والآن أصبحت منطقتنا ملكًا للدولة. وأصبحت الأسرة التونسية تسكن بطريقة لائقة. ولكن وسط تسرعي الثوري لم أكن أفهم أن تغييرًا مثل هذا يتطلب وقتًا طويلاً.

وأخيرًا، انتهت سنوات الصحراء الخمس، بكل قسوتها وبكل ما احتشد فيها من المشاعر. إسطنبول تطلبني. عدت إلى تركيا ولكني كنت مختلفة.

لم أعد نفس الشخص؛ لقد عشت الوحدة مع كثير من البشر، مثل الموت المسبق. الصداقة والحب كانا يبدوان لي سُحبًا بلا ماء. لم يعد للعيش معنى. الذهاب إلى أين، لمقابلة من؟ وجوه غير مبالية، عيون بلا حنان؟ ماذا كان يمثل عملي كتربوية؟ فشل بدون أمل؟ الإيمان بالإنسان؟ الفلاحون سيظلون شياطين فقراء! الإيمان بالله؟ كان الصمت يجيب على ندائي! الرغبة في الفقر؟ أمنية وُجدت لتدفن في الرمل!

ومع ذلك، كانت تلك السنوات التي امتدت في صحراء التجربة خصبة بشكل غير عادي. لقد أماتت فيّ الثقة المتعالية بقدراتي، جعلتني أشعر بكم كانت الهالة التي أحاطت بي في إسطنبول سريعة الزوال. ولقد أدركت الاختبار الرائع بأن الله، رغم صمته، جعل لي عطية قوة خاصة: فلقد بقيت صامدة رغم كل شيء، ووسط كل شيء.

إن الصحراء تجعل المرء يعود إلى ذاته: طوبى لكِ يا تونس! تربيتها الصارمة أطاحت بهدفي الأسمى الرومانسي حيث الصداقة لم تكن تعرف الساعات الصعبة، حيث كانت الدعوة للفقر تصطبغ بمنهج أبوي سهل. طوبى لكِ يا تونس! لقد استخرجتِ جوهرة الحب المُنقّى.





ليسانس الآداب

إسطنبول، 1959م–1963م

في إسطنبول، كانت ستستقبلني رئيستان كلّ على حدة، كلّ منهما كانت تحظى بذكاء وشخصية: الأم جيزيل الحاصلة على ليسانس الآداب، والتي كانت بعد الأم إلڤيرا أكثر من يفهمني، والأم ألين، الحاصلة على ماجستير العمارة. لقد شجعتاني كلتاهما على إنهائي شهادة الليسانس. وكل شيء كان يجري على ما يرام مع التلميذات. لقد استطعت، بدون عائق، الدراسة في المساء. إلى الأمام إلى السوربون! يا رب اغفر لي إنني انفجرت غاضبة مرارًا كثيرة!

كان لي، في ذلك الوقت، نضج امرأة تجاوزت الخمسين من العمر تحظى بثقافة عامة جيدة. كنت أتغذى بشكل أكثر عمقًا من "خلاصة ذهن" كتابنا العظماء! لم أقاوم الرغبة في الكلام عنهم، لأنهم قد وسعوا رؤيتي للكون.

في برنامج اللغة الفرنسية، كان يجب الغوص في كتاب "إيسييه" للكاتب مونتاني، "العلاقات الخطرة" للكاتب لاكلو، ولكن على وجه أخص ـ حظ فائق ـ "الفكر" للفيلسوف باسكال، ولكي أكمل الصورة، "منبعًا الأخلاق والدين" للفيلسوف برجسون.

لقد أصبح باسكال معلمي في الفكر كنت أكرر في الصباح الجُمل التي كنت قرأتها في المساء، والتي كان مدارها يبدو لي ممتدًا إلى ما لا نهاية: "نحن لا نعرف كل شيء عن أي شيء"، واقعيًا، ممن، ومما أستطيع أن أعرف الحقيقة العميقة، الكيانية؟ أمن أخواتي اللاتي كن يعيشن بجواري وكنت أحبهن منذ سنوات طويلة؟ أمن تلميذاتي اللاتي تربطني بهن علاقة مستمرة وحارة؟ أمن الأحداث الصغيرة والكبيرة التي كانت تطفو كل يوم؟ مصدرهم، امتدادهم، ماذا أعرف عنه؟ كيف كنت أجرؤ على أي حكم ذي قيمة على أي شيء؟ "نحن لا نعرف كل شيء عن أي شيء."

وحتى الشيء الأكثر اعتيادًا، ذلك القلم الرصاص الذي في يدي، من أين كان يأتي؟ الخشب، الشجرة، البذرة الأولى، الشجرة الأولى التي جاءت من ليل الزمن، كم مليار من السنوات؟ كان فكري يتوه في اللانهاية.

"بؤس وعظمة الإنسان": كنت أحاول أن أحلل في نفسي سر باسكال، ذلك "الحيوان الرابض دائمًا" على بابي، الذي عرفه قايين قبلاً (تكوين 4، 6) والذي كلمتنا عنه الأم ماري-ألفونس. "احذروا من الحية المخفية في داخلكم، كانت تقول دائمًا، تلك التي تعيش دائمًا مستعدة لإخضاعكم: الغيرة الأنثوية، الطموح المسيطر، الشهوانية المثارة، والأنانية الدنيئة." آه، أجل! بؤسي الكياني، كنت أشعر بأنه تحت السيطرة، ولكني لم أشعر قط بمحوه تمامًا. لم ينعدم أبدًا ذاك التدفق في عقلي، كتلة الحجر التي انتصر عليها النحات رودان، حيث الفكر المتولد من المادة مثل مينرفا المنطلقة وعلى رأسها خوذة جوبيتر. كل هذه الرموز القديمة والحديثة، كانت تجعلني أفرح فخرًا بأنني عضو في الجنس البشري.



كم من مرة لم أردد تلك الجملة التي كانت تسحرني بموسيقاها العميقة: "إن الصمت الأبدي لهذا الفضاء اللانهائي يخيفني!" لقد كنت

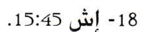


أرى ملايين النجوم تظهر وقد فصلتها مسافات الملايين من الكيلومترات و"الطفل" الصغير الذي كنت أنا، ضائعًا في ذلك "المحيط اللانهائي الذي مركزه ليس له وجود".

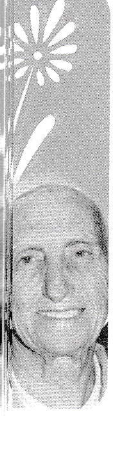
هناك، حيث كان باسكال أكثر من ألهبوا الصحوة في فكري، كان البحث عن إله المسيحيين ينظر إليه المفكرون المتحررون على أنه فكر غير عقلاني. كنت أجد نفسي آنذاك في قلب المشكلة التي لم يتحقق أبدًا حلها منذ التحاقي بالجامعة في إسطنبول. فهل كان باسكال سيأتي إليّ، أخيرًا، ببرهان فائق لحقيقة المسيحية؟ تأملت في البداية لوقت طويل تلك الفكرة: "كل شيء يسيل منا ويتلاشى تلاشيًا أبديًا." وإذ كنت بعد مراهقة، فقد شعرت بحدة ذلك التلاشي الحتمي للزمن الذي يهرب من كل قبضة، تلك اللوعة الميتافيزيقية (التحرق الغيبي) بأنني لا أحس إلا بظل يتلاشى، ولا أرى من زبد الأمواج المتدفقة إلا قليلاً من الماء المر في فراغ يدي. "إنه لشيء رهيب أن يشعر المرء بأن كل شيء يقبض عليه يتسرب منه"، كما يقول أيضًا باسكال. كانت صوره تلاحقني، وتجرني إلى نفس المحور الذي لا يتغير، الله، ولكن في الخلاصة، لا تأتيني باستنتاج ما وإنما كانت "تثقب" قلبي عندما تهاجمني الشكوك: الكلمة تترجم بدقة القلق الذي يخترق الكيان مثل البنطة (المثقاب) في الخشب. كان الأب جوتييه يجد من الصحي أن يعرف ويشارك ما يستعصي فهمه، في يوم ما، على كل نفس إنسانية سواء عن حياتها أو موتها. المؤمن يشك في إيمانه، وغير المؤمن يشك في شكه. إنني لا أعرف تأثير ذلك عند الآخرين ولكن أعرفه جيدًا فيّ: خمول في جسدي وفي روحي، اشمئزاز على الشفتين. ما جدوى كل ذلك؟ ما جدوى العيش أو الموت؟ ما جدوى التعلق بالحياة عندما يدور كل شيء في الفراغ ويتذبذب حول نفسه؟

في وسط كل ذلك، ماذا أتاني باسكال به إذن؟ وضوح الشك. كان ذلك سيبدو متناقضًا ولكنه كان من المهم جدًا أن أفهم هذا بشكل نهائي: الدين لا يفتخر بأن لديه "رؤية واضحة لله" بأنه يمتلكه بشكل واضح وبدون ستار... على العكس، الاسم الذي يعطيه لنفسه في الكتاب المقدس هو، الله المحتجب [18]. في مسيرة الليل تلك، يقترح باسكال رهانه الشهير: "الله يكون أو لا يكون... العقل لا يقدر أبدًا أن يحدد ذلك. فهنالك فوضى لا نهائية تفصلنا... يجب المراهنة... أنتم قد شددتم رحالكم." بينما كنت في إسطنبول قد راهنت على ذلك. أي انتعاش لكياني أتى به إليّ هذا الاختيار! علاقة قوية فائقة مع الرب تنمو كل ليلة بلا انقطاع.

لقد أسهم برجسون، هو أيضًا، في توسيع فكري. ففي كتاب " نبعا الأخلاق والدين"، لفت الكاتب أنظاري إلى أن بعض الناس المقودين بدافع الحياة يعملون على "تفجر الأخلاق المغلقة" انطلاقًا من الروح الجسدية المغلقة على دائرتها إلى "الأخوية البشرية". كان معجبًا بالمتصوفين، وخاصة تريزا دافيلا التي استطاعت توحيد التوازن والحكمة "لتطلق" الكاثوليكية الضيقة السائدة في القرن السادس عشر بأسبانيا، متجنبة مع كل ذلك محاكم التفتيش. هؤلاء الناس، وتلك النساء أتوا، عبر الزمن، بنفحة كانت تجدد الهواء المكتوم في الكنائس والأديرة. إنها تلك النفحة المحيية التي تنسمتها منذ طفولتي والتي قدمها إلى العالم مجمع الفاتيكان الثاني، كما عبر عنها يوحنا بولس الثالث والعشرين: يجب "فتح النوافذ"! لقد كان يردد قول برجسون، بدون، ربما، أن يشك في ذلك: "العبور من السكون إلى الحركة، من الانغلاق إلى الانفتاح".



18- إش 15:45.



وكموضوع للبحث، كان عندي مونتاني. كنت قد درسته جيدًا. لم يكن صعبًا. وفي الامتحان الشفوي، اخترت فقرة من كتابه "علاقات خطرة" لكي أعلق عليها. كنت بعد في ردائي الرهباني الكبير. وأعتقد أن هذا هو ما حير ممتحني:

ـ أيتها الأخت، يمكنك أن تأخذين ورقة أخرى، فلتأخذي، ربما، باسكال.

ـ هذا لطيف جدًا منك، سيدي، ولكن هذا سؤال مثل الآخرين، ليس من الضروري تغييره بآخر.

أعجبته إجابتي وسار كل شيء على ما يرام. ونجحت في الشهادة الثالثة للأدب الفرنسي.

وفي اندفاعي إلى الأمام خاطرت بأن أقدم، في نفس الوقت، اللغة اليونانية والتي لم أكن أبدًا قد أعددتها. رسبت، ولكني مكثت في باريس خلال الأجازة لكي أتعمق في برنامج دراستها. وفي أكتوبر 1962م، في دورة الإعادة، نلت أخيرًا شهادة اللغة اليونانية.

وإذ استوقفتني أحداث مختلفة، بلغت إذن سن الخمسين! كان الوقت قد حان لأن أحصل على الليسانس مجتازة علم فقه اللغة، الشهادة التي كان النجاح فيها أكثر صعوبة!

رجعت إلى إسطنبول. مفاجأة كبيرة! وصل في فبراير 1963م تلغراف: "إيمانويل، الإسكندرية، مارتان." حزمت حقائبي وانطلقت إلى الإسكندرية، مدعوة من الأم مارتان التي أصبحت رئيسة إقليمية. تلك الكلمات الصغيرة الثلاث جعلتني أعبر من قارة إلى أخرى، من آسيا إلى أفريقيا، نحو مغامرة جديدة، أكثر إثارة مما كنت أستطيع تخيله.





المشاركة الأولى

الإسكندرية، 1963 م– 1971م

سافرت أولاً إلى القاهرة، وقضيت ثلاث ساعات قبل أن أستقل الطائرة مرة أخرى متوجهة إلى الإسكندرية. مررت بسرعة بالأهرامات... كانت شامخة... تتكلم عن نفسها... آخر عجائب الدنيا السبع التي لم تزل صامدة!

وصلت إلى مدينة الإسكندر الأكبر، فدخلت في جماعة، رائعة التقيتُ فيها مرة أخرى بالأم جيسلين التي كانت الأم الرئيسة هناك. لقد شجعتني على إنهاء دراستي لفقه اللغة (الفيلولوچيا) وخفضت نوعًا ما ساعات تدريسي حتى يمكنني التركيز في الدراسة. وفي أكتوبر 1963م، قمت بزيارة سريعة لباريس حيث حصلت على الشهادة النهائية، وأصبحت أحمل ذلك الليسانس الشهير في الآداب الذي هو ثمرة الكثير من الصبر. كان عمري آنذاك خمسة وخمسون عامًا!

تحدثت كتب مختلفة ومتنوعة عن العصور التي مرت على مدينة الإسكندرية! وما عليّ إذن إلا أن أذكرها. أصبحت منذ ذلك الوقت مسئولة

عن حصة الفلسفة. كانت تلميذاتي تعدون رسالات دكتوراة لم تنجح فيها واحدة من تلميذاتنا الفرنسيات! لقد كن برغم ذكائهن ورقتهن محرومات للأسف من كل انفتاح اجتماعي.

وفي أعماق روحي، كان نداء الفقراء ينفذ إلى أعماقي أكثر فأكثر. وأصبحت لا أطيق عدم مبالاة تلميذاتي المطلق. ماذا كان إذن نفع ذلك الليسانس الذي حصلت عليه بكل ما هو غال، إذا ما كان تعليمي هذا لا يؤدي إلى انفتاحهن على التجمعات السكانية الفقيرة التي كانت تحيط بهن؟ لقد كانت دعوة المعلم تبهرني: فقد كنت أستطيع أن أفتح أذهان تلميذاتي على مسئولياتهن الاجتماعية بنفس قدر انفتاحهن على العلوم الأدبية. وها أنا لم أكن قد وصلت بعد إلى هذا حتى ذلك الحين!

أي مخرج سيتاح لي؟ أن أطلب الوثوب إلى الجانب الآخر من الحاجز، إلى مدرسة راهبات سيون نفسها، مكرسة نفسي لفقراء مدرستنا الابتدائية النصف المجانية! كان مركز رئاسة جماعتي قد انتقل من باريس إلى روما. وتم تعيين رئيسة جديدة إنجليزية، لم تكن تعرفني. لقد رفضت بشكل مطلق نقل مُدرسة حاملة لليسانس، قد نجحت في التعليم النهائي، إلى المرحلة الابتدائية. ومن الناحية المنطقية الخالصة، كانت هي على صواب تمامًا، ولقد بدوت أنا حمقاء. فقد حاربت - وبكل تصميم - من أجل ذلك الليسانس المبجل... وكنت أرفض استخدامه! من كان يستطيع أن يفهمني؟ لقد كنت على قدر من السذاجة لأن أعتقد أنني سأجد مرة أخرى في كل مكان التأثير العازم الذي كان لي في تركيا مع تلميذاتي الأكبر سنًا، بقدر ما كانت دراساتي العليا تكسبني قدرات أكبر. ولكن قلب تلميذاتي الصغار لم يتحول إلى المسألة الاجتماعية!

إنه إعلان لخلاف جديد. حقًا، لقد نذرت نذر الطاعة، ولكن الأم ماري-



ألفونس كانت تقول لنا: إن ذلك النذر يفقد قيمته حينما لا يوافق عليه الضمير. لقد كرست نفسي لله بمثال القديس إيرينيه، رسول بلاد الغال (فرنسا): "إن مجد الله هو الإنسان الحي"، ذلك الذي يعيش كابن لله وكأخ للناس. مم استمد تعليمي هذا الهدف؟ هل كان يهدف فقط إلى تلميع تلميذاتي في صالون أو في جامعة؟ لكن شكرًا جزيلاً، كان لي أشياء أخرى أقوم بها!

في تلك المعركة التي تواجهت فيه نظرتان كل منهما لها قيمتها بنفس القدر، لم يبد أن أيًا منهما سيتراجع أمام الآخر. لقد كانت أشهر الإجازة الدراسية الثلاثة أثقل بكثير من أن تحتمل. لم يكن غريبًا الصمود والتمسك بقول "لا"، حيث يستحق المرء لأن يقذف به إلى خارج الجماعة بسبب عدم الخضوع. لقد كانت الشكوك تتسلل إلى كياني: هل كنت مدفوعة بروح الله، بروح المحبة، أم بواسطة عناد مردهُ الكبرياء؟ كنت أعلم أنني متكبرة وكنت أقتنع دومًا بأنني على حق رغم كل شيء. لم تكن المشكلة هي المخاطرة في الطريق - فيجب محاولة كل شيء من أجل الرب - ولكنها مشكلة أخذ الاتجاه الصحيح. لقد كان الأسقف الفرنسيسكاني الكندي، چان دو كابيسترن يوافقني وعلى استعداد لمنحي عملاً بين الفقراء. لا، لن أهب حياتي لتكوين متغطرسات! فلتغفر لي تلميذاتي القدامى اللائي سيقرأن يومًا تلك السطور! بعضهن عرفن، بعد ذلك، أن ينخرطن في أنشطة اجتماعية. وبالتأكيد فقدت صبري، ولم تكن تلك هي المرة الأولى ... ولا المرة الأخيرة!

وأتى شهر سبتمبر، شهر رابع من الكفاح. كان قرار روما سيقطع الشك باليقين. بعثوا لي باقتراح، اخرجي من أسلوبك في الحياة: كان سيتم تعييني في خدمة الفقراء بالمدرسة المجانية، ولكنني كنت أعطي بعض حصص الأدب للسنة النهائية للمرحلة الثانوية، كان لقاء في

منتصف الطريق لما حلمت به، وافقت، فرحة بفكرة بقائي في مدرسة راهبات سيون!

وها أنا إذن بين تلميذاتي الصغيرات، في مواجهة البؤس: أطفال ينامون بدون طعام، زيارات لأسر تتكدس ثمانية أو عشرة أفراد في غرفة واحدة، حي فقير أفرزته المدن الكبيرة ... ولكنني كنت أرجع كل مساء إلى ديري، في دفء تام، في شبع تام، في إقامة جيدة. كنت بعيدة عن حصولي على المثل الأعلى لحياتي: الحياة مع الفقراء!

الغذاء، على سبيل المثال، كان بسيطًا، معدًا لكي يكون أساسيًا ومساندًا للعمل، ولكننا كنا نتناول اللحم كل يوم تقريبًا. كنت أحس بتعذر مرور الطعام في حلقي عندما كنت أجلس في صالة طعام الدير أمام الأطباق التي تمر علينا. ماذا كانت تأكله في نفس اللحظة شادية وصافيناز وماجدة؟ أستطيع أن أقول حرفيًا إنني لم أكن قادرة على البلع، كانت ترفض معدتي إبقاء الطعام بداخلها، كانت كل وجبة عذاب حقيقي.

كنت أذهب في أغلب الأحيان لزيارة الأسر. استقبلتني چوزفين في بيتها: مدخل صغير، مطبخ صغير جدًا، غرفتان ضيقتان لعشرة أفراد وخلف الفناء غرفة فارغة:

- "لماذا يا جوزفين؟"

- إنها رطبة، لا يريد أحد أن يسكن فيها.

- آه! إنني لا أخشى الروماتيزم. سيمكنني النوم فيها!"

فأشرق وجهها:

- آه، في الحال!

- "ولكن! أحتاج للإذن."





كتبت إلى روما. انقضى مؤتمر الڤاتيكان الثاني الذي يطلب من الرهبان أن لا ينتظروا بعد حتى يأتي العالم إليهم وإنما يذهبون هم بأنفسهم إلى العالم. لقد تغيرت القاعدة المقدسة: حصلت على الإذن. طلبت أيضًا أن يعطوني المال اللازم كل شهر لطعام الراهبة على أن أتدبر أنا العيش. كل شيء سار على أحسن حال، تلك المرة! وكان لي الحظ أن تكون الأم الرئيسة التي تدبر المبلغ هي الأم جيسلين!

إلى الأمام إلى حي باكوس، حيث سكني الجديد، نقلت سريرًا ومنضدة صغيرة للاغتسال وكرسي... لن أحتاج شيئًا أكثر! فها أنا أرجع في الصباح في تمام الساعة السادسة للقداس في جماعتي التي أشترك معها حتى الساعة السادسة مساءً في كل الصلوات. أثناء النهار، أدير المدرسة النصف المجانية العزيزة مضفية عليها جوًا من العمل والمرح. وفي الظهر، أشتري، على ناصية الشارع، طَبَقًا من الفول، الغذاء الأساسي للفقراء، أحيانًا مع ثمرة طماطم أو برتقالة في الوقت الذي لم يكن سعرهما مرتفعًا. ويتبقى لي نسبة التسع من نصيبي في وجبة المساء حيث أشاركها مع الأسرة، وإلا كنت سأبقى صائمة طوال الوقت.

ها أنا، أخيرًا، أعيش فقيرة مع الفقراء، لم أعد "غائبة عن آلام الناس".[19] إنني أتشارك مع الغالبية العظمى من إخوتي البشر، المحكوم عليهم أن يحيوا حياة الشح والعسر: قفزة غير عادية إلى الأمام، تكريس جديد، فرح لجسدي وروحي!

كنت ألتحق بمدرسة الفقر، كان التعليم صعبًا، وكم كان ذلك ضروريًا. كنت أتمنى لكل دارسي اللاهوت والراهبات الجدد من البلاد الغنية أن يذهبن ليشاركن عامًا، أو على الأقل بضعة أشهر، الحياة مع

---

19 - مزمور 72 (73).

العالم الرابع أو الثالث. وهذه الحياة أشبه بمدرسة يلتحق بها المرء طفلاً أنانيًا ويتخرج فيها إنسانًا متضامنًا مع الآخرين تمكنه أن يشعر بهم.

لقد نذرت نذر الفقر، ولكني لم أكن أعرفه. "المعرفة" بالمعنى الكتابي، الذي يعبر عن علاقة وجودية، اختبار محسوس. لقد تزوج منه فرانسيس الأسيزي وأسماه "السيدة فقر" (الكلمة مؤنثة في لغته الإيطالية واللغة الفرنسية). وبدأت بدوري "أعرفه" حتى كما فعل فرانسيس. وهكذا "عرفت" عند چوزفين ماذا كان يعني انقطاع المياه والكهرباء، وأن تكون المدفأة بدون وقود، الكبريت بدون أعواد ثقاب، الأطفال بدون جوارب، المدرسة بدون كتب، ولكن لم أعرف أبدًا البيت بدون حب!

حاولت بعض أخواتي أيضًا، سواءً بالمجيء للسكن معي، أو بالاشتراك في الوجبة التي تكفينا بالكاد من أكل الفول. ولكن لم ينجح الأمر معهن. في غرفتي الصغيرة، كان هناك أحيانًا زوار الليل، جرذان أو فئران، حيث كانت تظهر من حين إلى آخر. صاحت رفيقتي الشُجاعة، التي أرادت أن تبيت مهما كلفها الأمر على مرتبة على الأرض فواجهت تجربة صعبة: "أيتها الأخت إيمانويل، فأر، إنه سيقفز فوقي. "إنه حيوان صغير من مخلوقات الله الجّواد!" تملك المسكينة الرعب وقضت ليلة بيضاء بلا نعاس وفي الصباح رحلت ومعها كل ما جاءت به.

ومع ذلك، كانت صدمة لأغلب الأخوات أن يرينني أترك الدير كل مساء لكي أبيت في الخارج. لم يرَ أحد هذا قط في أي جماعة راهبات والمرء يفهم أن التفكير التقليدي يحكم على هذا الشيء بأنه فاضح. تلقت الأم الرئيسة الإقليمية التي خلفت الأم مارتان خطابًا تلو الآخر. وصلت إلى الإسكندرية. مازلت أرى بالتدقيق ذلك المكان في الحديقة أمام درج صالة الطعام الحجري الجميل حيث قابلتني. كنت مارة بها ذاهبة إلى



الخارج. وبنبرة تقريرية، نادتني مستجوبة:

ـ أيتها الأخت إيمانويل، أترحلين؟

ـ أجل، يا أمي، مثل كل مساء.

ـ ذلك الموقف غير مسموح به، يجب أن تختاري: إن أردتِ الاستمرار في الحياة مع الفقراء، فلتتركي جماعة الراهبات.

لم أفقد ثباتي:

ـ "لن أفعل، يا أمي. لديّ إذن من الأم الرئيسة العامة، ويدعم موقفي الأسقف.

ـ إنك عار على الجماعة ونفس الشيء بالنسبة للناس الذين في خارجها. ولكي نوقف هذا، الأفضل لكِ أن تكتبي للفاتيكان بأنك تريدين الحصول على إذن بالحياة العلمانية.

ـ بالتأكيد لن أكتب. إن كنت تريدين بأي ثمن أن أذهب، عليكِ أن تفعلي أنتِ ذلك. ولكني سأعرف كيف أدافع عن نفسي، لأنني أريد أن أبقى في مدرسة راهبات سيون.

رمتني بنظرة غاضبة واختفت بسرعة عبر الدرج الحجري.

في الغد، ذهبنا مباشرة إلى د.كابيسترو، المدير الإقليمي، كي نحذره! استقبلني بوجهه الحسن ذي التجاعيد البسيطة. لخصت له الأحداث الأخيرة.

ـ "أيتها الأخت إيمانويل، هل تكونين السيدة الوحيدة في الشارع عند المساء؟"

ـ آوه، بالطبع لا! الشارع يمتلئ بالبنات الصغار اللاتي يذهبن لشراء

الخبز ومعهن بعض القروش، أو السيدات اللاتي يقمن ببعض المشاوير أو الزيارات.كما أنّ المحلات تظل مفتوحة حتى الساعة العاشرة مساءً في باكوس!

– لا أفهم لماذا يكون من الفاضح أن تكوني أنتِ أيضًا في الشارع. هل البيت بعيد عن الدير؟

– حوالي ربع الساعة.

– ليست تلك بالمسافة! على أي حال، لا تقلقي. فإنه لاستبعاد أخت راهبة من الڤاتيكان يجب تقديم أدلة على السلوك الفاضح: إن ذلك إجراء طويل وصعب. أنتِ تعرفين، إنني معكِ. فضلاً عن ذلك، لديكِ خطاب من رئيستك العامة. إنني على يقين بأنها لن تغير رأيها". غادرت من هناك، وأنا أشعر بالخفة. لقد كسبت الجولة الأولى.

بعد أيام قليلة، استقبلتنا رئيستنا العامة السابقة، الأم فيليكس، المسئولة عن وضع لوائح الزيارة في البيت. استدعتني. ماذا سيحدث؟ قنبلة جديدة:

– "أيتها الأخت إيمانويل، هل يمكنني أن أذهب لأبيت معك في إحدى الأمسيات؟ بذلك سأفهم بشكل أفضل نوعية حياتك!"

وثبت من الفرح:

– "بالتأكيد، يا أمي! ألا تخشين الفئران؟

– ليس للدرجة، ولمساء واحد، لن يكون ذلك بمشكلة!"

هممنا بالسير في الشوارع المكتظة بالنساء والأطفال وسرعان ما وصلنا إلى سكني. كانت مهتمة بكل فرد وكل شيء، تسأل ألف سؤال عن حياة الحي. ورأيتها أكثر فأكثر انشراحًا. وقبل أن نخلد للنوم، أي حوالي،



منتصف الليل، قالت لي: "شكرًا للسماح لي بأن أشاركك مساءً من حياتك، إنك تقومين بعمل ناجح، استمري، أنا معك." أخيرًا، ها قد تم كل شيء: بقيت راهبة في مدرسة راهبات سيون، مدى الحياة!

وإذ كنا نقوم بزيارة مع چوزفين، حيث استقبلني الجميع بنفس الاستقبال الحار، كنت شديدة الإحساس بصعوبة حياتهم. كان أكثر ما يؤرقهم، هو أطفالهم الذين لم يستطيعوا مساعدتهم في دروسهم، لأن معظمهم كانوا أميين لا يُجيدون القراءة والكتابة. بحثت عن مدرس بالمدرسة وفي ذات المساء، سرعان ما رأيت غرفتي يغزوها، بالفعل، أطفالٌ يحملون الكتب والكراريس. كان الأمر يتعلق بمساعدتهم على النجاح في امتحان الدور الأخير بالمرحلة الابتدائية. كان الأهالي فرحين جدًا، لأنهم لم يكونوا قادرين على دفع تكاليف الدروس الخصوصية، والنجاح في الامتحانات كان أولى الخطوات للترقي!

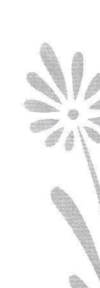
كنت أذهب أيضًا لزيارة المرضى الذين يحتضرون ولا يمكنني وصف فرحة هؤلاء البسطاء عند رؤية راهبة تأتي لزيارتهم. في بلد الإيمان ، كان الكل، يقولون لي بتأثر: "شكرًا، لقد أتيت لنا بالبركة." وفي الحقيقة، كان حضور أخت راهبة بالنسبة لهم يأتي ببركة الله، وهذا هو الشيء الأكثر قيمة في نظرهم! لقد أثر فيّ كثيرًا ترحابهم المملوء بالفرح والإخاء. ولا يسعني هنا وصف أجواء الصداقة التي كانت تغمرنا، ونحن نحتسي معًا أكواب الشاي؟

مساء الاثنين 28 سبتمبر 1970م، كنت عند چوزفين. أتى "ميلاد" زوجها بجهاز تليفزيون قديم أعده للاستعمال. وفجأة، ظهر على الشاشة أنور السادات بنفسه، نائب الرئيس. كان وجهه يعكس معاناة تتعدى كل تعبير. غمغم، إنني آتي إليكم بأحزن الأخبار: إن أعظم الرجال ـ الرئيس

جمال عبد الناصر- قد توفى." وسرعان ما وصل النحيب إلى الأسماع. وامتلأ الشارع فجأة بالناس. كانت النساء يلطمن على وجوههن ويمزقن ثيابهن باكيات. الأطفال كانوا يصرخون، وتعالى صياح الرجال بصرخات تصم الآذان. وفي الفجر، وبعد أن أنهكهم الألم، رجع الكل إلى بيوتهم. وعندما ذهبت إلى القداس الذي كان سيتم إقامته من أجل مصر، كانت الشوارع المهجورة تتنهد لموت رئيس شعب...

وإذ كنت قد أصبحت مصرية بالقلب بمشاركتي حياة الفقراء، جعلت معهم من جمال عبد الناصر بطلي المفضل: "ارفع رأسك، يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد!" لقد كانت تلك صيحته بعد ما أجبر الإنجليز على الجلاء عن البلاد. ومع الكرامة، أعاد لأمته الحرية المفقودة منذ قرون، أليس هو الرئيس الشرعي الذي أعطى قيمة لجنسه ؟ فليحفظ الله تراثه إلى الأبد!

لقد كنت أريد أن أتمم بأي ثمن مهمتي في ذلك البلد وأنهض بمستوى المدرسة النصف المجانية. ومن أجل هذا الهدف، كنت مديرة لديها متطلبات كثيرة أطلب الكثير: الدقة، النظام، العمل، والتوبيخ القاسي. لقد توفرت الدفعة اللازمة، ولكنني كنت متوترة جدًا. كنت أخلق جوًا صعبًا للغاية. ولسعادتي، وقع بين يديّ كتاب عن اليوجا. وجدت فيه بعض التمارين السهلة. كنت كل صباح، قبل ذهابي إلى المدرسة، أقوم بأداء تمارين اليوجا لمدة ربع ساعة، ولدهشتي، كنت أصل هادئة مبتسمة. "كيف، يا منى، وأنت فتاة صغيرة ولطيفة إلى هذا الحد، تحدثين كلّ تلك الضجة؟ إنني متأكدة بأنك ستصبحين أفضل تلميذة لكي تسعدين أبويك!" وتذهب منى فرحة وعازمة على أن تصلح من سلوكها. المكافأة، النزهة، أعياد الميلاد الجماعية حيث الحلوى والشموع، أعياد مرتين في السنة... كانت البهجة تغمر كل شيء. تضافرت جهود المدرسات، الأطفال،





والآباء. أصبحت المدرسة مدرسة فرح. كانت نتائج الامتحانات الأعلى في كل الحي. أعتقد أنني بدون اليوجا الصباحية كنت سأجعل من عالمي مجرد طبلة تقرع بدون حماسة العمل.

كان سهلاً عليّ أن أثور على ما يحدث خارجي من ظلم في العالم. ولكن كان يجب أن تضع صديقة إصبعها على عدم مساواتي حتى أضع نفسي مرة أخرى في موضع تساؤل. وها هي حالة لم أتصرف فيها بالعدل الذي كنت أطالب به. كنت قد فتحت فصلي حضانة وسارا على نحو رائع مع مدرساتهما بشكل أدى إلى تزايد عدد التلاميذ بدون توقف. وكان يجب توفير معونة لهم. واحدة من تلميذاتنا ممن تركتنا لم تجد عملاً. لم يكن لديّ الكثير من الموارد فقدمت لها راتبًا ضعيفًا. كانت أسرتها فقيرة جدًا، فالأب قضى أعوامًا طويلة في السجن. لقد رويت تلك المأساة في "كتاب زبالة مع الزبالين". كنت أذهب من وقت لآخر، لزيارتها ومعي بعض اللوازم التي تحتاجها لها. كنت أعاملها برعاية أبوية كاملة. ولحسن الحظ، استدعتني صديقة لتسألني:

- "أيتها الأخت إيمانويل، أهذا ما تعطيه بالضبط للصغيرة هذا ضئيل كراتب لها..." لم أذكر المبلغ بعد. هل كان جنيهًا؟ لا أجرؤ على تصديق هذا، لأن هذا كان يعتبر، على وجه التدقيق، فضيحة!

- "أنت تعلمين، لم يعد لديّ الكثير.

- ولكن في النهاية، أيتها الأخت إيمانويل، كم من مرة طلبت مني مبلغًا أو آخر للحالات الخاصة؟ وكنت أوجده لك: العدل قبل الصدقة."

وتم تقويم ظلمي! تلك الصديقة التي ليس لها مثيل، ميجيل يانسوني، كانت راهبة من الراهبات القدامى في مدرستنا، الليسيه الجميلة، دأبت على المجيء لمساعدتي: "إنه من الأفضل عندي، أيتها الأخت إيمانويل،

من قضاء الساعات على الكوبري!" قررنا أن نولي عناية أكبر للمشاكل الصحية. أعدت ميجيل البطاقات الطبية. الوزن، الطول، الأمراض... كل شيء تم تدوينه بدقة. أوصوا لنا بطبيب أطفال يتميز بخبرته:

- "ها هي البطاقات، يا دكتور.

- أوه! الوزن والطول لا يهم. المهم هو الأسنان."

وقد فحص بتدقيق أفواه الأطفال، وأصبح عدد الأسنان التي يجب خلعها مثيرًا للعجب. كان يجب تواجد طبيب أسنان بشكل دائم في المكان، ولكن أمام الصياح الذي كان سيعوق العمل المتناسق في الفصول، تراجعنا. قام الطبيب بملء روشتات خلع الأسنان التي بعثنا بها بكل أمانة إلى الأهالي. لم تظهر أية استجابة.

وبمرور الوقت انشغل الطبيب أكثر فأكثر، ولم يعد لديه وقت للمجيء لفحص حالة أسنان الأطفال. أوصوا لنا بطبيب متخصص للأمراض المعوية. إن هذا بالضبط، كما يقولون، هو أكثر ما يجب تواجده في الأوساط الشعبية. في تلك المرة، تحركنا في اتجاه آخر: "المهم، قال الطبيب لميجيل مؤكدًا، هو تحليل الأملاح. أنا لا يمكنني التشخيص قبل ذلك. إن أكثر الناس يعانون من ديدان في الأمعاء، وهذا مصدر خفي لكل المساوئ. بطاقاتكم لا تفيد شيئًا". بعد تلك الكلمات المحددة، تركنا بكل فخر.

تبادلنا النظرات، أنا وصديقتي، في هم شديد. الأمر له وزنه. علينا أن نقوم بتحليل الأملاح لأطفال معينين. ولكن العوائق قد وجدت لكي نجتازها فوقها، كما كان القدماء يقولون. مهما حدث، يجب أن نتبع الأسلوب الكارتيزي: تقسيم الصعوبات إلى أجزاء صغيرة بقدر ما نستطع حلها.





قفزت ميجيل إلى سيارتها وذهبت لتتفقد مستشفيات مختلفة متخصصة في ذلك النوع من الأنشطة. وأخيرًا، وجدت مديرًا متفهمًا لا يمكنه أن يرفض شيئًا لسيدة رائعة مثلها. وجاء الأطفال، فصلاً بعد فصل، أيام الاثنين والخميس. وكان هناك جيش من المتخصصين في خدمتهم، ومعهم كل ما يلزم.

وحيث أن قلمي ليس بقلم الكاتب رابليه فلن أدخل في تفاصيل تلك العملية. لو كتب ذلك الكاتب، مؤلف "جارجانتيوا"، لكتب صفحة رائعة! كل ما أستطيع قوله، هو أنه في وسط كتيبة كفاح كتلك، خلط الممرضون، لاضطرابهم، الأسماء: "دكتورة، نحن جميعًا نثق في ميجل، لا يهم. إنه نفس الشيء تقريبًا بالنسبة للكل. من الأفضل أن يأخذن كلهن الشربة، ولن يؤذيهن ذلك!"

النتيجة: بعد مفاوضات عسيرة، تقرر إعطاء شربة لكل المدرسة في نفس اليوم. كان ذلك مرضيًا بالنسبة للمدرسات لأنهم حصلوا على عطلة إضافية في ذلك اليوم. أما الطبيب، فقد انتصر: ونظر بوضوح. وللأسف، في الوقت الذي كنا سنستفيد من إسلوب علمي بهذا القدر إذا تم توجيهه بشكل جيد، كان خبيرنا في الأمراض المعوية... قد رحل لأمريكا. ولكن الدكتورة صنفت بأمانة نتائج التحليلات.

أوصت لنا راهبة من المستشفى المجاورة بطبيب جديد: "إن لديه موهبة تشخيص مدهشة. يمكنكم أن تثقوا به تمامًا!" اشترت الدكتورة سريرًا خاصًا لفحص الحالات المثيرة للشك، كانت البطاقات في أتم صورة، وارتاح ضميرنا تمامًا. ألقى الطبيب الممتاز نظرة على الأوراق التي قدمتها له ميجيل وقال بنبرة احتقار:

- "ما هو تاريخ تحليلات الأملاح تلك؟

- من حوالي ثلاثة أشهر.

- لم تعد صالحة. لا شيء يتوالد أسرع من الديدان. يجب البدء من جديد."

تبادلنا أنا والدكتورة نظرات اليأس. ولكن الطبيب استأنف: "ليس هذا هو الأساس، المهم، هو حلقهم." تنهدنا نحن الاثنان: من أي خطر أفلتنا! "في مصر، كل الناس يعانون من التهاب اللوزتين. وعندما لا تعالج عند الأطفال، يصل بنا الأمر إلى روماتيزم القلب، يعقبه موت مفاجئ. يجب بلا شك توقع عمليات جراحية. احضروا التلاميذ." إحساسنا بالراحة تضاءل ثانية. كان عدد الأطفال الذين يجب إجراء جراحة لهم، في كل فصل مخيفًا. وصمم الطبيب: "إنها مسألة حياة أو موت." لقد عمل ما عليه وأخبرنا، ثم ما لبث أن تركنا. كنا أنا وميجيل في تأثر شديد. أنقدر أن نترك هؤلاء الضحايا الأبرياء الصغار سائرين تجاه نهاية قريبة؟

مرة أخرى، استقلت "الدكتورة" سيارتها متوجهة إلى مستشفيات أخرى. ظل الأطباء، أمام تلك القوائم، يتأملون: "معذرة، سأل واحد منهم، إنني أعلم أن هناك مدارس للصم، والبكم، للمكفوفين. ولكنكن، سيداتي، تديرون مدرسة متخصصة في التهاب اللوزتين؟" أخيرًا، بفضل، جاذبية شخصيتها، وموهبتها في الإقناع، حصلت من هنا وهناك على بعض الأسرة. استدعينا الأهالي. وافقت الأغلبية، للحالات الأكثر خطورة، ولكن الأمهات أصررن على قضاء الليل مع أبنائهن، ومن هنا كان الشجار مع الممرضين. تركت الخصوم وجهًا لوجه، وغالبًا ما كانت الأمهات تنتصر: "إرادة المرأة... من إرادة الله".

وقفة للتسرية عن النفس. كان كل واحد من أولئك الأطباء يركز على ظاهرة من ظواهر الجسد الإنساني بالغ التعقيد. حاولت تبعًا لذلك أن



ألاحظ هذا، على الأخص مع جامعي القمامة الصغار الذين كانوا معنا والذين وجدت فيهم نفس الأعراض، أسنان تالفة بلا عناية، أطفال بالغو النحافة مصابون بالديدان، التهاب لوزتين متكرر وخطر!

وبينما كنت أصارع مع المتخصصين الذين كانوا يعملون معنا وتوصياتهم الطبية، كان رهبان المدارس المسيحية ينظمون في الإسكندرية دورة للتفسير يديرها أفضل اللاهوتيين: الأب تورناي والأب بواسمار من مدرسة الكتاب المقدس بأورشليم، الأب ليونيه من معهد الكتاب المقدس بروما. كان سفر الجامعة يوضح عدم جدوى كل ما يتمسك به الإنسان ويدعو إلى الإعلان الأعلى الذي سيأتي به يسوع. وبدا القديس بولس لنا كرسول للحرية الممنوحة لنا بالمسيح: يونانيين أو رومان، عبيدًا أو أحرارًا، رجالاً أو نساء، الكل يدخل في نفس الأخوة. يوحنا، المنادي بالحب الإلهي، يعلق أنظاره على السماوات المفتوحة...

كانت تلك الأيام المليئة بالتعليم الروحي المتميز تتوج التكوين اللاهوتي الذي اتبعت محاضراته منذ أربع سنوات. وبعد أيام قليلة، كنت سأكمل عشرين سنة في حي جامعي القمامة بدون الاستفادة من أي تعليم متعمق. ولكن، كيف أمكن لي أن أشك في أنها آخر علامات الطريق الذي كان سيتسع فجأة على موقع أشبه بالكابوس... والذي كانت مجرد رؤيته تعتصرني جسدًا وروحًا.

في الواقع، وقعت مشكلة مؤلمة أثارت قلقنا: لم يكن لدينا من الأخوات الشابات ما يكفي لضمان الاستمرارية. في عام 1971م، قررت رئيساتنا نقل مدرستنا الجميلة إلى جماعة مصرية. فكان مطلوبًا من كل واحدة منا أن تقدم إلى الرئيسة العامة النشاط الذي ترغب في العمل به إذا لم ترد أن تحال إلى المعاش. كنت قد بلغت الثانية والستين من العمر

ولم أزل أحس أنني بكامل قوتي. ولم يكن هناك أي فكرة للتقاعد ! وإذ كنت مأسورة بقصة الأب دميان، كنت أحلم في شبابي بأن أذهب لأعالج مرضى الجزام. كان دار إيواء مرضى الجزام الكبير يقع على بعد حوالي خمسين كيلومترًا من القاهرة. وأجبرني السفير البابوي، برونو هايم، على استعمال سيارته.

اقترح عليّ السفير البابوي برونو هيم أخذ مسئولية عشوائيات جامعي القمامة سكانها. قام بتوصيلي بنفسه إلى العشوائيات أولاً بالسيارة ثم مشيًا على الأقدام خلال طريق غير ممهد. ألهبني المشهد الذي رأيته أمامي. تخيل حارة مليئة تمامًا بالقمامة عشش صفيح قديمة مخرمة، خنازير سوداء، كلاب متوحشة، فئران ضخمة غليظة، قمامة وأطفال!

كان يموج بداخلي شيء ما. بدا لي وكأن شخصًا ما يتحدث إليّ: " أتريدين أن تأتي لتسكني هنا؟ أتريدين أن تعطيني عينيكِ التي كثيرًا ما تكون غير مبالية ببؤس البشر حتى أنظر ـ أنا يسوع ـ إليه بحب؟ أتريدين أن تعطيني شفتيك التي كثيرًا ما تكون مغلقة وباردة حتى أستطع أنا من خلال شفتيك أن أتحدث إليهم بحب؟ أتريدين أن تعطيني قدميك، يديك، جسدك، ذكاءك، إرادتك، كل كيانك، حتى نستطيع أنتِ وأنا أن ننقذهم؟... أتريدين؟"

لقد كان ذلك مخيفًا. أن أعيش بجانب القمامة في رائحة العفن تلك... هل سيكون لديّ القوة، ساعة بعد أخرى، يوم بعد يوم؟ "أستطيع كل شيء، كل شيء في ذاك الذي يقويني... أجل، يا يسوع "هيا" إلى الأمام معًا!" انتهى الأمر، المعاهدة قد أبرمت. في الحياة وفي الموت!

كنت أتكلم عن هذا مع أصدقاء مصريين، وتملكهم الرعب: "ولكن أيتها



الأخت إيمانويل، تلك العشوائيات ملتقى للمجرمين! مليئة باللصوص ومتعاطي وبائعي الحشيش و الخارجين على القانون. حقًا، "سيقتلونك أيتها الأخت إيمانويل، سيقتلونك وأنت وحدك بالداخل!"

سيقتلونني، سيتطلب ذلك التفكير. حسنًا، قمت إذن بتجربة تحبس الأنفاس، أكثر عجبًا من سابقتها. نفس المسيح الذي طلب مني أن أعطي كياني كله كان يملأني، في المقابل، بحيويته. ذلك الذي كان يستحيل التفكير فيه لو كنت فكرت فيه بمفردي أمكنه أن يتحقق. أحسست بأن حبًا أقوى من الموت كان ينبض فيّ، وبقوة كانت ستحييها نفحته، بلا فساد، بعد تحلل جسدي. كان يجب حينئذ الحصول على الإذن من رئيستي الإقليمية. منذ مشهد الحديقة لم نعد متفاهمتين. كانت تنصت إليّ، وتفكر، وتنظر إليّ:

- "هل قررتِ بالفعل؟"

- في الحقيقة، نعم.

- قرار أكثر جنونًا من سابقه. لا أستطيع أن أؤيدك، ولكني لن أمنعك.

- شكرًا يا أمي. لن أطلب أكثر من هذا.

- إني أحذرك بأنني لن أساندك في أي شيء لمشروع جنوني إلى هذا الحد. تصرفي لكي تعيشي!

- الأسقف في جانبي. أريد أقل القليل مثل الزبالين."

أراد الأستاذ چون دكابيسترن أن يعطيني عشرة جينهات شهريًا على الأقل، ما يساوي تقريبًا خمس دولارات. كان ذلك أكثر من اللازم، فخمس جنيهات كانت ستكفي... أخيرًا، هكذا سأعيش فقيرة مع الفقراء.

قبل أن أروي المغامرة الكبرى التي كانت ستهمشني خلال أعوام

طويلة في جماعتي، يجب أن أعترف بأن لا شيء كان يبدو معقولاً. رحلت بمفردي إلى مكان لا يطأه رجل، ولا... على الأخص، امرأة. لم أقدر أن أتحامل على رئيستي لسبب عدم قيامها بأي شيء لمساعدتي. وبعد صبر طويل، بدأت الثمار في الظهور، فاهتمت بي من كل قلبها. وبعد خمس سنوات من الصمت أظهرت في مقابلتنا رقة وود فوق كل توقع. أعطى الرب أسقفي أن يفتح لي الطريق ولازمني الرب في كل خطوة... لم يكن هناك مشاكل!







ليلة من لهب

لقد فضلت أن لا أصف في المكان نفسه الاحتراق الذي كنت أحس به في ليلة من نار والذي لم يختف أثره أبدًا. "ليلة من نار": التعبير تمازج فعليًا مع الواقع.

كان ذلك في الصيف والنافذة تهب منها نفحات الحرارة المشبعة بالرطوبة. وأنا بين اليقظة والنعاس، منهكة، غصت في الخمول. في عمق الليل، ارتسم لي في حلم ملامح وجه مدرس كنت معجبة به. بين حصتين، كان الحوار يسترسل بيننا بلا انقطاع. وثبت رغبة بداخلي:قضاء الحياة معه... أجبت في ضعف: لا أنا راهبة... ولكن في حلمي سمعته يقترب ويميل أكثر فأكثر عليّ... لا تراجع... كنت أتصارع عبثًا.. ، كان جلدي يرتجف بالعرق... ارجع، اذهب بعيدًا...... كنت أقاوم وأتراخى... كنت أأبى وأذعن... مضت تلك الليلة المشتعلة بين النفور والاستسلام... لم يعد جسدي، من الرأس إلى القدمين، سوى قطعة من الجمر.

دق جرس الاستيقاظ، انتصبت واقفة وأعضائي ممزقة ورأسي تشتعل. وفي الكنيسة لم أستطع أن أُصلي،... لم أجرؤ التحدث عن ذلك مع الرئيسة. ذهبت لألتجئ لأخت راهبة مسنة جدًا. جلست بجوارها، على كرسي

صغير، وضعت يديّ الملتهبة في برودة يديها وهمست: "لم أعد أقدر، إنني منهكة." رفعت عينيّ المنكسرتين إلى عينيها. كما يحدث أحيانًا عند كبار السن، عندهم شفافية النبع. شعرت بأنني أُولد من جديد في البراءة.

- "هذا فظيع. كنت في الحلم أتصارع طوال الليل ضده... اشتعلت النار فيّ."

لم تسألني عن شيء. كلمتني بصوت منخفض، كأم تتكلم إلى طفل يتألم:

- "ابنتي الصغيرة، إن لنا قلبًا، من الطبيعي أن يلتهب أحيانًا بقوة شديدة.

- لا، ليس لرجل، لله فقط، إنني راهبة."

تجهم وجهها:

- "لقد مررت في تجربة النار، إن هذا جيد لراهبة، النار تنقي المعدن.

- آه! لا، هذا فظيع.

- انصتي جيدًا، يا صغيرتي إيمانويل، إن هذا فظيع، كما تقولين أن تستمري طوال الحياة مخلصة لعهد واحد ونفس العهد... طوال الحياة. أتعتقدين أن الأزواج ليس لهم مآسيهم، ونار يخترقونها إذا أرادوا أن يبقوا مخلصين حتى الموت؟

- ما يهمني الآن هو أنا، ليس الأزواج. ذابت في تلك الليلة قوتي... أنا... أنا هائمة!"

ضغطت بحنان على يديّ وابتسمت ابتسامة خفيفة:

- "يجب الاهتمام بالآخرين يا ابنتي الصغيرة. الأشياء المبعثرة تجمع من جديد، القوى تتجدد. وأضافت على ذلك، إذا كان الأمر فوق طاقتك فلك الحرية أن تطلبي من روما إلغاء نذورك. أنت تعلمين ذلك



أليس كذلك؟

ـ أبدًا، أبدًا، لن أترك المسيح وكل من يحبهم من خلالي. أُفضِّل تحمل تلك النار طوال حياتي!

ـ كنت متأكدة من إجابتك يا إيمانويل!"

تبادلنا النظرات، كان حنانها ينعشني مثل نسمات الليل. قالت لي: "لنبحث معًا عن الحل، الصلاة بالطبع، وبخاصة لعذراء الطهارة، نجمة البحر العاصف، ولكن يجب عمل شيء من جانبك. ساعدي نفسك يا إيمانويل والسماء ستساعدك! أنتِ في الوقت الحالي لا ترين إلا مشكلتك. هذا طبيعي. ولكن المشاركة في مشاكل الآخرين تفقد مشكلتك الخاصة تسلطها. افتحي قلبك يا إيمانويل لجراح الآخرين وجرحك سيندمل." وأضافت بشيء من الدهاء: "وأحيانًا ما نكون غير حذرين بعض الشيء، أليس كذلك؟"

تركتها، وقد غمرني الهدوء، بنظرة أخيرة تفيض بالحنان. أصابعها كانت قد أمسكت بالفعل بالمسبحة لتصلي بها من أجلي.

يا لها من نصيحة قيمة نلتها أيضًا ذلك اليوم. كنت أحتاج لسماعها وسماعها مرات، لأنني أنسى بسرعة الجوهر! كنت سألتهب بكليتي وجهًا لوجه مع ذاتي، وحدي في النار. أنصت إذن، أكثر إلى المرضى، في صمت، لكي أجعل آلامهم هي آلامي. جلست وقتًا أطول بقرب الفقراء في أزماتهم، باحثةً معهم كيفية تحسين مصيرهم ومصير أطفالهم. امتنعت عن متعة الحوار معه. وفوق كل شيء، كثفت الصلاة: ظلت العذراء ملاذًا أبديًا لضعفي.

ورغم ذلك، يوم يوبيلي الذهبي أي مرور خمسين عامًا، في وسط

المراسلات الغامرة، وجدت مظروف: استطعت التعرف على خط يد معين، كان لمدرسي ذي الحوار الفاتن. صدقني، قلبي ارتجف... قلبي العجوز البالغ من العمر 73 عامًا: خطاب تهنئة رسمي... تنهيدة، ابتسامة، كلمة شكر، وسريعًا، إلى سلة الرومانسية! كم نبقى شبابًا في الشيخوخة!

فلنفكر بينما نلقي الطرف نحو فريزون، العاشق "فوق الحب" لنفرض أنني تزوجت المجرب (الفتّان) الليلي الذي كان في حلمي. كان يمكن أن يجعلني سعيدة، فلقد كان حسنًا بالفعل! كنت سأرزق بأطفال بأعداد كبيرة مثل الزبالين. ليس بأقل من ستة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة، إحدى عشر، إثني عشر! كفى، فلنتوقف... واليوم، وأنا أكتب هذه السطور، أصبحت أمًا لأكثر من ثلاثة آلاف زبال صغير قد استطعت إرسالهم إلى المدرسة، وبالتقريب ثلاثين ألفًا من السودانيين الصغار الذين يتلقون كل يوم غذاء وتعليم في "راكوباتنا (مدارس من الخوص)". في الحقيقة، فصولنا في الخرطوم تكتظ بالأطفال. ونحن مضطرون لتقوية الدعائم التي تحمل الخوص! تلك الفكرة جعلتني أقول مع النبي إشعياء[20]:

"ترنمي أيتها العاقر التي لم تلد.

أشيدي بالترنم أيتها التي لم تمخض،

لأن بني المستوحشة أكثر من بني ذات البعل، قال الرب.

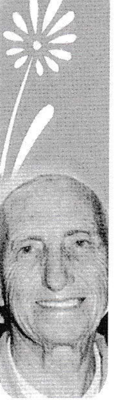
أوسعي مكان خيمتك ولتُبسَط شقق مساكنك. لا تمسكي.

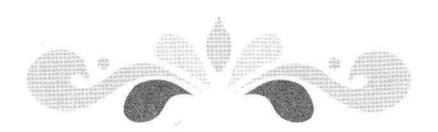
أطيلي أطنابك وشددي أوتادك.

لأنك تمتدين إلى اليمين وإلى اليسار، ويرث نسلك أممًا ويعمر مدنًا خربة".

20- إش 54: 1-3.



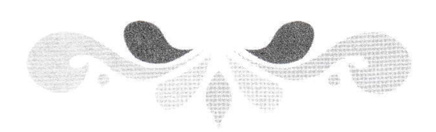




الباب الثاني

زمان الحب الأعظم

1971 م- 1993م



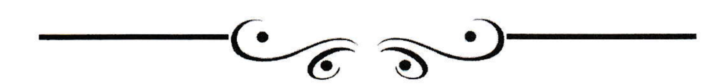






الجزء الأول

الحياة في عشش الزبالين





قبل أن أُلقي شعاعًا من الضوء على المكان المحدود إجباريًا، الذي عشت فيه "زمان الحب الأعظم"، فلنتذكر الإطار العام. تبنت جماعتي - بسرور - التوجيهات الجديدة لمجمع الڤاتيكان الثاني: الأبواب أصبحت الآن مفتوحة على مصراعيها للعلاقات مع الطوائف الدينية الأخرى، إلى حد إعلان الرباط الذي يجمع روحيًا المسيحيين بنسل إبراهيم. وهذا ما كان يهم راهبات سيون بنوع خاص - التي أسسها كان يهوديًا - وهو ما يهمني أنا أيضًا كواحدة من نسل دريفوس. ومن جهة أخرى، انفتحت الكنيسة بكل ود - بدون نهج تبشيري - على الأديان، وهو مجالي المفضل.

أحداث العالم وصرخة المقهورين، أحدثتا صدى واسعًا عند آباء المجمع. لقد نصت لوائحنا الجديدة على أن: "التاريخ جعلنا على وعي - بشكل خاص - بحقوق الأقليات، الفقراء، وكل المُهمشين." في نفس الاتجاه، أسست الأخت چيسلين، بعد منصبها كرئيسة للمدارس الكبرى لأرقى عائلات إسطنبول والإسكندرية، حضانة للفقراء في حي المطرية المتواضع. بدون فترة انتقالية وبدون ندم، تخلت عن الامتيازات المرتبطة بمركزها، سيارة بسائق خاص وكل أنواع الخدمات وقامت بأعمال التنظيف والطبخ. وصولاً إلى أمريكا والفلبين، حيث توغلت أخواتنا في أكثر الأماكن تهميشًا. سافرت واحدة كندية وأخرى نمساوية من جماعتي

العزيزة في القاهرة، لتنمية قرية من أقل القرى تطورًا. أولئك اللائي كن أستاذات بالجامعة، مارسن نوعًا مهمًا آخر من التنوير، بتنظيم الندوات - مثلاً - في أسبانيا وهي الأولى بعد انقطاع منذ القرن الخامس عشر. أصبحت رغبتي هي تكريس نفسي لأناس محتقرين بشكل خاص، جزءًا من ذلك الفكر الجديد الذي بدأ في تنشيط جماعتي.

ورغم ذلك، لو كنت منبهرة بالزبالين، فلأنهم كانوا يجسدون الدعوة القديمة "للحياة مع" أكثر الناس بؤسًا، وذلك سيرًا على نهج وطريق المسيح: فقد أحبنا وأراد أن يتحول من "هيئة الله" إلى "هيئة الإنسان"[21] لكي "يدخل في"، ويشارك ظروف حياتنا الفانية. لأنه في نهاية الأمر، ماذا تُعني المحبة؟ إنها تَشوق يدفع - بقوة لا تُقاوم - كيانًا تجاه كيان آخر، لكي يشاركه حياته. وماذا تعني المشاركة؟ إن لم تكن مشاركة الآخر حياته "في السراء والضراء" متحدين بمصيره، حتى ولو كان بائسًا إلى أقصى درجة؟

بدخولي إلى عشش الزبالين وصلت أخيرًا - بعد مسيرتي الطويلة - إلى مرساة الحب الأعظم.

وها هو السؤال يطرح نفسه: هل أنا - في حقيقة الأمر - قد شاركت كليةً فقر وبؤس الزبالين؟ تأكيد ذلك سيكون كذبًا؛ فالفقر والبؤس كان عندهم أمرًا كيانيًا. لقد التصقا ببدنهم منذ مولدهم. إنهم مولودون بهذا الحرمان من التعليم، وكل مصادر الحياة، عيشهم من القمامة. هل حملت أنا الرفض الذي أثقلوا به؟ أبدًا.

بالعكس، لقد أعجبوا بي لأنني شاركتهم حياتهم، وأيضًا لم أُشارك إلا في جزء من فقرهم المادي، كان ذلك صعبًا، هذا حقيقي. لكن ما حجم

21- في 2: 6 ـ 7



الأمان الذي كانوا يتمتعون به مقارنة بذاك الذي كانت تمنحه لي جماعتي المليئة بالدفء؟

من جهة أخرى، فإن حقيقة عيشي معهم جنبًا إلى جنب - حيث كنت أُدعى أيضًا "زَبّالة"- قد رفعهم بشكل ما. الاحترام الذي أظهرته لكل واحد منهم استعاد لهم كرامة الكيان الإنساني. فإذا كنت لم أستطع النزول معهم إلى الحضيض، فإني فجّرت فيهم الرغبة في الخروج منه، على الأخص بفضل تربية وتعليم أطفالهم. ولهذا السبب - حتى وإن كنت لم أحقق إلا جزءًا من هدفي الأسمى - فالوقت الذي مضى مع إخوتي وأخواتي الزبالين ظل لي، مثلما كان لهم، "زمان الحب الأعظم".

زفة عرس

فوق عربة كارو قديمة يجرها حمار ، يسرع الخطى تجاه عشوائيات عزبة النخل. كنت جالسة بين سرير وبعض الأشياء الأخرى. كان الأطفال يلتفون من حولي وهم يصفقون و يغنون: "العروسة". كانت تلك هي العادات المصرية - عند الفقراء - أن ترحل العروس من بيت أهلها بين جهاز البيت الجديد في وسط تهليل شعبي. ففَعَل بي أطفال الشارع نفس الشيء، وكنت أضحك من قلبي. كان لي من العمر إثنتان وستون عامًا، ولكني أحسست أنني في مسيرة زفاف مع فريق غناء من البنات. منذ أربعين عامًا - في الكنيسة الصغيرة لراهبات سيون بباريس - وهبت نفسي جسدًا وروحًا بتكريس مقدس. واليوم كان نفس التكريس، ولكن زاد عليها قفزة إلى الفقر.

كان قلبي يُحَلق بفرح. لقد اختفت الحواجز التي شيدها البشر لكي يعزلوا أنفسهم عن البشر الآخرين. وبعيدًا عن الأمان، أصبحت بدون دفاع، لقد تم تسليمي مثل المسيح. ثقل الحب الذي ظل مكبلاً لوقت طويل وتحرر

منذ تلك اللحظة، جعلني أجر قدمي سعيًا للأمام، فكل الحواجز قد انهارت أخيرًا. في شباب القلب جرت العروس - بدون قلق - إلى مصيرها، قفزت للأمام تجاه التجسد، المشاركة الإنسانية.

دخلت في الكشك الصغير الذي قدمه لي صديقي الجديد، جامع القمامة "سمير". هيا، وكان في الخارج الماعز والحمام! كانت عملية التنظيف ضرورية: وها قد سكنت. دوت بأُذنيّ جملة: "سيقتلونك." ياه! لم أعد أعتقد هذا. ولكن إن كان هناك خطر، فيجب الإسراع لملاقاته، وإلا سيكون ذلك تراجعًا أبديًا. لا تخافي يا إيمانويل! تقدمت مع سمير تجاه الزبالين الأكثر قربًا، الجالسين وسط القمامة التي تم جمعها من القاهرة. صليت كي يكون مسيح الحب حاضرًا في عينيّ، شفتيّ، وقلبي. بابتسامة، انحنيت لكي أقدم له يدي، فارتجف الرجل؛ إنها أول مرة يقترب منه أحد من المجتمع الراقي، كما يسمونه. نهض وضغط بقوة على كفي حتى تألمت. لقد استمد قوة من ذلك!

-"كباية شاي؟

- نعم، بكل سرور!"

جلسنا على الارض جنبًا إلى جنب. لم تهمنا القمامة، كان المهم هو أن نشرب معًا! جرى الزبالون الذين كانوا في الشارع، وفي دائرة أخوية تشاركنا الشاي، تبادلنا الكلام والضحك، لقد أصبحت "زبالة مع الزبالين"! ذلك الكوب الذي تناولناه جنبًا إلى جنب - ونحن جالسان على التراب - كان له دلالة رائعة. الصداقة تُحقق المساواة: نحن جميعًا على نفس المستوى. فجأة، لم يعد أصدقائي الجدد يحسون بأنني في الصف الأخير من المهمشين.



في المساء قبل أن أخلد إلى النوم في عشتي، فكرت أنني أتيت لأتوحد مع العشوائيات في السراء والضراء، مع هؤلاء الناس البسطاء حيث نحب بعضنا بعضًا: ذاك سيكون "السراء"! وسنحتمل سويًا أيام الأزمات: وذاك سيكون "الضراء"! لا أعرف بعد في أي صراعات أقحمت نفسي من بين الصراعات سيأتي في قمة المقدمة قلب الحائط الذي يفصل بين الناس ألا و هو "عدم القدرة على التحاور".

كعروس "شابة"، كانت أولى خطواتي أن أقوم بزيارة عائلتي الجديدة، ذاهبة من حارة إلى أخرى، لكي أُثرثر في حديث ودي مع كل واحد. وقد اصطحبتني "تريزا" الصغيرة فالتقيت مع سمير: عبر لي عن مشكلة جيراننا قائلا إنهم لا يقدرون على التحاور." آه! ذلك، لا، ذلك يجب أن يتغير! المشكلة ليست بسيطة: إنني هنا لكي أكون جسرًا بين الجميع، ولكن أين وكيف أطرحها، في أي مُلتقى؟

بمناقشة أمور مختلفة مع الشباب، سمعتهم يتحمسون لنفس أبطال كرة القدم. إريكا! لقد وجدتها! تكلمت عن ذلك مع الأب موريس مرشدي الروحي، الذي كان متحمسًا للمشروع وقادنا في يوم عطلة إلى تلاميذ الچيزويت الكبار. في وسط جو بهيج، رفع الزبالون الذين نخدمهم عَلَمْهم الرياضي العالمي! وتجاوز النجاح كل آمالنا. وبعد ذلك بقليل أصبحوا لاعبين متحمسين يتكاتفون. لقد صنعت كرة القدم "الفوتبول" المعجزات! وجاء يوم حزين أصيب "أحمد" بحُمى قاتلة ومات في خلال ثلاثة أيام. فتواجد الجميع في المسجد، يجمعهم الألم.

كانت أساليبي بدائية بالفعل، لكنها لم تكن إلا المبادرة الأولى وكانت أساسية! الشيء الأساسي هو إنهم كانوا يرونني أُحيط كل واحد منهم بنفس الحنان، معطية لهم بدون تفرقة أفضل ما في قلبي.

لاحظت أن الوسائل الأكثر طبيعية - نظرة، بسمة، مداعبة رضيع - تنسج صلة. حب الأم لكل واحد من أطفالها يخلق وئامًا بينهم. نفس هذا الشيء الرائع ينتج بطريقة طبيعية جدًا. تلك الأشعة اليومية نفسها التي تصل إليهم تبث دفئًا إنسانيًا يُقرِّب بينهم تلقائيًا. عندنا في المدرسة الابتدائية أو في المستوصف، في النادي أو في بيت المسنين، كان يجلس الجميع جنبًا إلى جنب ويتحادثون بكل أخوة. وفي عشوائيات عزبة النخل، تحققت رغبة الله: "في أن يكونوا واحدًا!"

المرض

كانت الأمهات - باكيات أطفالهن - يحضرن لي وجوهًا متصلبة محمولة على الأكتاف وأصابع صغيرة مقوسة في الكفوف. لقد كان مشهدًا بشعًا، أُشاهده فاقدة القوى: لقد وصل ميكروب التيتانوس إلى المخ. كل من اجتاز تلك التجربة كان يعرف ذلك. والأبشع هو أن يضم المرء بين ذراعيه نفسًا تحتضر.أما أنا فأبكي ولكن لا يهم.. لقد ذَكّرتني أخواتي الزبالات "بالرحمة"، العذراء التي سجى الموت جسد ابنها المعذب. إنني لا أتكلم عن تمثال "الرحمة" للفنان "مايكل أنجلو"، فإنها بالغة الجمال بعيدة كل البعد عن أخواتنا جامعات القمامة، ولكني أتكلم عن عذراء كنيسة قريتنا. غالبًا ما تكون فلاحة بسيطة تحمل بين ذراعيها جثة بائسة. امرأة آلام، ولكنها لم تكن قط امرأة يأس، إنها تؤمن بأن هذا الجسد سيرتجف ويقوم، مثل أخواتي الزبالات اللائي رأين بالفعل الطفل الميت يتجلى ملاكًا من نور!

ألم أكن أنا، المرأة التي بلغ الكبر بها، التي كان يجب أن تختفي وليس أنت وأخوك الصغير، اللذان انتزعا وهما على أعتاب الوجود؟

لقد أردت التزوج من العشوائيات في الحياة، في الموت، وفي فقرها.



لقد كان هذا يبدو لي فجأة ولا يزال يبدو لي ـ كما تكلمت عن هذا مسبقًا ـ زيجة لا معنى لها. لا، لن أبقى أبدًا فقيرة مثل إخوتي حتى أموت فقرًا. لن أعرف أبدًا ـ مثلهم ـ يومًا بلا طعام، مرض بلا علاج، سرير بلا غطاء، عشة بلا سقف... زيجة لا معنى لها ـ التعبير دقيق ـ حيث إنه من المستحيل لي أن أحب حتى المشاركة معهم في الموت!

ثم، في النهاية، ماذا استطعت أن أُغير في عشوائيات البؤس، تلك التي مكثت فيها منذ خمسة أعوام؟ مازالت بدون مال، بدون تطعيم، بدون مستوصف. بالتأكيد، أنتِ توزعين البسمات الجميلة، يا إيمانويل، ولكنها لا تُوقف الموت. أجل، ما نفعك؟ ماذا تفعلين؟

كان هذا بداية لسلسلة من الرحلات التي حملتني، خلال خمسة عشر عامًا، بين بلاد أوروبا وأمريكا وأستراليا. قرعت كل الأبواب: جمعيات، مدارس، كنائس، قاعات خاصة وعامة. ضاعفت من المحاضرات، حصرت الشخصيات البارزة، مررت بالڤاتيكان، جماعة الدول الأوروبية مع چاك دولور، وزير الصحة والإغاثة الإنسانية مع برنار كوشنر، الحكومة الأمريكية مع چورچ بوش، والبنك الدولي مع چون- لو دورس. أستطيع أن أقول: لقد تلقيت من كل تلك الجهات ترحابًا فعالاً. تراكمت الإعانات، والمشاريع المتعددة تضاعفت متدفقة في العشوائيات الثلاث الواقعة في القاهرة. مستوصفات مع مراكز لرعاية الطفل، مستشفى، فصول محو أمية، مدارس، نوادي مسائية لقضاء وقت الفراغ، مشاغل للنسيج والخياطة، مراكز تأهيل مهني تم افتتاحها، تطوير نشاط الكشافة، مصنع لإنتاج الأسمدة من القمامة تمت إقامته في وسط العشوائيات، تمت السيطرة على التيتانوس، تم الشفاء من الحصبة، وتم بناء دار كبيرة على شاطئ بحيرة السويس لاستقبال الآلاف من جامعي القمامة خلال العطلة الصيفية حيث كانوا يأتون للاستحمام في المياه المنعشة.

بطبيعة الحال، كل ذلك تم إنجازه بفضل فريق عمل تَكّون شيئًا فشيئًا حولي. المهنيون المصريون الأكفاء الممتلئون حماسة، والشباب المتطوعون من الأوروبيين الذين أتوا للمساعدة، كان لديهم جميعًا نفس الهدف: مساعدة أصدقائنا الزبالين. لقد كان درب الحياة طويلاً وصاخبًا، ولكنه قاد إلى النصرة. وتلك الملحمة ما هي إلا واحدةً بين مغامرات كثيرة.

المدرسة، ما نفعها؟

خلال السنة الأولى لإقامتي بالعشوائيات، كان تفكيري يتوقف - قبل أن أخلد للنوم - عند المصير المتدني لأولئك الأطفال: جامعي القمامة، والذين يفرزونها، من يعيشون في وسط صفائح القمامة. كنت أُحادث نفسي: "لقد أصبحوا لحمًا من لحمي، يجب أن أنقذهم بأي ثمن من القذارة. لم تكن الحضانة التي بدأتها كافية. يجب بأي ثمن أن أصل بهم إلى التعليم المدرسي." أي حرب كان يجب أن أخوضها، عشة بعد أخرى، لكي انتزع من الآباء إذنًا بتعليمهم!

نفس المشهد كان يتكرر دائمًا: أجلس على جردل قديم مقلوب أمام رجل متصلب الرأي. "ما فائدة المدرسة؟ إنني لا أعرف القراءة ولا الكتابة! بدلاً من أن يُضيِّع ابني وقته في المدرسة، يجب أن يساعدني في العمل!" في نهاية الجدل مع تلك الرأس المتخشبة كان الأمر ينتهي بي إلى الانفجار: "اسمع، الخنازير في أوروبا تسكن أفضل منك. رأيت كثيرًا من الخنازير في بيوت صغيرة نظيفة. انظر إلى عشتك، المبنية بالصفيح القديم المخرم، مليئة بالقاذورات. أتريد أن تزج بابنك في تلك القاذورات كل حياته؟" أمام أعين الطفل السوداء الواسعة التي تُحدق بي دون قدرة على عمل أي شيء يتفجر غضبي أيضًا: "إنني أحبه أكثر مما تحبه أنت.

إنني أريد أن أنقذ مستقبله!"

أحيانًا كان الأب يأمر - أخيرًا - زوجته بأن تُحضر شهادة الميلاد، لو لم تكن الفئران قد التهمتها، أو وقعت في النار، أو ضاعت. وفي اليوم التالي، يدي في يد ابني جامع القمامة الصغير، نذهب نحن الإثنان إلى المدرسة الأقرب والقلب يخفق بالفرح!

في البداية، سجلت عشرين منهم - بالكاد - في المدرسة. الحب لا يستسلم. بسبب النضال المتكرر خلال عشرين عامًا، أصبحوا - عندما تركت القاهرة - حوالي ألفين في الثلاث عشوائيات. كانوا يذهبون كل صباح، بالفرح والاعتزاز، إلى المدارس التي شيدناها لهم!

كل مرة كنت أراهم يقرأون ويكتبون باجتهاد، يجلسون على مقاعدهم بهدوء، كان قلب الجدة العجوز الذي بداخلي ينبض بالسعادة. وبدأ نقلهم إلى المراحل الأعلى. لما زار فيليب أمير بلچيكا، مدرستنا بالمقطم، جاء كبار ممثلي التعليم القومي ليحضروا الاحتفال المُقام لتكريمه. كانوا منبهرين أمام لياقة وحسن مظهر أطفالنا وهم يقدمون مشاهد قصيرة بالعربية والإنجليزية. سأل واحد من هؤلاء المسئولين مفتشنا:

- "هذا غير معقول، أهؤلاء زبالون؟

- أجل، بالتأكيد. وتلك المدرسة هي الأفضل في كل المنطقة، من ناحية الدراسة وأيضًا النظافة". ثم، أضاف بلمحة إعجاب:

- التلاميذ هنا ينالون الاحترام والحب."

ذلك الرجل وجد مفتاح النجاح: الاحترام والحب.

بعض البالغين المحرومين من أية ثقافة، بدأوا شيئًا فشيئًا في الإحساس بضرورتها. سجل البعض منهم نفسه في فصول محو الأمية

المسائية. ولكن، كم كانت مهنة جمع القمامة شاقة! الصعود آلاف الدرجات لجمع صفائح القمامة من الشقق السكنية كان ينهكهم إلى أقصى حد. كانوا يفضلون الراحة في مقهى على الناصية، على التعب أمام السبورة السوداء. لهذا، كأم عجوز لا يثبط عزيمتها شيء، كنت أحمل عنهم ذلك التعب؛ كانوا يضحكون، يرمون بأوراقهم ويقرأوا ورائي: ألف، باء، تاء، ثاء... كنت أنحني على كراساتهم. كنا نتبادل البسمات، يوحدنا نفس الاعتزاز؛ هم بخطهم للحروف، وأنا برؤيتي لهم، وقد أصبحوا "متعلمين"، هؤلاء الذين نالوا علمًا وجعلوا من أنفسهم موضع احترام. كنت أحبهم كأبناء لي، لأن عندنا، كنا لم نزل في مرحلة الأمومة. ولأن حوائطنا ينساب منها الحنان، يتحول هؤلاء الناس الذين يصعب التحكم فيهم إلى تلاميذ مطيعين. لقد كان المفتش محقًا بشأنهم، كما كان بشأن تلاميذنا. إنهم يشعرون هنا بأنهم "موضع احترام وحب". في العشوائيات، الصغير والكبير، على قدم المساواة، يحسون أكثر بالاحتياج إلى الاعتراف بكرامتهم لأنهم تعودوا أن يكونوا موضع احتقار إلى أقصى حد: "زبال قذر، جامع قمامة!"

كل تعليم ناجح يحمل معه "نظرة معينة" للكيان الإنساني. أيًا كان، فقيمته يتم الاعتراف بها. إنها قيمة لا تعتمد على المركز أو الثروة. ذلك الاحترام يصحبه بطبيعة الحال الإحساس الذي يسعى إلى ازدهار الشخصية لكل ما في الفرد. لقد أصبحت فصول الأطفال الصغار والبالغين موضعًا ساميًا لنمو الثقافة والعمل على تحرير العشوائيات.

المرأة

ليس من الجيد أن تكون امرأة في العشوائيات. إن الفتاة الصغيرة يتم تسليمها إلى رجل يعتبرها عَبْدة، يضربها بدءًا من ليلة الزفاف حتى

تعرف لأي سيد ستكون مملوكة منذ ذلك الحين.

دورها هو: إنتاج الأطفال بدون توقف في أي سنة، ورعاية الخنازير بدون أي يوم راحة. إنني أستعيد أول أسبوع لمجيئي إلى العشوائيات. سمعت صرخة حادة آتية من عشة جاري (....). حادثة بلا شك: ركضت إلى هناك. كان يُشبع زوجته ضربًا. وكأوروبية مغرمة بالحرية، عاجلت بتخليصها من يديه. ولكن غضبه زاد عند رؤيتي وبدأ يصيح أكثر فأكثر، فأومأت لي المسكينة لكي أختفي بأسرع ما يمكن!

فهمت أنني يجب أن أُغير خططي: لا يجب بعد أن أهب لنجدة أحد في لحظات الشجار. عندما يحين المساء، ونحن نتشارك أكواب الشاي، أتناول المشكلة بهدوء.

- "ما تلك الصرخة التي سمعتها؟

- آه! كما تعلمين كنت أضربها. لا ينفع معها إلا تلك الطريقة.

- آه! حقيقي، أليس هناك طريقة أخرى؟"

وأبدأ - نصف مبتسمة، نصف جادة - في الجدال: "أنا أعرف زوجتك. إنها ليست غبية. لماذا لا تتناقشون من وقت لآخر؟" ينتهي به الأمر بوعدي بمحاولة التجربة خلال أسبوع... كنت أُعاود رؤيته من جديد والحديث عن ذلك مجددًا. بكل صدق، لم أصل إلى شيء محسوس.

واحدة من المحاولات الأكثر بساطة التي خطرت ببالي هي الاحتفال بعيد الأم، الذي لم يكن معروفًا عند الزبالين. تأسيسه سيكون بالضرورة أول تفعيل للإرتقاء بحال المرأة. رأينا النجاح في الحال! كان التأثير بالغًا بين الجمهور المتزاحم في حضانة الأطفال. كان أطفالنا الذين رأيتهم في جمال ملائكة رافائيل، يغنون بإيمان: "يا ماما، يا حلوة!"

كانت كل أم ـ وعيناها يملأها الدموع ـ تحتضن بإعجاب طفلها، أجمل ما في الدنيا. وجاءت لحظة تقديم الهدايا، مناديل مطرزة صنعتها الفتيات الصغيرات، علب حلوى مغلفة أعدها الأولاد، وأخيرًا، يا له من انتصار! الكعكة الضخمة التي صنعناها في فرن الخبز الذي عند أحد جاراتنا والتي سرعان ما التهمها الجميع!

إبراز قيمة المرأة، قيمة الأم، كان إجراءً سهلاً مع الصغار. ولكن في المساء، حيث جاء الرجال إلى فصول محو الأمية، كان الأمر مختلفًا. "لماذا باقة الزهور تلك؟" سألوا وهم يضمرون شيئًا. "لعيد الأم، أي هدية قدمتموها لهن؟" يا له من سؤال! ضحكوا جميعًا. تحول موقفي إلى الهجوم: "لماذا تضربون زوجاتكم؟" سؤال لا يقل غرابة عن سابقه. وأتت الإجابة التقليدية:

- "إنها الطريقة الوحيدة الممكنة، امرأة، أي لا تفهم شيئًا!

- عجبًا، إذن أنا لا أفهم شيئًا؟

رد سريع، كأنه كورال متحفز: "لا! أنتِ، أنتِ لستِ امرأة!" إلى هنا وصلت عقليتهم: بما أنني على قدر من الذكاء، فأنا إذن ليست لديّ أية أنوثة.

كان عليّ إصلاح أسلوب تعليمي طويلاً لاكتشاف أفضل الطرق لإقناعهم، حسب الحالات الموجودة. على سبيل المثال، (....) المسكينة كانت مثل الخرقة فاقدة الأنفاس تحت ضربات زوجها، إلى الدرجة التي لزم فيها وضعها في المستشفي يومًا كاملاً. توسلت إليّ قائلة: "أهم شيء أن لا تقولي له شيئًا، سيضربني من جديد!" في المساء، وأنا أحتسي الشاي التقليدي، صوبت الكلام إليه:





ـ "قابلت(....)، إنها تبدو مريضة!

ـ آه! لقد سقطت من السقف."

ضحكت: "اسمع، يا (....)، قل لي الحقيقة. يبدو أنها تعرضت للضرب."

بدأ يتكلم بشكل درامي:

ـ"بالتأكيد! لقد تَرَكَتْ الباب مفتوحًا؛ فدخل لص وسرق مذياعي، الشيء الوحيد الذي كان يُسليني.

ـ أنا مدركة، يا (....)، ، إنها خسارة كبيرة. ولكن تعرف إنك جعلتها في حالة سيئة جدًا، لدرجة أنه يجب ذهابها إلى المستشفى.

ـ لا، أبدًا!

ـ كما تريد، ولكن إن لم يتم علاجها فلن يكون لديها القوة لرعاية خنازيرك."

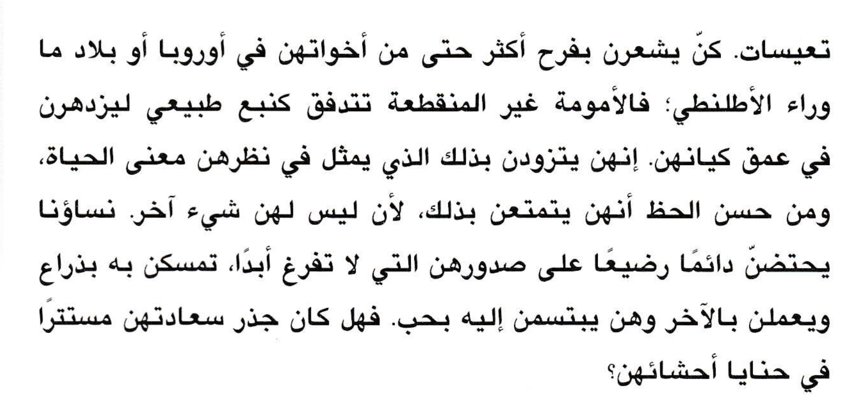
طال الجدال، وأرسل (....)، زوجته إلى المستشفى!

كانت هناك مشكلة مؤلمة أخرى: ختان البنات، المحرم قانونًا. كان يتم ممارسته في الخفاء في ظروف بشعة من الناحية الصحية. كانت المرأة التي تقوم بالجراحة ـ وهي عبارة عن داية ـ تأتي بأداة قاطعة ليست نظيفة بالكامل. كانت الأم، بمساعدة امرأتين، تمسكن بقوة البنت الصغيرة التي يتراوح عمرها بين الثامنة والتاسعة خلال استئصال البظر. جاءتنا يومًا واحدة من صغيراتنا في الحضانة، ووجهها ينطق بالألم. كانت تُفضل أن تبقى واقفة على الجلوس. ظهرت الحقيقة أخيرًا؛ تلك الطفلة ـ البالغة عشر سنوات ـ صرحت بأنه قد تم عمل لها جراحة. وخلال فترة العناية بالجرح، الذي تلوث بشكل فظيع، قالت ببساطة: "إن هذا خطئي أنا، فقد تحركت أثناء العملية."

كم من نصائح للأمهات، ذهبت دون جدوى! كن يؤكدن أنه بدون الختان لن يرضى رجل بالزواج من بناتهن، لأنها لن تصبح زوجة طيعة. شيء لا يصدق، قوة تقليد ظهر من قديم الزمن! لحسن الحظ، بعض النساء المتحضرات نوعًا ما اقتنعن أخيرًا. في الحقيقة، كنا نعتمد فوق كل شيء على الشباب، بنات وأولاد، الذين كانوا سيتخرجون من مدارسنا. لقد استطاعوا أن يفهموا أنه يجب التخلص من تلك العادة الهمجية، التي يتبعونها.

كانت فتياتنا في المقطم يسرن بخُطى واثقة ينتقلن من صف إلى آخر. خلال معسكر كشفي في الإسكندرية، قلن لنا: "كانت أفضل الأشياء التي قدمتموها لنا هي المدرسة. بدونها، كنا تزوجنا في سن الثانية عشر." في عام 1992م، تمت امتحانات نهاية الدراسة الإعدادية. نجح الأولاد، والبنات رسبوا خوفًا من المدرسين! صرحن بغضب: "الأولاد غشوا، أما نحن، فلم نغش." انتهى الأمر بمعرفة الحقيقة، وهي أن ثلاث وثلاثين فتاةً قد تعاهدن على أن يرسبن؛ والسبب: "أهالينا لن يعطونا الإذن بالذهاب إلى مدرسة بعيدة عن العشوائيات، سيزوجونا، نفضل أن نعيد السنة لعلكم تبنون لنا مدرسة في المنطقة؟" وبخنا أطفالنا لتصرفهن هكذا في الخفاء، ولكننا في عمق إحساسنا كنا على إعجاب بهن. بقدر ما نذكر رجالاً ونساءً، لم نر أبدًا فتيات عازمات على تقرير مستقبلهن. إرادة المرأة من إرادة الله! فلنبدأ بتجميع الأموال.

من وجهة نظري كفرنسية، كانت أخواتي الزبالات عبدات. كنت أحاول بكل قوتي أن أُعجل بتحريرهن. كان يبدو لي أساسيًا ـ فيما يتعلق بهذا ـ أن لا يحملنّ كل عشر أو إثني عشر شهرًا؛ فذلك الحمل المتكرر يسبب شيخوختهن قبل الأوان، ففي سن الأربعين، يصبحن جدات. ومع ذلك، وَجَب عليّ الاعتراف بمرور الأيام، أن الأغلبية منهن لم يكن أبدًا



تعيسات. كنّ يشعرن بفرح أكثر حتى من أخواتهن في أوروبا أو بلاد ما وراء الأطلنطي؛ فالأمومة غير المنقطعة تتدفق كنبع طبيعي ليزدهرن في عمق كيانهن. إنهن يتزودن بذلك الذي يمثل في نظرهن معنى الحياة، ومن حسن الحظ أنهن يتمتعن بذلك، لأن ليس لهن شيء آخر. نساؤنا يحتضنّ دائمًا رضيعًا على صدورهن التي لا تفرغ أبدًا، تمسكن به بذراع ويعملن بالآخر وهن يبتسمن إليه بحب. فهل كان جذر سعادتهن مستترًا في حنايا أحشائهن؟

هل كنت أسعى إذن إلى إنضاب السبب الأساسي لفرحهن؟ انتبهوا، هناك الأم، ولكن هناك أيضًا الطفل؛ إن الأطفال هم ضحايا تلك الأسر المتعددة الأبناء. حفاة، بينما تغطيهم الأوساخ ويرتدون الأسمال البالية وسط أكوام القمامة. هل ستنعدم متعة الأمومة لدى النساء إذا ما باعدوا بين فترات الولادة؟

إذ كانت الكنيسة القبطية الأرثوذكسية - التي ينتمي إليها غالبية الزبالين - مهمومة بذلك السؤال، فقد قامت بفتح مراكز لتنظيم الأسرة حيث يوجد طبيبات خبيرات تفحصهن وتقدم لهن - حسب حالاتهن - الكبسولات وموانع الحمل. كانوا يسهرون على صحتهن، ولكن نساءنا قلما كن يذهبن إلى تلك المراكز لخوفهن من أزواجهن. نفس الشيء بالنسبة للباقيات، أغلبهن لم يكن يذهبن إلى المراكز الحكومية.

حاولنا تتبع خبرة الأم تريزا في الهند والزوجين الطبيبين جي، في جزيرة موريس، فبعثت بواحدة من طبيباتنا المصريات الكفء لتتعلم في باريس تلك "الطريقة الطبيعية" والتي تتميز - بدون جدال - باحترام دورة المرأة. إنها تتطلب التوقف عن ممارسة العلاقة في الوقت المحدد للإخصاب. لم تحصل دكتورتنا، عند رجوعها على شيء يمكن استنتاجه فعليًا.

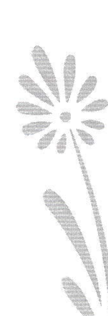
أمام تلك المشكلة، استشرت خبيرًا مصريًا كلفته الحكومة ببحث أفضل الطرق لخفض معدل المواليد العجيب والذي بلغ مليونًا كل عشرة أشهر. وبحسب استنتاجاته، كانت الطريقة الوحيدة الممكنة هي توفير عمل لأولئك اللائي يردن ويستطيعن القيام به. شعرن بقيمتهن، وأصبح لهن تأثير على أزواجهن، وتلقائيًا، لم يعدن يحملن كل عام.

كان لذلك الاقتراح القيم تطبيق فعلي من خلال ورشة النسيج الملحقة بمصنع السماد والذي سأتكلم عنه الآن. وأمام عينيّ مَثَل "نعمة". منذ عشرين عامًا، بعد نضال مع والديها، استطعتْ أن أُسجل اسمها في المدرسة. استطاعت أن تنال الدبلوم، وتعمل، وتتزوج من الرجل الذي تحبه؛ ولم تلد - بالتأكيد - دستة أطفال! صبرًا: الفتيات اللائي سيتخرجن من مدارسنا غدًا سيصبحن سيدات حرّات. لن تقول إحداهن ما سمعته حرفيًا من جداتهن: "نحن، النساء، خُلقنا لكي نُضرب!"

مصنع السماد

حاول أن تتكلم عن "العناية الصحية" في العشوائيات! حاول أن تتخيل كم الميكروبات والڤيروسات من كل الأنواع التي تخترقها كل يوم مع أطنان القمامة! بينما تدخل مرة أخرى القمامة القديمة - الكارتون، الورق، الزجاج المحطم، والبلاستيك - في مصانع إعادة تصنيع القمامة، وتتغذى الخنازيرعلى بقايا الطعام. الباقي مختلطًا بالقاذورات، يتم جمعه بواسطة جامعي القمامة ويُلقى أمام عششهم. كل هذا يتم حمله في يوم ما بواسطة سيارة نقل أو يحرق فينطلق منه دخان يسبب السرطان.

خلال أعوام، ركزت على تلك المشكلة بدون جدوى. ألا يمكن تحويل جراثيم الموت إلى سماد يعيد الحياة؟ من كثرة البحث، انتهى الأمر بمقابلتي في سويسرا لأرنولد فون هيرشيدت، خبير دولي في تحويل القمامة إلى





مواد نافعة، الذي عرض بكل لطف مساعدته. وصل إلى القاهرة وتحمس لفكرة استعادة صحة البيئة من ناحية وتخصيب الأرض من ناحية أخرى، ووضع أساسًا لمشروع عبقري. لم يكن ينقص إلا مبلغًا "بسيطًا": ستمائة ألف دولار! ماذا تبقى لي أن أفعله؟ أن أتوجه إلى مؤسساتي الثلاث "أصدقاء الأخت إيمانويل"، اللائي تأسسن في سويسرا وبلچيكا وفرنسا بواسطة أصدقاء يفيضون بالنشاط. عينوا أعضاء، نظموا لي سلسلة من المحاضرات، وجمعوا مبالغ كبيرة للارتقاء بأصدقائنا جامعي القمامة. ولكن لما كنت أكلمهم عن مصنع سماد، كانوا يهاجمونني بكلمة "لا" محددة: "أنتِ لستِ سيدة أعمال أيتها الأخت إيمانويل. سيؤدي بك الأمر إلى فشل كلي وستخسرين ستمائة ألف دولار!" في أوروبا ـ كما هو الحال في العشوائيات ـ هل يسمح الچنتلمان الذكر بأن تقنعه امرأة؟ هيا إذن! سأجد في مصر خبراء مصريين قادرين تمامًا على دفع المشروع. يجب بأي وسيلة تحقيق تلك الخطة الرائعة.

لو وصفت المفاجآت التي ظهرت في سباق الستمائة ألف دولار لملأت صفحات. طِرْت إلى بروكسل، وحصلت على وعد بثلاثمائة ألف دولار من لجنة الاتحاد الأوروبي. وفي سويسرا، وضعت منظمة لدعم التنمية تحت تصرفي مائة وخمسين ألف دولار. لم يكن الحصول على باقي المبلغ بالغ الصعوبة. رجعت إلى القاهرة وأنا سعيدة جدًا بما تم، وقدم لي المحافظ فورًا قطعة أرض. تَصَرُّف كريم: "خذي كل ما تريدين، الأرض ملك لكِ!" ذهبت في سيارة چيب لكي ينتهي بي المسير إلى عمق الصحراء: لا طرق، لا مياه، لا كهرباء... وعام آخر لمزيد من البحث: أخيرًا، وضع المحافظ تحت تصرفنا مكانًا مناسبًا قريبًا من العشوائيات. طرت إلى سويسرا لكي أجمع مائة وخمسين ألف دولار. اللعنة! لقد مَلُّوا من انتظاري، فرحلوا لإصلاح أراضي كولومبيا. إيمانويل، لا تستسلمي، خذي عصا السائح

التي سلكتِ بها من قبل! وفي فرنسا، قَبِلت ميشيل تور أن تغني تحت خيمة سيركْ، وعمل رفقاء "عمواس" المستحيل. وجعلت أيضًا چون ساچ يقوم بالمشاركة، لقد جاء لزيارتي في بدايات إقامتي بالعشوائيات، متأثرًا هو أيضًا أمام بؤس بهذا القَدْر. لقد وعدني بالاستجابة لكل نداء، لقد أصبح واحدًا من أكثر أصدقائي فاعلية. "النجدة يا چون، أنت الذي تُحرك الجبال!" وحصلنا على الستمائة ألف دولار، لم ينقص واحد منها.

في القاهرة، دخلت إمكانيات منير نعمة الله وفريقه بثقلها في العمل. وقَبِلَتْ يسرية ساويروس ـ وهي سيدة أعمال بالفعل ـ أن تصبح رئيسة متطوعة لمجلس الإدارة الذي تألف من خبراء في هذا المجال. وضع الأخ بولاد ـ من معهد المدارس المسيحية ومدير مدرسة، كان قد قام في فرنسا بدراسات عليا في المحاسبة ـ على عاتقه الحسابات. وجدنا مديرًا ذا كفاءة عالية، قام بتعيين عُمالٍ. خرج المصنع من الأرض، وتراكمت الأسمدة، ولكن لم يكن هناك مشترون بما فيه الكفاية خوفًا من شراء منتج جديد. لم يترك فريق العمل نفسه لليأس، فبعثوا مندوبين بأكياس مجانية للمزارعين الذين رأوا الكرنب الذي يزرعونه يكبر، والحبوب تنمو بكثرة. وأخيرًا، بعد سنة من الصبر كان عندنا من الطلبات أكثر من البضاعة.

لقد قامت سيدات متميزات مثل الأخت آن- ماري كومبو، ماري أسعد وليلى كامل، بمساعدة يسرية ساويرس التي أدخلت بحكمة على امتداد المصنع مشغل لنسيج السجاد. كان الهدف، إعطاء الزبالات قيمتهن بتأمين عائد لهن بفضل عملهن. وبعد زمن قصير، تابعت مائة وخمسون امرأة أخرى المسيرة من النسيج إلى فصول محو الأمية والرعاية الصحية والرسم. لقد استطعن أيضًا اكتساب مهنة النسيج في بيوتهن وأمّن بأنفسهن تنمية حياتهن. كان عددهن يتزايد، لذلك كان يلزم تشييد مبنى أوسع.





طلب مني محافظ القاهرة ـ مؤخرًا ـ بناء مصنع آخر لاهتمامه بكل تلك النتائج. ولكن لم يكن عمري سبعون عامًا لأجري سعيًا وراء المليون دولار التي كان يجب إيجادها، حيث كانت الأسعار آنذاك قد تضاعفت. فيما بعد، سيستطيع آخرون بعدي تحقيق ذلك المشروع!

انطلقت خبرة عالمية معروفة من قصة السماد. إن لم تستسلم في المعركة، فالانتصار ينتظرك. بالإضافة إلى هذا: لم يكن أي من أولئك الذين رفضوا مساعدتي ـ لأنهم أجانب ـ بعيدون عن المنطقة، فلم يستطيعوا فِهْم لا قيمة المشروع ولا إمكانيات تحقيقه، بينما آخرون ـ مصريون ـ متواجدون في المكان تحمسوا بسرعة معي من أجل ذلك المشروع، والذي بدا لهم ملحًا جدًا. فهمت بشكل أفضل ضرورة الضغط على أهل البلد أنفسهم: المصريين في مصر، السودانيين في السودان، اللبنانيين في لبنان... وهكذا، في كل مكان أينما توجهت للعمل.

في ذلك الشأن، قال لي يومًا رجل يفهم إدارة الأعمال عبر القارات: "أينما ذهبت كنت أعطي ثقتي إلى سكان المكان الذي عملت به. والدُفعة التي استطاعت ذلك أنتجت محصول فاكهة غير متوقع. لم يخب أملي إلا مرة. آمني بالإنسان في أرضه، أيتها الأخت إيمانويل، فسيحقق لك عملاً رائعًا."

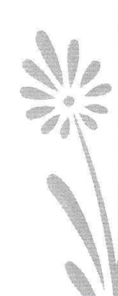
دار السعادة

في وسط معركة تطهير المقطم بفضل مصنع السماد، قلت لنفسي: "أليس لأصدقائنا الزبالين الحق في أن يذهبوا للراحة بعيدًا عن القمامة؟ يجب الحصول على بيت يتمتع بهواء نقي، على شاطيء المياه لو أمكن!" ولكن كل مرة كنت أتكلم عن ذلك المشروع، كنت أسمع صوتي يجيب: "إن ذلك من الرفاهية! ليس ذلك هو ما يحتاجون إليه." رفاهية! هل من

الرفاهية أن نُجَنب الأطفال الرائحة الكريهة، أن نجعلهم يرون شيئًا آخر غير الخنازير والمخلفات القذرة! هيا، يا إيمانويل، فلتقومي بالحملة، وستجدين الحلفاء.

من أي جانب يجب أن ننطلق؟ الإسكندرية، إنها بعيدة... أكثر من ثلاثمائة كيلومتر. لنر الإسماعيلية، أكثر من مائة فقط. ذهبت إلى هناك، وقمت بجولة في كل الاتجاهات، ولكن الأسعار لا يمكن تحملها: رفاهية! أخيرًا وجدت على مسافة معينة من البحر بيتًا محاطًا بحقل بثمن معقول. ذهبنا لزيارته مع الأخ بولاد الصديق المخلص، والأخت سارة، مُعينة يصعب وصفها، سأتكلم عنها فيما بعد. ولكن اعترض الأخ: "إنها بعيدة جدًا عن البحر الضروري جدًا للزبالين، ابحثي بطول الشاطيء الممتد تجاه السويس."

من المستحيل وصف تلك الملحمة التي كانت تعج بالمفاجآت بين المُلاك المراوغين بوثائق التمليك المزيفة وبالوعود الخادعة. قال نابليون: "الانتصار يرجع لذلك الذي يتماسك لربع ساعة أكثر". الربع ساعة طالت، ولكن في يوم لا يُنسى، وجدنا أنا والأخت سارة، بيتًا صغيرًا لم يكن غاليًا جدًا على شاطيء البحيرات المُرّة، في أبي سلطان. كان ذلك رائعًا! بأَسِرّة نثبتها فوق بعضها سيمكننا تسكين حوالي أربعين ولدًا وفتاة. الضيق سيكون فقط أثناء الليل، أما في الصباح لن تكون هناك مشكلة، سيكونون في الماء أو على الشاطيء!... لم ينقصنا بعد إلا المال! بالصدفة، زار المنطقة رجل هولندي كان مهتمًا بالزبالين. كان يبدو عليه الثراء! اقترحت عليه أن يدعو جماعة من أطفالنا على شاطيء البحر. كان فرحهم غير عادي لدرجة أنه أثّر بعمق في صديقنا. انتهزت الفرصة لكي أشرح له حلمي، وسرعان ما اقتنع. وصلنا شيك بالمبلغ المطلوب وأعقبه البيت!





من المستحيل وصف تهليل أطفالنا، وهم يرون لأول مرة ذلك المتسع الممتد الأزرق الذي يتموج مع النسيم. صفقوا بأيديهم، جروا ليلقوا بأنفسهم في الماء، تمرغوا في الرمال، ضحكوا، وغنوا تحت السماء!

أجل، ولكني أريد أن أُقدم أيضًا ذلك الفرح الغير العادي لصديقاتنا الزبالات، وتلك كانت معركة أخرى أخوضها مع أزواجهن. لحسن الحظ، وجدت سببًا له وزنه: "فارس، ستكون مدعوًا أنت أيضًا، ولكن زوجتك أولاً." وظللت مصممة على موقفي. "إما القبول أو العدول." لإقناع أولئك السادة، أكدت لكل واحد بكل ثبات: "زوجتك ستبقى طوال الوقت على يميني، ولن أتركها تبعد خطوة عني." أخيرًا، بعد كلام كثير، رحلنا. كان هناك عشرون من الزبالات يتعلقن كسلسلة المسبحة عن يميني. قلن لي، ووجوههن تشع فرحًا: "إن هذا هو أجمل يوم في حياتهن!"

لكننا كنا كلنا مضغوطين بشكل مؤلم في البيت الصغير. كنا أنا والأخت سارة نتأمل الأرض الممتدة على يمين البيت! يجب شراؤها قبلما يحوله مشتري آخر إلى مقهى يزدحم بالجيران. في يوم رائع، جاء من فرنسا، صديق عزيز آخر، وهو الأب فيري، مع جماعة من الكشافة، وأثناء ما كان يعلم شبابنا السباحة، أغراه الامتداد الساطع للرمال الذهبية ووعد أن يقوم بحملة في أسقفيته لكي يبعث لنا بالمبلغ. أبلغنا أيضًا الأب ريجنر والممولين النمساويين الأسخياء... وهكذا تم تشييد دار واسعة، تأوي، من شهر مايو إلى سبتمبر، فوجًا بعد فوج إسبوعيًا، كل فوج مئة فرد من الزبالين: أطفال، أمهات... وآباء.

أحيانًا ما كان يسألني الأصدقاء بلطف: "أين ستذهبين للراحة في الإجازة؟ تعالي عندنا، ستكونين في أحسن حال". كنت أضحك. أذهب في مكان آخر لأستريح، ياربي، بينما أعضائي الهرمة تستعيد شبابها

عندما ألهو مع أطفالنا وهم يستمتعون فاقدي الصواب في البحيرة؟ أليس هنا "دار السعادة" عندما أترك نفسي أطفو على سطح المياه، وعيناي مرفوعتان نحو سماء زرقاء صافية، أهمس: "أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك..." تقديس اسم الله، أليست هذه أيضًا وسيلة أخرى لمساعدة الأسر الإنسانية على التهلل بروعة خلقه؟

كانت السعادة تمثل الانتصار الأفضل للحب، تمثل في عينيّ مذاقًا مسبقًا للسماء. هنا، لا دموع، لا صياح، لا شيء غير السلام والفرح. هنا، الجميع متوحدون كأخوة. هنا، لم يعد هناك فرق بينهم. هنا، الناس يحبون بعضهم البعض وهم يغنون!

الأخت سارة

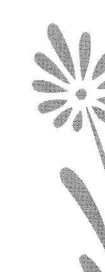
منذ عام 1975م، أصبحت سارة هي المعاون ـ الذي لا مثيل له ـ من أجل مساعدة الزبالين. كنت قد قابلتها لأول مرة في دير الراهبات في بني سويف، مدينة على بعد مائة كيلومتر من القاهرة. كنت هناك لفترة دراسة مكثفة للغة العربية. فوجدت أختًا راكعة، تغسل السلالم بمياه كثيرة.

ـ "أريد أن أُقابل الرئيسة.

ـ أنا."

بابتسامة، أضافت بلغة فرنسية رائعة: "إنه من دواعي فرحنا أن نستقبلك."

كانت الزيارة التي قامت بها إلينا في العشوائيات صدمة حياتها، كما كانت صدمة لي من قبل. لقد شعرت بنفسها ـ بمعنى الكلمة ـ مشدودة لنداء الأطفال البؤساء.





كانت تتبع جماعة الأقباط الأرثوذكس، بنات مريم، التي أسسها أسقف بني سويف، الأنبا أثناسيوس، وهو رجل متميز، وكان تأسيسها بمثابة صدمة لكنيسته. منذ القرن الرابع، الذي شهد مولد الرهبنة في مصر التي بها كسبت العالم، كانت الراهبات تعشن - في الواقع - بين الأسوار. إلا أنهن كن يخرجن في زيارات. استمررن بكل ثبات في مسيرتهن ذاهبات لمساعدة الفقراء والمرضى. قبل كل شيء، كان تركهن لأسرهن أمرًا مأسويًا بالنسبة لغالبيتهن؛ فعندما قالت لإحدى الشابات لأبيها المزارع الثري أنها قد قررت الرحيل إلى بنات مريم، ما كان منه - والغضب يشتعل بداخله - إلا أن يقبض على مسدسه: "من الأفضل تحطيم رأسك عن أن أراكِ تجرين في الشوارع!" انتظرت ... ثم رحلت! وأصبحت الأخت سارة، رئيسة جماعتها، حتى مجيئها إلى العشوائيات. شيئًا فشيئًا، أمام الخدمات التي تقدمها الراهبات، وتفوق سلوكهن سقطت كل الآراء المسبقة عنهن. وحاليًا، يطلبونهن في كل مصر.

ها هو السؤال الذي كان يُطرح عليّ كثيرًا: "لماذا إذن اخترتِ الأخت سارة للتأكد من استمرارية نشاطك؟ لقد كتبت قبل ذلك الإجابة في الفقرة الخاصة بمصنع السماد. يا لها من أداة قيمة يقدمها الناس في "الأرياف"! ذلك التعاون الحميم الذي دام خلال ثمانية عشر عامًا مع الأخت سارة كان جزءًا كبيرًا من النعم العظيمة في حياتي وكانت مصدر نجاح أنشطتنا. ماذا كان يمكنني أن أحقق بدون مساعدة بنت البلد تلك المتوقدة الذكاء، المليئة بالحيوية، التي كانت تعرف دقائق لغتها - أنا لا أتكلم إلا العامية - والصعوبات الإدارية؟ ساعدنا أيضًا الأنبا أثناسيوس بشدة. لقد كان يمدنا، أولاً بأول، كلما نمت أنشطتنا، بحوالي عشرين أختًا راهبة مؤهلة تأهيلاً خاصًا كممرضات ومدرسات أو أخصائيات اجتماعيات.

أثمر ذلك التعاون الحميم على مستويات أخرى. فالأخت سارة، كقبطية، أثرتها نظرة الكنيسة الكاثوليكية اللاتينية التي تُركز على المسيح المتجسد في الإنسان المعاصر والروح الإنسانية التي تتدفق من ذلك. أما بالنسبة لي، فقد تعلمت أن أمتلئ (ليس بما فيه الكفاية!) بروحانية موروثة ودائمة منذ ألفي عام احتفظت بنضارة الطفولة المتجهة نحو أب رحيم قادر، وثقة لا تضعف تحت التجارب. لقد تعلمت أيضًا فضائل الصوم المتبع بأمانة كل أربعاء وجمعة وأيضًا فترات الإعداد للأعياد. هكذا يتكون الإنسان منذ طفولته متحكمًا في شهواته ومشاركًا مَن هم أكثر فقرًا. استعلن الإيمان على الأخص خلال زيارة الأديرة التي تنتثر بطول ضفاف النيل. لقد كنا نذهب إلى هناك مرات عديدة بفرح كبير مع الزبالين في الأعياد المريمية. الكنيسة تلعب دور البيت الذي يستقبل فيه الأب أولاده. فهم ينامون فيه، يأكلون فيه، وبالكاد ما يتواجد قدر من الهدوء أثناء الصلوات الكنسية. وفيه يرنم شعب الله لساعات طويلة وسط عبق البخور. وخارج الكنيسة يعرض البائعون مقابل قروش قليلة لعبهم الورقية التي تجذب الصغار وحلويات من السكر الملون. يلعبون بسعر زهيد ويرحلون مرنمين طوال الطريق.

شجعني كثيرًا أسقفي الكاثوليكي اللاتيني، السيد إيجيديو، بكل قلبه في العمل بالإشتراك مع الأرثوذكس. وأصبح بابا الأقباط، الأنبا شنودة، هو أيضًا صديق حميم. "متى سيتم الاتفاق على الوحدة مع روما؟" سألته يومًا. أجابني بالإنجليزية: "حالاً". أمام فرحي، أضاف بابتسامته الرقيقة: "احذري، أيتها الأخت إيمانويل، "حالاً" يمكن ترجمتها إلى العربية بكلمة "بُكره" أي الغد!" والكل يعرف أن الغد يتكرر بلا نهاية يومًا بعد يوم. الأقباط محافظون، لا يقبلوا تأويل الكتاب المقدس. فالقلق من ديكتاتورية معينة من جانب الڤاتيكان وكان هذا أيضًا يوقفهم. وبالرغم

من كل شيء، فالمحادثات بين الكنيستين تتقدم... بخطوات بطيئة!

لم يعطني أحد من الكنسيين أو العلمانيين هذه النصيحة: "يجب عليكِ أن تؤسسي جماعة حسب منطق مثالياتك، بدلاً من الاستناد إلى الأجانب." وهذا ردي:

ليس لي طبيعة مؤسِسة الجماعات. فأنا بالغة الانطلاق مما يجعلني ببساطة أفتقر إلى الرجاحة. حيث إنّ التوازن هو صفة من الصفات الأساسية لإرساء مؤسسة جديدة. وليس من المُجدي أن أتوسع في ذلك الموضوع الذي يتضمن الكثير من العناصر المتشابكة.

لقد طبقت الأم تريزا، التي عملت في كلكتا، بالتمام نموذجي المثالي للفقر والخدمة، فضاعفت مراكزها في العالم. وليس هناك أي سبب لتأسيس أي جماعة أخرى مماثلة.

جماعتي، جماعة راهبات سيون، كانت نبع الماء الحي الذي استمددت منه طاقتي الروحية، فهل كان ممكنًا لي بدونها أن أكون نبعًا لا ينضب لي وللآخرين؟

سبب له وزنه: أين كنت سأجد معاونين أفضل إلا في جماعة الأخت سارة، المكرسة بشكل خاص بواسطة الأنبا أثناسيوس لخدمة أفقر الفقراء؟ بفضله، أحست الكنيسة القبطية بمسئوليتها، ليس فقط عن الشعائر الدينية، ولكن أيضًا عن الدعم المادي اللازم لمواجهة كل الضيقات.

يعجبني أن أختم هذا الفصل بذكرى جميلة. حضرنا، أنا والأخت سارة، في كنيسة دير بني سويف تكريس الأخت إيفا، التي كانت تعمل في العشوائيات، مع أربع مبتدئات شابات. بدأت المراسم بتبخير المذبح خلف حامل الأيقونات، الحاجز المزخرف بالأيقونات الذي يتوسطه باب

كبير. كانت أيقونة المسيح المجيدة تحجبها سحابة من البخور. دُعيت كل راهبة منهن في دورها: "أيتها الأخت إيفا، هل أنت عازمة على تكريسك لله طوال الحياة؟" كانت كلمة "نعم" المنطوقة بتأكيد، تتابع في وسط التأثر الذي عم على الكل. بعد ذلك، سجدت الأجساد الخمسة ممددة على الأرض أمام حامل الأيقونات. خمسة أوشحة طويلة مثبتة كانت تغطيهن بالكامل. لقد كان ذلك الرمز يغوص في ليل الزمن، لقد كان يجسد موت "الإنسان العتيق" مع شهواته الثلاث، شهوة العين، شهوة الجسد، شهوة الكبرياء. تمت تلاوة صلاة الموتى على الأجساد الخمس المسجاة بلا حراك. وفجأة، ها هي القيامة، تهليل الوشاح المثبت، صحوة الجسد الذي يقف منتصبًا، مع التسابيح الكَنَسية الفرحة.

بعد حفل "أغابي" الأخوي عاد الهدوء. الأخوات، بسعادة وخفة، انطلقن إلى مهامهن: حضانة، بيت مسنين، دار أيتام، مشغل تطريز، ومستوصف. رجعنا أنا والأخت سارة والأخت إيفا إلى الهضبة حيث كان الزبالون ينتظروننا. لقد أمضينا أربع وعشرين ساعة على قمة تلامس السماء. وذهبنا من هناك فرحين إلى إخوتنا وأخواتنا على الأرض.

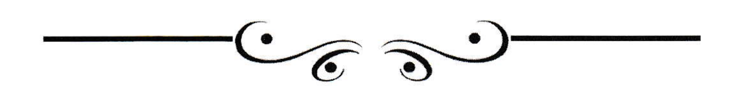






الجزء الثاني

عظمة الزبالين وبؤسهم







على مدار ثلاثة وعشرون عامًا أمضيتها في العشوائيات، اكتشفت - يومًا بعد يوم - أن إخوتي وأخواتي الزبالين يجمعون بطريقة تدعو إلى الدهشة أجمل الصفات وأرذلها: عنف، حساسية مرهفة، لصوصية، إيثار، فسق، وفاء، إلحاد، وإيمان... أما التناقضات فهي لا تُحصى!

وقد انطبعت في ذاكرتي بعض هذه الحالات من المتناقضات.

سمير: معلمي ومرشدي

أعطاني الله حكمة في أن أستخدم واحدًا من هؤلاء الزبالين كمعلم ومرشد أمين، فلم أكن أخطو خطوة واحدة بدون رأي سمير، فهو الذي أهداني العُشة التي أعيش فيها. وقبل وصولي، قيل لي أن سمير كان رجلاً سكيرًا، كان يذهب إلى المقهى أكثر مما يذهب إلى عمله، كان يسرف في الشراب، كان من الأفضل عدم معارضته في الرأي، وكان لا يكف عن ضرب امرأته ضربًا مبرحًا، ناهيك عن ضربه لأولاده. وعلى الرغم من هذا، فقد أصبح على مر الأيام بمثابة الصديق المخلص والناصح الأمين لي. فبعد أن أحسّ إنني أوليته كامل ثقتي، وضع حدًا لجلوسه على المقهى، وأيضًا لشرب الكحول! يقودني من الصباح حتى المساء إلى كل مكان أذهب إليه. لقد كان يحصي لي الأطفال الذين يذهبون إلى المدرسة، المرضى الذين يحتاجون إلى العلاج، الخلافات التي سويت، النساء اللائي يحتجن إلى

العزاء، والرحلات التي نظمها كانت لا حصر لها.

انعكس هذا التغيير في أسلوب حياته على أسرته، التي أحست بهذا التحسن الكبير الذي طرأ عليه. وبعد حصولهم على قسط من التعليم - بعيدًا عن التنقيب في القاذورات - حيث تزوجت البنات زيجات لا بأس بها، أما الأولاد فقد توفرت لهم فرص عمل مناسبة. استقروا جميعًا بعيدًا عن حي الزبالين، ولكن بالرغم من أن سمير كان يعاني أثناء المشي بسبب آلام أحد ساقيه، إلا أنه كان يساعد الجميع كل يوم، ويحفزهم على الاستمرار في العمل؛ لذا اعتبروه بطلاً للزبالين!

(....): باب الحب

في المكان الضيق، الذي لا باب له والذي منحني إياه سمير لإقامة أول حضانة أطفال، فكرتُ أولاً في عمل باب من الخشب الحُبَيّبي، لأن سعره كان في حدود الإمكانيات. كنت قد سمعت عن نجار غير مسيحي يُدعى "....."، وكان معروفًا عنه أنه شقي، ولكنه في نفس الوقت نجار ماهر، فقررت الذهاب إليه وشرح قضيتي؛ ألا وهي تعليم الصغار وتنشئتهم في المحبة كإخوة حتى يكفوا عن الشجار فيما بينهم. ومن ثم يخفض سعر باب الحضانة!

عندما أحضر الباب، رمقني بطرف عينه، وقد حفر عليه علامة الصليب يعانق هلالاً وتحته آية "الله محبة". قفزت من الفرحة عند رؤيتي لهذا، وقد فرح هو أيضًا عندما لاحظ سروري. يا لطيبة قلب الفنان الشاب الذي صنع هذا العمل! كانت المحبة هي الأساس الذي يُبنى عليه الحوار بين الجيران. وظهر رمز الإخاء والدعوة التي جمعت أبناء آدم على باب الاستقبال: فمن يَعبره يرتبط برباط الصداقة. فلتُفتح أيها الباب على مصراعيك، أيها الباب الحُبّيبي! كي نبني معًا المدينة الجديدة. شكرًا، يا .....!





(....): دائم الصفير

كان (....) البالغ من العمر عشر سنوات فردًا من أفراد هذه المجموعة البائسة التي تذهب يوميًا لجمع الزبالة من صناديق القمامة المهملة لأصحاب الشقق. وكنا نراه دائمًا مطأطيء الرأس في إذلال، وقد ارتسمت على وجهه العابس علامات القسوة.

ولكن ذات يوم، شوهد متهللاً مرفوع الرأس وهو يصفر، فتساءلنا: ماذا حدث؟ فرد علينا بصوت مليء بالثقة وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة كلها فخر واعتزاز: "نعم، لقد تغير الوضع عندنا للأفضل؛ اليوم لدينا أخت للخدمة، وهي تخصنا نحن، وتعيش معنا أيضًا!" لقد تحركت مشاعري عندما رُويت لي تلك القصة. نعم، استوعب الصبي مجريات الأمور، فلم يعد يشعر بالمعاناة من وضعه كزبال صغير، فقد أحسّ الآن بقيمته الحقيقية والتي فرضها على من حوله، وعندما شاركته ظروفه المعيشية فقد أحس بعظمة شعوره الإنساني، وكان يصفر لحن حياته!

(....): المجرم

"...." هو كبير الناحية، كان مجرمًا، ولكنه في نفس الوقت يتمتع باحترام الجميع.

موضوع المشاجرة لا يعنيني، لأني كنت أعتبر "...." أخًا لي. كنت أجلس إلى جانبه أمام عُشته وكنا نشرب الشاي سويًا، كنا أيضًا نتحدث في مواضيع شتى، عن الأطفال وترددهم على المدارس وعن الصغير المعاق...إلخ. كان يحكي لي أسراره كما لو كنت أخته الكبرى، وهو يعلم أنني لن أفشي سرًا له. كان حسه المرهف يُحرك مشاعري، فكان هو السبّاق دائمًا لعرض خدماته، وكنت أستعير عربته لنقل لوازمي أو يرسل أحد أبنائه ليساعدني في أداء عملي. وعندما كنت أحضر في المساء

لشكره كنا نجلس جنبًا إلى جنب. كنت أجد فيه كل الرقة والإحساس، وكنت أتساءل: "هل من الممكن أن يكون هذا هو المجرم الذي يخشاه كل حي الزبالين؟" كان "...." فخورًا بهذه المشاركة الوجدانية ويتمسك باحترامي له، وكان أثر اعتزازي واحترامي لهذا الرجل لا يُصَدّق: التغير المفاجئ الذي طرأ عليه تمثل في الاهتداء إلى معرفة أحسن ما فيه، فلم يعد "...." أبدًا للإجرام.

أم ....: الشهمة

كانت "أم ..." جارتي التي تقطن أمامي، وكنت أعتبرها من أصدقائي المقربين، ولكن كان يجب أن آخذ حذري منها "لأن يدها طويلة"، فعندما تأتيني للزيارة، وبمجرد أن أُدير رأسي يختفي في ومضة عين المقص الموضوع فوق المائدة وقد كان لديها خفة ملحوظة في التقاط الأشياء من مكانها!

عندما تدخل في مشاجرة كانت تَعُض، تخربش، وتمزق بكل قوة. ولكن "أم...." كانت تخفي كنزًا كبيرًا في قلبها! ففي إحدى الليالي عند رجوعي من حلقة صلاة أو زيارة مريض - لا أذكر - لم أكن قد تذوقت لا كسرة خبز ولا قطرة ماء، وكان الحر شديدًا في شهر أغسطس. كانت لمبة الجاز الخاصة بجارتي مازالت موقدة، إذن فهي لم تنم بعد، فأخذت الإبريق وذهبت إليها أطلب قليلاً من الماء، وعلى الرغم من اعتراضي الشديد، فقد أعطتني كل ما تبقى لديها من ماء وخبز! فمن الممكن للمرء أن يقايض الذهب بقليل من الماء في منتصف ليل شديد الحرارة. أما بالنسبة إلى الخبز فكان عليها أن تسير لمدة ساعة لشراء الخبز أو أكثر من ساعة لتحضيره وخبزه في تلك الأفران المصنوعة من الطين. يا لكرم نفسك، يا (أم...)، تلك الأخت العزيزة من الزبالين! فبمجرد أن ترى أي



إنسان في ضيق تهرع إلى مساعدته بكل ما تملك.

(....): الورع

على بُعد مسافة بسيطة من عزيزتي الغالية (أم ....)، كان يسكن جاري المسيحي الذي يُدعى"....". كان سكيرًا كبيرًا يشرب الكحول الأحمر القوي الرخيص، وكان على استعداد في حالات سكره الشديد أن يستل سكينة ليغرسها في أقرب صدر يقابله، وكادت امرأته تتعرض للموت من جراء ضربه لها بقسوة. ولكن اليوم تبدل الحال تمامًا فقد بَنَيْت بجانب مسكنه كنيسة، ووصل إليها كاهن للخدمة، وقد دعانا في إحدى الأمسيات للصلاة في الكنيسة الذي وصفها، كما يلي: فقد كانت الجوانب عبارة عن صفيح، والأرض مليئة بالحجارة الصغيرة، أما السقف فكان مُغطى بجريد النخيل يمر من خلاله ضوء القمر، وكانت الفئران الصغيرة تقفز فوق أرجلنا، أما الخنازير فكانت تقف على الباب! وبعد أن رتلنا المزامير بصوت جهوري، وقد صاحبها نهيق الحمير في الخارج قام "...." برأس منكسة وبجسم منحنٍ وصرخ: "آه، يا رب أنا خاطئ!" كان يكرر قوله، وأعقب هذا الموقف لحظة صمت، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: "يا رب ارحم!" أصبح صوته بعد ذلك أكثر فرحة. فقد كان "...." يعرف أن الرب يستمع إلى تضرعاته ويغفر له كما يغفر الأب لابنه. وعاد فجلس وقد ارتسم السلام على وجهه وعلى عينيه الصافيتين.

بعد هذا لم يعد "...." يبرح زوجته ضربًا، أصبح اليد اليمنى لأبينا الكاهن، وأصبح الصديق الصدوق الذي نلجأ إليه في أي وقت، ومن أجل أية خدمة نريدها!

علمني "...." أفضل الصلوات التي يمكن للمرء أن يتعلمها. في تلك الأمسية المنيرة،و قد زودت بها إخوتي وأخواتي في الإيمان لنرفع صوتنا

قائلين: "يا رب أنا خاطئ، يا رب ارحم!" وبذلك يعم سلام الرب علينا جميعًا.

الست...: البطلة

كانت "..." تقطن في عشة قريبة من عشتي، وقد جعلتنا الحياة جنبًا إلى جنب، ليل نهار، نرتبط سويًا بشدة. كانت العشة التي تقطنها دائمة القذارة ومثيرة للاشمئزاز، ولكن في كل مرة أُحاول أن أكنسها، كانت .... تمسك من يدي المكنسة. كانت دائمًا مرهقة... فهي كثيرة الإنجاب لأطفال لا يعيشون. في الحقيقة، إن عزيزتي(...) لم تكن بمهارة "أم ..." في السرقة؛ فقد فاجأتها وهي عندي تبحث عن بعض القروش التي كانت في حاجة إليها، ولكن في مناسبة أخرى أعطتني آخر قطعة صابون لديها حتى يستطيع الصغار الاستحمام، كما شاركتها طبق الفول الذي كانت تأكل منه. أما زوجها .... فكان يغمر أطفاله بحنان جم، ولكنه في نفس الوقت كان شرسًا جدًا معها. وقد أنقذتها بالكاد من بين يديه، فقد كاد يفتك بها لأنه شك فيها.

في صباح يوم إثنين، وجدناها ملقاة على الأرض، وقد اسود وجهها، عيناها تدميان، جسدها منهار، وقد صرحت لي بأن زوجها "...." بعد أن أوسعها ضربًا بقبضات يديه، دفعها إلى الباب المصنوع من بقايا الصفيح القديم. صرخت على الرغم مني: "لا يمكن لهذا الحال أن يستمر، (....) هيا نأخذ الأولاد ونذهب إلى بيت أهلك!" قاطعتني .... "لا، لا!" ألقت نظرة على أطفالها الأربعة، يفيض الحب من عينيها الداميتين، وقالت: "هم يعشقون والدهم، وسيتعذبون إذا إبتعدوا عنه!" وأضافت: "أنا التي يجب أن تتعذب!" وهدهدت "...." مولودتها الأخيرة، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة، عَبّرت بها عن سلام قلبها.

أصبحت غير قادرة على الكلام، كنت أتطلع إليها، كان وجهها المتورم يشع بالحنان، فقد تغير كليةً بلمسة حب، كنت أود أن أحتضنها بدوري، وأقول لها: "...، أختي، أنت بطلة." ولكنها لم تفهم قولي، لأنها كانت تشعر إنه من الطبيعي أن تذوق هي الألم ولا يتعذب أولادها، كانت تضحي بنفسها وبسعادتها من أجلهم.

لقد طرحت ... في ذهني سؤالاً: هل سبق لي أن قلت: "إنه عليّ أن أتعذب حتى يسعد الآخرون؟" ... علميني كيف أُحب.

هناك ذكريات أخرى تركت أثرًا عميقًا في نفسي. فذات أمسية شتائية، كنت أصلي في كوخي. وفجأة سمعت صوت ترانيم قوية، توقفتْ فجأة، ثم تواصلت لتتوقف مرة أخرى، ففتحت الباب قليلاً، كان باب (....) مفتوحًا، وكانت تجلس مع أهلها حول نار موقدة. كان "...." - الذي نال قسطًا من التعليم - يقرأ من الإنجيل، وكانت تردد وراءه الآيات بترنيم خافت... يا أختي ....، أنتِ ممتلئة فرحًا: أنتِ متأكدة من أن الآيات المقدسة قد أثرت في نفسك إلى هذا الحد، وأن السيد المسيح هو مخلصك. حين كنتِ تُرضعين ابنتك، كنت متأكدة من أنه سيساعدك في إعطائها حياة أفضل من حياتك. كنت تلاحظين ابنك البكر (....) (ذا البطن المشفوطة) الذي كان يجلس ويحل واجب الحساب. لا يوجد كرسي ولا مائدة في تلك العشة، ولكنك متأكدة، يا ....، بأن ابنك سيعلو شأنه. فبالكاد استطعنا أن نأخذ موافقة الأب حتى يستطيع الابن الذهاب إلى المدرسة. الرب معكِ، وسيكتب لأبنائك الخلاص. جمال غريب يكلل هامتك، لهب النيران يتراقص فوق وجنتيك الورديتين، عيناك تتألقان كنجمتين غارقتين تحت جبهتك التي تختفي في عتمة الليل، وقد فاض منك السلام. ثم أغلقت باب عشتي بدوري بعد ما تشبعت من كل هذا.

ما السر وراء تلك المرأة الفقيرة التي لم تتعلم يومًا، ولم تفتح من قبل كتابًا في الفلسفة أو اللاهوت أو في مختلف الأديان. لم يراودها الشك في أن الرب لم يكن يومًا رب الفلاسفة أو العلماء! أكرر الصلاة التي رفعها يسوع - وهي إحدى القمم الإنجيلية - بصوت خافت، وأنا أفكر في .....: "وفي تلك الساعة تهلل يسوع بالروح وقال: "أحمدك أيها الآب، رب السماء والأرض، لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال. نعم أيها الآب، لأن هكذا صارت المسرة أمامك".[22] وأكملت: "سيدي الرب، بحق النعمة التي أعطيتها لـ.... وللأطفال، امنحني قلب طفل!"

أم ..... في مواجهة الموت

وفي الجانب الآخر من العشش التي عشت فيها في المقطم كانت عشة "أم ...." التي تبعد بضعة أمتار عن المستوصف الذي بنيناه أنا والأخت سارة. لم أر في حياتي واحدة من الزبالات على قدر من الأهمال مثلها. كانت أستاذة في العناية بالسيدات الحوامل، تزورهن بانتظام، ولكنهن أبدًا لم يطلبن مشورتها؛ فالعشة المتداعية التي كانت تعيش فيها كان لا مثيل لها في القذارة: ففي أسفل الجدران المصنوعة من الصفيح كانت هناك بقايا بنية اللون ناتجة عن الجاموسة القابعة في الحوش المجاور.. هذا لم يشغل بالها كثيرًا!

قابلتها يومًا في الحارة وأنفاسها متلاحقة أدخلتها عشتها وأرقدتها برفق فوق سريرها المتسخ، ولم أكن أعرف أين أضع قدمي. ناديت الدكتور "عادل" الذي حضر ليفحصها، وكلمني بالفرنسية حتى لا تفهم الحوار: "المسكينة، إنني أُشفق على وضع قلبها، وقد صرحتْ لي من قبل إنها حامل في بضعة أشهر. وحسبما أرى أنها لن تتحمل كثيرًا آلام المخاض،



22- لو 10: 21



وأن قلبها لن يتحمل هذا." كان عليها إجهاض الجنين مسبقًا، وكان الحل البديل قاسيًا للغاية، وهي الوحيدة صاحبة القرار. يجب أن أُصارحها بالحقيقة. رمقتني بصمت فقلت لها: "لو شئتِ فسوف نستدعي زوجك يا "أم ....". تشاوري معه، ولكن القرار الأخير لكِ أنتِ وحدك." وصل الزوج وانتظرنا بالخارج - أنا والدكتور عادل عبد الملك - وسط القذارة، ولم ننتظر طويلاً حتى خرجت، وقالت ببساطة:

- "لن أقتل ابني.

- هل فهمتِ، يا أم ....؟ أنتِ معرضة للموت!"

الموت، هذه الكلمة البشعة التي لا نحب أن نتفوه بها باللغة العربية لم ترعبها. كررت ثانيةً: "لن أقتل ابني، حياتي أو موتي هما في أيدي الرب." كانت تتحسس بطنها بحنان، فقد وضعت كل اهتمامها في هذا المخلوق الصغير. تملكتها رغبة واحدة: سوف تعطيه فرصة الحياة... حتى وإن تطلب الأمر التضحية بحياتها! الإجهاض في مثل تلك الحالات في أوروبا سهلٌ جدًا، ولكن هنا - وبعيدًا عن الضغوط - أطلقت العنان لأمومتها في موقف بطولي تراه هي طبيعيًا.

كنت أنا والأخت "سارة" في منتهى القلق عليها، لذا كنا نرسل لها يوميًا وجبة مغذية. وفي آخر شهر من حملها ذهبنا معها إلى المستشفى القبطي في مساء اليوم المقرر للوضع. وقد ارتعب الطبيب المناوب وقال: "ستموت بين يدي، فقلبها ضعيف للغاية، وأنا ليست لديّ الخبرة الكافية لهذه الحالات، رجاء نقلها إلى مكان آخر." رددت السيناريو ثلاث مرات: كرسي بعجل، أسانسير، كشك الولادة. وفي المرة الثالثة فقط وضعتْ "أم ...." طفلها في الأسانسير! في اليوم التالي، كانت أم .... متهللة الوجه تحمل بين يديها لفافة من اللحم الوردي، وقد عاشت "أم ...." ثلاث سنوات

قبل أن تنتقل إلى ملكوت الله، بعد أن ألقت نظرة أخيرة على صغيرها "....."
وكان سلطان الحب حينذاك: أقوى من الموت.

عيد الميلاد بين الأكواخ

عندما وصلتُ للعشش، كان الزبالون من المسيحيين يتمتعون بإيمان قوي، ولكن دون ارتباط وثيق بالكنيسة الأرثوذكسية. لم يذهبوا إلى الكنيسة القريبة إطلاقًا، لأنهم كانوا يشعرون بنظرات الاستياء من إخوتهم في الكنيسة!

قررت لأول مرة الذهاب لزيارة "البابا شنودة"، ، سوف أطلب منه تعيين كاهن للصلاة في عيد الميلاد. استقبلني البابا استقبالاً أخويًا حافلاً، ووافق على الالتماس الذي قدمته. اعتبرت هذه هي بداية صداقتنا. وقد حضرت أجمل قداس في حياتي لعيد الميلاد! فقد أعطانا أحد الزبالين كوخه وكذلك الحوش الملحق به بعد تنظيفه بعناية، ومع هذا كانت رائحة بقايا العفونة تملأ المكان والتي كان من الصعب التخلص منها. كانت لمبة الجاز تضئ الجدران الكالحة، وكانت المائدة المتنقلة المغطاة بغطاء قديم تمثل "المذبح"، وبعض الدكك المتهالكة الغير الواضحة الألوان. وقد كان حمار المذود والبقرة - التي وُجدت بدلاً منها جاموسة - غير بعيدين عن المكان، وقد اختلط نهيق الحمير بنخير الخنازير، بما يذكرنا بمذود المسيح. وقد حضر راهب عجوز للخدمة، ولم يكن قلقًا من الوضع، وكان هذا واضحًا في عظته: "إذا كان المسيح سيولد هذا المساء على الأرض، فلن يجد مكانًا مناسبًا أفضل من هذا: فالفقر مرقده، أما الرعاة فهم إخوتكم، فتهللوا وافرحوا لأن السماء تزور أكواخكم."

كانت الشموع مضاءة والجميل في الموضوع هو وجوه إخوتنا الزبالين: عيون لامعة وشفاه ترنم في ابتهاج وتهليل "قدوس، قدوس،





قدوس، رب الصباؤوت." هؤلاء النسوة اللائي شبن قبل الأوان من خشونة حياتهن قد أحاطتهن هالة ربانية جميلة.

هم الذين دعوني

ألم تنكشف لنا أحد أسرار الطبيعة البشرية المضطربة خلال الأحداث التي رويتها لكم؟ ذلك المزيج المذهل من التعاسة والعظمة. لقد اعتبرني إخوتي وأخواتي الزبالون "مكشوف عني الحجاب" لأنني عرفت دخائل قلوبهم. لقد هدوا خطواتي إلى البحث عن القيم الأكثر أصالة، مما يقتضي إعادة قراءة الكتاب المقدس والهبوط من متاهتي التي كنت أسير فيها على غير هدى.

قال السيد المسيح: "لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى. لم آت لأدعو أبرارًا بل خطاة إلى التوبة." [23]

إنه لم يجد غضاضة في أن يجلس إلى مائدة زكا العشار،[24] واحترم المجدلية الزانية،[25] ورفض أن تُرجم المرأة الخاطئة بالحجارة [26]...إلخ. إن الرعاة و"الأشرار" - وفقًا لتعبير "الرجال الشرفاء" - هم بكل وضوح خاصته. لقد كانوا أول من فهموا الدعوة إلى المحبة: فاللص يعطي نصف ماله،[27] أصبحت الزانية مرسلة إلى الرسل لتخبرهم بالقيامة [28]، صاح اللص معلنًا عن توبته [29]. فالراهب الذي أتى ليصلي في الكنيسة، لديه

23- مر 2: 17.

24- لو 19 :7.

25- لو 7: 36 ـ 50.

26- يو 8.

27- لو 19: 8.

28- يو 20: 17.

29- لو 23 : 39 - 43.

كل الحق عندما قال : "إذا رجع المسيح مرة ثانية إلى الأرض، فإنه سيولد ثانيةً في تلك الأكواخ."

الفقراء بعامة هم الذين يدخلون ملكوت السماوات.لماذا؟ إخوتي الزبالون هم الذين أجابوني: أن يكونوا... ما يكونون، فإنهم يعيشون حقيقة الوجود، لأنهم لا يضعون أقنعة يخفون وراءها البؤس الملازم لحياتهم فيما نسميه "مجتمع متحضر"، حيث يخفي الناس بؤسهم خلف قناع من العظمة المصطنعة. الوضع عندنا مختلف تمامًا، فالتعاسة البالغة تخلق النداء إلى "عزة النفس" وهي أمنية كل كائن بشري ... عزة نفس حقيقية.

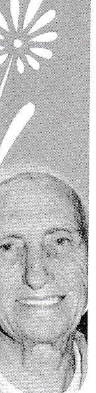
يكفي ظهور حدث جليل: أحد يحبهم، ، أحد يأتي ومعه محبة يسوع. كان سمير يقول لي: "لقد تغيرنا منذ مجيئك ومشاركتك حياتنا. فعدد السكارى قد تناقص، كما قلّت المشاجرات كذلك، وأصبحنا متقاربين أكثر بأخوة صادقة ... حتى نساؤنا ارتدن الكنيسة للصلاة بمحض إرادتهن."

لكن احترسي "إيمانويل"، لا تدخلي مجلس الفريسيين البارين في أعين أنفسهم [30]. كوني أكثر واقعية، كوني على المحك. ألم تتقاسمي مع إخوتك الزبالين البؤس؟ بأمانة، هل لو كنتِ ولدت هنا في هذه العشش هل من الممكن أن تكوني امرأة نزيهة؟ لا أظن هذا، ولكنك تستطيعين مشاركتهم عزة النفس، وتنمية القدرة على الحب التي ستسمح لهم بتحمل وطأة الحياة القاسية بخُطى حقيقية. ويمكن أن تكوني كذلك سعيدة.

إيمانويل، اقبلي دعوتهم لكِ!



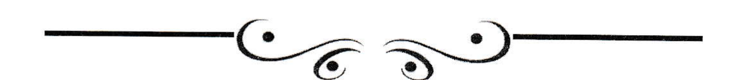
30- لو 18: 11-12.





الجزء الثالث

دعوة للحب، دعوة للحياة





لقد وصفت في الصفحات السابقة الجانب الأكثر إثارة من حياتي؛ ألا وهو المشاركة المصيرية لنفاية العنصر البشري من الزبالين: إخوتي، ولكن صرخات أخرى تشق قلب العشش؛ ألا وهي صرخات الأطفال الذين جاءوا إلى هذا العالم، إلى المجاعة والموت.

ها نحن من جديد، لحم من لحمي يئن فوق أرصفة الخرطوم أو في مساكن بيروت المحترقة، فصرخة الطفل أيًا كان لون جلده تصيبك بصدمة رهيبة فنسرع إليه تأخذه بين ذراعيك وتكفكف دموعه.

أنا أعرف جيدًا شقاء صغار الرجال عامةً فقد أحسست بها جسدًا وروحًا. حين يخسر الرجل معركة في مواجهة بدنية فإنه يتحطم. لهذا كنت منقادة إلى مواصلة تجربتي التي استولت على كل اهتمامي في عشوائيات القاهرة: تجربتي في إحياء شرارة الحياة التي تفجر الخضرة من وسط آتون النار مع آخرين.

وسط النكبة

في نوفمبر عام 1985م، وصلني خطاب من صديق سوداني كنت قد قابلته في چنيف، وكان يدعوني فيه للذهاب إلى الخرطوم: "حيث الآلاف يصلون كل يوم ، انقذينا!" في الحقيقة ترددت. ماذا عساي أن أُقدم لبلد أجهله؟ نشاطي في عشش الزبالين يؤتى ثماره ويتقدم. هل من الممكن أن أُوزع خدماتي على العالم أجمع؟ وفي خطاب آخر وصلتني تذكرة طيران

القاهرة- الخرطوم ذهابًا، وعودة. قلبتها في يدي وكان الرب يتحدث من خلال الأحداث. تشجعي "إيمانويل" وحصل المُقدّر! كنت لا أشك وأنا أحلق بين السحاب. أنه ربما تكون هناك دعوة أخرى سألبيها في مكان آخر على ظهر هذا الكوكب.

بمجرد نزولي من على متن الطائرة في الساعة الواحدة ليلاً سمعتهم يتكلمون عن الكارثة المريعة التي ضربت السودان بين بعض الطوائف، الحرب إذن، والآن المجاعة فتكت بملايين البشر وشاركت الكنيسة بكل إمكاناتها على ضآلتها في تقديم الدعم ولكن جسامة الكارثة كانت قد تجاوزتها.

وفي الصباح كانت الصدمة تكاد تمزق الأحشاء؛ فحينما كنت أذرع الشوارع كان الأطفال النصف العرايا، جلد أسود فوق هيكل عظمي متحرك وأرجل كالعصي تترنح من الوهن عيون سوداء تكاد تخرج من الوجوه الجائعة. بعضهم غرس أظافره الضعيفة في لحمي وتشبث بي "أنا معاكي" لقد قطعوا مئات الكيلومترات مشيًا على أقدامهم أو جاثمين فوق أسطح القطارات للفرار من الموت في اتجاه الخرطوم بعد أن زودتهم أمهاتهم البائسات بزاد قليل للطريق.

وفي محاولة للإنقاذ، تكونت جماعة "أبناء النيل" على وجه السرعة رجال وسيدات مثل "روبرت ريتشارد، سيمون برهمشا" كرسوا وقتهم نهارًا وليلاً لاستقبال هؤلاء البؤساء وإطعامهم وإنقاذهم وإعطائهم الأمل في الحياة. وقد ساعدت مجلس إدارتهم، ولدهشتي لم أقابل غير فرنسيين وإيطاليين وهذا غير منطقي، فبين يوم وآخر، الأجانب سيرحلون. من الذي سيتولى التخفيف عن هؤلاء البؤساء؟ وقد واجهت تجربة مثل هذه؛ ألا وهي العمل مع أبناء البلد ذاتها. كان التعاون مع الأخت سارة

وفريقها قد سمح بحل مشاكل صعبة واجهتنا مع الزبالين وأظن أنهم سيواصلون المسيرة من بعدي. أفريقيا تشعر بقيمة الإنسان، والإنسان الأفريقي مُتَفَهم. أفريقيا تشعر بمتطلبات روح وجسد الأهالي وتطلعاتهم وتشعر بإحساسهم المرهف وهي تتمسك بالحلول المتاحة. سهل علينا أن نتنازل نحن الغربيين عن عقدة التفوق الداخلية وندخل في تعاون مثمر مع كل الأطراف. ولقد تكّون أصدقاؤنا، عندما كانت "العقلية التنظيمية الرياضية" تقتضي ذلك، وقد صقلتنا حرارة العلاقات الإنسانية.

لحسن الحظ سرعان ما أتيحت لي الفرصة لمقابلة جميل وهو سوداني الجنسية وصرح لي: "قد تمر عليّ ليالٍ وليالٍ ولا يغمض لي فيها جفن. فالشوارع مليئة بالأولاد ممزقي الثياب مستندين إلى الحوائط يتعيشون من جمع الصدقات ومن الشغب: سرقة، دعارة، تعاطي. أما بالنسبة لي فأنا بمنأى عن هذا كله، فأنا أقطن منزلاً مريحًا مع زوجتي وابنتي وهم كل فرحتي، وأملك متجرًا أبيع فيه كل أنواع العدد والآلات وهو رائج إلى حد ما، ولكن ما الذي أستطيع عمله لهذا الشباب الضائع؟" إذن، هذا الرجل هو مقصدنا، وقد قَبِلَ - في نهاية شهر نوفمبر عام 1985م - العمل بالمؤسسة على الرغم من أن راتبه لا يوازي دخله من متجره. فمعرفته بالبلد وكذلك درايته بالإدارة مع تفانيه كل هذا جعل من تعاونه معنا شيئًا لا يقارن. وبهذا سينقذ هذا العمل بعد رجوع الأجانب إلى أوروبا.

لقد تحريت بنفسي عن الوضع الحالي للأطفال، وسيجدون ما يقتاتون به ظهرًا وليلاً في مراكز تُقدم لهم السندوتشات وتحميهم من المجاعة:

- "كم يبلغ عددهم؟

- حوالي سبعة آلاف من سن الخامسة إلى العاشرة، أما الأكبر سنًا فيختبئون صباحًا وينهبون ليلاً!

ـ ماذا يفعل هؤلاء المراهقون؟

ـ يتسكعون في الشوارع!"

سبعة آلاف ضائعين في بطالة كاملة... وهم نبتة لقُطّاع الطرق بعد ذلك! وقد عملت بالتدريس لمدة 40 عامًا، وأعرف جيدًا قيمة التعليم، ومع الزبالين لم تتعد تجربتي "حضانة الأطفال" وهي أول خطوة نحو تنمية القدرات. كنت أدرس مبادئ التنمية الفكرية. والحياة في المجتمع هي مشاركة، احترام الآخرين، وصداقة بدون مقابل. وكشجرة البلوط المغروسة في الأرض تتكون وتنمو شخصية الطفل في المدرسة.

ـ "سيمون، يجب إنشاء مدارس.

ـ من أجل سبعة آلاف تلميذ! أين ستجدين الملايين لإنشائها؟ الأولى بنا أن نقيهم شر الموت جوعًا أولاً!"

ولحسن الحظ، فقد وجد لنا جميل السوداني الحل:

ـ علينا إنشاء مدارس الراكوبا (المبنية من البوص) والثمن ليس غاليًا.

ـ بالبوص؟

ـ نعم، فتيار الهواء يمر من خلالها ويقلل من شدة الحرارة وكانت تستخدم من قبل كمأوى للفقراء. ستكون المصاريف زهيدة وبعض المتبرعين سيتسابقون ليمدوا لنا يد المساعدة."

نفذ سيمون و جميل كل ما وعدا به، وعندما رجعنا أنا والأخت سارة ـ بعد شهر ـ كانت عشرات الـ "راكوبات" قد أقيمت بالفعل بواسطة مدرسي المستقبل. فقد انتقت الأخت سيمون شبابًا بالكاد يعرفون القراءة والكتابة وقواعد الحساب للتدريس، وقد جعلتهم شغلها الشاغل. وقد اهتمت كثيرًا بتأهيلهم لدرجة أنها ساعدتهم على اجتياز امتحانات





التدريس. الرغبة في التعلم لدى الآلاف من أطفالنا هو أمر غير عادي، وقد فهموا منذ البداية أنه خلاصهم الوحيد. كانوا يتراصون فوق الدكك حوالي ستين أو خمسة وستين طفلاً في كل فصل، والفصول يفصلها عن بعضها سياج من البوص. وقد وجدناهم أخيرًا - أنا والأخت سارة - ساكتين. يا لها من معجزة!

إذن هيا نبارك الآن الطباخين، حيث أن مهمتهم على قدر كبير من الأهمية؛ فقد كانوا يجلسون في الحوش يحضرون وجبات الفول أو العدس بالبصل، وهما الوجبتان الأساسيتان في التغذية والتي يلتهمهما أطفالنا الجياع. كانت النفقات منحة من المؤسسة التي أتبعها في باريس. كان إيماني قويًا. ورجعنا أنا والأخت سارة إلى القاهرة بهدوء نسبي مطمئنتين إلى الحالة الراهنة.

وبعد رجوعي في مارس عام 1986م، وجدت نفسي في مجلس الإدارة. وقد وصل الجياع في جنوب السودان إلى سبعة آلاف فم صغير، وكان المحاسب يواظب على إرسال الفواتير. وقد علمت وأنا مذعورة أنه ابتداءً من الأول من أبريل، المعونة المادية والعينية قاربت على الانتهاء. فنظر إلينا الأب شارل وقال: "كم سيكون عددهم عندما يرجعون مع بداية الدراسة؟ كم عدد الذين سيموتون من الجوع؟ سكون تام. كانت العيون كلها متجهة إليّ، فاستطردت: "غدًا، سأغادر بالطائرة إلى باريس "مقر المؤسسة"، وسوف أثير الصحافة والتليفزيون والراديو، سأناشد العدالة. أنا أكره كلمة "إحسان" في معنى العطاء. فلدينا الحق أن نطرق كل باب حتى نستطيع ألا نترك سبعة آلاف أخ وأخت على مشارف الموت؟"

بمجرد وصولي إلى العاصمة أمسكت بالتليفون، وأطلقت النداء مناشدة الجميع لإنقاذ الأطفال المشرفين على الموت جوعًا وكان الإعلام

على استعداد تام للمساعدة. وفي خلال أيام، وصلتني أكياس بريدية تحوي شيكات، حوالات مقبولة الدفع، واكتظت حتى على سلالم مقر المؤسسة. وقد فرز المحتوى فريق من المتطوعين الذين هرعوا إلى البنك وحولنا بسرعة مبلغًا كبيرًا إلى الخرطوم وقد تحول المبلغ بدوره إلى مواد غذائية أساسية. قد قالوا عن الإنسان إنه أناني بطبعه! كلا، هذا هراء. فما من مرة أطلقت نداء استغاثة إلا وسعى الرجال والنساء والأطفال لتقديم يد العون. أنا لست الوحيدة التي مرت بهذه التجربة، عندما نتذكر هذا السيل الجارف من التبرعات المرسلة إلى "دير القديس بطرس" خلال شتاء عام 1954م! فقد كان العجوز الفارس "سيابستاري" على حق عندما قال: "شق طريقك إلى قلب الإنسان، فستجد الشمس داخله!"

ها نحن - أنا والأخت سارة - راجعتين في شهر سبتمبر. فهؤلاء الصبية الصغار الذين تركناهم في الشدة يندفعون الآن نحونا ويحتضنوننا ضاحكين، وهم فعلاً فخورون بمدرستهم "الراكوبا". كانت شنطهم المصنوعة من القماش مليئة بالكتب والكراريس التي أخذوا يعرضونها علينا. كانت الأخت سارة مبهورة بخطهم العربي الجميل! يا للفرحة عند رؤيتنا وجوههم، وقد امتلأت وجناتهم، وأصبحت أرجلهم أقوى ومستعدة للركض!

وبعد الظهر، كانت الغالبية منهم ترجع إلى بعض الأقارب أو بعض الأصدقاء الذين يستقبلونهم في أكواخهم المصنوعة من الكرتون المقوى أو من أكياس البطاطس الفارغة. لكن حوالي مائة منهم ليس لهم أي عائل في هذه الدنيا لهذا فهم يهيمون في الليل على وجوههم. من هذه الدراما الإنسانية، تم إنشاء مأوى مع الأقارب الذين يعولون هؤلاء الصغار من اللاجئين مثلهم، والذين يتكلمون بلغتهم، وهي "الدنكا"، وقد طلبت منهم عدم تقييد حريتهم وترك الأبواب دائمًا مفتوحة، تاركين لهم حرية



الذهاب والعودة كما يتراءى لهم. وأصررت إذا رجعوا، ألا يوجه لهم أي لوم بل يستقبلونهم بحنان أو بقبلة: "آه! قد أتيت. يا للفرصة، فنحن في انتظارك. هيا أسرع لتأكل!"

من المهم ألا يعيش شبابنا تحت الإكراه، ولكن يتفتحون وسط جو من الحرية المعقولة. وعلى هذا النظام سرنا. إذا خرج يومًا تسعون من مأواهم فإن تسعة وثمانين سيرجعون. واحد فقط لم يرجع ربما يكون قد قُتل في مشاجرة! وبعض الذين التقطناهم من الشوارع كانوا لا يحبون الذهاب إلى المدرسة، فلم نكن نصر في هذه الحالة على رجوعهم، لكن كنا نهنئهم فقط برجوعهم. وشيئًا فشيئًا - جميعهم بدون استثناء - قد ذهبوا إلى الفصول وبفضل دروس التقوية، فإن غالبيتهم أصبحوا تلاميذ ممتازين ونجحوا بكل فخر في امتحان إتمام الدراسة الابتدائية ليكملوا تعليمهم التالي. فالتعليم يتطلب صبرًا طويلاً مع كثير من الحب، ولكنه دائمًا يؤتى ثماره!

وبعد ذلك، حضر "أصدقاء الأخت "إيمانويل"، في چنيف وبروكسل، لمد يد المساعدة لجمعية ASMAE [31]، لتغطية المصاريف، لأن أعداد الأطفال السودانيين قد بدأت تتضاعف وأصبحت أنا والأخت سارة نأتي بانتظام لزيارتهم لمعرفة أوجه احتياجاتهم التي ستستجد. وفي يوم من أيام مارس عام 1987م، وصلت إلى مأوى تم افتتاحه مؤخرًا وكان يضم قرابة خمسة عشر طفلاً ما بين سن السادسة إلى الثانية عشرة، ولم نكن نريد أكثر من خلق جو عائلي يحيط بهؤلاء. وكان الأولاد مشغولين بلعبة تركيب المكعبات التي أرسلناها لهم من قبل لملء وقت فراغهم، ولكن فوجئنا أنهم أقفلوا أفواههم. الجبهة مجعدة، وقد خيم السكون التام

31-اختصار لما معناه: المساعدة الاجتماعية الطبية للطفولة.

على المكان. أي أطفال في العالم يلعبون هكذا وهم حزانى لا يتكلمون؟ وساورني القلق، فسألت:

- ما الذي يحدث؟ هل هؤلاء الأطفال خائفون؟ ممَّ؟ ومِن مَن؟ هل يضربونهم؟

- "إيمانويل" أنتِ لم تأخذي في الاعتبار! أن هؤلاء الأطفال حضروا من مكان يبعد مئات الكيلومترات من هنا. عرفوا الجوع ورأوا الموت والحرائق. انظري إلى "لوال" فقد فر إلى الأدغال، ثم أسره تاجر رقيق وباعه بالتالي إلى فلاح كان يوسعه ضربًا، ولكن امرأته أطلقت سراحه ذات يوم، ووصل إلى الخرطوم حيث وجدناه نصف ميت. فكل طفل من هؤلاء له مأساته التي لم يمضِ عليها وقت طويل. وأنت تريدين الآن رؤيتهم يغنون ويضحكون؟"

وسادت لحظة صمت...

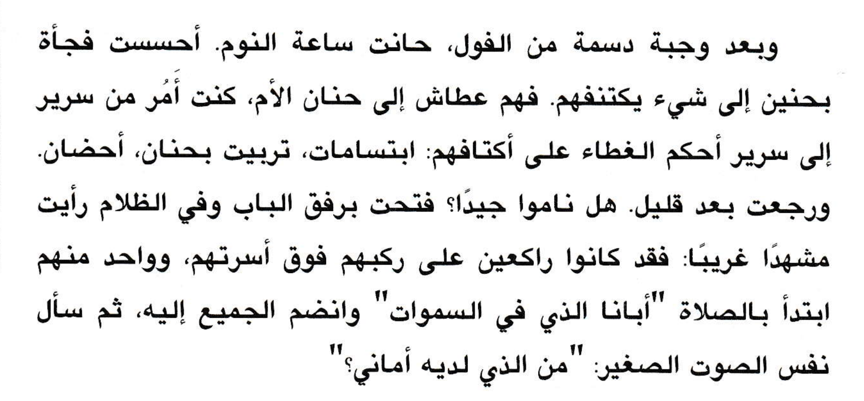
- طلبت أن يشتروا لهم كرة قدم وابحثي عن مدرب لهم حتى يفرحوا!"

وبعد مرور ثلاثة أشهر رجعنا إلى المأوى الصامت، فسمعنا عن بُعد صوت صراخ وتهليل. لقد عاد الأولاد من تمرين كرة القدم يجرون ويضحكون: هذا هو سحر الكرة!

وزعت عليهم أقلام ألوان كنت قد أحضرتها من القاهرة وهذا يعتبر ترفًا هنا! وكانت الرسومات مؤلمة: مخروط ناقص به فتحة وامرأة على جانبه، حتمًا هذا هو المنزل الذي تركه بعيدًا والمرأة هي أمه. هيكلان باهتان فوق ورقة بيضاء: الأب والأم المفقودين. ورسم واحد يصور بعض الأزهار الصغيرة مع شمس الأمل. وقد أحضرت كذلك دبًا كبيرًا من القطيفة؛ وهذا للبهجة، فكانوا يرمونه ثم يتلقفونه وهم ضاحكين.







وبعد وجبة دسمة من الفول، حانت ساعة النوم. أحسست فجأة بحنين إلى شيء يكتنفهم. فهم عطاش إلى حنان الأم، كنت أَمُر من سرير إلى سرير أحكم الغطاء على أكتافهم: ابتسامات، تربيت بحنان، أحضان. ورجعت بعد قليل. هل ناموا جيدًا؟ فتحت برفق الباب وفي الظلام رأيت مشهدًا غريبًا: فقد كانوا راكعين على ركبهم فوق أسرتهم، وواحد منهم ابتدأ بالصلاة "أبانا الذي في السموات" وانضم الجميع إليه، ثم سأل نفس الصوت الصغير: "من الذي لديه أماني؟"

كانت الإجابة مختلطة:

- "فلنصلِّ لآبائنا وأمهاتنا، البعيدين هناك.
- للجياع.
- للذين ماتوا.
- للحيوانات التي قتلت.
- للأطفال اللقطاء."

ومرة أخرى "السلام عليك يا مريم"، ثم بهدوء انسحبوا إلى أسرّتهم، وهكذا وفي الليل فقط، فإن الأطفال الذين يعانون كثيرًا يتحدثون إلى أبيهم الذي في السموات.

ولما رجعت في الصيف، كنا ننام معًا في الخلاء، لأن حرارة الجو قد قاربت ال 45 درجة. كيف نشكو من حرارة الجو، ونحن نسمع التنفس المنتظم لهؤلاء الصغار الناجين. و كل من أنقذانهم من التعاطي والدعارة؟ والمصابين بمرض الزُهْري والبلهارسيا، فإنهم ينامون كذلك بهدوء بعد شفائهم التام. لحسن الحظ كانوا يتنفسون باطمئنان لأنهم يشعرون بجو الحب المحيط بهم: نحن نرعاكم يا أطفال! فاستريحوا تحت سماء الرب

المليئة بالنجوم. وقد كانت الأخت سارة تقطن في مقر البنات الوردي.

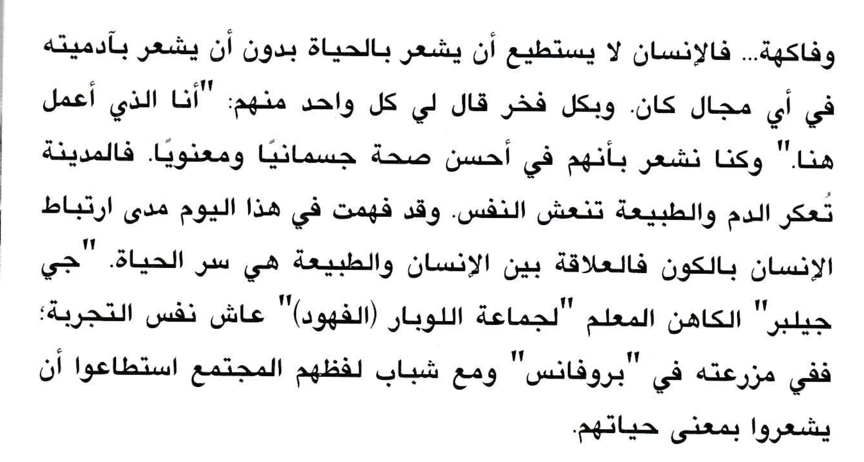
حادثة أخرى محزنة، ولكنها في نفس الوقت مأساوية، فالبنات كنّ في "حماية" أخ أو قريب كان عادة يحتجزهن في الليل ولا يتركهن أبدًا. وقد ذهب بعضهم لتفقدهن في ملجأهن الموجود تحت المجاري الجافة، وكان ذلك في غياب الأخ أو القريب الذي يحميهن، وسوف نعهد بهن إلى "مقر" أولاً ثم نأخذهن ثانيةً بسرعة حيث يستقرون في مقر دائم لهن. وبدوا شيئًا فشيئًا أكثر بهجة؛ فالأخت سارة أحضرت كذلك طفلة فقيرة مرتعبة وأحاطتها بالحنان إلى أن نامت مبتسمة بين ذراعيها!

الشيء المهم هو الاحترام ما بين الفِرق المختلفة ، فالأساس هو تعليمهم المحبة والاحترام المتبادل. أليس هذا هو الخلاصة التي نسعى إليها جميعنا؟ ونحن نأمل أن الصغار من المسيحيين سيحضرون بانتظام قداس يوم الأحد بملء إرادتهم متهللين في ترانيمهم للرب.

لم يكن يشغل بالنا سوى الشباب. وبما أنهم مارسوا الرذيلة كثيرًا والتعاطي والسرقة والدعارة فليس من السهل اليوم وضعهم في مأوى. وفي يوم جاءنا جميل متهللاً: "لقد وجدت مزرعة تابعة للمطرانية و صاحبها سيهبها عن طيب خاطر لشبابنا الذين في محنة. سوف نتركهم وسط الطبيعة. تعاملهم مع الحيوانات وعملهم في الأرض سيجعلهم أكثر نضجًا.

وبعد أشهر قليلة عند زيارتنا للمزرعة وجدت شباب كله حيوية ونشاط، وكانوا يتسابقون ليرونا انجازاتهم. فقد أقاموا أكواخًا واسعة، حفروا المجاري المائية للتزود بالماء، أعدوا كذلك مختلف الزرايب، زرعوا أول شجيرات الليمون الهندي، وبذروا بذور الطماطم والخضروات...إلخ. وقد وزعوا على كل واحد مسئوليته: خراف، بط، دجاج، بقر، جبن، خضروات،





وفاكهة... فالإنسان لا يستطيع أن يشعر بالحياة بدون أن يشعر بآدميته في أي مجال كان. وبكل فخر قال لي كل واحد منهم: "أنا الذي أعمل هنا." وكنا نشعر بأنهم في أحسن صحة جسمانيًا ومعنويًا. فالمدينة تُعكر الدم والطبيعة تنعش النفس. وقد فهمت في هذا اليوم مدى ارتباط الإنسان بالكون فالعلاقة بين الإنسان والطبيعة هي سر الحياة. "جي جيلبر" الكاهن المعلم "لجماعة اللوبار (الفهود)" عاش نفس التجربة؛ ففي مزرعته في "بروفانس" ومع شباب لفظهم المجتمع استطاعوا أن يشعروا بمعنى حياتهم.

ومن خلال تلك الزيارة، وفي لقاء غير متوقع، أتتني الفرصة للذهاب إلى حيث المعارك الضارية. والآن سأسرد عليكم وقائع الأمور الغريبة التي مررت بها. في خلال رحلتي إلى الخرطوم (شركة إير فرانس كانت تقلني بالمجان) وكنت هذه المرة أرتاد الدرجة الأولى وهذا الترف لم يكن يسرني كثيرًا، ولم يكن بهذه الدرجة أحدُ إلا شخص واحد غريب عني وتقدم نحوي: "إيمانويل، من المتعة السفر معك، كيف حالك؟" ثم قبّلني بإعزاز على وجنتي ولم أقلق: "على أحسن حال وأنت؟" وتواريت قليلاً وسألت المضيفة:

- "من يكون هذا الرجل؟"

- برنارد كوشنير.

- آه، ومن يكون كوشنير هذا؟

فنظرت إليّ باستغراب.

- "اعذريني ففي العشش التي نقيم فيها نحن الزبالون لا نعرف الأشخاص المهمين!

- إنه وزير الحركة الإنسانية!

- آه، شكرًا!"

واقتربت قليلاً: "إذن، برنارد، كيف هو الحال مع الحركة الإنسانية؟" وأصبحت المناقشة بيننا مثيرة وكان يتكلم عن كفاحه في الماضي وفي الحاضر ضد العوز والفقر، وتحدثت بدوري عن عملي. فنحن نسير معًا على نفس الطريق... وفي تلك الأمسية التي أمضيتها في طريقي إلى الخرطوم تطرقنا سويًا للمأساة الإنسانية التي ربطت بيننا للأبد. وفي اللحظة التي سيتركني فيها في حوالي الساعة الثالثة صباحًا قال لي:

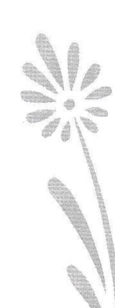
- "إذا ذهبت إلى الجنوب فسترافقينني.

- اتفقنا."

وبما إنني مشغوفة بسر القربان المقدس. وقد عرفت أن زوجة المستشار الأول بالسفارة الفرنسية في الخرطوم ستقيم احتفالا للأطفال "لأول مناولة" وسيأتي كاهن لإقامة القداس. ذهبت إلى السفارة حيث وجدت "كوشنير" جالسًا في الصالون محاطًا بمحبيه:

وداعبته، "أنت يا برنارد ألن تحضر القداس؟" فضحك قائلاً: "هذا يأتي في المقام الأول، ولم لا، سأتبعك."

وعندما قام، قام كل من معه مرة واحدة وباحترام. وابتدأت المراسيم الاحتفالية. وبدأت أقود إحدى التراتيل. وتلعثم الأطفال قليلاً. فتوقفت وقلت: "سيدي الوزير، أيها السادة ساعدونا إذن!" وهنا علا صوت كوشنير في حماس في فضاء البهو الفسيح بالسفارة، و هو الذي لم يتعود على هذا الحماس، مرنمًا: "كوني ملكتنا يا مريم ، نحن لكِ واملكي علينا وكوني معنا!"



وأصبح الجو السائد أكثر ورعًا وحانت لحظة العظة. وقد أكد بولس الرسول في رسالته أنه يريد اتباع يسوع من ناحية ومن ناحية أخرى كان يريد شد أزر أحبائه من الأعضاء الجدد على الأرض. ودعوت كوشنير لإلقاء الكلمة. وبأسلوب سهل وواضح شرح للأطفال إلى أي درجة - كما فعل القديس بولس - يجب علينا أن نكافح لتعم المحبة بيننا، الكل صغيرًا كان أو كبيرًا، مسئولون مع الأخت إيمانويل عن مساعدة الأخوة الفقراء جدًا."

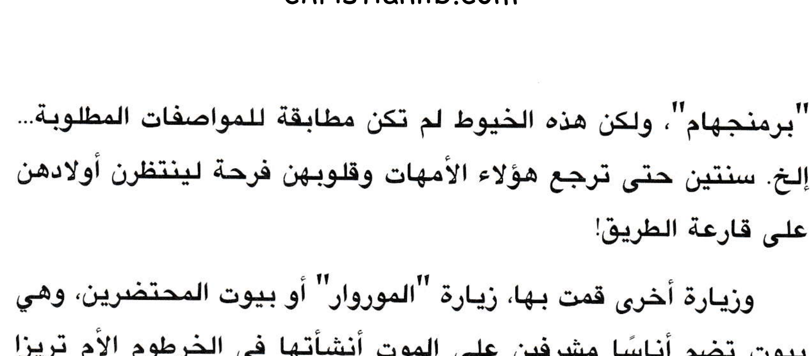
وقد سرّ هذا الحديث الأطفال حتى إن واحدًا منهم أعلن عن قراره أن يصبح طبيبًا للعناية - وبدون مقابل - بكل الأطفال الفقراء على وجه الأرض. صفق له الجميع، وبكل فخر رجع إلى مكانه. وساد الاحتفال جو روحي وبوضوح شديد فالذين حضروا وجاملوا السيد كوشنير شعروا كما شعر هو بأنهم على أعتاب كشف معجزة الرب ومعجزة الإنسان. وعندما انفض هذا المشهد، أحسسنا في أعماق أرواحنا بالرؤية الأبدية. وفي هذا المساء عشنا ساعة كاملة مع سر التناول المقدس.

في اليوم التالي، ذهبت مع صديقي الجديد لزيارة معسكر من معسكرات اللاجئين. وقد اقتادنا جميل أولاً لزيارة المستشفى. غرفة عارية، بدون أَسرّة. وعلى الأرض، كانت الأجساد السوداء ممددة على أوراق التغليف التي افترض أنهم يمزقونها عندما تتلوث هكذا. لا شيء، ولا حتى كوب ماء... رضيع وجدوا عنده فقر دم على مشارف الموت. جثمان والدته قد نُقل منذ ساعة. لوّح كوشنير بقبضته: "كنت أستطيع إنقاذه لو تناول دواء بعينه!" وها نحن الآن نسير بين الأحياء الذين استظلوا بشجرة نخيل شبه جافة: مسنين بوجوه معظمة، نساء يحملن بين أذرعهن رضع مقعدين، مات منهم الآلاف من الجوع وهؤلاء الأشباح الذين تراهم سيلقون نفس المصير عاجلاً. وترجم المترجم أقوال كوشنير: "فرنسا لن

تتخلى عنكم. وقد جئت لأتحرى عن المكان، وفي خلال أيام سنرسل لكم مروحية لتمدكن بالمؤن اللازمة." وكان رد الفعل لهذه الكلمات مشهدًا لا يصدق؛ كمن مسهم تيار كهربائي فهؤلاء الأحياء الأموات قد وقفوا بالكاد على أرجلهم، والنساء ينشدن ويرقصن الأناشيد المحلية الخاصة بقراهم، والمسنين منهم كانوا يلقون في الهواء بعصيهم ويتلقفونها. وكان الأمل هو المحرك لهؤلاء الراقدين وكانت قوته مهولة: فقد حول الأمل "رقص الموت" إلى ڤالس تذكاري. وبعد مضي ثلاثة أيام وصلت المؤن، وتم إنقاذ المعسكر.

في طريق العودة من الخرطوم، قمنا بزيارة مستشفى آخر. ورأينا مشهدًا آخر كذلك: فأمام أحد العنابر وجدنا نسوة جالسات على الأرض، وبجانبهن علب قديمة من المأكولات المحفوظة بها ماء، ومنغمس بها عيش وهذا كان غذاؤهم! فبعد عملية وضع رهيبة، هؤلاء الأمهات (كما شُرح لي) كن يعانين من "ناسور شرجى" وقد كن يأتين من كل جانب، ومن بعيد جدًا، وقد طردن من قراهم بعد اجتياح السودان وتشاد وأوغندا، فكانوا لا يتحكمون في المثانة، وكانت رائحة البول الذي كان ينفلت منهم منفرة للغاية في هذا البلد الحار. كن ينتظرن دورهن في العمليات الجراحية. هنا يقمن بدون مأوى، يتحملن أمطار الشتاء وحر الصيف اللافح.

كان من المفترض إنشاء عنابر للانتظار وغرفة عمليات ملحقة ومخصصة لاستقبال تلك الحالات. ولكن المعارك هذه ظلت على مدى عامين كاملين تتجدد مع كل رحلة أقوم بها للسودان، والمشكلة هنا ليست في إيجاد السيولة النقدية لإنهاء الأمر، بل في توصيل التيار الكهربائي من على بعد بضعة أمتار.و كذلك مشكلة اختيار مستورد آخر بدل الذي ألقى في السجن لتلاعبه، فقد أحضر الخيوط الجراحية من



"برمنجهام"، ولكن هذه الخيوط لم تكن مطابقة للمواصفات المطلوبة... إلخ. سنتين حتى ترجع هؤلاء الأمهات وقلوبهن فرحة لينتظرن أولادهن على قارعة الطريق!

وزيارة أخرى قمت بها، زيارة "الموروار" أو بيوت المحتضرين، وهي بيوت تضم أناسًا مشرفين على الموت أنشأتها في الخرطوم الأم تريزا على غرار ما فعلته في كلكتا بالهند. والمكان عبارة عن أسرة من الحصير مغطاة بقماش نظيف ممدة فوقها أجساد نحيلة للغاية.

وقد وجدوا واحدة من تلك النسوة في صندوق للقمامة تملؤه الديدان وهي الآن ممدة نظيفة في ثوب أبيض. وفجأة وجدت ذراعًا أسود طويلاً يمسك بي كانت لرجل مبتسم ابتسامة غريبة تبرز منها أسنانه. ألقى عليّ نظرة قلقة وكان بالكاد يحتضر. وظللت في مكاني دون حراك وأنا مذعورة. وفي آخر العنبر ارتفع ستار وظهر منه الساري الأزرق لأخت اقتربت منا، ثم ركعت على ركبتيها وربتت عليه برفق وجعلته يشرب قليلاً من الماء بحنان بالغ. وأنارت الوجه القاسي ابتسامة سعادة ورضى. وقد خجلت بالفعل من ذعري فقد أرتني هذه الأخت معجزة الحب وانحنيت من جانبي، وتركت يدي تلمس بحنان هذا الوجه المتألم الذي كان يرمقني عن كثب. وانفرجت أخيرًا أساريره وسكنت نظراته التي تلاقت ونظراتي وأصبحنا أخًا وأختًا. يا لدرس المحبة الذي يمكن أن يتلقاه المرء في أحد هذه البيوت التي تضم أناسًا ينتظرون الموت في أيةً لحظة!

بعد مرور بعض الوقت، حدثت كارثة في هذا المكان الآمن. فقد أشعل جميل حماسة بعض الشباب فتسارعوا إلى "الموروار" وطرحوا الأخت الرئيسة "الأم چوان" أرضًا وأوسعوها باللكمات ونزفت من رأسها ونقلوها إلى المستشفى ما بين الحياة والموت. وجاء لزيارتها المطران

"واكو" وطلب منها أسماء من فعلوا ذلك. واستطاعت أن تهمس: "لا، لقد سامحتهم كما سامح السيد المسيح." ولكن الـ "دنكا" لا يسامحون فعندما عرفوا ما حل بالأخت الرئيسة المشرفة على الموت استجمعوا قواهم وتقدموا للفتك بهم. ولكن جميل وصله الخبر فهرع ليمنع المقدر وإراقة الدماء. وفي خضم الظلام مُخاطرًا بحياته تقدم منهم قائلاً: "لا تقتلوني، لأني أخوكم." فأنصتوا إليه وهم مذهولون: "لن نقتلك و سنترك العدالة تأخذ مجراها." وقد حضر إلى "الأم چوان" القاضي المسئول في المنطقة وسمعها تكرر: "أنا سامحت." ولقد اضطربوا أمام عينيها الممتلئتين بالمحبة. وأكملت الإجراءات وسلموا المتهمين إلى العدالة. وبعد عدة أشهر من العذاب استعادت "الأم چوان" عافيتها، وقد صرحت لي ذات يوم وهي مبتسمة "بالتأكيد سامحتهم، وكنت أُصلي لهؤلاء البؤساء. هل يعرفون ماذا يفعلون؟" وأرسلت نظراتها بعيدًا إلى عمق قلب الإنسان وهي نفس النظرة التي بدون شك يشملنا بها الرب.

فالأحداث التي مرت بها السودان قد وسعت كثيرًا من مداركي ورؤيتي للأمور. ففكرت مليًا في صحة هذه المقولة: "الرب بحاجة إلى الإنسان" لإصلاح ما يفعله الآخرون على هذه الأرض التي خُلقنا عليها أحرارًا. فالبعض يدمرهم تجار الموت والبعض يعيد البناء وهم محبو الحياة. القوى يحارب والأقوى يسامح. قد قابلت أناسًا يرفعون الروح المعنوية ويهتمون بالصحة الجسدية لآلاف الأطفال فيهتمون أن تكتسي باللحم ثانية تلك الهياكل العظمية ويقدمون الأمان للذين كان الموت يلاحقهم وينتشلون الشباب الذين على مشارف الضياع.

وقد نشرت السودان بعد مصر نور العمل الإنساني: وهو ثمرة التعاون عندما يتملك ذلك الإحساس العظيم، وقد تكلمت من قبل عن "رابطة أصدقاء الأخت إيمانويل" في فرنسا وبلچيكا وسويسرا وسوف تنطلق

قريبًا "حركة أورانج" الخاصة بـ "چون ساج" وقد تكلمت عنه وأشرت كذلك إلى مجهوده الخاص بمصنع السجاد وكنت أشد انتباهه كذلك إلى موضوع أطفالنا السودانيين وجعلته جزءًا من شغلي الشاغل:

- "هؤلاء الأطفال بحاجة إلى الفواكه، ولكن ليست لدينا السبل الكافية لشرائها!"

أجابني صديقي چون:

- ليست هناك مشكلة، سوف أعلن عن حركة "أورانج" قريبًا، وأنتم تستطيعون أن تطلبوا ما تريدون وسوف يوفرونه لكم."

وقد تم هذا! فهؤلاء المانحون الأسخياء يمثلون القلب الذي يضخ الدم إلى هيكل عملاق. فقد مولوا كل أنشطة النجدة بفضل آلاف المتبرعين الذين أوجدوهم، وهذه بضعة أمثلة لخطابات هؤلاء: "في ذهابنا لرحلة بحرية، بدلاً من أخذ مقصورة على القمة اخترنا مكانا أقل تواضعًا. وسنرسل لكم الفرق."

"لقد جعلت غرفة واحدة فقط دافئة في الشتاء وهذا ما ادخرته." (رجل يعيش وحيدًا وهو في الخامسة والسبعين).

في عام 1990م، حيث أكتب هذه السطور من قرية في فرنسا، استطعنا بهذا الفيض العظيم من الكرم، أن نعلم أربعة وثلاثين ألف طفل سوداني في أربعة وسبعين راكوبا وجعلنا المئات منهم يعيشون في أسر ويتلقون التعليم في منازل ومزارع وفي مراكز تأهيل. كان جميل هو القلب لكل هذا، فقد عانى وتعب كثيرًا في سبيل ذلك ، ولكنه كان يثابر في إكمال مهمته برباطة جأش، وقد صرح لي أحد الناشطين الشباب في المأوى قائلاً: "أنا لا أريد أن أتزوج مبكرًا، لأني لن أستطيع أن أمضي الأمسيات في

الترويح عن أطفالنا، لأني سأكون منشغلاً بمن هم عندي." وقد ثبت صحة هذا الكلام على مر السنين؛ فإن قلب هذا الكوكب لن يتوقف عن النبض من أجل الأطفال الصغار ومن أجل البشر الذين يعانون من الضياع.

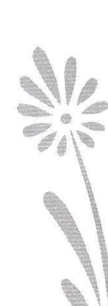
من فوق القبور، يبزغ الأمل

في أكتوبر عام 1987م قرر المسئولون عن المؤسستين اللتين تمدان لي يد المساعدة في فرنسا "أصدقاء الأخت إيمانويل" و"ASMAE" أن يندمجا. وقد أسس الأولى "برونو دو لوس" سفيرنا في القاهرة وقد ساعدني كثيرًا في بداية عملي. وقد خلفه "بيير لامبيرت" الذي أكمل مسيرته بتنظيمه رحلة كبيرة داخل أستراليا وفي الولايات المتحدة مما مكنه من جمع الأموال.

أما الثانية فقد أسسها "إريك بلانشار" و "بنوا لامبرت" وبعد ثلاث سنوات فقط من العمل الدءووب لفريق الشباب، أصبح الدمج ضروريًا. "هرفي توليه" السكرتير الأسبق لمجموعة "إمايوس الدولية" استطاع أن يرتقي إلى مركز الرئاسة في الهيكل الجديد، متبعًا نفس الخطى والتفاني في العمل كالذين سبقوه، وبخاصة تعاطفه مع الأحداث الدائرة في بيروت. فتقودني هذه الأحداث في عام 1987م إلى الذهاب للبنان أرض المذابح والرعب.

نحن الآن على مشارف بلد مأساوي، مزقته عواصف الحقد ولا أحد يستطيع أن يؤكد في الصباح أن الليل آت أو عندما يأتي المساء سيكون هناك صباح جديد! ومررنا على "دورا" وسط العاصمة: أبنية منهارة، أسلاك شائكة، صوت معدن العربات التي تنصهر، وقد قتل جنديّان فرنسيان بعد ساعتين من وصولنا...

في كل رحلة أقوم بها تلبية لاستغاثة، اكتشف أمورًا مرعبة: بيروت



يا من كنت مدينة مزدهرة تتحولين الآن إلى مدينة تنبئ عن رؤيا لنهاية العالم. أنقاض، انهيارات، عربات أطفال معلقة فوق عمدان محطمة، قماش ملطخ بالدماء معلق في شق سور، بنطلون أسود يرفرف على إريال تليفزيون، بقايا حياة في ديكور الموت. أين هي الكائنات من لحم ودم الذين بكوا وضحكوا هنا؟ أيها الأخوة الأعداء، لمَ تلك العداوة؟ ومن بعيد سمعنا صوت أزيز قذيفة مدفع. وفي كل مرة أذهب فيها لألبي نداء استغاثة، يظهر لي لبنان في موضع تساؤل، هل سأغرق في هذا التطاحن وأثابر أمام جسامة تلك المأساة. "ما الذي أتى بي إلى هذه السفينة الحربية؟ فالأنقاض التي سترفع اليوم ستسوى بالأرض مرة ثانية غدًا: فأنا أعرِّض حياتي للموت لمن؟ ولماذا؟"

في عام 1987م بدأت بزيارة العائلات النازحة التي يمكن إنقاذها. وعند وصولي، هرعت إليّ "ليلى" طفلة في الخامسة بشعرها المتموج وعينيها السوداوين، لتحتضنني بشغف، وجلست قليلاً مع أهلها في الشرفة، فسأصبح مسئولة عنها مستقبلاً. وفي اليوم التالي وهي نفس الطفلة وفي الشرفة ذاتها، قتلتها رصاصة قنّاص كان مختبئًا في المبنى المقابل: وسال الدم، وكان هذا مكسب له. أما هذا الموت المريع فكان صدمة لي هزت كل كياني ولازمتني طويلاً.

مقتل الطفلة المروع قد تجاوز الآن وبفظاعة كل ما رأيته وسمعته: تستطيع وأنت آمن تمامًا قتل طفلة في مقابل بضعة دولارات!

في لبنان المتألم، في جهنم الانتقام، إيماني تزعزع من جديد: "أين أنت يا إلهي؟ لماذا تترك الأبرياء يذبحون؟ هل ستبقى الأرض دائمًا ملطخة بالدم؟ هل ستستمر سماؤك محاطة بالصمت؟ لماذا يغيب الرب في محنة الإنسان؟ كيف نفهم هذه اللعبة البغيضة التي بمقتضاها يكون

للمعتدي الحرية الكاملة في تعذيب وصلب وتسمير رجل اسمه السيد المسيح ومخلوقات بالملايين معه؟" انقبض قلبي، رغمًا عني وجدته مرة واحدة ثائرًا، وإيماني الذي يموت مع كل جسد يواري. هل من الممكن أن يبعث من جديد؟

وقد قلتها من قبل في ساعات اليأس هذه، إن عذراء يوم "الجمعة الحزينة" هي التي تنقذني؛ فلديها الرجاء، فهي التي عندما أقفلت القبر على ابنها انتظرت قيامة الحي، وقد صرخت لها:

"يا سيدتي، يا أم الميت الحي، لقد دفنت في نفس قبر "ليلى" ومع كل الذين يقتلون حرريني. لا تتركيني مع الأموات!"

وقد حاولت أن أستجمع شجاعتي وسافرت مع أخت من الفرانسسكان تدعى "ماري" لقرية على الجبل وقد استوقفتنا الميليشيات على طول الطريق والبنادق مصوبة إلينا. وفي كل منطقة مناقشات ثم معاودة السفر. وعلى قمة الجبل لم نجد إلا حطام وأطلال جعلها البؤساء من العجائز ملاذًا لهم وهم من كانت الأخت تحاول مساعدتهم على قدر المستطاع. وفي أول مسكن على الأرض والحوائط وفي كل مكان كانت تزحف مئات من الحلزونات (القواقع) والتي كان يقتات بها زوج وزوجة منظرهم يدعو للرثاء. وعلى بُعد مسافة قليلة كانت هناك عجوز ممسكة بيدها فنجانًا! على جسد ضئيل يرتجف من البرد في حجرة كالثلاجة مفتوحة من كل اتجاه، فالزجاج كان محطمًا. وزوج من أحذية طفل موضوعة في الركن واستمعت إلى مأساتهم: في إحدى الليالي جاءنا رجل وهو يصيح: "اهربوا، سيصلون بعد قليل، يقتلون، يغتصبون، يطلقون النيران." وحملت ابنتي صغيرها وحمل زوجها الطفلين الآخرين وهربوا. وبما أن زوجي لا يستطيع المشي فقد مكثت معه وهم لن يقتلونا." وقام





الرجل وبنظرة كلها إعزاز قال: "نحن نحرس البيت، لأنهم سيرجعون." ثم قالت هي وفي عينيها نظرة الجدة الحانية: "كريم سيجد حذاءه." وظلت عيونهم مركزة على زوج الأحذية الذي يمثل لهم الرجاء. وكنت أقول لنفسي: "قليل من الأشياء تبقى لمساعدة البشر على مواصلة الحياة! ولكن هل سيرجع كريم؟"

وفي اليوم التالي تقابلت مع أب يدعى "سليم" كان سيذهب لإقامة القداس في جبل آخر وقد طلبت أن أرافقه ولكنه تردد:

- "فلم يكن متأكدًا إنني سأرجع حية!

- هل تذهب باستمرار إلى هذه القرية؟

- بالتأكيد، مرة كل أسبوع.

إذن، أستطيع أن اذهب أنا كذلك مرة واحدة!"

وذهبنا معًا وعلى طول الطريق كانت الميليشيات تكاد تقتلنا... ولكننا تقدمنا. وقد روى لي الأب "سليم" أنه في إحدى الليالي سمع صوت انفجار رهيب بالقرب من بلدته التي ولد بها. وبلغها قرب الفجر:

- "لقد وجدت كل الأهل والأصدقاء غارقين في دمهم وكانت أعضاؤهم متناثرة. حفرت بيدي وأنا أبكي حفرة كبيرة ووضعتهم فيها ورجعت مرة ثانية لأزرع العشب على قبرهم."

- عشب؟

- عشب أخضر رمز الأمل، فمن قبرهم هذا ستنمو الحياة. حاولت وقت السلم أن أوحد الأخوة الأعداء، ولكنهم سيقتلونني حتمًا في يوم من الأيام."

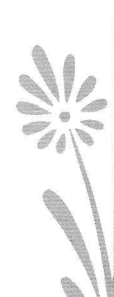
وأضاف قائلاً، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة مازلت أتذكرها

ليومنا هذا: "سآتي لأزرع السلام والحب، ومن يبالي فنحن لا نموت إلا مرة واحدة!"

نعم مرة واحدة! ووصلنا سالمين إلى قمة الجبل. لقد أبادت الحرب هذه القرية وبمساعدة العكاز والكراسي المتحركة والأجهزة النقالة للأرجل. شباب ومسنون دخلوا إلى كنيسة متداعية قماش مرسوم عليه أضحية إبراهيم: ملاك الرب يوقف سكين إبراهيم المرفوعة في الهواء "لا تقتل!" ذلك المنظر يبدو هزليًا من هنا. الجميع يعلنون أنهم من نسل إبراهيم ويتقاتلون الآن بضراوة باسم إله أبيهم.

وبدأ الأب سليم نصيحته، ذلك الرجل الذي دفن كل من أحبهم لا يتكلم إلا عن الغفران ويده مرفوعة نحو خشبة الصليب. وهذا فعلاً محير؛ فبينما كان يردد أقوال السيد المسيح: "يا أبتاه... اغفر لهم." كنا نسمع صوت دبابة الأعداء التي تشرف على الجبل تمر قريبة منا. وابتدأ صوته يرتجف وهو يقول: "يا أبتاه اغفر لهم كما نغفر نحن أيضًا..." ووجدت نفسي أحلق إلى أعلى قمة في العالم، حيث الدين لم يعد روتينًا بل تجسد. فلم تعد الألوهية هي القوة المطلقة التي توزع الخيرات الدنيوية، بل أصبح الحوار هو البحث عن حب الرب للإنسان الذي يكون على شاكلته في الأبدية. فمن الروعة أن ترتقي إلى أبدية الله ولكن يا لقسوة السقوط المفاجئ في هوة الكراهية! يجب علينا مغادرة الجبل بسرعة قبل حلول الظلام إذا كنا نريد أن نتفادى الموت.

أول نوفمبر عيد "كل القديسين"، كاتدرائية "صيدا" مكتظة والجو العام ليس كئيبًا كما هو الحال على الجبل، ولكن الوجوه تحمل نفس التعبير الحزين ونفس حرارة الصلوات المتألمة. وخلال طقوس القداس كان المسلمون يقومون بنوبات الحراسة لتلافي ضربة مفاجئة. يا لروعة





التحدث بروح الأخوة مع هؤلاء الرجال ذوي العقلية المتفتحة! فقد كانوا على بينة من الوضع المتأزم الدائر بين رجال السياسة الذين يمزقون البلد، ويؤكدون "أنها السياسة وليس الدين الذي يمزق لبنان والشعب في حد ذاته لديه "أمنية واحدة هي السلام!"

السلام! كلمة من الكلمات التي لها رنين السخرية، وأستطيع القول هنا كلمة لها رنين الحزن! فالجميع لا يتحدثون إلا عن السلام وهم مدججون بالأسلحة. فكل لبناني يحمل معه مسدس به ذخيرة ومستعد لأن يضغط على الزناد. السلام! كيف وأنت في كل خطوة تخطوها لا تجد سوى آثار الحرب والبلد بأكمله يكاد أن يكون كالمقبرة!

النيران المتبادلة تجعلني يومًا بعد يوم أمام جموع يستحيل إنقاذها فالأحياء مستمرون في إبادة بعضهم البعض والأموات أصبحوا مطروحين تحت العشب. هل يستطيع العشب الذي زرعه الأب سليم أن يعيد الحياة إلى الأرض اللبنانية؟ هل كان من الأفضل هجر المصير الكئيب الذي يصنعونه بأيديهم؟

الجواب يأتي من قلب لبنان ذاتها، ففي بيروت اتجهت إلى "منظمة التعاون المهني" وهي منظمة أنشئت على يد المطران "جريجوار حداد" يساعده فريق من العلمانيين منغمسين في العمل معه وعلى رأسهم "كريستيان صهيون" وكان هدفهم لا تنقصه الجرأة: وهو سرعة إعادة إعمار ما دمرته الحرب. وفي خلال زيارتي لهم دخلت "ياسمين": وجه مكفهر وشرس؛ فمزرعتها قد دمرت وقتل زوجها، وهي الآن تبحث عن عمل لإطعام صغارها. وسألوها: "هل تعرفين كيف تغزلين؟" وضحكت ضحكة مُرّة: "كان عندي بهائم كثيرة أعتني بهم وأنا لست سيدة بيروت الجميلة!" وقد أكد لها كريستيان أن هذا ليس صعبًا ووضع بين يديها

رسم لـ "كسوة الوليد" وابتدأت الإبرة في العمل في اتجاه "سيدة بيروت الجميلة" وبعد انقضاء ساعة من الزمن. خرجت ياسمين منتصرة وهي ممسكة بحقيبة بها جزء لا بأس به من التريكو المشغول مع أول راتب لها. وتنفس كريستيان الصعداء:

- "أستطيع أن أنقذ عائلات أكثر ولكن ليس عندي طلبيات كافية!

- ارسل لي خمسمائة كسوة طفل كبداية للعمل!"

وأكملت وأنا ابتسم:

- سأرسل خطابًا إلى أعضاء جمعيتي أقترح عليهم هذه "الفساتين"، وسأشجع الفرنسيين كذلك على كثرة الإنجاب!

- وماذا عن القروض؟ سأل كريستيان مع نبرة تخوف.

- لا، لا توجد مشكلة، فبعد الأمهات سأكلف الآباء بالعمل كذلك."

وبدأ طوق اليأس الذي يكاد يخنقني ينفرج قليلاً. لقاء آخر كانت عواقبه غير متوقعة. ففي صباح يوم لاحظت طفلاً منكبًا على كتاب فرنسي يحاول جاهدًا أن يحل رموزه ويقرأه بمفرده. فسألته:

- "ألا تذهب إلى المدرسة؟"

وجدت نظرة حزينة وسمعت صوتًا متوترًا يرد عليّ:

- "لا توجد نقود!

عرفت أن المدارس جميعها بمصاريف، إذن فهذا الأمر متعذر على الفقراء. وكان دخول المدارس قد تقرر منذ ثلاثة أسابيع، ولكن تأخر نظرًا للظروف، ولكن ستمائة طفل لم يدخلوا المدارس! وقررت أنا "وهارفي" التدخل بسرعة ودخلنا في حوار مع مديري المدارس: "سندفع المصاريف



المدرسية للفترة الأولى قبل نهاية نوفمبر، وفي يناير سنرسل مصاريف الفترة الثانية من السنة." وقبلوا الفكرة على الفور، وتحت نظرتهم العطوفة استطاع ستمائة طفل الالتحاق منتصرين بمدارسهم لمواصلة دراستهم واستطعنا أن نجد بسرعة كذلك الرعاة الستمائة في فرنسا لهذه الحالات.

من أين يمكن المساعدة في تنشيط الأمور؟ فقد سمعتهم يتكلمون عن مؤسسة "بيير عيسى"، "قوس قزح" وهو ابن لرجل لبناني مقتدر. لقد أخذته الشفقة عليّ وعلى معوقي الحرب الذين أحيلوا إلى المعاش، وقرر تولي أمرهم لمساعدتهم في شق طريقهم. وقد وهبه أبوه مصنعًا من مصانعه حتى يستطيع أن يوفر سبل العيش لأسرته الجديدة من المعاقين: كل شيء وضع تحت التصرف على غرار المسيحيين الأوائل. كل واحد يتلقى تأهيلاً مهنيًا مناسبًا. وقد تأثرت كثيرًا بعظمة هؤلاء الشباب، فقد كانوا سعداء بتعلمهم المهنة التي ستعيدهم إلى المجتمع. فمجموعة منهم على الكراسي المتحركة يحيطون بـ "إيف بريفوست" رجل الدين الذي جاء من فرنسا. فهو يعلمهم كيف يصلحون ماكينة غزل. وهو يعرف جيدًا أنه ربما في يوم سيختطف أو سيقتل ولكن كما يبدو أنه لا يبالي! وكان الأب عيسى يجعلنا نتمرن أنا وهارفي في مكتبه. وقد سألناه: كيف تسير الأمور المالية معه... خسارة بالطبع كما هو منتظر! ولكن إرجاع الأمل في الحياة إلى مائة وثلاثة وأربعين شابًا عاطلاً أمر يستحق المحاولة. ولتلك الحالة كذلك وجدنا رعاة يتولونها!

وكان بيير يحدثنا عن توني بشارة المصاب بالشلل بعد أن تأهل ليكون نجارًا وحصل على فرصة لفتح ورشة نجارة. وبعد الظهر حضرت عقد قرانه الذي تم سرًا. لأن أبا العروس قد توعد في غضبه على ابنته أن يقتل توني إذا تجرأ وتزوجها، "هذا البائس المقعد" .وقد قررا أن يهربا

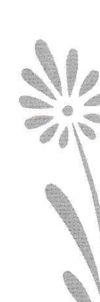
عقب الاحتفال بالزواج مباشرة إلى "بكا" المنطقة الأكثر خطورة ولن يرجعا إلا إذا تراجع الوالد عن فكرة الانتقام! وهما الاثنان الآن أمام المذبح. وانتصب توني للحظة وأعلن "نعم" بصوت عال كأنه يترنم بها: وها قد أصبحا مرتبطين إلى الأبد "في السراء والضراء"! ثم دفعته هي بسرعة وهو على كرسيه المتحرك. ما هو يا ترى المستقبل الذي ينتظرهما معًا؟ ربما يكون الموت. وكان وجهاهما يشع من الفرحة: كان الحب يسخر من الموت. حضرت كثيرًا من الزيجات: أورج، أزهار، أغانٍ، تجمعات راقية، ولكن هنا لا شيء يشبه هذا، زوج وزوجة يائسين استطاعا أن يجدا السعادة في حب متجرد وجدا فيه القوة لصنع مصيرهما، تلك الجرأة، تلك الثقة في الحياة، فجرت فيّ من جديد الأمل الذي مات والآن أنا واثقة بأن الحب هو قوة البعث الفعالة على ظهر هذا الكوكب.

سوف أؤكد غدًا أنه "بالحب وحده نستطيع بناء لبنان من جديد": وكانت هذه هي الكلمات بالنص التي أسمعها ويرددها الناس في "يارون" بلدة الجنوب الصغيرة فالسفير المفوض في مالطة – أمير "لومكوفيز" في صحبة زوجته "فرنسواز دي بوربون – رام" قد افتتحا مركزًا طبيًا اجتماعيًا في جو مشبع بالفرحة بدون أي أثر للتوتر. وقد ألقى الكلمة كل من الشيخ المسلم وأحد الوجهاء المسيحيين حيث ردد كل منهما هذه الكلمات: "وقد أعلنها المسيح؛ أحبوا بعضكم بعضًا، سنعيد بناء بلدنا بالمحبة!" وكان التصفيق حادًا .ووسط الجمهور المنتشي من الفرحة تستطيع أن تسمع:

ـ "محمد هل تريد أن تأخذ معي مشروبًا؟

ـ هيا بنا، يا چورچ!"

وأثناء شربهما شرحا لي الأمر ضاحكين:



"نحن مسيحيو ومسلمو لبنان فليتركوننا وشأننا! فنحن نتفاهم بسهولة والسياسة القذرة هي التي تفرقنا!"

ومرت عدة أيام، ثم أثبت لي رجل صحة هذا الكلام. الأستاذ حداد قدم لي صديقه مصطفى الذي كان يجلس على كرسيه المتحرك وأثناء العشاء الذي جمعنا كلنا وصف لي هذا الأخير:

"في العام الماضي، كانت لبنان غارقة في خضم النار والدم وكل من جال فيها فهو يسير نحو موت محتوم وكان يجب عمل أي شيء حيال هذا الوضع. فقررت مع بعض الأصدقاء المقعدين مثلي تنظيم مسيرة سلام. كنا جماعة من المقعدين العزل مسلمين ومسيحيين نجوب البلد. فيا ترى من لديه قلب ليقتلنا؟" وتقدمنا صفًا واحدًا من خمسين شخصًا: صمًا، بكمًا، عميان، ومعاقين وكان كل واحد يقود الآخر للأمام حاملين شعارات كتب عليها كلمة "سلام" بالفرنسية والإنجليزية والعبرية والعربية واخترقنا المدن والبلدان مؤكدين "مسيحيون ومسلمون كلنا أخوة!" بعكس تمامًا ما قيل لي. لم يعترضنا أحد. وقد كانت الميليشيات من الجانبين تخفض أسلحتها و كان الناس يهتفون معنا بحماس "سلام، شالوم" وكانوا يلقون علينا الأرز كما لو كنا في عرس، وقد أحسسنا فعلاً بأننا نحن قلب لبنان النابض!"

وقد أكد الأستاذ حداد أقوال مصطفى بكل قوته:

"آه! لو أحسوا بالفعل ماهية الروح اللبنانية، فهي لم تكن أبدًا متعصبة بل قائمة على الإخاء!"

وبصوت مختنق أضاف مصطفى:

"في كلا المعسكرين المتناحرين. تشبعنا قبل المعارك بفكرة أن

نتحول إلى ذئاب متعطشة للدماء على استعداد للقتل والإبادة!"

خلال تلك المأدبة، كانت السعادة تغمرنا ولم تجعلنا نشعر بقصف المدافع الذي كان يدوى عن بعد. وبنفس قذيفة المدفع وفي تراشق مشترك للنيران في نفس هذا المساء قُتل أتباع الديانتين ، ماتوا على قلب رجل واحد. وقال حداد "لقد قدموا نفس التضحية." وكان يشير في الواقع إلى تفتح سر القربان المقدس في قلوب البشر.

ودقت ساعة الرجوع إلى فرنسا. من المحال الوصول إلى مطار بيروت لأنه محفوف بالخطر فكان علينا الوصول بالمركب أولاً إلى قبرص ومن هناك الاقلاع بطائرة "إير فرانس". وأخيرًا وصلنا وتنفست الصعداء، نهاية القصف! ولم أكن أكثر شجاعة من هؤلاء الرجال والنساء الذين قابلتهم ومازال البعض منهم متطوعين!

عيد الميلاد المجيد يقترب، ولن يحظى خمسة وعشرون ألف طفل لبناني بشيء، لا شيء، ولا هدية. ومرة أخرى أضحى التمرد في داخلي يغلي. هذا مخجل للغاية، يجب تحذير الرأي الذي سينشط بالتأكيد. هيا للأمام "يالا"! لأجل خمسة وعشرين ألف طرد لا يقل عن ذلك. الإذاعة والتليفزيون والصحافة في فرنسا كانوا يتساءلون عن الموقف وأعلنوا عن عجزهم عن تحقيق الأمر؟ هل العدالة مازالت موجودة على الأرض؟ فقد طلب من الأطفال أن يطلبوا أقل القليل وأن يتشاركوا في هدايا الميلاد مع الآخرين: فعليهم تحضير طرد الـ 5 كيلو بأنفسهم وقد سبب هذا بلبلة عامة. وكانت شركة النقل "فرايش" في باريس تستقبل الحمولة وترسل إلى مارسيليا آلاف الطرود. وكان العاملون يعملون ليل نهار ويرفضون تقاضي أجر مقابل الساعات الإضافية. وعلى ساحل "سانت أندريه" في "غيزار" كان هناك دائمًا "چون ساج" العامل الفعال المتضامن.



وبالتعاون مع فريق العمل المصاحب يحضر آلاف الطرود الأخرى المرسلة إلى مارسيليا ويحمل الحاويات الذاهبة عن طريق البحر إلى لبنان. وهناك كانت "كريستيان" التي كونت مجموعة من المتطوعين تستقبل وتنقل وتوزع الهدايا. والنتيجة أن ليلة عيد الميلاد المجيد جعلت خمسة وعشرين ألف طفل مسيحي ومسلم متحدين يقفزون باستبشار من الفرحة ومازالت المعجزات موجودة!

كانت المأساة اللبنانية إحدى هذه القضايا التي شغلت ذهني وجعلتني أفكر في مصير الإنسانية. فما هو السر وراء معاناة شعب ما! وما هو السر وراء بعث هذا الشعب!

أنا أؤكد ذلك لأنني رأيته، فلبنان لا يمكن أن يموت فهذه الأمة تمتلك رجالاً ونساءً لديهم قوة لا تقهر كلما طرحوا أرضًا يكونون جاهزين للنهوض من جديد وكانوا يشعرون برعشة قلبهم معًا في خضم المأساة ذاتها والتي تبين أن "الإنسان يعلو على الإنسان". ففي بعض الأحيان كانت الوحشية تكاد تجرفهم وذلك ناتج عن السياسة القذرة التي تحول الآدميين إلى حيوانات تعوي طالبة الموت. وعند وصولي إلى بيروت كان عندي شعور بأنني سقطت في جحيم "دانتي": "أنتم الذين تدخلون هنا، تفقدون كل أمل." ولكن بعد عدة لقاءات مع "محبي الحياة" تأرجح قلبي، فالحب الذي كان داخلهم أقوى من الموت. قلوبهم تبعث الحياة، وهم يزرعون العشب فوق القبور.

التكاتف في مواجهة الموت

في عام 1992م، أصبحت المساعدات لجمعيات في مصر والسودان ولبنان منتظمة على يد "أصدقاء الأخت إيمانويل" و"ASMAE"، وأخذت فرق المساعدات تعمل في أماكنها من ناحية والمساعدات المالية تغطي بفعالية المسئولية الأساسية التي نحن بصددها وهي: انقذوا الأطفال.

وكان من المستحيل التوسع في حدود نشاطنا. "فرانسيس بليسيه" الذي ساعد في أحد مواقع الزبالين بالقاهرة، قد تولى المساعدة الخاصة بالفلبينيين. وصديقة أخرى هى "كريستيان باريه" قد ذهبت إلى هناك كذلك وأخذت على عاتقها مهمة جديدة. ومع رئيسنا الشاب "بنواه لومبير" ومديرتنا النشيطة "كاترين القاريز"، قد تقرر عمل زيارة ميدانية لتفقد الأماكن التي تكون مساعداتنا فيها أكثر فعالية. وقد اكتشفنا بالفعل أنها أُمّة ذكية ونشطة ولكنها تنهب بواسطة حكومة ماركوس. كما جرت العادة، نريد أن نضع الأمور في نصابها ونعطي الأولوية للأطفال، كذلك لنتعرف على مشاكلهم. فقد اتصلنا أولاً بالأب" تريتز"، وروى لنا قصص مدهشة هذا اليسوعي الفرنسي الذي وصل إلى الفلبين عام 1950م، للعمل كأستاذ في الجامعة هناك. وفي يوم ما فجأة زهد منصبه في الجامعة وكان اهتمامه قد انصب على مشكلات شباب آخر غير الذي يظهر في الحرم الجامعي؛ أولئك الذين استعبدهم العمل الشاق أو أسلموا أنفسهم إلى الدعارة، فقرر انتشالهم من حضيضهم. ومع مرور السنين، توصل إلى إرساء تعليم قوي لخمسة وأربعين ألف شاب في أربعمائة عشوائية! واليوم ناهز التاسعة والسبعين، ومازال نشيطًا كالشباب ويضاعف مشاريعه المدرسية والتأهيل المهني.





الأخت "لوتس" راهبة فلبينية (من جماعة صعود العذراء)، تتمتع بشخصية منقطعة النظير، لقد فهمت أن ماركوس و زوجته يقودان البلد إلى دمارها؛ ومن ثم تعاونت مع أعضاء آخرين من الكنيسة وأصحاب كثيرين لعمل ثورة ليست دموية. وكانت على رأس المتظاهرين، وقد رأيت هذا الفيلم، فقد كانت مع راهبات أخريات في الصفوف الأولى لمئات الآلاف من الفلبينيين الذين يطالبون برحيل ماركوس وزوجته، وكان البلدوزر يتقدم للقضاء على هذا الجمع الأعزل، فأخرجت الأخت لوتس المسبحة وركعت مع الراهبات الأخريات بدون أن يقوموا بأي حركة وصرخت في وجه البلدوزر "السلام لك يا مريم، يا ممتلئة نعمة..." ،**Ave Maria gratia plena...**""، ولكن البلدوزرات لم تتوقف. كان الموت قريبًا بكل قسوة، ولكن الراهبات ظللن على شجاعتهن المنقطعة النظير، ولم تعد حياتهن تعني شيئًا لهن، والبلد أصبحت لعبة، حب في مواجهة الموت، عجز أمام القوة والإصرار وجهًا لوجه...

وأخيرًا، انتصر الحب؛ فقد توقفت البلدوزرات، وهرب الزوجان ماركوس وانتصرت الثورة: بدون أن تسيل قطرة دم واحدة!

كم من الإنجازات البارزة قد حققتها تلك الراهبات؟ فهنا 9 آلاف مزارع قد أصبحوا على دراية بأحدث الأساليب في الزراعة، وقد أهّلُوا بدورهم خمسمائة ألف آخرين. وهناك خمسمائة ولد وبنت قد تلقوا تعليمًا على أكمل وجه، واستطاعوا أن يحددوا مستقبلهم، ففي مدرسة "سانتو نينو" في وسط العشوائيات مئات التلاميذ بزي مدرسي لا يضاهي، ينشدون بالإنجليزية وبامتنان مؤثر لانتشالهم من حياتهم السابقة غير الآدمية.

تأهبت كذلك لزيارة أخواتي راهبات "دي-سيون" الأستراليات اللائي كنّ في مهمة للفلبين. وقد أطلعت الأخت لوتس على عنوانهن،

فانفجرت ضاحكة: "إنهن في قرية تقع على جزيرة نائية بعيدة كل البعد عن أية حضارة بدون بريد يصلها أو تليفون!" وبالصدفة عرفت أنهن أتوا في زيارة لمدة ثلاثة أيام، لدير في "مانيلا"... مزود بالتليفون. وسارعن لرؤيتي، لقد كن يعملن وسط بيئة كلها بؤس. فقد كن يساعدن النساء على النهوض بأسرهن شيئًا فشيئًا، وكان لديهن فيض من الحماس، بحيث أنهن لم يندمن على رفاهية ملبورن التي تركنها وراءهن!

في اليوم التالي، في بلدة نائية وسط حقل الأرز، كانت هناك مفاجأة تنتظرنا فقد تقابلنا بالصدفة مع فرنسية جميلة هي " ناتالي"، وقد وضحت لنا بابتسامة أنها جاءت إلى هنا استجابة إلى نداء. ولم تكن قد تعدت العشرين من عمرها! ثم حضر "أنطوان" في حوالي الخامسة والثلاثين جاء بدوره، وحكى لنا قصته: في أثناء قيامه بجولة حول العالم مر على هذا المكان للسياحة، ووجد نفسه فجأة وسط حوالي عشرين من الأولاد البؤساء يعيشون على التسول. "هل من الممكن مواصلة رحلتي البحرية بقلب مطمئن بعد ما رأيته؟ لقد تغيرت بعض الأمور ولم أستطع أن أبرح مكاني. وقد وجهت نداء في فرنسا لطلب المساعدة وهذه هي ناتالي التي وصلت." فقد زرنا الأكواخ المقامة على أعمدة وكان السلم يرفع ليلاً للاحتماء من الحيوانات التي تظهر أثناء الليل، وكان الكوخ الذي تتقاسمه ناتالي مع بعض الفتيات يعتبر "مركز استقبال". وكان الوقت ظهرًا، لذلك شاركنا الأولاد الطعام قبل ذهابهم إلى المدرسة.

هناك كارثة تفجرت العام الماضي، فقد وقع طفل صريع المرض، وأُهمل في علاجه في المستوصف القريب ومات بين أذرع "أنطوان" ولذا فكرنا في إنشاء مركز من المتطوعين لتجديد المستوصف لئلا يتسبب ذلك في تكرار ما حدث! وتكونت مجموعة من المتطوعين مع "ريمون موريلون" في حوالي السبعين من عمره، وهو أحد الفرنسيين المشاركين في العمل

المتعاونين معنا. حضر سريعًا لوضع الأمور في نصابها وزودنا بالأدوية الضرورية واللازمة للمستوصف.

في "مانيللا" كانت لدينا مقابلة أخرى مع شخصية أخرى بارزة "لوريتا كاسترو"، فقد كانت رئيسة لجامعتين: في الصباح كانت رئيسة لجامعة مفتوحة لشباب الصفوة وفي المساء كانت رئيسة لجامعة أنشأتها للذين لم تواتهم فرصة التعليم. ما أروع أن تقابل رجالاً ونساءً بعضهم قد خط الشيب رأسه يبحثون عن تأهيل غير متوقع! في البداية كانوا أُميين. وقد أمكن لبعضهم الحصول على درجة علمية من الجامعة. وقد اصطحبتنا "لوريتا" مباشرة إلى السجن، وهو عبارة عن ممر ضيق يفصل ما بين صفوف من الأقفاص الحديدية المتراصة وكأنها للحيوانات! هذا بشع! لقد صرحت لنا مرشدتنا أنها نفسها كانت قد ترددت طويلاً قبل دخولها هذا المكان. وقد ذُعِرتُ من مجرد التفكير في الدخول لكهف مثل هذا. "ولكنني في النهاية، حسمت أمري وقد تسببت موافقتي في انفجار موجة من الفرحة العارمة!" وكانت هذه الفرحة ظاهرة على تلك الوجوه البائسة. وامتدت الأيدي من وراء القضبان تضغط على يدي في تعلق أثناء المصافحة وتود لو وثبت إلينا. وكانت تلك الحركات بمثابة تعبير عن الفخر الذي فجرته زيارتنا لهؤلاء التعساء! وفي لحظة رحيلنا رنّمَت الأصوات أغنية وداع عفوية رددها الرجال وكذلك النساء اللائي لم يكن أحد يتجرأ على الاقتراب من زنازينهن، رددوا على حد سواء وكانت أكثر تأثيرًا في قلبي من أية ترتيلة سبق لي سماعها. وعند خروجنا قلت لـ"لوريتا": "هل عندك الشجاعة للحضور هنا بمفردك!" ردت عليّ بكل بساطة: "لا، فلست في حاجة إلى الشجاعة لأني أحبهم."

على سفح بركان "بيناتوبوه"، كان هناك نوع آخر من المناظر غير العادية التي تنتظرنا، فقد اجتاحت ثورة البركان كل شيء أمامها وبما

أنها نادرة الحدوث فقد رجع السكان البؤساء إلى أماكنهم، فالبعض كان يحاول تسوية الأرض برماد "اللافا" (الحمم البركانية) التي تحجرت وأصبحت تخصب الأرض. البعض منهم يغنون، وكانوا يعدون تماثيل غريبة وأدوات صغيرة بلون الرماد صالحة للاستعمال، والبعض الآخر كانوا منصرفين لبناء أربعة حوائط، ولكن لنقص المال كان البناء يتوقف عند هذا الحد، فكان علينا إحصاء المبلغ الذي يحتاجونه. وعند رجوعي إلى فرنسا، سأطلب الأموال التي تمكنهم من إتمام السقف الذي سيقيهم حرارة الشمس ونزول الأمطار! بعض الأولاد في أسمالهم البالية كانوا ينظرون، ثم يهرعون إلينا لالتهام المواد التموينية التي كنا نحضرها لهم. كنت أجد غضاضة في قلبي لرؤية هؤلاء الناس الذين يكافحون للوقوف على أرجلهم أمام فوهة البركان التي مازال الدخان يتصاعد منها في وسط صحراء كلها رماد!

الآن وصلت إلى وصف مشهد قد يأخذ العقل لم يسبق أن شاهدته في حياتي: فالرائحة المتزايدة باستمرار والمنبعثة من الجبل الذي تحوطه الأدخنة وقد اختلطت بالتكدس اليومي لقاذورات البلدة. وعلى تلك الجوانب كان الرجال والأطفال بأرجلهم التي تغوص في أقذار الشوارع ينقبون بعناء شديد عن شيء يؤكل أو يمكن الاستفادة منه، ولكن النيران مازالت تحتضن أحشاء هذا الوحش البركاني الذي يمكن أن ينفتح مرة أخرى ويبتلع من لا يأخذ حذره وغالبًا ما يكون طفلاً يبتلعه حيًا! وتحت أعيني المرتاعة رأيت طفلاً يجري بأرجله الصغيرة بجانب عربة نقل ضخمة كانت تتسلق بصعوبة أحد المنحدرات. توقفت العربة وألقت بأطنان الزبالة التي تحملها، معرضة حياة الطفل المعلق بها للخطر، والممسك بسيخ من حديد وعليه بعض الزبالة، وكان من الصعب حمايته من الدفن حيًا!

كان يجب الذهاب بسرعة إلى الموعد مع رئيسة الفلبين. كانت رائحة نفاذة تفوح من حذائي المغطى بالطين الأسود، وقد وجدت الحل الوحيد في بعض الجرائد المغموسة في جردل قديم، سأستطيع إثارة موضوع الجبل الذي يتصاعد منه الدخان مع شرح تفصيلي للمشكلة. وقبل دخولي إلى مكتبها جعلونا نزور القصر الملكي لأسرة ماركوس، وكذلك البهو الرائع الذي يعرض فيه حوالي ألفين وأربعمائة زوجٍ من الأحذية تركتها إيميلدا ماركوس مضطرة أثناء هروبها... ثم ألقيت نظرة مشفقة على قدمي!

استقبلتنا "كورى أكينو"، بود، في مكان متواضع. تحمست للتحدث معها عن المشهد الذي رأيته، إنها لا تتهرب من المسألة التي - على حد قولها - تشغل الحكومة بسبب صعوبتها. في الحقيقة، ليس الأمر فقط التخلص من الجبل الذي يغلي بالغضب، ولكن أيضًا خلق نظام جديد وتوفير العمل لكل البؤساء الذين يكدون ويكدحون، ليجدوا ما يعينهم على البقاء! كيف يمكن الوصول إلى مستثمرين لمشروع بهذا الحجم مع تغيير مفهوم الفائدة؟ لحسن الحظ، سوف ألتقي قريبًا بجاك ديلور، رئيس اللجنة الأوروبية، لقد عرفته في لوڤان، حيث أسعدني كثيرًا ترشيحي معه للدكتوراه الفخرية من هذه الجامعة العريقة. إن هذا الرجل الذي يتسم بالقلب الكبير، أكثر منه بالذكاء، سيهتم حتمًا بهذه المشكلة.

إن "كوري أكينو"، ذات الحياة الشخصية البسيطة، على النقيض من إيميلدا ماركوس، لم تستطع للأسف إنجاح محاولات الإصلاح. إن تلازم الثراء الفاحش لبعض العائلات المميزة، وبؤس الملايين الآخرين لا ينجم عنه سوى كارثة: ڤيلات فاخرة تصطف على بعد ممرات مترفة تقوم الشرطة على حراستها والتي بالكاد سمحت لي بدخولها!

لابد من تفجير ثورة جديدة. أرى أنني لو كنت أعيش في الفلبين، فسوف أتحول إلى نوع من بركان بيناتيبو، ولا أتوقف عن قذف النيران! هؤلاء الناس الطيبون يحتاجون إلى أن يتحولوا إلى براكين!

انتابني دوار في طريق العودة. هذا النوع من الطائرات يتيح رحلات خاصة لأشخاص جاءوا لاستغلال بؤس الفلبينيين البسطاء. تسمى هذه "السياحة الجنسية"... وهي ضرب من السخف! ألقي نظرة خاطفة على السادة المتميزين المحيطين بي هل بعضهم من إياهم...؟ هذه المرة تنفجر فوهة البركان لتصب نيرانها، أشعر برغبة في أن تسقط الطائرة ليبتلعها المحيط مع هؤلاء المتوحشين، لأغرق معهم، ليس لديّ أية مشكلة! لا بأس إيمانويل، فلتتركي جانبًا هذه الخيالات المجنونة، لقد وصلنا إلى باريس، فلتهرعي إلى بروكسل لمقابلة چاك ديلور.

كما هو متوقع، لقد استحوذت على اهتمامه؛ فقد طلب ملفًا لدراسته واستدعى على الفور أحد معاونيه يأمره بالاهتمام بالموضوع. في باريس، خلال مقابلة في البنك الدولي، تعجلت في إثارة الموضوع. اندهشت بالفعل أنه معروف في واشنطن! هل سيستطيع تعاوننا المتواضع أن يحقق أي شيء في سبيل إنجاح الأمور... أو حتى تراجع هذا الجبل؟ لقد علمت، في الحقيقة، ، أن القمامة اختفت ولكن مشروع التدوير لم يبدأ بعد.

أنهي هذا الفصل بحلم غريب: بركان يقذف حممًا على قصور مهيبة ثم يهدأ. عند فوهة البركان الخامد، تمتد حقول قصب السكر على امتداد البصر حيث ينتشر على البعد رجال منهمكين في قطع الأعواد العالية بفرحة، يخرج أطفال ضاحكين من بيوت مضيئة يركضون بين حقول الأرز نحو مدارسهم، بينما فتيان وفتيات يبتلعهم مبنى هائل يبدو كأنه جامعة. والكل يغني جياشًا بالحياة.



استيقظت، ولم يكن سوى حلم ولكن غدًا سيصبح حقيقة. إن نشاط مؤسستنا محدود ولكننا نعمل بمشاركة الدولة المضيفة التي تضاعف جهودها. منذ عام 1997م، ضُربت السياحة الجنسية في مقتل، فقد أصبحت الزراعة والتجارة على طريق التنمية. وقد رأيت ذلك وهو في حيز التنفيذ، الفلبين: قادرة على تحويل حمم الموت إلى زراعة الحياة.

المرأة: والتحرير

"فك عقد النير، وإطلاق المسحوقين أحرارًا (...) وأن لا تتغاضى عن لحمك (...) حينئذ ينفجر مثل الصبح نورك (...)[32]."

شاركت نيللي روبن في القاهرة، في عامها العشرين، في ورشة عمل "ألف مسكن" للزبالين، ومنذ ذلك الوقت وهي تحلم بأن تضع نفسها في خدمة بلد على طريق التنمية. على أثر خطاب تلقيته، أشرت إليها بأن في السنغال أطفالاً قد سلموا إلى مستغلين. وفي عام 1989م توجهت إلى هناك مع بعض الأصدقاء، وقد تلقت صدمة حياتها. بمساعدة أحد رجال الدين، مارك ڤاليت، أسست بعد بضعة أشهر مؤسسة "من أجل بسمة طفل"، وهي مؤسسة سوف تكرس جهودها لتحطيم أغلال الظلم وسوف تدعمها مؤسستنا. توجه نشاطها للأطفال خاصة، تسعى لإخراج الأطفال من السجون، هؤلاء الذين ألقي القبض عليهم بتهمة السرقة، لتأخذ على عاتقها تأمين مناخ عائلي سعيد لهم. وهي تناضل أيضًا من أجل الحصول على ظروف عمل مقبولة للصبية والفتيان والشباب المستغلين استغلالاً ظالمًا.

في نهاية عام 1992م، توجهت مع بنوا لامبيرت، بدعوة منه، إلى ثييه المدينة الثانية في السنغال، لمد يد العون له. وقد اصطحبنا أولاً

---

32 -إش 58: 6-8.

إلى السجن، وكان يحتوي على مجموعة مختلطة مرعبة من قطاع الطرق الكبار وصغار اللصوص. وليس نادرًا أن هؤلاء، وهم منسيون من الجميع، يظلون سجناء حتى ينهاروا جسديًا ونفسيًا.

دخلنا في مبنى هزيل متهالك حيث دخلت نيللي مباشرة في مفاوضات مع المدير. ولرقتها الواضحة لم يرفض لها طلبًا، واستطاعت بذلك أن تخرج صبية من سجنهم، وألحقتهم بالمأوى المخصص لهم.

ثم أسرعنا إلى الأدغال على نحو واحة مخضرة بمساحة متدرجة من أشجار البرتقال والنخيل والخس والطماطم. وتغلغلنا في الألواح المخروطية المتراصة في نصف دائرة حيث كل شيء رائع. الأرضية معبدة والأسرّة مرتبة بعناية. كل بدوره مسئول عن نظافة المكان. الكل يذهب إلى المدرسة، على بعد مسافة من هنا. في المساء يتعلمون في نفس المكان حرفة في الورش القروية مثل تجهيز الملابس، والنجارة والميكانيكا. وقد استقبلنا في مناخ أعياد: الرقص والضحكات، مسلمين ومسيحيين معًا. وقد ألمحت لنا نيللي: "انظروا إلى أعينهم التي كانت مليئة بالخوف عند وصولهم كيف أصبحت لامعة اليوم". يشع وجهها بالفخر كأم تتأمل أولادًا قد أعادت إليهم الحياة!

في اليوم التالي، ذهبنا للقاء الحمالين الصغار في السوق. يتضور أهلهم جوعًا وقد ائتمنوا كفيلاً عليهم يتحمل تربيتهم وإعاشتهم. وهم في الحقيقة يتحولون دائمًا إلى عبيد، بالكاد يأكلون، يحكم عليهم بحمل أثقال رهيبة على أكتافهم الصغيرة، وليس لهم الحق في الإبقاء على مليم واحد مما يكسبون. وقد كان لنيللي الشجاعة في خوض صراع ضد هذا الظلم الوحشي! لقد خاضت نقاشًا مع كل كفيل. ماذا كانت حجتها؟ أعتقد أنها جعلتهم يفهمون أن أهل هؤلاء الصغار من حقهم تقديم شكوى

للشرطة. ولطالما كانت تفوز. وأصبح الأطفال المحررين لا يسلمون الكفيل سوى مبلغ معقول. لقد أرونا بفرح العربات الصغيرة التي جلبتها لهم والتي تحولت إلى لعبة يدفعونها مهما كانت الحمولة. في هذا المساء يصل المربي السنغالي، مُحضرًا معه بعض الشطائر التي يلتهمونها بينهم، بينما يقوم في المساء تحت نخلة بمحو أميتهم. وقالت لنا نيللي: "لا يجب إغفال لا العقل ولا الجسم".

يأتي الحرفيون الصغار بعد الأطفال ، هم أيضًا يلقون معاملة سيئة ويرزحون تحت وطأة السُخرة. يوافق صاحب العمل بعد بعض الابتسامات والحوارات على تدريبهم. وقد وصلنا عندما كان جميل، محاطًا بثلاثة من المراهقين، يشرح لهم كيف يصنعون قطعة ما. وكان فخورًا بتقدم تلاميذه، يجعلهم يقومون بعملهم وحدهم أمامنا متباهيا: "أترون أي عمال مهرة سيكونون، سيكسبون غدًا من كدهم!" متباهيًا وسعيدًا بتهنئتنا والغبطة التي تشمل الجميع، ثم قدم العصير لنا جميعًا حتى الصغار. قالت لنا نيللي عند مغادرة المكان بفرحة: "كم أصبح إنسانًا!" إنها تعلم المصاعب التي كان عليها تخطيها لتمنح هؤلاء الشباب فرصة الحياة!

أصبحتُ مؤمنة أكثر فأكثر، أنا وبينوه، بالأساس الجيد للدعم الذي تؤمنه له مؤسستنا، ولإعادة دمج الأطفال تمامًا في المجتمع، تعمل نيللي على توطيد الروابط العائلية بين هؤلاء الأطفال وعائلاتهم تلك الروابط التي قد فصمت عراها من قبل. ونرافقها تطوعًا في إحدى زياراتها. لقد كانت الأكواخ في فقر مدقع، فهي لا تحوي شيئًا: لا شيء! وتشرح لنا أم أحد الحمالين أن زوجها لا يجد عملاً، كيف ستعيش؟ إنها تتردد يوميًا على السوق وقت الإقفال وتقوم بجمع الخضروات والفاكهة التي لا يرغب فيها أحد ولكنها تُطْعِم بها عائلتها. تبدو وكأنها تستمتع كثيرًا بهذا، إنها تسعد مع رفيقاتها وتتحدث معهم ضاحكة! إن هذه السعادة وسط هذا

الفقر والعوز إنما هي أمر مذهل! كيف يجد الإنسان سعادته؟

لقد تساءلت بعد ذلك نفس السؤال في أوروبا، حيث يسود دائمًا جو من الكآبة وعدم الرضا العميق. ينتابني إحساس بأن الأفراد يخضعون لنوع آخر من العبودية: رغبات متزايدة من المستحيل السيطرة عليها، سباق محموم بدون توقف يخنق كل متعة في الحياة من منبتها، أن تحيا اللحظة: متعة البقاء، التنفس، المشي، التفكير، التحاور، القراءة، تذوق الطعام، النظر إلى السماء، إلى الأرض إلى النبات، الطيور، الأطفال، وبخاصة متعة تبادل الابتسام منح السعادة وتلقيها! نحن ربما نضع يدنا على الاختلافات الأساسية: الأفريقي أكثر قربًا من طفولته، يظل منغمسًا في الحاضر الذي يستمتع به ببساطة، لا يهتم بالغد. أما الأوروبي فيسعى وراء التطور، ملتفتًا إلى المستقبل الذي يريده أفضل بشكل لا نهائي. من ناحية أخرى، عند أفقر الناس، فإن العلاقات الإنسانية تكون في إطار مختلف، كما تحدثت عنها من قبل. في البداية، ملاحظة قد تبدو بسيطة: المقعد، كرسي أو متكأ، يخلق نوعًا من الانفصال المكاني. في الكوخ السنغالي أو عند جامعي القمامة، لا نهتم بمثل هذه الأشياء لأنها مكلفة. إن فكرة الجلوس أرضًا جنبًا إلى جنب، توجد نوعًا من التآخي أكثر مباشرة. لا أثاث، لا تحف، لا شيء يشتت، لا يقع النظر إلا على الآخر، الصديق. كذلك اللغة منقاة من كل ما هو غريب، من كل دعابة مصطنعة. ماذا يستطيع الرجل البسيط أن يقدم سوى استقباله الحار، جسدًا وروحًا؟ جميل أن نكون سويًا في تواؤمٍ وانسجام. إن العلاقة المتحررة من الهراء تنمو بالأساس.

يذكرني هذا بحدث خاص قد يبدو استطرادًا ولكنه يوضح هذا التحليل. كانت عندى فرصة التعرف على چان لو دارس، عندما كان مديرًا للبنك الدولي في واشنطن. كان يأتي كل يوم ليصطحبني إلى القداس الصباحي،





ثم يصحبني لتناول الطعام في شقته المترفة. كما نذهب بعد ذلك إلى البنك لنبحث عن وسائل جذب اهتمام المسئولين عن الخدمات المختلفة، القادرين على إدخال المياه والكهرباء عند الزبالين في القاهرة (لقد تحقق فيما بعد هذا المشروع). في وقت لاحق، أثناء مروري بباريس، كنت مدعوة لديه، يا للدهشة! أدخلني في واحدة من المباني البسيطة! ضحكت زوجته قائلة: "لقد وجدنا السعادة، جان لو وأنا. إنه الآن بالمعاش، لم نعد نقيم الاستقبالات الكبيرة. لكل واحد من أولادنا شأن كبير. لذلك قررنا توزيع كل الكماليات والإبقاء فقط على الضروريات. لو تعلمي كم نحن سعداء في إطار هذا التقشف! نعيش متحررين، أكثر التفاتا نحو الآخرين، نحو العالم الثالث الذي يعاني الصعاب." يدوي صوتها المبتهج مماثلاً لتلك الأصداء التي تدوي في الأكواخ العارية. وأخيرًا، تبدو السعادة وكأنها تحوي لمحة من القسوة: هل تستطيع الشفاه المشبعة بالمشروبات الصناعية أن تستمتع بمياه الينابيع الصافية؟

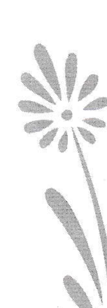
وقد عدنا إلى ثييه. الأكثر غرابة بين كل هذا كانت نيللي. كتلك الفتيات في مثل عمرها، الخامسة والعشرين كانت تعمل لتكسب عيشها. لقد حصلت على عقد مع مركز الأبحاث العلمية في السنغال. لقد استقرت مع زوجها كموظف. كانت ترتدي أحيانًا ثوبًا غاية في البساطة مما يظهرها رقيقة ونحيلة. كيف لهذه المرأة الصغيرة أن تخضع كبار السنغاليين، الكفلاء وأصحاب الأعمال؟ كيف لها أن تخرج مرتكبي الجنح ذوي النظرات المضطربة لتحولهم إلى مراهقين ذوي نظرات لامعة ومبتهجة؟ لقد بحثت عن سرها. إن طيات نفسها تحمل شيئًا نقيًا ومطمئنًا، إنها تبحث عن الخير، لا تريد سوى تحطيم الأغلال التي تكبل قلوب البعض لتمنعهم من أن يحبوا الآخرين، فتقودهم إلى تحرير هؤلاء الذين يستعبدونهم. إنها تعرض أمانيها ببساطة، ولكن بحرارة عميقة ورقة تجعلك لا تشعر

أنك في حالة دفاع ولكن في حالة مشاركة. كم هو مدهش أن تكون وسيلة للحياة، عندما تستعمل المرأة قدرتها في الاستمالة للحصول على الحقوق، فإنها تحقق نبوءات إشعياء: "يتفجر نورها كالفجر."

عند مغادرة السنغال، وفي الطائرة التي تقلنا إلى فرنسا، تراءى لي حلم آخر كما في دعوتي للفلبين. لكن هذه المرة، يشمل رؤية كل الماضي الكامن في اللاوعي. المقاطع المختلفة كفيلم تمر أمام عيني واحد تلو الآخر. الجزء الأول يدور حول صراع حب متفرد طويل في إحدى العشوائيات حيث أطفال مطحونين ملفوفين في أكفان من القذارة. سوف تظهر قريبًا الأخت سارة وفريقها ينحنون نحو مئات التلاميذ الضاحكين والبنات اللائي تحررن. في ضوء القاهرة، سوف تتحول العشش القديمة إلى بيوت تضج بالحياة.

الجزء الثاني يمتد بحجم غير محدود؛ يظهر جميل ومعاونيه في راكوبات الخرطوم، يبتسمون لمئات السود الذين يتواثبون من حولهم فرحين في القرى السودانية، المراهقون الناجون من المخدرات والدعارة. قريبا يصل 600 لبناني، يستقبلهم مدرسوهم بحفاوة، مستعدين لإنعاش وطنهم. ويظهر تلاميذ صغار في الفلبين بدورهم، يغنون بحماسة تحت قيادة مُدرسة بشوشة، بينما يشع ضوء من لوريتا ليضيء وجوها معتمة. وتظهر نيللي أخيرًا، مداعبة وجنات الأطفال السنغاليين بنظرة صافية، زائرة الحرفيين، فتيان الغد الواعدين.

مقطع آخر يظهر فجأة: رجال ونساء ذوي قلوب كبيرة في صراع ليجعلوا الحياة تنتصر، تغمرهم فجأة شمس الحب. يلوح عالم من الأطفال في عاصفة من البهجة. وفي اللحظة التي تتلاشى فيها الرؤية، أتخيل نفسي أسمع صوتًا ينادي: "عندما يشتعل الحب، تتفجر الحياة!"





بدأنا إذن الهبوط نحو باريس وباريس بلد النور، المليئة بالمتع والرفاهية، ولكن أيضًا مثل كل المدن الكبيرة مكتظة بالبؤساء، منبوذين، يقضون الليل أسفل الكباري! بينما نسمع أزيز الطائرة في الهبوط، أشعر بالتمرد يستبد بمشاعري. "لماذا تهبط هكذا؟" نعم، لنترك الكلمة، حتى لو أوشكت على التعثر، فإنه التمرد، هذه النسمة التي تهب وتحملني.

تمرد على نشأتي: "هذا لن يحدث.

ـ حسنًا هذا ما سأفعله!"

تمرد ضد القواعد في الدير وأنا راهبة مستجدة، ضد منع قراءة بعض فصول الكتاب المقدس: "أنا سأقرؤها!"

تمرد في إسطنبول ضد الانضباط الصادم الذي يجثم على صدور الطلبة، وكفاح من أجل الالتفات إلى الفقراء في مدينة تنكي ماهاليزي.

تمرد في تونس ضد عربات المستعمرين السريعة التي تسير معرضة حمير الفلاحين للخطر، وكفاح من أجل أن أصل إلى الراهبة مادلين يسوع في عربتها المقطورة.

تمرد في الإسكندرية ضد ازدراء تلاميذي الأغنياء للأطفال البؤساء. تمرد على حياتي السلسة وسط هذا الكم من البؤس. وكانت هذه أولى خطواتي نحو "سيدة الفقر" التي أشار إليها القديس فرانسيس الأسيزي.

هذه التمردات، التي جعلتني أستشيط أمام هذا الظلم المتواصل، خلقت بداخلي فورانًا قابلاً للانفجار في أية لحظة. وها هو المد العالي، ذروة ظلم الطغيان، القمامة التي يلقيها البعض تصبح غذاءً للبعض الآخر الطماطم الفاسدة التي يبتلعها طفل، وهو أمر غير محتمل والماء غير القابل للشرب! يجب أن أهوى، أن أغوص مع الطفل في مدينة العشش حتى أستطيع انتشاله منها!

يومًا ما، يجب أن أصرخ في وجه المتنعمين بالطعام ضد الذين يفسد طعامهم في المخزون الأوروبي الغذائي يجب الحصول عليه من چاك ديلور. يجب أن أصرخ لأجمع الأموال لتظهر المدارس، والمستوصفات، والبيوت. يجب أن أصرخ لأن أغنياء أوروبا ليس لهم الحق في ترك آلاف الأطفال السودانيين يموتون جوعًا، و هو ما يفسد أطفال الأوربيين من الأغنياء.

تحدث اليوم على الأرض تغيرات هائلة؛ إن سكان الأرض يزورون كواكب أخرى، ونفس التمرد على الظلم، يجب أن تهز كوكبنا حيث عدم المساواة بين الناس تأخذ أبعادًا همجية أكثر فأكثر، حيث قلة من الأشخاص المنعمين يستمتعون من عشرة إلى مائة مرة أكثر من الغالبية البائسة التي تتضور جوعًا.

هذا العنف الذي يتجاوز الحدود، يبدو لي وكأنه صدى لأصوات أخرى، أصوات أنبياء الكتاب المقدس الذين كانوا يصرخون ضد أولئك الذين يسحقون الأرملة واليتيم ويبيعون الحق ويشترون الضعفاء بفضة، والبائس بنعلين، "ويبيعون نفاية القمح"[33] الشعب الذي يضطهد المسكين والفقير ويروع الغريب. "فهأنذا أيضًا أجلب طريقك على رأسك، يقول السيد الرب، فلا تفعلين هذه الرذيلة فوق رجاساتك كلها [34]". ألم يقل المسيح نفسه هذه الكلمات الرهيبة لأولئك الذين لا يطعمون الجائع ولا يسقون الظمآن: "اذهبوا عني يا ملاعين!" في القرن الرابع، ألم يقل القديس باسيليوس هذه الكلمات القاسية:

للجياع اعط خبزك الذي تختزنه،

وللعراة رداءك الذي في خزائنك،

33- عا 6:8.

34- حز 43:16.



وللحفاة نعالك التي تتعفن عندك،

وللبؤساء فضتك التي تطمرها...

وهكذا لمن ظلمت قدم يد المعونة [35] .

إذا دفعنا التحليل أبعد قليلاً، فإننا نستطيع أن ندرك أساس الصيحات، صيحات التمرد: إنها سيل من الينابيع الإلهية التي تهبط من الجبال الخالدة، ليس بها ولو مقدار بسيط من الكراهية للثراء ولكن أطنانا من الرحمة للفقراء والمساكين. ليس من السهل أن تكون إنسانًا أو أخًا لإنسان آخر. إن شدة توبيخ الأنبياء، وكذلك المسيح، ليس له غاية سوى إخراجنا من لا مبالاتنا ودفعنا نحو طريق الأبدية والذي ليس سوى طريق للعدالة.

لازلت فخورة لتعاوني مع المتمردين، الذين عرفوا، في قرننا هذا، كيف يكون "صوت البشر الذين لا صوت لهم" أولئك الذين حاربوا بدون توقف، أيديهم ممدودة لأولئك المطروحين أرضًا لينهضوا ويمضوا كرجال أحرار في عالم - أخيرًا - حيث أن الفخر الأكبر للثورة هو في كونها لا تسجل فقط على أحجار آثارنا ولكن على أجساد مواطنينا:

حرية، مساواة، إخاء!

يالـلا، هيا إلى الأمام، لنناضل ضد أنانياتنا المخيفة:

إنها هي التي تبذر الموت.

لنتشارك، فالمشاركة هي التي تبذر طريق الحياة،

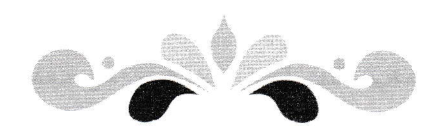
لأن بها يتفتح الإخاء الحقيقي.

علينا أن نحب، يا إخوتي،

يجب أن نتحاب ونحب الحياة والأحياء!

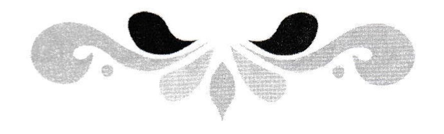
35- Migne, Patrologie grecque,XXXI,homélie.





الكتاب الثالث

الاعـــــترافات

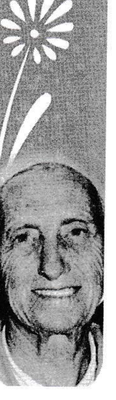






في هذا الكتاب، كنت أسعى للتعبير عن دعوة غامضة نحو حب أكبر، حيث لا خوف ولا صراعات استطاعت أن تهزمه. من مهمة إلى أخرى، من اسطنبول إلى تونس إلى الإسكندرية، ظل هذا الحب باسطًا يده نحو هبة أكبر، لا يرتوي أبدًا. ثم رويت متى كان زمان هذا الحب الأعظم: الولع بالأعراس الجديدة مع الزبالين، المهمشين خارج القاهرة، والصراع المحموم لتحريرهم. ذلك الوقت الذي تكثر فيه صرخات أخرى يطلقها أطفال يستغيثون من العوز.

أتمنى فيما يلي أن أتغلغل داخل النفس الإنسانية، حيث يتولد الإدراك والحكم والبصيرة. دناءة مخيفة، عدم فهم الآخر، وهي أمور عاشت معي طويلاً بسبب ضيق ومحدودية البيئة، ولكنها قد ترجع أيضًا إلى مزاجي المتعاظم المنغلق على ذاته. لكن جماعة من الأشخاص التقيت بهم، أحداث قابلتها، وتواتر الحياة، قادتني ـ لحسن الحظ ـ إلى هداية بصيرتي ومنحتني القوة في معتقدات جديدة والتي أرغب في مشاركتكم إياها. سيكون إذن لديّ الأمل في كوني قد أنهيت اعترافي بنزاهة: اعتراف حياتي، اعتراف بإيماني.





الجزء الأول

طريق التحول







لقاءات

إننا نغتني بلقاء الآخر. وهكذا نستطيع في العمق أن نرى تحول قلبنا، أن نتحول بأحكامنا ونخلق لنا فنًا جديدًا للحياة وللتفكير.

الموجود الأكثر غرابة بالنسبة لي، أكثر هذه اللقاءت مغزى كان في مستشفى للمعاقين ذهنيًا، حيث التقيت بامرأة. و قد جعلتني أزور الملجأ الذي كانت مسئولة عنه. لقد وجدت نفسي أمام أكثر أوجه البشرية إثارة للنفور، مشهد طالما كان مخيفًا حتى أنني - ويجب أن أعترف - ارتعبت، كنت على وشك الفرار. في هذه اللحظة اقتربت هي من فراش، حيث يسيل لعاب وجه، لم يكن به أي شيء إنساني، لقد ضمت بين ذراعيها الجسد الطويل ذا الذراعين المتأرجحين ضمته إلى قلبها. ثم مالت بوجهها نحو الوجه الذي هوى على كتفها وابتسم لها ابتسامة مشرقة. لقد تركزت فجأة نظرة العينين اللتين كانتا تدوران في محجريهما. لقد أصدر الرجل زمجرة علامة على شيء يشبه وميض حياة عبر ملامحه المنفرجة، وقد هللت هي: "لقد شعر أنه محبوب!" وقد أبقته كذلك لفترة طويلة، تدفئة بتقريبه لجسدها، لقد هدأ، وبدا مبتهجًا. فقالت: "انظري كيف أصبح جميلاً!" في جملة شرحت لي كيف إنها مرت بعذابات كبيرة، ولكنها أضافت بنوع من الغبطة "لم يعد لديَّ وقت للتفكير في نفسي، كل من

هنا، يحتاج إلى كل حبي." لقد كانت مُضيئة، وقد كان هو فاغرًا فمه ينهل من ضيائها.

لقد كانت رؤية خارقة، للوصول إلى الإتقان، وكما قال القديس توما الإكويني الفيلسوف اللاهوتي، يجب أن نتأمل الجمال. تراودني ذكرى هذه المرأة كل يوم تقريبًا. لقد غيرت شيئًا بداخلي. في البداية، عرفت قدراتي، إذ كان لديّ ثقة كبيرة في قلبي، كنت أعتقد أنه سيعانق كل البؤس الإنساني. لكن، للأسف،هذه المرأة كانت تعرف كيف تحب أبعد من ذلك، أبعد من النفور الذي يسببه من ليست له ملامح الإنسان. أكثر من ذلك، كان يبدو لي أن الحقارة كانت تخلق لديها رأفة حانية متزايدة. إن وجهها المشرق المائل نحو وجه هذا المخبول يمثل دائمًا في ذاكرتي ويسلمني إلى تفكير عميق، لو أن مخلوقة استطاعت الوصول إلى هذه الدرجة من الحب، فماذا عن خالق الحب، وعن العذراء التي تُسَمّى "أم الحب الجميل"؟

الأيام التي أكون فيها مترنحة الجسد والروح، أفكر في هذا البائس، أترك نفسي بين ذراعي مريم واستمد منها إشراقها. أطلب منها أيضًا الذهاب أبعد من هذه النظرة نحو الحقيقي، الجميل، الطيب، ليس من السهولة التعرف عليهم اليوم على الأرض. إن الإعلام يرهقنا بالأخبار عن عالم يبعث الكآبة بسبب الفساد، الدناءة، والعنف. بينما هناك - للأسف - رؤية أخرى متوارية. إن كوكبنا يسكنه رجال ونساء موهوبون بقدرة هائلة على الإيثار، يعرفون كيف يبذرون الخير في الحقول الأكثر بوارًا.

بدون صوت أمام الموت

ولكن هناك أيضًا ساعات في الحياة حيث على النقيض كل ما هو كبير يتبخر، حيث لا يظهر إلا البؤس مع رفيقه، العجز الكامل!



في نهاية أحد المؤتمرات تحدثت بإسهاب عن الصراع المنتصر ضد الجوع والموت، في السودان وغيره. في الوقت المخصص للأسئلة، استطاع مقدمي المحاضرة بصعوبة فك شفرات كلمات مشخبطة على قصاصة ورق: "لقد مات ابني للتو، ماذا يمكنك أن تقولي لي؟" ساد صمت ثقيل في القاعة، وشخصت الأبصار نحوي. وقد كانت الأم بينهم في مكان ما، تنتظر.

أمام هذا القلب الجريح حتى الموت، الكلمات لا معنى لها، تبدو حتى مهينة. من يستطيع أن يتحدث هو المسيح فقط وأمه العذراء، لمساعدة الروح الهائمة للوصول إلى الشاطئ حيث ينتظر المحبوب في نور الله. لكني أنا من يريد إعطاء معنى لكل شيء، لم أجد شيئًا لقوله. تنقضي الثواني كأنها قرون. وأخيرًا بصوت متحشرج، تحدثت قائلة: "لقد مات طفل أمه هنا، وتنتظر كلمة. لتغفر لي، لا أجد ما أقوله. فلنبق في سكون للحظات ليجعلنا الله نشعر بعذابها يتغلغل بداخلنا."

لم يطرح أي سؤال في هذه الليلة. أمام سر الموت يبقى كل شيء لغزًا.

المساجين، إخوتي

بين المخلوقات التي كانت موضع تساؤل، كان للمساجين مكان منفصل.

وسط السجون هو آخر الأماكن التي أفكر في اكتشاف بعض الثراء فيها، ومع ذلك...

دائمًا ما أثار السجناء تعاطفي. لقد زرت عددًا كبيرًا منهم. كان شقاؤهم يبدو لي أكثر ترويعًا، وكان ذلك - من وجهة نظري - من أسوأ

المواقف التي عرفتها. قادتهم ظروف حزينة إلى العنف، استبعدوا كما لو كانوا قد وضعوا في قفص من قبل مجتمع مرتاع في موقف دفاع.

أما عن نفسي، فإن ماضيهم لا يعنيني. فالمساجين مخلوقات بشرية، إخوة. في النهاية، من أين يأتي المصير؟ في جزء كبير من البيئة. وقد قادني هذا إلى أن أقول لهم ذلك: "كان من الممكن أن أكون مكانكم لو أنني واجهت ما تعرضتم له من إغراءات، وكان يمكنكم أن تكونوا في مكاني لو توفرت لكم نفس الحماية التي أتيحت لي."

أثناء زياراتي للسجن، كنت أتحدث إليهم عن الأيام الخوالي مع الزبالين الذين تدفعهم ظروفهم غالبًا للسرقة، للمخدرات، وللمشاجرات الدامية. لقد حدثتهم عن "...." المجرم. لم تكن هذه مشكلتي: كان "...." أخي، وانتهى الموضوع. كنت أحكي لهم أنني ذاهبة لتناول الشاي معه كنت مستعدة لمساعدته لينهض وأنه في أعماقه لم يكن يريد سوى ذلك! لقد توهجت شعلة في أعين هؤلاء الرجال. أي جرح تركه لهم الماضي، أي قلق يحمله لهم المستقبل! "أنا سوف أخرج خلال ثلاثة أشهر... أين أذهب؟ أين أجد عملاً؟ كيف أكسب قوت يومي؟ وإلا - وبصوت أجش - سوف أجد نفسي مرة ثانية هنا." وصمتوا، والمأساة أنني لم أكن أجد شيئًا لأجيبهم. كنت إذن أعانقهم وأنا مغادرة كأم عجوز. لم أكن الوحيدة التي تدمع عيناها! كنت أخرج من هناك كأنه سر القربان المقدس.

داومت على مراسلة بعض المساجين، وهذا هو الخطاب الرهيب الذي تلقيته في أحد الأيام:

"ستكون المحاكمة يوم الأربعاء... في التاسعة، في جلسة...، "تهمة القتل". سيكون هذا هو اليوم الأطول والأتعس في حياتي بأكملها. (وضع خطًا تحت الكلمات). أرتجف، ليس خوفًا بل تأثرًا، من أين أعيش ثانية،





أمام أناس شديدي الشره، كما لو أن هناك بهجة، متعة في ذلك. يراودني إحساس أن الإنسان في هذه الظروف لديه متعة خبيثة في رؤية الآخر يتعذب ويخوض هذا "العذاب"... يستمتع به. أُصبت أحيانًا بدوار. ماذا أقول لوالدة صديقي ب.، إن لم يكن ندمي العميق لكوني أطلقت النار بدون التفكير في القتل. أجد نفسي أحيانًا غير قادر على الكلام!... لتكن صلواتك مصاحبة لهذا اليوم. أتمنى أن تُشعلي شمعة لصديقي (ب)، ولي أيضًا، يهمني ذلك... أُعانقك كذلك كل جماعتك. صديقك دائمًا، (د.) إلى لقاء قريب..."

"الجمهور الشره"، "متعة التلذذ"، "المتعة في رؤية الغير يتعذب" هل هذا ممكن؟ عندما تكون صحيفة بين يدي، فإنني سرعان ما أتوقف أمام صفحات الحوادث. لماذا؟ أهو فضول غير سوي؟ هل هي رغبة في رؤية تطبيق العدالة؟ لا أعلم صديقي المسجون (د.) ، على كل حال، لقد أرسلت هذه البرقية: "إنني قريبة منك فكرًا وصلاة، تشجع، الأخت إيمانويل." يبدو لي أن كلّ واحد له دور: القاضي عليه أن يحكم وأنا أن أحب. إن(د.) قد حكم عليه حكمًا مغلظًا.

كتب إليّ مسجون آخر:

"مع بعض الإخوة السجناء، رسمنا وبعنا بطاقات خارج الأسوار. الأرباح تذهب مباشرة لصالح مؤسسة أسستها من "أجل أن يعيش الأطفال". قالت لنا چنيڤياڤ تم جمع مبلغ كبير يذهب للأطفال البؤساء في العالم. إن الله أوجدني هنا لأكون بصيصًا من النور لإخوتي المساجين. (...) عندي أخبار جيدة من ابني في المعمودية بالفلبين وأنتظر أخبارًا جيدة من آخر في لبنان. (...) إنني بحق ضعيف وصغير ولكن بداخلي هذه "القوة الكامنة" التي تسكن بداخلك، أيتها الأخت العزيزة الصغيرة. أُقبّلك

بحرارة. أخوك الصغير الذي يحبك في قلب يسوع."

وقد أضاف هذه الدعوات:

ربي اجعلني أتعذب مع من يتعذبون

أن أشعر بالبرد مع من يشعرون بالجوع،

حبيبي، اجعلني أنسى نفسي تمامًا

لكي أنسى نفسي تمامًا و أفكر في الآخرين.

لا جدوى من ذكر أنني لا أتلقى دائمًا هذا النوع من الخطابات!

لقد كشف لي السجناء مظهرًا واضحًا من غموض الإنسان. ففي الأصل، هناك بذرتان توأمان بداخله. الواحدة تحمل في طياتها المجرم، والأخرى قديسًا ذا قلب ممتلئ بمشاعر الإخاء. الله وحده يستطيع أن يحكم الجزء المتعلق بالإختيار الحر الذي يؤدي إلى ازدياد الواحدة أو الأخرى. أصبحت مقتنعة أكثر فأكثر باحتياجي إلى الله لوضع حد لعواطفي الجامحة. فكرت كثيرًا في هذه الجملة لتين **Taine** والتي تبدو مخيفة لحقيقتها: "اكشطوا القشرة الخارجية اللامعة من على الرجل المتحضر، ستجدون غيلان مفترسة وشهوانية". في نفسي فساد خفي كذلك عند إخوتي في البشرية البؤساء الذين انغمسوا في الشر. أستشعر أحيانًا في لحمي وفي دمي فورانًا غريبًا. أحيانًا، أكون ليلاً فريسة لأحلام مخيفة، أستيقظ منتفضة: أين أنا؟ من أكون؟ أيمكن أن أكون رئيسة عصابة حيث يرى فيّ أصدقائي المستهزئين نواة الشر؟



نظرة الأب بيير

بالنسبة للرجل الساقط على آخر درجة من السلم الاجتماعي، كان للأب بيير هذه الفكرة العبقرية: أن يكون هذا اليائس منقذًا ليائسين آخرين... قدرة مذهلة للارتقاء بالكائن البشري! إن رفقاء عمواس هم البرهان الحي على هذه القدرة على التحول. يعدون ضمن الأصدقاء الذين أكن لهم إعجابًا عميقًا. لقد استمعت لحكاياتهم التي تساعد هي الأخرى على فهم تقلبات القلب البشري.

"كنت سائقًا لسيارة نقل ثقيلة. أثناء عودتي من رحلة استمرت ثمانية أيام، وضعت المفتاح في الباب، إذ بشقتي خالية تمامًا من زوجتي وطفلي، لقد اختفوا! بدأت بالشرب، وكان هذا التدهور حتى هذا اليوم الذي قابلت فيه جماعة عمواس."

"لقد طردتني أمي في سن الخامسة عشر، أمي، نعم أمي الحقيقية... إذن سرقة، مخدرات... لقد قتلت يومًا. لحسن الحظ كان هناك الأب بيير!"

إن حب هذا الرجل أقامني من جديد. رأيتهم في العمل في المراكز الخمسين التي قمت بزيارتها الواحد تلو الآخر. عملهم شاق: إصلاح أو إعادة الأشياء التي تُلقى في القمامة كنفاية إلى حالتها. إنهم لا يحصلون على أي أجر، فقط ما يمكنهم من شراء السجائر، وذلك لمقاومة إغواء الكحول يشعرون بأنهم أفضل لأنهم يحررون المقهورين من البؤس، من أوروبا حتى أفريقيا مرورًا بأمريكا الجنوبية. كان لديّ الدليل الملموس من الشيكات الكبيرة التي سلموها لي: جزء من جامعي القمامة في القاهرة قد نهضوا بفضلهم.

في يوم أولاني الأب بيير ثقته التي قلبتني رأسًا على عقب. وجهًا لوجه معه، في مكتبه الصغير، في شارنتون، أخبرته بسعادتي الغامرة

بتخفيف الآلام. ظهرت فجأة نظرة قلق بين جفونه. صمت لحظة وهمهم كما لو كان يكلم نفسه "أي عذاب أن يحمل الإنسان في قلبه وجسده آلام الأرض." في هذه اللحظة، جعلني أفكر في وجه المسيح على كفن **Turin**: دائرة من الظل حول عيون نصف مغلقة، شفاه معذبة، وجه من العذاب... ثم وجه إليّ نظرة عليها مسحة من الحرارة ونوع من الهدوء المضيء: "نعم سعادة وعذاب، أيتها الأخت إيمانويل، أن نترك الإثنين يتغلغلان فينا، إن أردنا أن نساعد الآخر في الخروج من العذاب ليدخل في السعادة." هذه المواجهة جعلتني أُعيد النظر في الجانب البسيط والضاحك لطبيعتي.

في يوم آخر قال لي الأب بيير: "الحب هو: إن تألمت أنت، أتألم أنا أيضًا." كنت أفهم، أنني لا صبر لي على الانتقال إلى الفعل، لم أكن آخذ وقتي لأترك جرح الآخر ينفذ إلى داخلي، و عندما ، أصبحت أختًا له "حاملة بداخلي ألمه"، أستطيع حينئذ، يدي في يده، أن أبحث معه عن علاج "لألمنا".

لقد رأيت الأب بيير ثانيةً في عشوائيات القاهرة، يضم أيدي الزبالين القذرة بمودة حارة. لم يقل لهم شيئًا، لا يعرف العربية، ولكن كان ينظر إليهم بتركيز غير مألوف، كان يبدو وكأنه يتحدث مع الآخرين: "أنا لا أعرف لغتك ولكنك أخي وأنا أحبك." كنا نشعر أن اهتمامه الوحيد في هذه اللحظة هو لقاء هذا الرجل في هذا المكان. لقد تبدلنا جميعًا.

في فرنسا، لا نقلد أبدًا هذه النظرة، ليست عنصرية، ولكن لأننا نرتاب في الغريب، لقد مررت بهذا يومًا ما. كنت قد دخلت إلى فناء حيث كان يقف أفريقي، يستند إلى الحائط، يبدو عدوانيًا. كنت أريد أن أتحدث معه، ولكن لغتي العربية التي تعلمتها من الزبالين كانت مثيرة





للسخرية، إذ لم يستطع فهمها. وفي لمحة عادت لي ذكريات الأب بيير. لقد حاولت أن أضع قلبي في عيني وأنا ألتفت إليه. واندهش لأن فرنسية تُظهر له محبتها. بحث يمينًا ويسارًا مع من أتحدث، وقد آلمني هذا! كان يجب عليّ أن أدخل مسكني، كان ينتظرني عند خروجي، لقد خطا خطوة نحوي وأنا أيضًا. لقد بسط لي يده وأنا أيضًا بسطت له يدي. لم يتحدث... لم أقل له شيئًا، ولكن تشابكت يدانا بحرارة، تعانقت نظراتنا في دفء حتى أن كل منا سمع رسالة: "أنتِ أختي التي أحبها، أنت أخي الذي أحبه". لم ير أحدنا الآخر مرة أخرى أبدًا.

مصر: معنى الخلود

لو كان عمواس والأب بيير قد طبعا هذه الذكرى في نفسي، فما هو الذي أحدثه فيّ البلد المحبوب الذي أمضيت فيه "زمان الحب الكبير"؟

كان هيرودوت يقول: "مصر هبة النيل." وأجرؤ على إضافة: "أن معنى الخلود هو هبة مصر للبشرية"، الغموض أوحى إلى نفسي بُعدًا، فلنقل أهراميًا. لأشرح ذلك: ماذا بنى الفراعنة خوفو وخفرع ومنقرع؟ قصرًا فاخرًا؟ مثواهم في الأرض؟ لا ولكن هرمًا، فمثواهم الخلود، رمز للدرج الذي عليه يرتقى نحو رع إله الشمس. إيماني بالأهرامات يظل راسخًا على الأرض الدنيوية ولكن يصعد بسرعة نحو قمة الخلود، إلى الله.

عندما بدأت المشاركة في حياة عشش الزبالين، كانت النداءات كثيرة، فيما عدا الصلاة الصباحية، كان لديّ وقت كثير للتأمل. الزبالون أغلبهم أقباط، ينحدرون مباشرة من مصر الفرعونية وهم يتوجهون نحو الأبد، وقد سمعت هذا من والد سمير:

- "أنتِ راهبة، متى تصلين؟

- في الصباح أتناول وفي المساء أُصلي قبل النوم.

- هذا كل شيء؟"

كان يتوقع مني صلاة أطول. أي صدمة تلقاها، أنا الراهبة، هذا الدرس من زبال. لقد جعلني أُعيد النظر، وقد اتخذت ساعة من الصلاة الساكنة، حسب القناعة العامة، أصلي لهم وللعالم: "كويس! هذا جيد!" لقد اختبرت أن علاقتي بالله عمقت التضحية بنفسي.

ما هو أيضًا طموح صديقي الزبال اليوم؟ أن يشتري مقبرته "بيت الخلود". يدخر قرشًا على قرش ثم يأتي في النهاية إليّ برضا: "لقد انتهيت من قبري، أستطيع أن أعيش في سلام!" في أي مكان آخر في العالم سمعت هذه الكلمات؟

تظل هذه الحكمة، ترن في أذني أسمعها ألف مرة وهي ما نستخلص منها كل حدث سعيد أو غير سعيد: "ربنا كبير، ربنا موجود." هذه العبارة تسكن قلبي الآن.

تمامًا مثل هذه الإجابة الغريبة التي تتلقاها عندما تُسأل عن أخبار مريض: "تعيش أنت" التي تترجم "أنت، تعيش!" ما يعني: "أنه مات!" إشارة إلى أنه الحي لأنه مسئول عن تكريم الوفاة. بعلاقته الوطيدة بالرجل، فهو يجعل وجوده يمتد نوعًا ما ويصاحب روحه (قرينة، كما عند القدماء) في رحلته إلى الخلود. إن ذلك من موروث المعتقدات القديمة حيث كان الرجل يبحر إلى إلهه رع. كان بمعنى ما، محاطًا بالقرابين على هيئة تماثيل صغيرة. اليوم، كما بالأمس، لغز الموت يغرق في غموض الحياة!

بالنسبة لنا - نحن الغربيين - سباق المادة يفرض توترًا مستمرًا





بينما في مصر ينساب الزمن، ساكنًا مثل النيل الذي منذ قرون، ينساب بين شاطئيه. قبل مناقشة أي موضوع، نتذوق متعة شرب الشاي معًا، وبعدها فقط يأتي العمل. كم مرة كنت أغلى أمام هذا الإيقاع البطئ! بينما قد انتهيت بقبول درس الحكمة: الحياة في أخوة، ويتطلب الوقت أن ننظر بعضنا إلى بعض، أن نتشارك الأفراح الصغيرة ومخاوف الوجود... هذا لن يملأ كيس النقود ولكنه يوسع آفاق الروح. في مدينة الزبالين الكل يعرف الكل. القصص الجميلة تنتشر سريعًا، تنتشر الفرحة وتقفز من حارة إلى حارة، وتحلو الحياة. "الوقت هو المال" حل محلها "الوقت هو العلاقات" نحن لا نركض وراء عصفور السعادة لكن نفضل الجلوس وندعوه ليأتي إلينا ونحن ضاحكين: "ليس كوبي كبيرًا ولكن تعالى لنشرب منه!"

يعبر السلوك اليومي عن نوع خاص من الفلسفة، حيث أننا نتقدم ببطء نحو الخلود، لماذا نعطي أهمية كبيرة للأحداث؟ لهذا التفكير جانب من الصحة. مع إنني أختلف معه كثيرًا لأنه يشجع على الكسل ويؤخر التطور. أشياء وأناس انتهوا بالتحول وإعطاء أهمية أكبر للعمل، ولكن شيئًا تغير أيضًا في داخلي: نعم يجب أن أبذل كل طاقتي لإمداد العشش في أقرب وقت بالماء والكهرباء وبمدرسة ومستوصف، ولكن لماذا لا نعلن الحرب على بذور الحكمة الثلاثة: معلهش، مش مشكلة، بكرة (غدًا) ، إن شاء الله، بعون الله هيتعمل!"

هذه الحكمة، حاولت أن أطبقها في حياتي: لن أتعذب بهذه الحرارة اليوم؛ سيأتي الغد وسيكتمل العمل، بعون الله والناس، سينتهي كل شيء على خير! هذه البذور الثلاثة قد أعطت لشيخوختي ثمرة الهدوء والصفاء والقلب المتسع، أمشي ببطء، وفية لإخوتي الزبالين، نحو قمة الهرم، مكان خلودي، سماء الله، صديق الإنسان!





معتقدات أخرى، ثروات أخرى

إن اللقاءات التي قمت بها ورحلاتي المتعددة قد غيّرت حكمي وزودتني بمعتقدات أخرى، والآن أريد أن نتشارك فيها. لقد قلت من قبل، تحليلاً لنشأتي، لقد قلت مخاطرة أن أكون "روح طيبة" متركزة في عالمي الصغير، مؤمنة بأنها أسمى من باقي الكواكب. كنت سأحرم من التأثيرات المهمة التي يتلقاها من ينفتح على العالم.

ولكن ها هو حظي: أن ألتقي برئيس الخدمة الجديد، لم يكن هدفه الحضور، والصليب في يده لتعميد العامة غير المتحضرين - حلم طفولتي - ولكن تبنى مسعى للاحترام والتعاون. لقد تحدث الكاردينال "بيا" في كلمته إلى آباء مجلس الفاتيكان الثاني، مؤكدًا على ضرورة "معرفة القيم الروحية والمعنوية التي توجد في كل ديانة وعلى تقدير أتباعها بصدق"[36].

وهكذا فإنه، أثناء إقامتي في تركيا وتونس ومصر، كان لي الحظ أن أعرف الإسلام وثراءه الداخلي. في حوارتنا القلبية، تحدثت قليلاً جدًا عن ديانتي، مع الآلاف من أصدقائي، مفكرين أو زبالين، الذين يتشاركون

36- خطاب 18 نوفمبر 1964م، عن مسلك الكنيسة تجاه الديانات الأخرى غير المسيحية.

الاسلام. لقد كان احترام معتقداتنا المتبادلة كان هو دائمًا أساس علاقاتنا. إنها أولاً الصداقة التي تسقط الحواجز.

عندما يتدخل الدين مع تلك الرؤية، فهو يعطي نوعًا من اتساع الأفق المتبادل. لقد دعتني تلميذاتي من القدامى في اسطنبول إلى تركيا. واصطحبونا معًا للصلاة في محراب إفاز، صلاة في مذبح مريم آنا، مهداة لها وللعذراء مريم، لقد رنمنا معًا نفس التراتيل: "سلام، سلام لكِ يا مريم، يا قديسة، يا عذراء". أما بالنسبة لي، فأنا التي فقدت "الإحساس بالآخرين" اكتسبت من الإسلام ضياءً جديدًا من السمو الإلهي. وهكذا فهمت هذه الترتيلة التي من الأجبية:

أنتَ، فوق كل شيء،

وحدك، لا يحدك وصف،

وحدك، لا تحيط بك معرفة.

الرغبة الكونية، الكون يتضرع إليك،

إليك ترتفع تنهدات البشر [37].

يتفق هذا مع معتقدات المؤمنين بالديانات الأخرى، وماذا عن غير المؤمنين؟ في مراهقتي كنت مؤمنة بأن كل الناس ذاهبون إلى الجحيم وكنت أشفق كثيرًا عليهم! كانت هناك آنسة عجوز، صديقة لجدتي، قالت لي يومًا:

"أنا لا أذهب إطلاقًا إلى القداس، ما قيمة هذه الطقوس؟

- كنت أفكر في المسكينة ستموت قريبًا، وتسقط في النار الأبدية!"

37- من قصيدة للقديس اغريغوريوس النزيانزي.



وفي بحثي عن كتب لهدايتها، ولأرويها بالصلوات... رحلت إلى الدير بدون أن أعرف إن كانت قد تركت طريق الهلاك!

في تركيا، العلاقة مع غير المسيحيين بدأت تسبب لي مشاكل. بعد ذلك وجدت نفسي على نفس الموجة مع بعض غير المؤمنين الذين يؤرقهم العذاب البشري ويكافحون ليضعوا له حدًا، شغفهم بالعدالة يزيد شغفي، النكتة التالية تصوره: ذهبت إلى واحدة من أحسن مدننا في فرنسا لمؤتمر كان هناك عشاء رسمي. صرح لي أحد المنظمين، أن العمدة طلب رؤيتي وجهًا لوجه على مائدة صغيرة. أضاف بضيق واضح: "إنه ملحد، إشتراكي مهووس!" ضحكت واعترفت له أن ذلك لا يضايقني في شيء. ها نحن وجهًا لوجه. أخذ يصف لي بحرارة القرية الأفريقية حيث يذهب بصورة منتظمة لمساعدتها على النجاة: تم حفر بئر، تخصيص الأراضي، وإنقاذ الناس. انسقت وتحدثت معه بنفس الحرارة عن الزبالين، عن التيتانوس الذي انحسر، الأولاد في المدارس. اشتعل حماسًا بدوره. وقد نسينا تقريبًا تناول الطعام! أليس هذا الرجل من أفضل أتباع، من قال: "أحبوا بعضكم بعضًا"؟ من أكون أنا لأرسله ليحترق بقسوة إلى الأبد؟

من جهة أخرى، إحدى الشخصيات الذين أكن لهم بالغ الاحترام، ملحدة عن إقتناع. چارمان، إحدى بنات عمومتى دريفوس، نذرت نفسها روحًا وجسدًا للأطفال المعوقين، وقد أسست ملجأ لهم. وقد أمضت كل حياتها فيه، رافضة الزواج لتكرس حياتها بالكامل كأم محبة. لقد أعجبت بصدق تضحيتها التي تنبع من نفسها، بينما أنا، أحتاج إلى استناد إلى المسيح باستمرار.

عند موتها، أرادت چارمان أن يلقي رمادها في الاسكوت نزولاً إلى

المياه العميقة، من أجل أن تبقى بقايا جسدها مغمورة إلى الأبد، ولكن هل ستغرق روحها في جهنم؟ لا، يا چارمان، لقد أقنعتني بهذا المسلك: إن الله بداخلك، حتى لو كان عقلك يرفضه، لقد وجده قلبك حينما وهبت نفسك لصالح الأطفال المعوقين الذي كانوا يحتاجون إلى محبتك. عندما كنت تلفظين أنفاسك الأخيرة، كان يجب أن تسمعي هذه الكلمات الرائعة: "ادخلي إلى فرح سيدك." لقد عرفت إذن يسوع الذي منه كنت تخلقين صورة الحنان في عيون أطفالك. لقد فهمتيه الآن، چارمان، إنه الحب الإنساني الإلهي، استعادة ذكرى قريتي قادني إلى اليهودية، والتي أريد أن أقول كلمة عنها إنني أرى نفسي حينما كنت في الثالثة عشر من عمري، في يدي زوج من الأحذية، في محل إسكافي. تركزت عيناي فجأة على حروف عبرية على الحائط. أنا إذن في محل يهودي هربت بأقصى سرعة خارج هذا الكهف! حكيت لأمي وأنا ألهث. عن الخطر الذي هربت منه.

- "لنر يا مادلين، لماذا ترين أن اليهود خطرين؟
- لأنهم قتلوا المسيح!
- على كلٍّ، فالقاتل ليس الإسكافي!
- إنه سلالتهم، ولا يريدون أن يغيروا مذهبهم."

أخيرًا، أخذت بنصيحة أمي، وعدت أعهد بأحذيتي لأحد أبناء إبراهيم. لقد قابلت زوجته وطفله، مما حملني على هذا الفكر "لا يبدو أنهم أشرار"، ولكن أخيرًا، من أين جاءتني هذه الفكرة التي جعلتني أركض بعيدًا عن هذا الرجل؟ الخوف من الآخر هو ما جعلني أركض بعيدًا عن هذا الرجل؟ الخوف من الآخر واختلافه؟ عدم الفهم؟



بعد ذلك، أصبحت من راهبات سيون، علمت بدهشة أن اليهودية هي



المنبع الأول للمسيحية، و"كم أحب يسوع، ابن إسرائيل، شعبه"، كما تردد لنا ذلك الأم ماري-ألفونس. إن الصلات مع أشخاص مثل الإسكافي - الخاص بشارع روچيه - قد تغيرت.

من ناحيتي، لاحظت دائمًا أن القلب اليهودي ينطوي على نداء مطلق. ولم أتخذ فقط تلميذاتي الحساسات كاستثناءات، ولكن أيضًا عن الأولاد الذين تقابلهم في أماكن عدة. أكثر من مرة، الواحد أو الآخر يُجري الحوار بمسحة من المزاح ليفصح عن جرح، جرح الشعور بالعزلة عن النعم الدنيوية، أو خوفه من أن يكون مميزًا في حين أنه يغرق في العذاب. حتى تلك المرأة، في البوسفور، في تركيا، تحدثني بفخر عن النجاح في الحياة: أعمال، زوج، أولاد، كل شيء مصدر رضى لنا. فجأة توقفت، ودمعت عيناها قائلة لي: "نعم أنا أملك كل شيء ولكن الباقون؟" وهؤلاء ممن ماتوا فى الحروب .هذه النظرة قابلتها عدة مرات لقد أفرزت عند الشباب هذا الإحساس بالقلق. يحدث أحيانًا أن أستعيد تذكر هذه الآية من الإنجيل: "راحيل تبكي على أولادها ولا تريد أن تتعزى [38]".

ابنة إسرائيل من جدتي دريفوس، هل كنت سأحصل على هذا الإرث من وحي المطلق والذي لم يتركني أبدًا؟ ملتصقة أكثر بالدنيويات، أحسست مجددًا بالانجذاب لشيء آخر، هو الاله الواحد. شيئًا فشيئًا، مررت من نكران إلى الفخر بجذوري. وقد أدخلت صورة جدي الحاخام موسى دريفوس في كتابي المقدس، الذي كان قد كتب كتاب العهد بخط يده، وبمصادفة غريبة اتخذت اسم ابنه إيمانويل وأنا أدخل سيون، الله معنا. وكأنه يقول لي. إن نظرتي كراهبة في سيون قد اتسعت أخيرًا: لقبول الآخر.

38- مت 18:2.

لقد غزا الآخر إيماني كمسيحية. و قد اتسع فهمي لله. والحقيقة هي المطلق، ولا يمكن أن تحتوي على تناقض: المسيح هو ابن الله أم لا. ولكن ذكائي لا يصل في حدوده إلا إلى جزء بسيط من هذا المطلق. كل الأديان الأخرى لها قيمتها، كما جعلنا نلاحظ، الكاردينال "بيا". لقد وسعوا من رؤيتي لله، للجمال وللخير، لقد علمني كيف أحترم الإنسان أكثر، وأخدمه. لقد جعلني أدرك أن القيمة الأعظم هي في الحب الذي يجعلنا ننظر إلى الآخر باعتباره أخًا أو أختًا في الإنسانية.

أيها الشباب، إنني أؤمن بكم

إن شباب اليوم - بالنسبة لي - هم نماذج تعلمني المثابرة والنشاط. إن جيل الربع الأول من القرن لم يكن لديه تطلعات الجيل الذي يتجه نحو عام 2000م. كانت صديقاتي تحلمن أمام المدفأة بفارس الأحلام، بينما يبقين تحت رقابة أمهاتهن، يذهبن إلى الحفلات الراقصة لمقابلته. وكان الأولاد يتخذون عمل الأب، حيث البنات يتزوجن ويعملن! أما الآن فيترك البنات حضن الأم، ليعملن على كسب عيشهن ولسن في عجلة أبدًا من إيجاد الزوج المثالي، يلتقين برفقائهن في العمل، يسافرون سويًا إلى جميع جهات العالم.

في أوروبا وأمريكا، مررت بنفس التجربة المخيفة، عندما دعيت لندوة لتلاميذ الثانوي. حضروا وقد بدا عليهم واضحًا سعادتهم باستبدال حصة بصخب وضجيج. لقد طرقت بيدي بقوة على المنضدة، وبالفرنسية أو بإنجليزية رديئة صرخت: "إنني جئت من بلد الموت: السودان، لن أتحمل أن يضحك أحد أثناء حديثي. لكم حرية الاختيار، إما أن تصمتوا أو أرحل." سكون تام، تحدثت لأكثر من ساعة، وقد روضتهم. أمريكيين أو فرنسيين، يروحون على أطراف أصابعهم ليعودوا، بعضهم يعرض عليّ



المساعدة. كان يجب أن أدعوهم جميعًا للسفر معي أثناء الإجازة، ليس للاستمتاع ولكن للعمل الشاق في مدينة العشش، كم منهم لن يكون مستعدًا لذلك.

كم من الشباب ينذر نفسه متطوعًا في أكثر الأماكن قسوة. العدد لا يحصى من هؤلاء الأولاد والبنات الذين يعملون تطوعًا ولا يتوقف شيء. محرومين أحيانًا من الماء والكهرباء، كنت أراهم ينامون بين الفئران والقمامة، يقومون بتقليص العشش تحت الشمس الحارقة، ليبنوها بإمكانيات بسيطة، يحملون بعيدًا النفايات النتنة، ما لا يقبل أي عامل نقلها، العناية بمرضى الجذام ذوي الجروح المتفتحة التي لا يقترب منها لا أطباء ولا ممرضات. إنهم ينقلون الأمل ويعودون بالفرحة. لقد وسعوا عملي، لقد كانوا وتد القفز الذي كان يرفعني دائمًا أبعد ويجدد عنفواني لأصبح كالنسر.

كل شيء سيهلك، مجتمعنا بالكامل فاسد!ألن يكون هناك في الجيل الصاعد سوى عنف، كراهية وقتل؟ هيا بنا! لن أتوقف عن الكلام عنكم، شبابًا وشابات. أكن لكم التقدير، فأنا مؤمنة بكم.

إن جيلكم يأخذ مكان جيلنا. لقد عملنا لتقليص البؤس وتوسيع التآخي. لم نكن كثيري العدد، ولا أقوياء بما يكفي لتغيير العالم. نأتمنكم على الشعلة، كثفوا المقاومة لتكون موارد الأرض أكثر توازنًا، لتقليص الهوة التي تفصل بين سكان الأرض. وأخيرًا لامتصاص الكراهية التي تخلف الإبادات الجماعية. سيكون الصراع شرسًا ولكنكم ستكونون مستعدين بدوركم لهذه التجربة. إنه ممتع الصراع من أجل مساعدة البشر على النهوض.

أيتها الكنيسة، إنني أؤمن بكِ

على النقيض من حيوية الشباب، فكرت دائمًا في تلك الصفحة الشهيرة لبلزاك الذي يصف الكنيسة وكأنها عجوز صغيرة محبوسة في تضحيات مليئة بالزخارف البالية. أحلم بدون مراوغة بفتح النوافذ وبإلقاء كل شيء خارجًا!

اليوم، وبعد أن مررت بتضحيات عديدة، وصلت إلى قناعات أخرى. من المؤكد أنه لا شيء كامل، ولكن أين هي المؤسسة التي لا تتعرض للفقر على وجه الأرض؟ لقد كتبتها من قبل: نظرتي، حاليًا، تنصب على الناحية الإيجابية للرجال والنساء.

بالتأكيد كانت اتصالاتي وتنقلاتي مهمة بالنسبة لي لأستبين، من وراء المظاهر، الكنيسة القديمة، حيوية لا تتعلق بشيء معين. اليوم وقد استقبلني عدد من الباباوات والأساقفة، أصبح لديّ إيمان بنشاط الكنيسة. أعترف أنني لم أتوقع وجود صدى مباشر لدى الأغلبية، لصرخات العالم، أسقف واحد فقط منعني من دخول الأسقفية، ناعتًا إياي بالثورية! في فرنسا، قابلت أساقفة نمط حياتهم أكثر من متواضع حيث أنه خالي الوفاض أولاً بأول من نداءات الضيق والبؤس. "عندي، الباب مفتوح دائمًا، من يمر نجلس ونتشارك الحساء."

أثناء الأمسيات الماضية في بيوت الكهنة في بلاد عدة، كانت المقابلة تدور حول نفس الفكرة الملحة، كيف نرد على تساؤلات الناس اليوم؟ لا يتفق القلق مع الانتظار الذي يُقرأ في نظرة شخص مهموم. بينما أرى هؤلاء الأساقفة، بمساعدة المتطوعين يجتهدون في اجتماعات، معسكرات، وأنشطة اجتماعية من كل نوع، يتغلغلون في الأوساط الأكثر إصابة بالمحن: مخدرات، إيدز، وسجن. لم يكن هدفهم رفع مجموعة





تركض بعيدًا، ولكن إحياء مجموعة صغيرة تتشارك في ترابط ذي تأثير، كم من المرات تقاسمت صحن الأرز بثمن وجبة كاملة في قاعة رعوية! كم حصالة نقود لفصل أو لعائلة أُحضرت إليّ في احتفالات دينية! كم من الخطابات الرائعة لأطفال وقت الصيام: "أيتها الأخت، لقد عملت في نقل الزلط لأكسب بعض النقود لأرسلها لك، كنت متعبًا ولكن الله ساعدني." ومن قال لي أيضًا: "لم آكل شطائر اللحم في المدرسة لأحتفظ بالنقود لأخوتي الصغار الجياع، أما أنا فسآكل جيدًا في المنزل." هذه المشاركة عرفتني بالكنيسة التواقة للعدل وهي غير تلك التي عرفتها في طفولتي.

لقد دعاني كاردينال ديكورتري إلى مائدته المترفة، سمحت لنفسي بسؤاله: "أيها الأب الأسقف، هل الكنيسة فعلاً خادمة وفقيرة؟ هل تعيش فعلاً في فقر؟" وساد صمت... "أعيش في هذا القصر الأسقفي الذي تملكه الدولة والذي يمثل مقر الأسقف في ليون. عندما كنت أسقفًا شابًا، قد اتخذت قرارًا بالسكن في حجرة صغيرة، وبالتنقل على موتوسيكل. هل أستطيع اليوم أن أعتمد على حجرة واحدة وألا استعمل سوى دراجة؟ أنت تضعين النصل على الجرح، أيتها الأخت إيمانويل. ادعى لي كي أستطيع الحياة بكل تقشف ممكن حيث أستطيع الإقامة حاليًا وأن أكون في خدمة الجميع!" هذه هي نص كلماته.

نظرت إليه، كان وجهه يحمل حزنًا، رجل مضطر للعيش بعيدًا عما يراه مثاليًا. وبينما كان يرد على عدوانيتي بلطف وبطلب الدعاء له، ألم يكن يتحلى بمنطق التقشف والذي كان ينعم به المسيح؟ والعالم كله يعلم ذلك، كما لم يكن الكاردينال ديكورتري يقوم بأي مصروفات ببذخ. لو كان القديس بولس مطرانًا لليون، هل كان يستطيع كما في زمانه أن يقوم بصناعة الخيام لكسب عيشه؟ هل كان سيقوم بالسفر مشيًا من مدينة لأخرى؟ لقد شعر مرة أخرى بالحنين لفقر الأيام الأولى. قال لي

راهب فرانسيسكاني احتل مراكز مهمة، وقد اعتلى وجهه الحزن: "كيف يمكن استعادة التقشف من كوخ سان فرانسوا؟ انظري بنفسك إلى نفسك، يا إيمانويل، أختك ماري-لو، ألا تقول لك ضاحكة: "أنت، أيتها المسكينة تسافرين من طائرة إلى طائرة"؟"

صحيح إن الخطوط الفرنسية تقدم لي تذاكر مجانية ومع ذلك أستخدم وسيلة الانتقال الأغلى إنها الأسرع. بإمكاننا الحياة بطريقة القرن الذي نعيش فيه، في الوقت الذي نبقى متقشفين فكريًا كما بين الكاردنال ديكورتري.

إيمانويل، ذكري نفسك بالروح البسيط التي يتحلى بها إخوتك وأخواتك الزبالين. لا تلجأي إلى "الحياة الجميلة" إلا إذا كانت نافعة للعشش، لا تتركي غرورك يدفعك إلى أعلى!

أما الكاردينال لوستيچيه، لقد ناقشت معه تدريب طلاب الإكليريكية "يجب أن يشارك في حياة ثلث أو ربع العالم، أن يذهب للحياة لفترة في مدينة الخيام، النوم تحت الكباري مع المتشردين والمتسولين والذين بلا مأوى وبدون أن يُقَاطعني وأنا أتحدث بهذه اللغة المثيرة للشغب، كان الكاردينال يسمعني باهتمام: "إن تدريبهم يتضمن، في الحقيقة، الاتصال بأوساط التعابى. في باريس يمضي كل أسبوع ساعات عديدة في خدمة الأكثر فقرًا، والمرضى والمسنين، والمعوقين والمتشردين وسيكون في الاعتبار إرسالهم إلى مدينة خيام، هل تستطيعين وصفها لي؟"

شعرت أنه على استعداد لتقبل أية اقتراحات جديدة.

لقد دعاني للتحدث في نوتردام دو باريس، في نهاية القداس الذي يقيمه مساء الأحد. لقد عانقني أخويًا شاكرًا لي عودتي. لم أر عجوزًا متحذلقًا ولكن رجلاً ذا عقلية شابة منفتحًا على مشكلات عصره.





في، روما مررت بحالة ثورة رهيبة. كان يجدر بي الانجذاب لمتاحف الفاتيكان: ذهب، فضة، أحجار كريمة، وهدايا ملكية لا تقدر بثمن تتراكم عبر القرون. هل كنت أمام أسرار الفن المقدس أم مغارة علي بابا؟ وجهت كلامي إلى رجل كنيسة جليل:

- "ألم يكن في مقدور البابا أن يساعد أممًا فقيرة، وأن يبيع هذه الأشياء عديمة الفائدة!

- لا يحق للبابا، أيتها الأخت، هل يملك ميتران كنوز اللوفر؟"

حقًا، لم أجد شيئًا لأقوله، النقد سهل، ولكن فن النقد صعب .

يجب أن نسمع البابا وهو يدافع عن الحقوق "المقدسة للعائلة" كان يناضل من أجل القيم، والقيم بالنسبة لي، هي العدالة. أعتقد أن من مدة بابويته، سوف نحتفظ خاصة بالمستندات الكثيرة والقوية عن التطور، العدالة الاجتماعية، حقوق الفقراء والاحترام المقدس للحياة. لم يكن هناك تقريبًا أي نقد له لدى وسائل الأعلام، مفضلين أن يعبروا النقاط التي عليها جدال.

عندما نراه، مستغرقًا في صلاته في محرابه الخاص الصغير، نشعر أن هذا الرجل يحمل هموم العالم. ذات صباح قبل القداس، صليت معه، ولقد قدرته خاصة عندما ذهب ليُقّبل "على" المسجون، الرجل الذي أراد قتله، أو عندما علم أن قسيسًا خلع ثوب الكهنوت ليتحول إلى متشرد بجانب كنيسة البازيليك سان بيير، لقد بحث عنه، جاثيًا على ركبتيه واعترف له. رائع! إن چون بول الثاني هو البابا المفضل لي، إنني أحبه!

هناك نقطة أخيرة، أود أن أثيرها. نسمع أحيانًا من يقول إن رجال الكنيسة لا قيمة لهم ما عدا الأب بيير، الأم تريزا، والأخت إيمانويل. هذه

الأقوال تجافي الحقيقة. أنا أيضًا منذ بضعة سنوات توقفت أمام ثلاثة أوجه، منتقدة الآخرين. كان هناك الأب دميان الذي مات عند مرضى الجزام، وهو خادم حقيقي! ماذا يفعل الآخرون؟ الأخت مادلين عند وصولها إلى إسطنبول في عربة كارو، أي راهبة تلك؟ التي تنتقل في عربة كارو؟ وأخيرًا، دوم هلدر كامارا في البرازيل الذي ترك قصر الأسقف الرائع ليستقر في حجرة مجاورة لهيكل الكنيسة، أسقف حقيقي ذلك الرجل. لو أستطاع الجميع أن يفعل مثله!

من جانبي كان لي الحظ وسوء الحظ... أن أكون تحت الأضواء إعلاميًا. الحظ، نعم، للعثور على الأشخاص ذوي القلوب الذين يعملون في وسائل الأعلام، إن مقابلاتهم حثت آلاف وآلاف من الأصدقاء الذين استمروا في إنقاذ آلاف وآلاف الأطفال. ولكن سوء الحظ أيضًا، لأنه كان هناك دعاية في داخل ذلك: لقد سلطت الأضواء عليّ كما لو أن نشاطي كان فريدًا في العالم بينما نشاط أكثر تواضعًا لأشخاص كثيرين ظل غير معروف! مثال واحد: من تحدث عن الأخت ألبرتينا التي أمضت حياتها، في نفس زمني، في واحدة من أفقر المناطق في البرازيل وماتت في ضنك؟ لم تستطع إنقاذ الأطفال من الدعارة!

في السودان، لازمتُ رجل دين أسود غني، لقد ساعد في إنقاذ عدد كبير من المسيحيين.. يناضل الأساقفة بكل قوتهم لمساندة المدارس، المراكز الطبية الاجتماعية. يعانون أحيانًا ولكن لا يتركون خدمتهم. من يتحدث عنهم؟ من يتحدث عن كل هؤلاء الجنود المجهولين في أوروبا وفي العالم كله، الذين يعيشون بإيمان حي؟

في سكون الصلاة، تلوح أحيانًا في ذاكرتي صورة هذه المجموعة من المسيحيين تنشقت عبير المحبة منهم. منذ أن رأيت مساعي الكنيسة



من السودان إلى الفلبين، العجوز التي تصلي في حجرة صغيرة متربة، اكتست شيئًا فشيئًا بانتعاش مذهل. إنها تبدو لي كما يصفها الإنجيل: "امرأة فاضلة، تصنع له خيرًا لا شرًا كل أيام حياتها، (...) تبسط كفيها للفقير، وتمد يديها للمسكين، (...) العز والبهاء لباسها، وتضحك على الزمن الآتي [39]." إنها تزرع الأمل!

إن الكنيسة حتمًا مؤسسة دنيوية، تتكون من سكان الأرض المعجونين بطمي الأرض. إنه من السهل أن نجد هؤلاء الذين منذ عشرين قرنًا قد ضاعفوا الأخطاء والزلات... وهذه تعاستها. ولكنها مليئة بحب المسيح. منذ عشرين قرنًا تنشط رجالاً ونساءً، وهم رغم ضعفاتهم، نذروا أنفسهم روحًا وجسدًا في خدمة إخوتهم وأخواتهم وتلك هي عظمتها.

وأنا شاهدة على ذلك: نجد خارج الكنيسة نفحة إنسانية ولكن مهما تكن قوتها لا تملك شمولية الكنيسة منذ طفولتي، هي بالنسبة لي الأم التي بفضل ممثليها غذتني بهذه الأفكار عن العدالة والحب والتي دفعتني بعد ذلك نحو مواجهة بؤس العالم.

إيمان بالإنسان وإيمان بالله

لقد شهدت في بعض الأماكن من يقتل بقلب جامد، كما شهدت آخرين يضحون بأنفسهم من أجل إخوتهم. لقد وصفت أبطالاً غير معروفين حتى لأنفسهم وللعالم، يملؤهم إيمان لا يقهر بالإنسان وحب طاغٍ. هذا المزيج من الحب والإيمان يملك دينامية إفراز أقوى ما في الأرض.

كائنات رائعة لا يحتقرها أي بشر مهما انحدر، أحييكم وأنا أنهي هذا العمل. لقد كشفتم لي لغزًا حتى إن كان الإنسان قد سقط إلى الحضيض،

39- أم 31

إلا أنه يظل صورة مقدسة "لقد خلق الله الإنسان على صورته." لم يكن يومًا حيوانًا نستطيع أن نركله بالأرجل ولكنه "إنسان".

لقد اكتشفتم واحترمتم الشعاع الإلهي الذي يظهر في وسط الرماد هناك، حيث الكراهية والتعطش للسيطرة، هناك حيث دوي القنابل يروع الأحياء، تظهرون، صامتين، شجعان. جنودًا للحياة، يقفزون فوق ركام الجثث لتنتزعوا من المذبحة أولئك الذين مازالوا يتنفسون! مازلتم أنتم (بطريقة أستطيع أن أقول رائعة) التجسيد الواضح لصفة الإنجيل: "لقد خلق الله الإنسان على صورته [40]." سواء أدركتم هذا أم لم تدركوه، كل منكم صورة الله، خالق الحياة والقيامة.

لقد فهمت أخيرًا أن قبول أو رفض الله يتم حسب مقاييس مرتبطة بالنشأة، البيئة، القرارات، أحداث الحياة، مقاييس شخصية تبدو صعبة أو حتى مستحيل تغييرها. إنها مسألة فكرية يصل كل واحد فيها إلى حل كما يستطيع، ليس بدون بعض الشكوك، أن يكون مؤمنًا أم لا يكون. ولكن ليس هذا هو المهم. فإن قيمة الإنسان ليست في معتقداته فحسب ولكن في أعماله أيضًا. ولكن الإيمان لا يمكن أن يكون إيمانًا غير فعّال. إنه يجعلنا ندخل على نفس المستوى إلى سر التجسد حيث تتجسد الألوهية، إنه باب مفتوح نحو السر الإلهي المعروف في حياة البشر، فهو يجمع الله بالإنسان في نوع من الحب البسيط.

أهو بسيط إلى هذا الحد؟ أمام غياب الله وسط المآسي المروعة، في النهاية، هل أنا على حق في إيماني به؟ بالإشارة إلى موت الأطفال، إن وجهة النظر الوحيدة لمخلوق قادر قد تبدو غير طبيعية! تزعزع إيماني، أسترده ثم يتزعزع ثم أسترده مرة أخرى، وقد ذكرت على مدار

40- تك 1 : 27



هذه الصفحات. أي مؤمن، أمام صمت الله، لم يمر بالشك، بالتمرد، وحتى باليأس؟

بينما ينهض هتلر، منتصرًا، يصمت الله. الراعي بونهوفر، في جحيم السجون الهتلرية، مر بهذه التجربة الرهيبة قبل أن يفقد صوابه بعد أشهر، صرخ لآخر مرة: "إن الله الغير القادر والضعيف، كان معنا وساعدنا، "إن المسيح قد أخذ عاهاتنا، واهتم بأمراضنا" تشير بوضوح بأن المسيح لا يساعدنا فقط بقوته ولكن بضعفه وآلامه. إن الله المتألم هو وحده من يستطيع مساعدتنا.[41]"

لقد قرأت وأعدت قراءة هذه السطور، لقد بدت لي وكأنها وصية كتبت بدم مازال دافئًا، دم شهيد وهي تشهد على إيمانه، ليس كفكر مجرد للاهوتي يجلس في مكتبه. إن رؤية بونهوفر قد أفادتني باقتدار في مصالحة غير المتصالحين. إن الله مجسدًا الطبيعة البشرية في المسيح، يدمج ضعفه في ربوبيته، فإن المعاناة، اليأس، الفشل، تخص الله من الآن فصاعدًا. إن الفداء يمكن يبدأ عندما ندرك أنه لا الألم ولا الموت منفصلان عن حياة الله. كما تنكشف الغيوم، فإن هذا الجانب من علم اللاهوت يتكشف: إن القيامة تتولد في ذات اللحظة، على الصليب.

عالم اللاهوت، بونهوفر يرى في غياب وجود الله الفعال، إنه يدخل مع المسيح في صلب الجسد والروح، الجسم والعقل، حيث يجري انصهار الموت بالبعث. ها نحن انتقلنا بعيدًا إلى جدال عن علم اللاهوت والفلسفة، في قمة النظام الثالث لباسكال، حيث ينتصر فقط الحب، إنني أعود بفضل بونهوفر. لقد ساعدني أن أرتقي بخطوة أكثر ثباتًا جبل طابور الذي يحدثنا عنه الإنجيل: يظهر وجه المسيح مستبشرًا كإعلان للنصر على الاتهام الظالم، وعلى التعذيب وعلى الموت.

41- Dietrich Bonhoeffer, Lettres et notes de captivité.

لقد وجدت تصوير هذا التجاوز في مقابلة تليفزيونية بين الأم تريزا وچاك مونود. البيوكيميائي الشهير جاء ليعرض بمنطق مبهر عدم جدوى الخالق. لقد أجابت الأم تريزا ببساطة: "إنني أؤمن بالحب والرحمة". فاعترف مونود بعدها أن أنفاسه قد انقطعت، كما لو كانت الراهبة قد هدمت قصره الجميل المصنوع من ورق. بتصفيقة جناح لقد ارتفعت حتى الحب المضاعف للمسيح: الحب الذي هو احترام غير محدود للإنسان إلى الحد الذي يترك له مطلق الحرية، والرحمة، التي هي أهم خلاصة إلى حد أن يتكبد معه انسحاق الألم ليشاركه انتصار القيامة.

بعد بونهوفر أقنعتني الأم تريزا. لم تبحث كما فعلت أنا بدون فائدة، أن تعتبر الله تمرينًا هندسيًا يحتاج إلى حل. لقد ذهبت مباشرة إلى تصور الأبدية، هناك حيث في سماء الله تستطيع أخيرًا الحقيقة والعدالة أن تُطبّق. لقد عبرت الهوة حيث ظللت معلقة مع الكثيرين من إخوتي في الإنسانية من خمسين سنة. كساكنة للأرض، فقد أردت بشدة سعادة في مملكة أرضية بدون عنف، بدون كوارث، بدون أمراض تجلب العذاب والموت. الأم تريزا، وبنظرة صقر، ترى أحدهم يميل بحب ورحمة نحو الإنسان مساعدًا إياه للوصول إلى الملكوت السماوي.

لقد فهمت أخيرًا أساس العلاقة بين الإنسان والله، الأقدام ثابتة هنا في الدنيا، نحلم بسعادة هنا في الدنيا، فالسماء بعيدة لا نستطيع الوصول إليها: لا يوجد إنسان ذهب إلى السماء و عاد ووصفها لنا. لو كان الله قد تركنا عزل، نحن وابنه معنا ومن أجلنا، تركنا فريسة للعذاب والموت، ذلك فقط لأنها طريق للخلود الذي يقود إلى سعادة لا تغرب. ولكن هذه النتيجة البسيطة كانت وتظل أحيانًا بالنسبة لي صعبة التقبل!

إن الأرض لن تختفي لهذا السبب، بالعكس كل تضامن، كل تآخٍ، كل

عمل في خدمة البشرية، هم في الأرض، فجر النور الجميل الذي سوف يتكشف في يوم ما لكل الناس ذوي الإرادة الخيّرة.

في سيرتك المغمورة يا إيمانويل، اتخذت الطريق السليم الذي فيه نصعد مترابطين مع إخوة نريد تحريرهم. وسط ضعفك، شكوكك، تذبذباتك، ونهوضك، ساندك الله بفضل كثير من الأصدقاء لتحافظي على الإيمان بالإنسان، والإيمان بالله. ولكن لا تنسي، كما في أهرامات مصر، إن الطريق نحو هذه القمة حيث الحب هو المنتصر يختلف عن السير في السهول. أربع تعرجات تفصل بين أولئك الذين يحاولون الصعود. إذ تتعارض دائمًا المعتقدات، دينية، فكرية، سياسية، واجتماعية بينما تسحر نفس القمة كل متسلق وتمنحه القوة للارتفاع مهما يكن العناء والخطر اللذان ينتظرانه. وكلما تقدمنا في الصعود، تقاربنا. تتلاشى وتتناقص السهول، كل شيء يصبح أبسط. تبًا للجدال الذي يبدو مجدبًا ولا فائدة منه. إن الإيمان بالإنسان يجعل القلوب تخفق بالتوافق. في آخر درجات الهرم، ينتظرنا إله الشمس. إن العالم القديم، بدموعه وصرخاته، بظلاله وشكوكه، يتأرجح في العدم. إن الحب وحده أقوى من الموت. إذن، مؤمنون وكافرون، سنتعرف على وجه المسيح المبهر، الوجه المعذب للبائس الذي عاملناه كأخ.

نحن جميعًا سواء كنا قريبين أم غير قريبين من الله، عشنا من أجل العدالة، سوف نسمع كلمة الإنجيل المقدسة "لأني جُعت فأطعمتموني... كنت مريضًا فزرتموني [42]".

معجزة! الإيمان بالإنسان والإيمان بالله ممتزجين في تلاحم غامض. إن العالم الجديد سوف ينفتح لأولئك الذين آمنوا بإخوتهم وناضلوا من

42- مت 25: 35

أجلهم. ففي العائلة البشرية الكبيرة والتي تجمعت أخيرًا مع المسيح حول الآب، لا يوجد سوى وجه الحب.

في الجلجثة

الآن يجب أن أترك قمم السماء لأستحضر أحد الأماكن الشامخة على الأرض، وهي مكان صلب السيد المسيح، إنه هو الذي رسخ فيّ إيماني بالله وجمعهما إلى الأبد في الحب.

في أورشليم، وفي بداية عصر جديد، صُلب رجل بين لصين في مكان يسمى الجلجثة أي الجمجمة، الجبل، مكان موت ومكان حياة. منذ ذلك الحين تحول هذا الجبل إلى نقطة الجذب للعالم. لقد أمضيت، بدوري أيامًا طويلة، مزودة بالإنجيل، بالخبز وبالماء وقد استمديت الحياة من منبعها. خلال هذه الساعات من الصلاة، قد رأيت ممثلين للبشرية جمعاء، حجاج من كل البلاد، جاءوا ليستجمعوا حواسهم يمر الواحد تلو الآخر يأتي أولاً اليابانيون مسافرون أثرياء دائمًا على عجل، يتناقضون مع نساء مالطة، اللائي يرتدين ثيابًا سوداء، لقد ادخرن كل قرش طوال السنوات، يجلسن هناك بالقرب من تماثيل المسيح، باكيات ومصليات. نحو الحادية عشر تظهر مجموعات السائحين الفضوليين مع مرشديهم الذين يمجدون بكل اللغات وبكلمات مشوقة يرددون عباراتهم القديمة، الأنف شامخ، ومضات سريعة، وتساؤلات. ويندفع كل هؤلاء للذهاب بعيدًا. يحضر أيضًا الطلاب اليهود مع أساتذتهم، في تدافع وضحكات مفارقة غريبة.

هذا الخليط المتباين من البشر كان يساعدني على الصلاة. كل منهم كان أخي، كانت البشرية قد أصبحت عائلة كبيرة على هذه الصخرة حيث صلب المسيح، يسوع، ابن الإنسان. كنت أفكر في كتاب الأب سارتيلنج[43]،"ما رآه يسوع من أعلى الصليب"، حشد من المخلوقات تتتابع عبر

43- Flammarion, 1930.



القرون، كلاً يمثل عصره، نشأته ثقافته، كلاً كان محبوبًا من المسيح حتى الموت. أمام الثقوب حيث كان مصلوبًا، أقدام وأيدي مسمرة، كنت أرى نفسي في قاع هوة فيها تنحدر الخطايا والموت التي تغمرنا، كل بدوره، تدوي فيها آخر صرخاته: "إلهي، إلهي لماذا تركتني؟" لماذا؟ منذ ذلك اليوم الذي أصبح ليلاً "فكانت ظلمة على الأرض كلها [44]"، فالرجال من جيل لآخر قد رددوا هذه الصرخة: "لماذا؟"

على بعد بضعة أمتار من الجلجثة، يوجد القبر الذي دفن فيه الجسد. في اليوم الثالث، مع فجر عيد الفصح، ينتفض في حياة جديدة، وتلقت "لماذا" إجابتها: مثل المرأة في حملها، بتمخض الألم عن الفرحة تبزغ الحياة من الموت، صليب وقيامة يصبحون سرًا واحدًا.

عند الصليب، يمر المؤمن بسهولة من المرئي إلى غير المرئي، من الزائل إلى الدائم، للدخول إلى الغير، فإن الباب منخفض، يجبر على خفض الرأس. أشعر بروحي تهرب إلى الحوار أمام هذا الحجر حيث كان المسيح مُسجى ثم نهض وقام.

إن الدروس المستفادة من خلال الدنيا تجد هنا نهاية لها. مأساة كل إنسان، أفراحه وعذاباته، منذ ميلاده حتى وفاته، تتأثر في هذا القبر، يخفق قلب العالم في قلب المسيح الذي جاء ليشاركنا الأفراح والعذابات، حياة وموت البشرية. أضم يديّ وأضعهما على الحجر وأُتمتم بهذه الصلاة:

يا إلهي، أعرف أنك تجسدت على أرضنا.

أعرف أن تجسدك مستمر، لا يرى، في كل رجل ذو عزيمة صادقة.

أعرف أنك، القيامة، تحمل إخوتك، الرجال، إلى نعيمك الأبدي.

44- لو 44:23

فلنكن صادقين

"...هوذا الإنسان [45]"، قالها بيلاطس وهو يقدِّم المسيح الذي تنازل بإرادته، وتخلى عن سلطانه، والذي حاولت - بلا جدوى - أن أكون تلميذة له؛ وكان هذا أكبر إخفاق في حياتي. وفي أواخر اعترافاتي - التي حاولت أن ألتزم الصدق فيها - لا أدري إلى أي مدى قد نجحت؟ لا أريد أن تستمر أسطورة "إيمانويل، الكمال المثالي"، ولكن أريد بالأحرى أن أكشف بصدق حقيقة المرأة التي هي أنا!

أين هي إيمانويل التي أحلم بها وبوجهها السماوي؟ الدخول للرهبنة والحماسة التي في سن العشرين حيث كنت على اقتناع أنه بعد عامين من الصراع ضد أخطائي سأصبح القديسة تريزا الطفل يسوع، بالهدوء الملائكي، حيث بالكاد ألمس الأرض بقدمي، ولكن "الذي يريد أن يكون ملاكًا عليه أن يكون ساذجًا"، كما قال باسكال. ما يمكن قوله هو أن الساذج لم يترك مجالاً للملاك بعد! ولن أخوض في الحديث عن عواقب شبابي المتحمس والتي لا تزال صورة حية في خيالي حتى في شيخوختي، ففي الهدوء الملائكي لا نتكلم "انزل المس الجبال فتُدَخِّن." كما يقول المرنم [46]. من يلاحظ تناقض سيتعجب، ولكن لو استطعنا أن نثبت أن كل بخار يندمج، إذن سأكون على حق وسيكون كل شيء صحيحًا لو لم أحقق هدفي الأحمق!

كانت أمي تقول لي أحيانًا: "إنك عندما تحتاجين شيئًا دائمًا ما تُضجري العالم من حولك!" عندما يبدو لي مشروع صالحًا، فإن قوة إرادتي تساعدني على تحقيقه، لكن أعمال البر كانت دائمًا أمام عيني.

45- يو 5:19

46- مز 5:144



كنت أقف دائمًا أمام من يعارض خطواتي... ولكن وقوفي ضده كان يتطلب بالطبع لباقة.

جاء صديق من القاهرة، يقول لي الإدعاءات التالية:

- "يظن البعض أن الأخت إيمانويل قديسة، هم لم يعاشرونها فالقديسة عليها أن تعرف كل واحد ومزاياه وأيضًا يكون لها مجموعة من الصفات الجليلة تظهر في أثناء حديثها. والبعض الآخر على العكس ينكر الجميل أو يلتزم الصمت!

- والبعض يقول إنها تتقدم كثيرًا، كالنجمة، كجنرال ينسب إليه كل مجد الحرب!

- ويقول عني أيضًا أنني دائمًا ما أحكي قائلة: "إنني أسست المدارس، بنيت منازل، تغلبت على أمراض الأطفال المميتة... أنا، أنا، أنا!" تعلن دائمًا أنها الوحيدة التي عملت في الأحياء الفقيرة!

- لقد مللنا هذا النظام وعلينا أن نتألم لنعمل تحت أوامر نابليون!"

وتجري باقي الادعاءات على هذا المنوال:

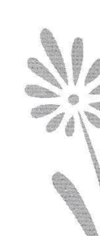
توجد بعض السيدات الاستثنائيات اللائي عملن معي بنية خالصة، الأولى جاءت من كندا، وهي راهبة شابة مؤمنة بنفس مبادئ جماعتي؛ ألا وهي إعطاء الجسد والروح إلى الأحياء الفقيرة. كانت مجبرة في البداية بأن تتعلم اللغة العربية، حيث أنها لغالبية الناس لغة صعبة. بعد ذلك، اهتمت بالأطفال، أحبتهم سريعًا بفضل حبها الكبير. هذا بالإضافة إلى جاذبيتها السمحة. ولكن صحتها لم تكن على قدر شجاعتها، كانت تضجر أسرع مني، ولم تصل إلى تحقيق كل الأعمال التي أوكلها إليها.

في النهاية، طالبت أن تأخذ راحة، ووافقت ولكن بدافع الشفقة على حالها، لكنها أحست أنني أقول لها لماذا، فأنتِ أصغر مني بثلاثين عامًا، وتريدين أن تتوقفي وأنا مازلت أجري! كانت النتيجة أنها ذهبت إلى كندا لتستعيد قوتها، ولكنها أصيبت بانهيار حاد أذهل بقية الأخوات.

لم أستطع أن أفهمها ولا أن أُدعمها، ولكنها أضافت الكثير من التنوير لصغارنا الزبالين! لم أندهش بأنه لا توجد أي راهبة من سيون ترغب بعد ذلك في أن تنضم إليّ. رجعت أفكر ثانية في تلك الأخت وفي المحبة التي لم تجعلها تخاف في أن تنام على فراش بجانبي وفي غرفتي. لماذا تراجعت عن الإقامة في عشش الزبالين، هل بسبب الفقر الذي نتشارك فيه مع الآخرين؟ العكس هو الصحيح فإن ذلك هو الذي جذبها. من ناحية أخرى، كانت سعيدة جدًا وهي تعالج الأطفال فقد كانت ممرضة ماهرة. كانت تسهر على صحتهم بكل اهتمام وهذا ما جعلها تحب العائلات، ولكن أوامري التي لا تتوقف كانت فوق احتمالها.

نفس الشيء كان مع امرأة أخرى وهي سويسرية قد تركت منصبها كسكرتيرة بالسفارة، وتركت منزلها المريح في چنيف وجاءت لتساعدني كممرضة، لكن دخلت شخصيتانا في نزاع، لأنها كانت تريد أن تتحرك لا عن طريق إدارتي ولكن إدارتها هي، وبالتالي فقد نقلت جهودها إلى مكان آخر خارج تجمعنا.

وبلچيكية قد تبعتها في ذلك، فقد كانت تقوم بنفس الواجب فلا يوجد أي تعب يستطيع أن يثنيها عن أن تذهب لتداوي مريضًا، ولكن تظل نفس المشكلة "نابليون" وتسلطه، لم تكن المرأة الوحيدة التي شعرت بذلك، فهذه المرأة قد تخللتها عاصفة من الأحاسيس جعلتها تتركنا لتعيش تحت سماء أكثر اعتدالاً.





أخيرًا، راهبة بلچيكية أخرى كانت رغبتها هي أن تضحي من أجل العالم الثالث، وقد كانت في خدمة صغار الزبالين. لم تشتكِ أبدًا وهذا ما جعلني لا أشك في أن سلطتي ممكن أن تحطمها. إلى اليوم الذي قالت فيه إنها أصيبت بنوع من أنواع عسر الهضم جعلها ترفض الطعام كانت خائفة، ولكني حاولت أن أقويها برغم دموعها، ولكنها رجعت إلى بلچيكا، ومن ديرها كتبت لي تقول إنها لن تعود!

أحداث مشابهة أستطيع أن أكتب فيها صفحات ولكن الأكثر غرابة في هذه القصص هو أنني حافظت على صلة جيدة مع هؤلاء. كم هي السعادة عندما يكون لنا الفرصة في أن نلتقي مرة أخرى! وأيضًا صداقة عميقة مع الزبالين بالرغم من كل شيء.

سؤال سيطرح نفسه: مع من أستطيع أن أتعاون؟ ببساطة مع الذين يوافقون بكل ابتهاج على صرامتي إلى أن نصل إلى أن نتحرر من هذه النقطة.

معجزة هي الأخت سارة؛ استمر تعاوننا ستة عشر عامًا بكل نشاط وبدون انفصال ربما تنقصها هي الشخصية؟ العكس هو الصحيح فهي تتمتع بصفة نادرة، وتتمتع بالحكمة. عندما بدأت أنزلق إلى فكرة ألا يعارضني أحد، أخذت هي الموضوع بابتسامة قائلة: "إيمانويل، ألا تعتقدي أن مشروعك هذا يتطلب المناقشة؟ هذه المرة قد ربحت ببراهينها التي طرحتها بكل هدوء حيث طرحت براهيني أنا أيضًا وتوصلنا إلى اتحاد مصري فرنسي أنجح أعمالنا.

بمناسبة ليلة سعيدة مع أخواتي، قد أخذنا في لعب الكوتشينة وحماسة اللعبة أصابتني، وتسلط عليّ الجميع لأنني أود أن أكسب بأي ثمن... وقالت لي الأخت جيسلان: "هذا ليس عدلاً يا أخت إيمانويل!"

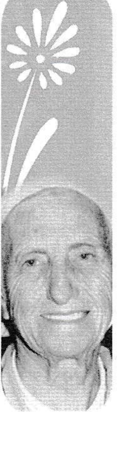
ولكني لم أتعظ من تلك التجربة. فلم أكن قادرة على اللعب بدون هوس.

وقد اتهموني في بعض الأحيان أنني مفتونة بالتجارة، وبأن أكون صاحبة شركة، وأعتقد أن هذا صحيح. فإن السنين التي كنت فيها مصابة بحمى إدارة مشاريع رياض الأطفال، المدارس، المستوصفات، دار المسنين، و"بيت السعادة"، انغماسي في الخطط وتحقيقها جعلني أنسى الناس وأهملهم، على الأقل جزءًا منهم، وهم إخوتي الزبالين! فرجعت بكل نشاط إلى علاقات قوية أعطتني مساعدة ثمينة: سفارات تنظم حفلات ومعارض للزبالين، مصانع ضخمة كانت تدعوني لطرح ما أريده منهم. وچيهان قرينة السادات التي اتصلت بي من القصر الرئاسي. من الطبيعي أن كل هذا جعلني أقلل من فكرة أنني مخفقة فيما يخص بورجوازية بسيطة دخلت بمحض إرادتها في وسط صعب أن يصل إليه الكثيرون!

إن نجاحي في رحلتي إلى أوروبا وأمريكا، زود خوفي من تنامي السلطة عندي. والخطورة أيضًا، كانت في تجميع مبالغ لا بأس بها مما أدى إلى إنقاذ ملايين الأطفال ولم آخذ دولارًا واحدًا لي. في رحلتي لأمريكا أنا والأخت سارة كل واحدة منا اشترت جوربًا بدولار واحد هذه هي المرة الوحيدة التي أنفقنا فيها نفقة شخصية والتي ليس لنا الحق فيها. فمع طبيعة تلك الحياة نشعر بأننا نستمتع بقوة عليا حتى لو كانت هذه القوة خيالية وزائلة.

في هذا التحليل، أود أن أكون واضحة فأنا لا أركز على ما يسميه أصدقائي ضاحكين النزعة المسرحية ورغبتي في توريط الناس فبينما أحصل على مجموعة من الامتيازات لعمل أو آخر من أعمالي أنشر مجموعة من الرتوش لأجذب المتحدث. المهم أننا دائمًا على موجة





واحدة، المهم أنني أحصل بذلك على هبات عينية من أجهزة، ووسائل مواصلات مجانية، وشخصيات ووسائل إعلام تدعم مشروعاتي كل هذا جيد وممتاز، ولكن الذي يقلل من ذلك هو انتفاخ القلب المنتشي بنجاحه، كنت أردد دائمًا: "انتبهي يا إيمانويل إلى عبارة المسيح: فماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟[47]"

امرأة هشة تنجذب للمديح الأرضي، سوف أقع بلا رجعة في فخ الشهرة لو لم أرجع إلى مناخ الأحياء الفقيرة والتي فيها أنا زبالة بسيطة بين إخوتي وأخواتي أُحَب وأُحِب. وجدت نفسي فجأة في الحقيقة و"الحياة اليومية" في أوروبا وأمريكا، حيث كئوس الشمبانيا تجعل العيون تلمع بين الكريستال بدلاً من أكواب الشاي التي من الصفيح. الرغبة الساحرة في اللغة المتأنقة يتحول إلى حوار عائلي من الأولاد يأخذون الأماكن الأولى، الباركيه اللامع والكراسي المنتظمة تحل محل الأرض التي نجلس عليها جنبًا إلى جنب. كل ما كان عندي من كبرياء وسلطة بدأ يختفي والأقوال القديمة نترنم بها على الأوتار في كنائسنا "حيث يوجد الحب يكن الله موجودًا" إن هذا يتحقق في البساطة.

تأخذ الأجازة أيضًا الجو الديني والمقدس للدير حيث أتجه بعيدًا عن الأضواء، فتجمعات الصلاة والحوار دائمًا تسير في حالة من الجمال والمودة. إنني قد استمتعت كثيرًا بهذه الساعات الماضية مع أخواتي.

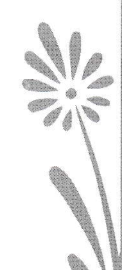
كان جميلاً أن نكون معًا، نحكي عن أحوالنا خلال الأسبوع. واحدة كانت سكرتيرة في كاريتاس - منظمة غير حكومية مسيحية - كنا نتكلم عن مشاكل التنمية في الشرق الأوسط وأفريقيا، والأخرى كانت تصف الاحتفال الذي نُظم في رياض أطفال شعبي.

47- لو 9:25

كانت تصف نجاحاتها وإخفاقاتها مع الأولاد. والأولى تنشئ مؤسسة بقرية فقيرة بمصر الوسطى بالموافقة الحماسية للكاهن والشعب. وقد حكيت أنا بدوري عن آخر ركوب للعجلة وأنا ممسكة بياسر الذي كان يقود العجلة وسط الزبالة. كم من نكات وضحكات كنا نتبادلها أنا وأخواتي؟ كان بيتهم في نظافة رائعة وبالدوش أيضًا؛ فظللت نظيفة 36 ساعة! إن اجتماعي مع أخواتي وحياتي مع الفقراء يتكاملان ويعيدان إليّ التوازن.

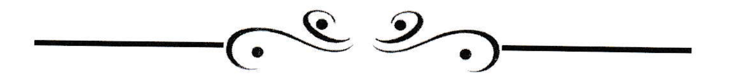
هذا الفصل من الاعترافات الكامنة بداخلي، إنما يكشف عن سري الباطن لقد كان المسيح هو الأقوى: لقد غاص في الحب ليطهرني من شهواتي، لم يتجاهلني ولكنه استخدمني في خدمة الفقراء وحماني وحفظني داخل مجتمع رهباني. يا للمصير الغريب الذي أعده لي ذلك الإنسان الإلهي! ومع ذلك كنت في بعض الأحيان أفقد تلك الفكرة الجميلة عن "القديسة إيمانويل الهادئة"... كنت أغضب لو لم تكن روحي على نفس الدرب التي رسمها لها المسيح وأحبها كما هي بالإيجابيات والسلبيات. الأفضل من ذلك أنه من الفشل كان يخرج النجاح، ولا يصدق هذا النجاح مع قديسة فاشلة. لقد أنقذ المسيح أناسًا بائسين!

ماذا تريدين أكثر من ذلك يا "إيمانويل"؟ المخلص انتشلك من فقر قلبك وشملك بحبه الحنون لكل البشرية: فبفضل هذا الحب أشعر أنه يتخللني، ويقول لي الكلمات التي قالها للمرأة الخاطئة الأخرى وسامحك أنت أيضًا. اسمعي، يا إيمانويل، وتهللي من الفرح: "قد غفرت خطاياها الكثيرة، لأنها أحبت كثيرًا![48]"



48- لو 47:7

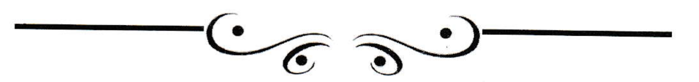




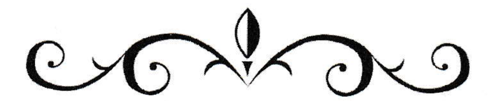
الجزء الثاني

المرحلة الأخيرة من حياتي

1993م – 2004م







عندما يميل ميزان العمر نحو المغيب، تنتحر جنيات البحر الساحرات، وتهدأ الأهواء الجامحة، يصبح من الأيسر على المرء أن يحكم على قيمة اختياراته التي تبناها في مفترق الطرق. يشوب اختياري المجازفة في لندن واتخاذ طريق مضاد لتلك المقولة التي طالما ألحت عليّ: "هل لكِ أن تتزوجي"؟ وأظل أكرر كلمات نذر التكريس وأرفع ذراعي كي أؤكد في أعماق روحي وضميري رفضي لطريق الزواج. "لا"، أكررها وأكررها، إن تكريس حياتي لله وللإنسان هو المغامرة الأكثر إثارة التي لم أكن أبدًا أتخيلها!

اليوبيل الماسي

في العاشر من مايو 1991م، احتفلت في عشش الزبالين بالعيد الستين لدخولي سلك الرهبنة؛ يوبيلي الماسي مع المسيح! سأنقل لكم الخطاب الخاص بهذه المناسبة في القاهرة، يقول:

""الله صنع لي عجائب كثيرة فليتقدس اسمه." هذه الكلمات السابقة كانت في قلب العذراء منذ ألفي سنة ولم أتوقف عن الترنم بها في داخلي خلال هذا اليوم 10 مايو. فقد خُيل لي أن السماء ستميل على الأرض؛ ستون عامًا تحيط بالشابة إيمانويل التي تصعد على درجات مذبح سيون لتكرس نفسها للمسيح ولإخوته. أنتِ كنتِ بالقرب مني يا أمي، أنتِ لم تعبأي بالحياة الطائشة للمرأة الخاطئة، وأنت يا أمي،

ماري-ألفونس، يا قديستي ومعلمتي في بداياتي عندما ترددتِ في قبولي في نوتردام دي سيون:

- "الله يريدنا أن نكون سعداء يا أخت إيمانويل. هل أنتِ واثقة بأن الحياة الرهبانية كانت بالنسبة لكِ مصدرًا للسعادة والازدهار؟

- أنا واثقة، وأنا أتواثب من السعادة لأنني كرست نفسي جسدًا وروحًا للرب ولإخوة الرب!"

ستون عامًا قد انقضت، ومثل حياة أي إنسان يوم سعادة ويوم كآبة، يوم فرح ويوم ترح، لكنها كلها مرت بلا ندم على الاختيار. ففي وسط الغرائب التي في أعماق روحي ثمة طاقة من السلام والحب، وهكذا كنت خلال العشرين عامًا التي قضيتها مع إخوتي الزبالين."

أردت أن يكون العاشر من مايو احتفالهم هم، حيث تزورهم فيه شخصية كبيرة ومهمة، تزورهم هم المهمشون؛ ولهذا دعوت مدام ميتران وچاك دولور. فتلك السيدة كانت تحمل دائمًا ابتسامات مفعمة بالمودة، وللأسف اعتذر چاك دولور في اللحظة الأخيرة بسبب مؤتمر دولي.

لكن الحضور الغير الرسمي للسيدة الأولى لفرنسا قد تسبب في مشاكل ليس من السهل أن تُحل؛ كان الاحتفال الديني سيقام في الكنيسة الفقيرة التي بناها الزبالون وكان هذا حلمي. صديقي الكبير بطريرك الأقباط الأرثوذكس "البابا شنودة الثالث" كان مريضًا في ذلك الوقت ولم يستطع المجيء، مما تركني فريسة للظروف، ومن ثم فضّلوا الكنيسة الكبيرة والجميلة بمدرسة الفرير. مما أسعدني أن أرى بطريرك الأقباط الكاثوليك بجانب أسقف الأقباط الأرثوذكس الأنبا أثناسيوس مؤسس جماعة الأخت سارة! يا لسعادتي عند التعرف على عضوة البرلمان المصري ليلى تكلا وعضو البرلمان الفرنسي - وهو صديق - چورچ كولومبييه!

أيضًا ممثل البابا يوحنا بولس الثاني الذي وجه خطابه لي أنا الزبالة الصغيرة. كان الأسقف اللاتيني مبتسمًا بمودة وهو يشرح أنني جئت ولَفَتُ انتباه الكنيسة... وعليّ أن أستمر! وأخيرًا جاء الوقت المهيب في السعادة وفي تجديد نذري عندما كنت بين يدي الأخت "كاي"، التي جاءت من القدس وكانت تقول لي دائمًا أنتِ رئيس أساقفة الروح لتدعيم المجتمع.

يا للاإهيا في الطريق إلى ثلاث مراكز طبية واجتماعية والذي تم إصلاحه لاستقبال ضيوفنا. كانت فرحة غامرة للذين لم أرهم منذ سنين! وها نحن في المدرسة الجديدة بعزبة النخل التي تُدار بأيدي ماهرة من قبل الأخوات القبطيات. وهي تضم حوالي ثلاثمائة تلميذ منهم حوالي مائتين قادمين من الأحياء الفقيرة مندمجين بدون أي مشاكل مع أطفال القرى المحيطة. الواجهة كانت مدهشة بالرسومات المضيئة المرسومة بواسطة رسام سويسري معروف، أُندريه سونيو، الذي رسم الرسومات في المقطم.

وسط العربات، توجهنا إلى مركز السلام ولكن ، لم نستطع زيارة المركز المزروع وسط القمامة، حضانة الأطفال، المشغل، والمستوصف، كل هذا يدار عن طريق أخت قبطية جذابة جدًا. كان من الصعب أيضًا أن يزوروا كوخي الذي أُعيد تكوينه بعد الحريق ونادي كرة القدم لمئات الشباب الزبالين الذين أُنقذوا من قهوة التعاسة التي كانوا يجلسون عليها. وأخيرًا المبنى الجديد لكبارالسن. أنا أعلم تمامًا أننا سنكون في أمان تام فالزبالون هم أصدقاء يحموننا.

في مركز السلام، زرنا حضانة أطفال، تلك الحضانة التي تضحك في الشمس مع ألعابها، وهي هدية من أوروبيين صغار. زرنا بعد ذلك

معرضًا للحرفيين الشباب من الزبالين الفخورين بأول أعمالهم، وأمامه مستوصف ودار للأمومة. ومع كل ذلك نساء الزبالين يلدن في أكواخهن، ونحن ننتظر الجيل الجديد المتخرج من مدارسنا لننتصر على تلك العادة.

يوجد أيضًا المشغل اليدوي للبنات، وها نحن في الصالة الكبرى للاحتفالات وهنا العجب: أطفالنا ثلاثة أرباعهم من الزبالين، كانوا رائعين، والأرض كانت مرصوفة بألوان العلم المصري (أحمر، أبيض، أسود). البعض هنا شعر بالدموع تترقرق في العيون وهم يغنون وينشدون "شكرًا يا أبلتي! إيمانويل، أيتها الأخت إيمانويل، أنتِ غيرتِ حياتنا!" في هذا الوقت الازدحام في الخارج مازال مستمرًا حيث اجتمعوا وأصدروا صيحة حماس وهم يصفقون بأيديهم وفي تهليل تلقائي.

جاء وقت الأكل: سندوتشات جبنة وفول، وجبة الفقراء... وها نحن ننتقل للمركز التالي، وهو مركز علاجي واجتماعي يُسمى "المقطم" ومصنع السماد. قد لفت انتباهنا هذا المصنع مع مشغل السجاد الذي يخص الزبالات.

لا يوجد وقت نضيعه نحن الآن وسط الأحياء الفقيرة. جلسنا في أحد الأندية المهداة من جامعة لوفان-لا-نوف. عرض شباب الزبالين في مشهد رائع - وهم فخورون بزيهم الكشفي - الأغاني، تدريبات المصارعة، كرة القدم، لعبة الحبل، ومجموعة من الاسكتشات. قاموا بتقديمها في الصالة التي تحولت إلى مسرح بفضل أصدقائنا من لوفان-لا-نوف. كان تقديم الحفلة جميلاً جدًا. السبعمائة تلميذة اللائي بالمدرسة كانوا في قمة زينتهن يحملن القضبان كسندريلات: يرقصن ويغنين في حبور وفي سلاسة وهن في قمة الحماس. كان أصدقاؤنا من لوفان-لا-نوف مسرورين بمعرفتهم، وبفضلهم فإن أصدقاءهم يشقون طريقهم في المسار الصحيح.

ثم ثالث الأحياء الفقيرة، وهي معادي-طُرة حيث وصلنا في المساء. استُقبلنا بالطبل والدفوف، وفي حفل بهيج قادونا: إلى وسط ملعب كرة القدم. كانت حقًا سعادة شعبية وفرحة رائعة.

في اليوم التالي ذهبنا إلى "دار السعادة" على ضفاف بحيرة الإسماعيلية، ومائة وأربعين شابًا يضحكون ويرقصون! ولكن الشيء الرائع في النهاية كان: السيدة سوزان مبارك، التي لم تستطع أن تحضر الحفل فأجرت اتصالاً هاتفيًا بي وأخبرتني بمنحي الجنسية المصرية - منحة نادرة جدًا - من زوجها فخامة الرئيس مبارك. وجدت في النهاية اتحادًا بين إثنين أحبهم فرنسا ومصر!

الإقامة في سيون

على طول هذا النهر كانت مشاغل الحياة. مازال قاربي الصغير متعلقًا بجماعتي الرهبانية في سيون، ماذا أفعل؟ عليّ أن أبدأ من جديد، حتى بدون حماستي الأولى في أيام شبابي. وفي نهاية تلك الرحلة أقولها ثانيةً - وبكل ثقة - أنني كنت سأدخل تلك الجماعة الرهبانية لو أن الزمان قد عاد من جديد؛ لأنني وجدت فيها كل ما كنت أحلم به وكان عليّ أن أُدون في ثماني وستين سنة كل ما هو متعلق بنوتردام-دي-سيون.

هذه الجماعة الرهبانية تأسست في القرن التاسع عشر. كان الأب تيودور راتيسبون يهوديًا اعتنق المسيحية، وكان له أخ يكره أنه ترك ديانة آبائه. كان ألفونس ولدًا جميلاً ارتبط بفتاة جذابة، عاش الحياة الطائشة للشانزليزيه، واستفاد من ثروة عمه. وفي مروره بروما في يناير 1842م، ظهرت له السيدة العذراء، وكان مضطرًا أن يعلن ذلك لخطيبته الجميلة والعائلة، ولم يكن شيء يستطيع أن يجعله يحيد عن الطريق. صار بعد ذلك كاهنًا وساعد أخاه في إنشاء نوتروودام-دي-سيون.

كان الأب تيودور يريد لتلك الجماعة الرهبانية تكوين عائلة تعيش في محبة ويكون لها علاقة حميمة مع الله أب كل البشر، وتسود الأخوة في علاقة الأخوات مع بعضهن البعض. لقد دخلتُ بخطى واثقة نحو هذا المفهوم، الأكثر حميمية بالنسبة لصميم وجودي. إن لقائي بالله كان دائمًا لقاء حب، منذ كنت طفلة تفتح عينيها على علاقة مع موجود - في خيالها - بالغ الضخامة وبالغ الخير والصلاح، إلى أن بلغتُ مرحلة المراهقة حيث كانت تلك المُراهِقَة تتعثر في مسيرتها نحو الله؛ إله الحنو والرقة، الرأفة والحنان. إلى أن صارت الطفلة راهبة مبتدئة حيث كانت تدفعنا الأم ماري-الفونس نحو مثل أعلى للعطاء والسخاء وسط الفرح. تلك العلاقة البالغة البساطة التي كانت تستمد مصدرها من أشياء مرئية، تضفي على الحياة دفعة نحو الخير الحقيقي، وتُضفي ألوانًا من الجمال على الناس والأشياء. كان حنو الله يغمرني ويملأ القلب بمشاعر الإخاء. لكنني أعترف اعترافًا عابرًا، أنني لم أصل إلى ذلك المفهوم بالسرعة الكافية.

في كل جماعة رهبانية، باستثناء الجماعة التونسية - حيث شرحت الأسباب من قبل - كنت أُحب وأُستقبل كما أنا. طبيعتي التي تكون في بعض الأحيان قاسية كانت معتدلة من خلال الحنان العميق الذي أكنه لأخواتي، وكن يبادلنني إياه، أما الشجار العابر فقد كان يمر سريعًا. إن سوء الفهم كان بالتأكيد يظل مع بعض الأخوات أو السلطات الأعلى وقد تكلمت في هذا الخصوص في مناسبتها. ولكن الآن عن طريق حكم شمولي، أقول إن مشاكلي قد قلّت؛ فالشيخوخة أتاحت لي نظرة أكثر هدوءًا على الأشخاص والأحداث.

في سيون، كما في كل الجماعات الرهبانية، مصدر الحياة هو المسيح. القديس بولس يقول: "أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني." بدون



دخولي إلى الشركة الرهبانية، كانت حياتي ستمر من مغامرة إلى أخرى بأقل أو أكثر اضطراب وبالتأكيد كنت سأواجه فشلاً ما. لقد أنقذ المسيح حياتي ووجهها إلى سعادة الآخرين وجعلني أجد الازدهار في حياتي.

الإفخارستيا غذاء الصباح، كان دائمًا يعطيني طاقة الحنان حتى المساء. كم هو جميل أن تجعل هذا الازدهار في الحياة ينسكب على الأولاد والفقراء المفضلين عند المسيح! الشركة، والاتحاد مع الله يترجم اتحادًا مع سعادة وآلام الأشخاص الذين يحبهم الله.

في نوتروادام-دي-سيون، كانت العذراء لها المكانة المتميزة دائمًا بفضل التدريب الذي حصلت عليه في نوتروادام. صارت مريم العذراء روحًا لروحي، هي النفس لحياتي. كانت تنقذني دائمًا من اليأس والتمرد أمام الألم والموت. لقد حكيت بالتفصيل كيف أنه في أوقات الأزمات قد تماسكت وتعلقت بوجهها الحاني وبعذاباتها عند الصليب، فهي أبدًا لم تيأس، مؤمنة بالقيامة، ومُسبحة! التأمل اليومي أهدى كل هذا كترتيلة حب من طفل إلى أمه مريم العذراء، وابنها الذي لم يتردد في أن يُشارك - حتى الموت - في آلام البشرية، الذي مازال يتجسد بمعنى ما من المعاني في فقر البشر الذي استسلم من أجلهم للعنات التي صبت عليه بسببهم. بينما تسيل حبات السبحة بين أصابعي، فإن حياة المسيح كانت تسير على طريق العذاب والسعادة من أجل إشراقة المجد.

هذه العلاقة مع العذراء والمسيح كانت علاقة توازن بين الجسد والروح، بين الهوس والكمال. صنعت نجاحًا في وجودي بمجالات عديدة جسدية، أخلاقية، روحية، طبيعية، شخصية، واجتماعية. أنا لست شخصية متزنة، فأنا بعيدة عن ذلك! وقد لاحظت أنني أكثر من مرة كدت أحرق كل شيء كي أذوق هذه المتعة. ولكن... يوجد هنا لكن. كانت هناك

المقولة الصغيرة لنوتردام دولا جوادولوب: "انظر هنا وخذ ما تريد!" المحبة تصنع التغيير. العذراء حررتني؛ فقد تدربت ألا أتنفس بغير حب، طبقًا لنصيحة بياتريس أدانت. ركزت على ذلك: الله يظهر أكثر فأكثر كأب ولكل إنسان كأخ ولكل امرأة كأخت. هذه الروح من قلب إلى قلب مع العذراء. كان هذا هو الفنار الذي يهديني منذ بدايتي في الرهبنة، وكانت العذراء إحدى المصادر ـ الأكثر وضوحًا ـ لسعادة حياتي.

ما هو السر في نجاحي في هذا المصير؟ يهيأ لي أن الأساس من البداية هو أن نصل إلى عمق الدعوى؛ أي أن أجد أفضل ما عندي ذكاء، إرادة، وقلب. أجد ازدهارًا لي وللآخرين، ثم بعد ذلك أستمر في مسيرتي دون أن أُغير منهجي مع كل صعوبة أواجهها. كان لي الحظ في أن أفهم أن التكريس للرهبنة، كان هو مساري، وأن أعتمد على الله وأستقر نهائيًا في سيون. كان هذا جنونيًا في الحادية والعشرين من عمري، في دير، من أجل ثلاثة نذور. وها أنا في الرهبنة حتى اليوم، وتلك النذور الثلاثة هي التي ساعدتني وقادتني إلى ميلاد جديد. صرت إنسانة أسير على الدرب خفيفة وحرة. كانت أولى تلك النذور: هي الفقر؛ فاحتياج المال لتحقيق حياة مرفهة يجب أن ينعدم. الثانية: الطهارة؛ أي الانتهاء من البحث عن رجل. الثالثة: الطاعة؛ توديع الاستبدادية نهائيًا.

هذا غريب، ولكن في خلال السبعين عامًا، كنت متفائلة بروحي وجسدي، جاهزة لأن أطير إلى إخوتي وأخواتي في الإنسانية لنرقص الكارمانول (رقصة كانت ترقص في عهد الثورة الفرنسية)! وفي التسعين من عمري لديّ الأرجل الجاهزة لذلك! على كلٍ فالقدرة على أن أحب من خلال حياتي الرهبانية جعلتني أُنّمي هذا الحب إلى درجته القصوى.

الأم ماري–ألفونس هي التي قادتني إلى الدرب الملكي عروسًا

للمسيح ومعه. على حين أن الأم إلڤيرا جعلتني أحيا هذا المثل الأعلى؛ لقد شكلتني من خلال مهمتها الأخاذة كمعلمة، وهذه المسئولية كانت تقتضي أن أُطور نفسي ثقافيًا، ومن ثم قادتني في النهاية إلى جامعتي في إسطنبول وباريس. لقد سبق أن تحدثت عن فترة التوقف إبان دراسة الليسانس، وقد كانت خبرة صعبة ومفيدة في آن واحد، وحينما يكون الوجود البشري في حالة تمرد، فإن قول "نعم" إنما هو ضرب من الرياء الديني. لقد ذكرت أن الأم ماري-ألفونس لم تُخْفِ عنا شيئًا، فهناك وقت يجب علينا فيه أن نسير خلف المسيح نحو صورة من صور الموت. كانت تطلب منا أن نسير في الحب حتى ذلك المصير ولقد صليت وأنهيت أخيرًا دراستي في السوربون، ولكن شيئًا ما في قدرتي على الحب قد كبر في داخلي. وحين كنت أفي بنذري وأحرص على المحافظة على تكريسي، كنت أزداد إلتصاقًا بالمسيح وبإخوتي في المعركة. لقد كانت لي الثقة في العريس وفي أنني عروسه، ولكن "يا لها من معركة، عليّ أن أخوضها لأظل وفية لهذا القَسَمْ بأن أكرس للحب!" ولكن يا لها من سعادة أن أفي بنذري وأن أحافظ على إيماني! ويا له من فخر مغبوط يرن في داخلي بالفرحة وسط الصراع ضد الذات، حين يستطيع "الإنسان أن يعلو على الانسان" (باسكال).

كثيرًا ما وصفت أحزاني بسبب فشلي في السنوات التي قضيتها في تونس، ولكنني لم أقل إطلاقًا ـ كما زعم البعض ـ أنني عشت هناك سنوات تعيسة تمامًا؛ فأنا أصر على أنه هناك أيضًا: كان المسيح معي وكانت قوته تُكمِّل ضعفي. لولاه ما كنت أستطيع أن أعرفه، لقد كان يُعد قلبي لكي يتسع ببركات الوحدة. فهذه التجربة أفرغت قلبي لكي يستطيع أن يستوعب بحر التعاسة الذي كان عليّ أن أغوص فيه في أحياء الزبالين. وما كنت بدونه أستطيع أن أكون "زبالة مع الزبالين"! كان هذا التدريب

طويلاً وحافلاً بالألغاز، وجاء في صورة مراحل متعددة؛ فبعد الضنك والعسر الحقيقي في تونس، فإن مثلي الأعلى عن التكريس للفقراء لم يستسلم لليأس. لقد انتظرت سنوات طويلة حتى فتحت الكنيسة أبوابها، ودعت رهبانها بأن ينفتحوا على العالم أكثر. لقد سمحت لي سيون بالخروج من أسوارها.

إن المبادرة الاولى في دخول حياة الفقر الحقيقي، أُتيحت لي عندما كنت أعمل مع چوزفين، لكن لم تكن تلك هي المشاركة الكاملة في العطية الكاملة. وبعد أربعين يومًا من التوقع والاستعداد، حدثت معجزة "الحب الأعظم" وطالما حكيت عن الانقلاب الذي اعترى حياتي في حي الزبالين في كتابي الصغير"َ زبالة مع الزبالين" وسردتها بإيجاز في هذه الاعترافات. وحقيقة أن تعيش راهبة بمفردها في مستودع جمع القمامة ذي السمعة المخيفة، ، تلك مسألة لا يمكن الموافقة عليها بسهولة، كما لا يمكن أن تلقي رد فعل طبيعي، وهذه حكيتها أيضًا.

في هذا الموقف داخل جماعتي الرهبانية، كنا نعيش حياة من التهميش، استمرت تجربتها طويلاً. إن الشركة الرهبانية جعلتنا نعرف أنه إذا اخترنا فعلينا أن نتحمل عواقب ذلك الاختيار، بالإضافة إلى أن أخواتي قد استمررن في أن يحببن ذلك التفكير المشحون بمغامرة مجنونة. في أولى سنوات إقامتي مع الزبالين كان لي الفرصة أن أتعرف على الأخت جيزلان، وكانت معلمتي التي كانت تفهمني وتدعمني.

من الناحية المالية، حصلت على مبالغ لا بأس بها لإنقاذ أطفالنا حول العالم. أستطيع أن أشهد أن سيون لم تطالب مني شيئًا حتى في وسط أزمتها المالية، ولم تضع باسمي أي أموال والتي تُعطي الحق لسيون في الإرث. إن كان يوجد مبالغ باسمي فجمعياتي الآن مسئولة عن كل شيء.



ماذا نقول أيضًا؟ إن الأساس الذي تلقيته في الصغر كان له أثر كبير: فأولاً كان تعليم أمي لي، ثم جماعتي الرهبانية وفي استيعابهم الشابة مادلين، وكيف أعطوا لي الرجاء والتدين القوي والمنفتح على العالم. بعد ذلك ازدهرت حياتي في مناخ أخوي مبني على التفاؤل، قادر على مواجهة المغامرة عند الزبالين. تركتني سيون في مغامرات كنت أجري فيها بحرية خلال 22 عامًا.

الأمر بالرحيل (مارس 1993م)

تموت روعة الأعراس، ويتبعها "زمان الحب الأعظم". هذه الليلة في مارس، حيث قاربت الساعة على الثالثة والعشرين، الناس والبهائم نيام. استفدت من هذا الهدوء في الليل، لكي أغوص في داخل نفسي وأفهم في هذا الصمت ـ وأنا أمام الله ـ ذلك الأمر بالرحيل.

منذ يومين، علمت أن عليّ ترك مصر نهائيًا في نهاية أغسطس من هذا العام، لأتقاعد في بيت المسنين في "كاليان" في وسط فرنسا. كنت أتلقى هذا الأمر من رؤسائي على مدار خمس سنوات، ولكن قلبي لم يكن جاهزًا، كان يبدو لي صعبًا جدًا أن أترك الزبالين، لكي أستريح في بيت بعيد عن بؤس الأحياء الفقيرة. كان يبدو لي ذلك كخيانة لإخوتي وأخواتي الذين دائمًا كانوا أمام عيني. وأمام إصراري، كنت أضع مهلة لمدة عام كل مرة.

منذ فترة، كنت أتلقى دعوات من أوروبا كلها، وكان آخرها بالأمس، مكتوب فيها الآتي: محاولة انتحار... ثلاثة سطور من اليأس مكتوبة على ورقة مُلقاة على الأرض قبل الرحيل إلى المستشفى. انقاذ إنسان قبل أن يموت من الجوع ليس سهلاً، فقد وجدت أنه لا يوجد مشكلة في كيفية إطعام 30 ألف سوداني صغير يوميًا. ربما كرم الإنسان على أخيه الإنسان،

ولكن إنقاذ كائن حي مجروح جرحًا مميتًا؛ ففي تلك اللحظة علينا أن نتذكر "أن الإنسان ليس شيئًا لأخيه الإنسان" حتى الزوجة المحبوبة لا تستطيع أن تنقذ زوجها من الانتحار والطفل أيضًا! الله وحده الذي له القدرة على أن يعطي شعاع الأمل والرجاء للميت، الذي اختار الموت. اعتاد الأفارقة منذ صغرهم أن لا يضعوا حدًا لحياتهم بأنفسهم ونجد الحالات نادرة جدًا. أما الأوروبيين فالحالات تتضاعف بين الشباب، عندما تجد الصعوبات والآلام مكانًا في حياة سهلة حافلة بالمتع، ينشأ الإغراء بإلقائها للعدم. ماذا أستطيع أنا المرأة الضعيفة كي أجعلهم يتحملون التجربة، حيث أن البؤس جعل مشاكلهم تكبر؟ كيف أجعلهم يقتربون من إخوتهم المحيطين؟ قبل أن أرجع إلى أوروبا لم أتخيل تلك المشاكل.

إيمانويل مهمتك الجديدة هي أن تلتفتي إلى الله وتنقلي له "صرخات البشر الصامتة"، طبقًا لتعبير الأب وريسينسكي، صرخة البشر المطحونة بدون صوت، ولكن في القلب بكاء من تلك الوحدة التي تقود إلى الموت. فلتصرخي ليل نهار إلى الله من أجل إخوتك وأخواتك الأوروبيين الذين على مشارف الهاوية، لكي يرفعوا عيونهم إلى المسيح على الصليب والذي أعطانا الحياة لينقذنا، وهو الذي قال "نفسي حزينة حتى الموت [49]".

صلاتك تكون أيضًا لأصدقائك الزبالين الذين دائمًا في مخيلتك. لا تتوقفي عند طلب الماديات لهم فقط، بل اجعلي شعاعك الروحي يتسع. أتعرفين يا إيمانويل أن الأخت سارة وأخواتها يكملن العمل في الأحياء الفقيرة بكفاءة وحب. جمعياتك في فرنسا وبلچيكا وسويسرا العاملة في السودان والمدعومة بآلاف الأصدقاء والمحبين. بصراحة يا إيمانويل انظري إلى الحقيقة أمامك؛ الكل ينمو ويخطو خطاه ولم تعودي ضرورية. الحمد لله! والمجد لأسمه!

49- مت 38:26



كان هذا هو الخطاب من السلطات العليا حيث يقودني ذلك إلى مكان يتوقف الزمن فيه والجسد لا يتحرك والروح تصير صلاة. وببعض النفور كنت أنظر إلى الورقة بين أصابعي وذلك الأمر بالرحيل، لماذا؟ أن الروح البشرية معقدة! من أين لي هذا الاشمئزاز؟ ربما يكون من هذا الطلب وربما لا؟ ولكن هذه المقاومة ربما تكون جذورها في أن إرادتي لا ترحب بتلقي أوامر من أحد بعد أربع وستين عامًا من الحياة الرهبانية!

ترانيم الألم ترد الآن على ذاكرتي، ولكن المسيح قد أطاع حتى الموت، موت الصليب. هذا هو الوقت في أن نتعلق به حتى النهاية وهذا ما تسميه الأم ماري-ألفونس "زمان الحب الأعظم" أسمع تلك الكلمة ترن في هدوء في حي الزبالين، وأجبت في هدوء: "نعم."

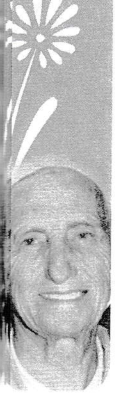
الوداع الأخير (أغسطس 1993م)

مَن هذا الذي لا يود أن ينهي عمله بشكل جميل؟ أود أن أنهيها برقصة كلها سعادة مع الأطفال.

الأسر السودانية اللاجئة التي كانت تجلس ثماني أو عشرة أفراد في الغرفة الواحدة، أثناء الصيف في القاهرة. كان بيتنا "دار السعادة" على بحيرة الإسماعيلية يمتلئ بالزبالين، مع المثابر بولاد مدير مدارس الفرير. جلسنا في خيمة على حافة البحيرة تخص منظمة كاريتاس مع شخصية مصرية جذابة جدًا؛ وهي السيدة نبيلة بذكائها المفعم ووسط الصيحات والضحكات كان ما يقرب من خمسين طفلاً سودانيًا أسود البشرة يأكلون الفراخ والبطيخ، ويلعبون الكرة في الليل قبل أن يخلدوا إلى النوم في الخيام. كانت السهرة تحت النجوم وكانوا يرقصون رقصهم الشعبي في روح الحماسة. عندما جاءت لحظة الوداع، اندفع الكل نحوي والقبلات كانت ترسل إليّ والصيحات تقول "ربنا معاكي!"

سارت العربة، ثم ألقيت نظرة إلى الخلف، كانت النظرة الأخيرة، فرأيتهم في مياه البحر الزرقاء يرقصون مبتهجين. وكانت آخر نظرة في حياتي في الخدمة. نشكر ربنا! الحمد لله!



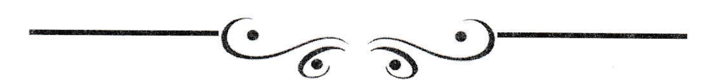




الجزء الثالث

المرحلة الأخيرة، غير المتوقعة!

1993م _ ...







في عام 2005م، سوف أُكمل سبعًا وتسعين عامًا، فقد قررت أن كل ما يأتي بعد ذلك هو أن أنهي هذه الاعترافات. فقد اعتزمت أن أتبع نفس الطريق وأن أفصح عن حقيقة إنسانية بسيطة جدًا. وقد صادفتني أيضًا التجارب التي لازمتني في الشيخوخة وأثناء تقاعدي، بعد حياة نشطة جدًا، ولكن الحياة فاجأتني! إذ تخيلت أن رجوعي إلى فرنسا ما هو إلا انتظار للموت؛ ولكن هذه المرحلة الأخيرة قد دامت أكثر مما كنت أتوقع. فضلاً عن ذلك، فوجئت بتوجهات جديدة حركت كياني وطرحت بداخلي أسئلة جديدة. وهو ما زعزع استقراري، ولكن أرغمني أيضًا على التعمق أكثر حتى استعد أخيرًا للسفر إلى الأبدية. أيضًا عندما أسترجع الماضي القريب، لا أستطيع سوى أن أشكر الله على كل شيء جديد غير منتظر قد حدث لي أو بواسطتي.

أثناء تقاعدي

في أغسطس 1993م، وصلت إلى "كاليان" بوسط فرنسا. فما معنى كلمة "تقاعد"؟ الهزيمة؟ انسحاب؟ إعلان التبطل في النهاية؟ ترك العمل مبكرًا أم فقدانه؟

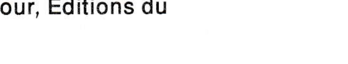
الإعتزال بالنسبة لي، يعني الدخول في الصمت والصلاة. لقد طلب مني رؤسائي - خشية أن تنفجر في وجهي موجة من جميع أنواع

الاتصالات - أن أتهرب من كل هذا بشجاعة ودون تردد. وبالفعل تكاثرت عليّ خطابات، تليفونات، فاكسات، وتم دعوتي إلى مؤتمرات، ندوات، زيارات، مقالات، إلخ...

وكنت أجيب دائمًا بالرفض وأكتفى أن أتبع نظام السكون والهدوء بالبيت وهو المتبع بالنسبة للأشخاص المسنين. وأيضًا حسب رغبة الأخت "كاي"، رئيستي بالإقليم الرهباني، أيضًا الجمعية لم تعد تلجأ إليّ؛ مبدئيًا لم أعد موجودة لأحد، وقد اختفيت.

ماذا ستكون حياتي بعد اليوم؟ جفاف بدني وروحي، أم هي فترة تكوين جديدة لنفسي؟ هل هو تكرار للمأساة الإنسانية؟ بدأت هذه التجربة من خلال ساعات طويلة من الصلاة التي أشعرتني بالقرب أكثر من الله والناس، شعرت أنني وسط نهر من الحنان. وهنا خطر ببالي آخر كلمات الأم "ماري ألفونس": "ليكن لك قلبًا مجروحًا بآلام هذا العالم". فعلى صدى ذلك الصوت رنت كلمات "الخوري بيير": "عندما تتألمين فأنا أيضًا أتألم". فبالتعمق في قلب يسوع نجد الشفقة العاملة. ولا غرو أن الانقطاع المفاجئ للتواصل مع الآخرين قد ترك في نفسي التواقة للنشاط بعض الألم في النفس. حينئذ، كل اختبار يمكن أن يساعد الشخص في أن يصبح أكثر إنسانية، أكثر قربًا من ملايين البشر الذين يعانون على نفس الطريق. إنني أتفق مع "تيهارد دي شاردان" ومفكرين آخرين في أن الإنسانية ترتقي على وتيرة واحدة. إلا أن من يحبط لا يتوقف تمامًا وأنما يبذل قصارى جهده في أن يتقدم ويساعد الآخرين أيضًا على التقدم والصعود معه. قالت "إليزابيث لوسور":[50] "من ارتفع يرفع معه العالم". فاتحاد البشر فيما بينهم ليست مجرد كلمة لا طائل من ورائها.

50- É. Leseur, Journal et pensées de chaque jour, Éditions du Cerf, « Intimité du christianisme », 2005.



بكل تأكيد، هذا النوع من الحياة قد تعارض تمامًا مع النشاط المحموم للأعوام الماضية فمنذ ذلك الحين كانت الحياة الداخلية تتطلب مني الاستكشاف؛ أتأمل الإنجيل وأظل منفتحة على مشاكل العالم أثناء الصلاة. وقد عدت نوعًا ما إلى نبع حياتي الرهبانية: فمنذ خمسة وستين عامًا أي في عام 1929م بدأت الدخول في فترة "اعتزال" وتدريب لمدة عامين. هذا التكوين الضخم قد أعدني لحياة حب ممتعة لخدمة الله والناس.

إذن، فقد تدربت جيدًا لمهمتي الجديدة ولكن انسكب عليّ ماء بارد أفقدني عزيمتي منذ أيامي الأولى. ففي صالة الطعام، المسنات المحترمات اللائي من حولي ينتمين بطبيعتهن إلى "أيام الزمن الجميل". وكنت أجلس على مائدة عليها وجوه مهيبة الطلعة، وكئيبة. وعندما علم الآكلون أنني قد عشت خارج أوروبا منذ 1931م، أخذن في تلقيني كيف يعيش العالم المتحضر. وأن الأكل لابد أن يكون بالشوكة وشرحوا لي أن الأخلاق التي عشتها طوال العشرين سنة الماضية أصبحت الآن قيودًا قديمة محطمة. "فلم نعد نتزوج ونكتفي بالعلاقات السرية. ولم تعد هناك أسرة، والطلاق أصبح عملة متداولة مريحة، والإجهاض أصبح شرعيًا ولم تعد النساء تردن أطفالاً، والشباب يحرق ويقتل حتى بالمدارس التي فيها يُضرب المعلمون التعساء. وانتشرت المخدرات بطريقة مخيفة حتى أن هناك تفكيرًا في تقنينها والإيدز أصبح وباءً جديدًا يقتل الملايين والشواذ لم يعودوا يختبئون، وسعى الفساد وتقبله رجال الأعمال والسياسيون في الدوائر السياسية العليا. وخلت الكنائس تمامًا، ما عدا في الجنازات. ولم نعد نعمد، فعما قريب لن يعود لدينا كهنة. وفي النهاية أصبح المجتمع فاسدًا بأكمله، دون أمل في الشفاء ولحسن الحظ فنحن ننتظر الموت بكل فرح كي ندخل إلى عالم أفضل!"

غنيٌ عن القول أن هذه الرؤى المتشائمة التي لا أستطيع قياس ما بها من صدق وما بها من مبالغة من شأنها أن تكسر أجنحتي وتفقدني الشهية؛ فوضعت رأسي أمام طبقي، ولم أتجرأ على الإقرار أنني لا أتعجل الموت. غير أنني سلمت بأنه يوجد بعض المنازل الأخرى مثل هذا البيت المقدس الذي فيه أهرب مع إخوتي من هذا الجيل بفضل الصلاة. وبدأت استعادة أنفاسي. فهذه الأنفس الطيبة، رسمت لي واجبي بكل وضوح: وهو الارتفاع نحو الأفق - ملجأي وملاذي - والاعتزال بعيدًا عن مأساة الجحيم التي يعيشها هذا الكوكب، "دون أمل في الشفاء".

الذكريات

ومرت الأيام، وأصبحت عذراء مُصَلِّية. فقد أفادني كثيرًا وقت الإعتكاف الهادئ: فالماضي قد خلا من الشوائب، والخيوط الغائرة ارتفعت وجمعية "أصدقاء الأخت أيمانويل" بباريس وفروعها في ثلاث مدن أخرى هي بروكسيل وچينيف وجميعة أورانج **Opération Orange** بإيزير، مرت أمام عيني ثم تبعتها إمدادات ساعدت في نهوضها. فكم من نشاط ساهم في إنجاح كل مشروع منها!

فوجه سمير الأسمر، والملامح اللطيفة للأخت سارة، والعيون المتحمسة لجميل السوداني، قد ذكرتني بأنشطتهم اليومية. ففي القاهرة أرى سمير يمشي بجانبي، وهو يعكز رجليه المعوقتين بعجلته. فقد وُلد في العشوائيات وهو صديق للجميع، وكنت أظن أنه عاجز تمامًا عن أن يمشي في أي مكان. وأعدت التفكير في حديث مطول مع الأخت سارة أمام طبق الفول، وأخذنا نتباحث عن مشاكل اليوم. فمعرفتها بالروح المصرية حققت مشاريعنا، وثبتت خطانا.



وفي الخرطوم، أسرعت مع "سيمون براهمشا" و"جميل السوداني"



إلى مراكز التموين وكنت أتصبب عرقًا. ثم قمنا بتوزيع السندوتشات للبطون الجائعة. فقد علماني أشياء مذهلة! كنت أشرب المياه من زجاجة ويسكي قديمة، وقد اختطفتها "سيمون" (حتى لا يُظَن أني أشرب خمرًا) من فمي؛. وأيضًا خطر التكلم مع هذا الجار ؛ فهو يمكن أن يشنقنا. وهناك يوجد عيدان الغاب التي يمكن استعمالها لبناء مدارس بسعر رخيص. التعاون مع هؤلاء الأصدقاء الذين يفهمون جو السودان، قد أتى ثماره.

هذه الذكريات المتأملة توقظ بفكري استنارة جديدة، فمن جهة أُلاحظ بوضوح طريق قوي في كل هذه التجارب: تنفيذ الأنشطة بأماكن مجهولة تستلزم العمل مع الشخص ذاته الذي سيقوم بالبناء. اعترفي بهذا يا إيمانويل من "أنا" بدون جميع هؤلاء الشركاء، نشاطك الشخصي كان سيبقى مثل معول منعزل وخالي. فالحقيقة تتطلب "نحن".

ومن ناحية أخرى، يتصاعد الرجاء من تلك الصلاة الماضية. يا سكان الكوكب، نحن على مشارف القرن 21 والذي قال فيه "مالرو" عرفنا المعادلة التي أصبحت كلاسيكية إنه إما أن نكون روحانيين أو لا نكون على الإطلاق.

إنني لا أستطيع أن أؤكد لك يا عزيزي "مالرو" أن كوكبنا يدور منطلقًا نحو الحقائق اللازمانية ولا أن الصراعات أو الحروب لم تعد تدمر البشر، لكني أؤكد لك أن أقلية ديناميكية توحدت لتتصدى للطغيان شباب بالغ الحماس للمساواة وهو يعرف مبتغاه، وأنه غدًا سوف يتسلم زمام الأمور، وبين صفوفه هناك من يتطلع للأعالي حيث ينشد الإنسان ويتغنى للسلام بكل لغات العالم: فتجد "Paix" الفرنسية إلى جوار "Peace" الإنجليزية و"سلام" العربية و"Frieden" الألمانية.

وها أنت يا عزيزي "مالرو" تهتز في قبرك فرحًا وسط الحشود

الضخمة التي طالما عانت وكابدت غياب العدالة في القرن العشرين الذي شهد عذاباتهم الأولى. لقد حدث تطور هائل؛ فالسعي نحو الإلتزام بالتكافل الإجتماعي ونحو سلام دائم أطول أمدًا بين الشعوب ونحو مستوى أفضل للمعيشة بين الفقراء، كلها تسير جنبًا إلى جنب مع الكفاح ضد الأمراض والأوبئة.

وبهذا فإن المستوى الروحي لهذا القرن يتشوف إرهاصات القرن القادم... القرن الحادي والعشرين.

كتابة

نوع آخر من الأنشطة التي بدأت تشغلني مؤخرًا خلال هذه الفترة، حتى هذا اليوم. لقد بدأت أكتب. ففي الحقيقة أنني بدأت بخطوط أولية "لمذكراتي" حتى أواخر الثمانينات في مصر. ونصحني أيضًا اثنان من الآباء اليسوعيين وكليهما قامة فكرية وروحية عالية، الأب موريس والأب بولاد، أحدهما فرنسي والآخر مصري.

فما الذي دفعني لأن أمسك القلم؟ هل هي رغبة في الحوار أم أنها كتابة رؤية للآخرين، وانتظار آرائهم أم رغبة في ولادة سقراط يتكلم وكأنه يصل إلى قلب الإنسان أيًا كان عمره؟ أليست الكتابة نوعًا من الولادة الجديدة، بمعنى أنه من خلال الكتابة نُخرج ما بداخلنا وما نحمله بأعماقنا. دون شك فهذه الأماني المختلفة جالت بداخلي لكنها تصلح للحديث حسب الموضوع، والأكثر من ذلك أنه عندما نشارك الناس حياتهم مثلما فعلت، فإننا نكتسب معرفة حقيقية بالناس بصرف النظر عما يظهر في الخارج. فمن هنا أتتني الرغبة أن أتذوق الغنى الهائل الذي لا يمكن تصديقه في الآخرين.





وصلت إلى "كاليان"، وكنت أشعر دائمًا بالحاجة إلى مساعدة هذه المؤسسات. فمنذ هذه اللحظة والتعاون أصبح مثمرًا أكثر فأكثر، ثم بدأت الاتصال بالخوري "فيليب أسو"، والذي كنت قد تعرفت عليه منذ بضعة أعوام عند عودته من بعض المؤتمرات. كان في سن الثلاثين في ذلك الوقت وزاول خدمة مهمة بإيبارشية "نيس"؛ مثل إرشاد طلاب الجامعة، كما كان مسئولاً عن إعداد الرجال للكهنوت بالإضافة لكونه معاونًا رعويًا. وقد أعد أيضًا رسالة دكتوراة تبحث في تأثير أرسطو على سفر أعمال الرسل بالكتاب المقدس. ثم أجاب على اتصالي بالقبول وامتد الإتصال إلى "بينوا لامبيرت" ، والذي ساعدني أيضًا مساعدة قيمة.

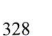
بدأنا بتصحيح أولى الكتابات التي أصبحت هذه الاعترافات. بينما كنت أتابع عملاً آخر من المعروف عنه أنه لن يكتمل إلا بنهاية مغامراتي. وطلبت منه أيضًا التأكد من الموضوع، مثل ترابط المضمون ولاهوتيات الأعمال الأخرى التي سأكتبها فيما بعد مع آخرين والتي سأقصها عليكم. أخيرًا، بدأنا الكتابة سويًا بآخر كتابين لي. وكان ذلك يتطلب منا التعرف على شخص يمكنه مساعدتنا، وهو من سأختاره أب اعترافي.

وبخصوص المشروع الروحي قلت ببساطة إنني كنت متضايقة بسبب صراع عنيف ضد عيوبي ثم اعتمدت تمامًا على مجهوداتي الخاصة. ولم يستمر هذا الصراع؛ لأنني لن أستطيع أن أُغير جلدي وإنما غَيّر فيليب محور اهتماماتي فأصبحت أقل تقوقعًا في ذاتي. ولكن تعلقت أكثر من ذلك بالرحمة اللا نهائية لله الذي يحبني كما أنا، وحولني إلى علاقة الحب هذه. وفي كلمة واحدة اتكلت على الله وليس على ذاتي.

وعلى هذا الأساس من الحرية الداخلية، بدأ العمل يرتفع حجرًا بعد حجر، هذه هي القصة بمراحل حدوثها. فمنذ ذهبت إلى الزبالين حتى

بدأت في تلقي مساعدات مالية، وقد كنت أرسل باستمرار من القاهرة خطابات إلى أصدقاء ومتبرعين، أحيطهم فيها عِلمًا كيف أن عطاياهم هذه غيرت حياة الأحياء الفقيرة شيئًا فشيئًا واحدة من صديقاتي الإيطاليات تدعى "چيوفانا" كتبت لي مرات عديدة لتحفزني على نشر أحداث حياتي اليومية. وفي يوم جميل، في عام 1976م عدت إلى جمعيتي بالأسكندرية ثم أخذت أسبوعًا أجازة، ونزلت ببيت مطل على البحر. هل هو اضطراب الأمواج، أم أجنحة النورس البيضاء في السماء الزرقاء، أم هو ترنح السفن البعيدة هو الذي ألهمني. جرى القلم على الورقة واسترجعت ذاكرتي أحداثًا عديدة أضحكتني منذ سنواتي الأولى التي أقمتها مع أصدقائي الزبالين. فليس لديّ سوى العمل على التسامي بإنسانيتهم البدائية، الممتزجة دائمًا بالتناقض؛ السذاجة مع الخداع، القسوة مع العذوبة، فهؤلاء الرجال والنساء أشخاص مرحين دائمًا، يعيشون حياتهم ضاحكين. من هنا بدأ مولد كتاب زبّالة مع الزبّالين"**Chiffonniére avec les chiffonniers**" " ولكن مَن الذي سيأخذ على عاتقه مسئولية نشره؟ فقد كانت لي صديقة تدعى "مدام روز"، وكان زوجها يعمل مستشارًا ثقافيًا في سفارة فرنسا في القاهرة، أخذ زوجها على عاتقه مسئولية نشر هذا العمل الذي انتهى لدار نشر "**Ouvrières**"، وبالفعل وصل ما كتبته أخيرًا إلى دار نشر "**Ouvrières**". ومضى عليه عام بالصناديق قبل الظهور. فالإعلان عنه كان لا وجود له تقريبًا، ولم ينل إلا القليل من النجاح. في حين أن بعض الأشخاص قد كتبوا لي بأنهم وجدوا مجموعة نوادر رائعة ذات فكر فكاهي. وأيضًا قارئة أخبرتني أنها استمتعت به في المساء وأنه جعلها تنام، فشكرتني جزيل الشكر. تنويم الناس، كان أول نجاح لي في الكتابة!

قلت له إن نهاية إقامتي في مصر قد اقتربت مما دفعني للعودة إلى





التخطيط مرة أخرى في استشكاف حقيقة وجودي ووصف تناقضاتي الداخلية. وبالتأكيد هناك في داخلي ميل للعمل الذي يحدث فرقعة جنبًا إلى جنب مع المتعة واللهو والتسلية، إلا أنه يوجد أيضًا أمر أعمق يدفعني للتصرف والسلوك بطريقة تتعارض كليةً مع ما سبق، وهو أمر يسكن أعماق أعماقي، وهذا هو المسيح؛ الإنسان الإله الذي يحلق بي إلى ذرى المحبة.. فهو يلزمني باستمرار وبلا توقف على أن أعلو فوق ذاتي.. فمن المستحيل أن أُقاومه، لا أستطيع، فما من إنسان استطاع اجتذابي هكذا. فإني لست راهبة صالحة وليس لديّ شيء من القداسة والناس تشبعني مديحًا، الحقيقة إنه ليس أنا بل هو الذي بداخلي. إذن يبدو لي أن الشكل المناسب لهذه الذكريات هو "اعترافات راهبة". وبالفعل بدأت بالظهور دون تصنع وأحيانًا أخرى لم أُظهر الفقر والغنى الذي بداخلي، فبدت حياتي سعيدة دائمًا، ولديّ شعور دائم بالقدرة على اجتياز جميع الحواجز وأنا لم أكن شيئًا بالمرة ولكن كل شيء من عند حبيبي الذي معه أحيا، يأخذني من يدي ولم أقل له أبدًا تعبت هذا يكفي! فهو يحبني كما أنا.

لكن لديّ شيء من الحياء، فلا أريد أن تصبح حياتي مكشوفة أمام الآخرين، إلا إنني أريد أن أكشف نفسي على حقيقتها. أولاً بالإصرار على الحق: فهذا أنا، ولسبب آخر هو إن لديّ قناعة تامة بأنني لابد أن أكون مفيدة. يبدو لي أحيانًا أن الخير الذي أعمله للآخرين الذين يسمعونني ما هو إلا شعور إنساني دفين، مشابه للشعور المتواجد لديهم.

وليس ثمة سبب – ما دمت سأموت – يدعوني لإخفاء الحقيقة لأنه طالما أنا على قيد الحياة لم أكن إطلاقًا أوحي لمن يستمعون إليّ إلا بأني عريانة وفقيرة وأن أي عبق يبدو أنه ينبعث مني ليس إلا عبيرًا مصدره شخص آخر ألبسني لباس العُرس ليس إلا زينة مصدرها حبيبي الذي أحببته.

كنت أُحب دائمًا أن أرنم النشيد القديم، بروح شابة، فهو مثل فترة زمنية فاصلة بين البنت الشابة التي كانت في الماضي، وبين الراهبة المسنة حاليًا. فتذكرت في ذلك الوقت أثناء التدريب أنني كنت أُرنم: "فرحًا أفرح بالرب. تبتهج نفسي بإلهي، لأنه قد ألبسني ثياب الخلاص. كساني رداء البر، مثل عريس يتزين بعمامة، ومثل عروس تتزين بحليها".[51] ماضيك يقترن بحاضرك يا إيمانويل، فلا تتركيه يجف. قصي مغامراتك في كتابك، اكتبي للآخرين فن العيش وتحمل الحياة باقتناء حكمة القارات الخمس، واكملي الفصول المبتقية من اعترافاتك!

كان الخوري "فيليب أسو" يقرأ لي، يشطب وينصح، آراؤه كانت ممتعة للغاية. فقد كتب: "فقرات تكتبها معلمة عجوز من أوائل هذا القرن". كنت أتحمل وأصحح. ومع مثل هذا العمل العميق، كنت شيئًا فشيئًا أنفتح على الآفاق الفسيحة، وما أن أصل إليها حتى أتلمس طريقي إلى غيرها؛ كما سأروي فيما بعد. بدأت أكون معروفة، وبدأ الآخرون يهتمون بما أود أن أقوله. ففي عام 1995م أجريت حوارًا مع الصحفية "مارلين توينينجا" "Marlène Tuininga" وهذه الحوارات تحولت إلى كتاب "الفردوس هو الآخر" "Le Paradis، C'est les autres"، فقد حاولت أن أكشف السر الذي عرفته عن أناس سعداء بقدر ما هم بسطاء، قلبهم ينضح طيبة، وإشعاعات الفرح التي تصدر عنهم تنعكس عليهم مرة أخرى.

ففي أثناء ذلك، نشر "چاك دوكسن" ""Jacques Duquesne كتاب "يسوع" "Jésus"، وهو نوع من كتابة السيرة الذاتية بشكل علمي مثير للجدل. فلقد اتبع نهجًا عقليًا تاريخيًا، لا يتفق أبدًا مع

51- إش 61: 10



علاقتي السرية الحميمة بيسوع المسيح، ومن ثم رددت عليه بكتاب "يسوع كما عرفته" ""Jésus tel que je le connais"، وكالعادة كان ذلك بمساعدة خبراء مثل "مارلين تويننجا" وتحقيق "فيليب أسو". لم أتحدث بإسهاب، وكشفت عن علاقة الحب التي تربطني بذلك السيد الرائع الذي يستطيع أن يغير كل يوم من أيام حياتي.

ثم إن مأساة بعض الشباب الذي يتسكع دون مرشد، نادتني؛ فخصصت لها كتاب "يالله، إلى الأمام يا شباب!" "Yalla، en avant les jeunes!"" بالاشتراك مع "فرنسواز هوارت" ""Françoise Huart هذه المرة وأوجزت مقدمة الفصل تحت عنوان "حفز الشباب تجدهم رائعين" وهذا الكتاب ليس إلا وصفًا لما رأيته أثناء عملي.

لكن فيليب أخذ على عاتقه خلال جلستين متتاليتين - كنت أنام منه فوق الورق - خطين مهمين من خطوط حياتي كنت قد تكلمت عنهما من قبل ولكن دون صياغتهما. وقد حاولت باختصار في كتب "غنى الفقر" "Richesse de la pauvreté" نقل تجربتي عن العمل الإنساني بشروطه الصحيحة وينابيعه العميقة وما يحمله من جمال. وفي ""الحياة، ماذا تعني؟" "Vivre، à quoi ça sert?" كشفت عن بعض القيم التي أتاحت لي التغلب على ما في الحياة من ضيق لكل البشر وكان هذا بفضل معلمي المفكر والفيلسوف باسكال.

ويكفي هذا الآن عن تلك الكتيبات!

فعن طريق تلك الأعمال بدأت نوعًا جديدًا من التحاور مع الناس، فكنت أستطيع أن أقيم اتصالاً مباشرًا مع المحاضرين أو المتحدثين عن قناعاتهم وكنت ألمس صميم أعماقهم وأُدخل إليها تجربتي في الحياة، كنت أريد من خلالهم أن أعمل الخير، وكنت أريد أن أجهر بأعلى صوت

بكل معاني الحياة الجليلة. ولقد كان في هذا خيرًا لي أنا ايضًا، فمعاونيّ المتعاقبون - و"فيليب أسو" على وجه الخصوص - قد ساعدوني على أن أستخلص من ذاتي معنى الحياة كما لمسته، وأن أُعيد ترتيب حقائق الحياة على ضوء مراحم الله، وأن أتثبت مما يرد على خاطري في حواري مع الله وفي حواري مع البشر، لأنهما في النهاية واحد، لقد أعادت الكتابة الوحدة لنفسي ولحياتي.

توجهات جديدة

ما أن مر عام على دخولي نظام "الإعتزال" حتى وجدت المسئولة عن جماعتي الرهبانية تبالغ في القيام بدور "الحارس الفظ" عليّ لدرجة أنها كانت ترفض كل اتصال بي من العالم الخارجي، لكني عندما كنت أشعر أن استجابتي لأي طلب أو استفسار خارجي يمكن أن تكون مفيدة، كنت أود أن أرد لكن هذا لم يكن مسموحًا لي، ولقد أبدى لي "فيليب أسو" ملاحظة مؤداها أن أسلوب حياتي الحالي لا يتوافق بدرجة كافية مع نذري الرهباني الأول، والذي كان يطالبني بأن أكون أكثر قربًا من الفقراء، وكلما كان الأمر ممكنًا، يجب أن أقدم رسالة ذات قيمة.

تَحول جديد بدأ يحدث بانعقاد اجتماعات تشاور بين "الأخت تريزا" **Soeur" "Thérèse** مسئولة الجمعية، و"فيليب أسو" رئيس الجمعية و"كريستيان باريه" ""**Christiane Barret** و"تراو نيجوين" ""**Trao N'Guyen** أمناء صندوق الجمعية. واتخذت عدة قرارات منها: إنه من الآن فصاعدًا سأتولى أنا مسئولية قبول أو رفض الدعوات المتكاثرة. ثم أخبرتهم بذلك دون مداورة أنني سأقبل الكل لأنني لا أرفض أحدًا.

ومن ناحية أخرى تم الاتصال مع "أصدقاء باولا" "**Les amis**





de Paola"، وهي جمعية تهتم بالمشردين "**SDF: Sans**".
Domicile Fixe

أريد أن أقول إن أساس التجربة الرائعة التي أعطتني أن أعيش طوال الوقت بجانب المهمشين. وهذا الطريق الجديد هو الذي وجه طاقتي لعدة سنوات حتى 2003م تقريبًا.

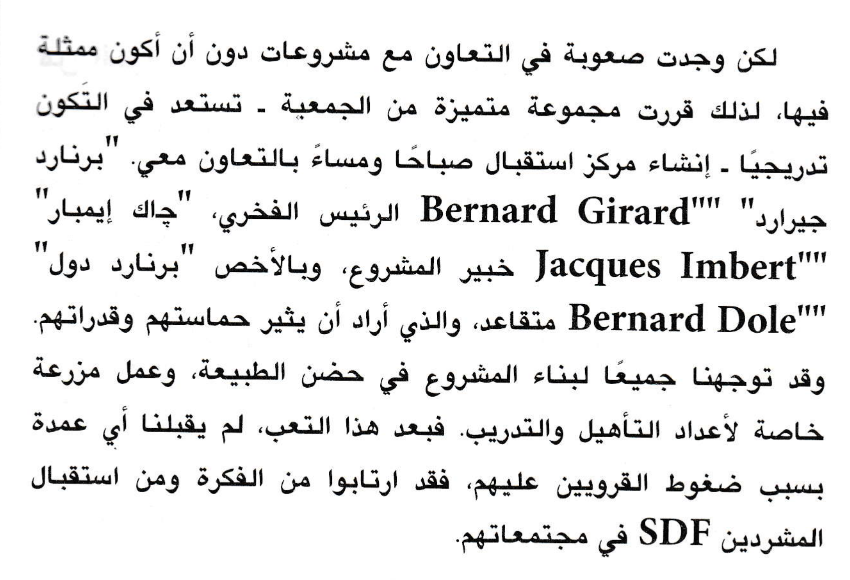
كنت قد اكتشفت منطقة "فريچوس" "**Fréjus**" التي كان فيها المشردون رجالاً ونساء قد قطعوا كل علاقة بعائلاتهم وبالمجتمع، وكنت خلال ثلاثة أيام في الأسبوع تحت تصرفهم بالكامل، ما عدا أثناء تنقلاتي، وكنت مقيمة بغرفة صغيرة بفريچوس **Fréjus**. فيا لها من صدمة نادرة تعرضت لها عندما تواجدت وجهاً لوجه مع عالم غريب عليّ تماماً. عرفت أسراراً مخيفة، فإلى أي مدى هؤلاء المحتقرون، المهمشون هم أخوة وأخوات لنا لكنهم سقطوا إلى الحضيض رغم أنهم من لحم ودم مثلي، يرسلون نظراتهم بعيدًا عني، لماذا؟ مجريات الأحداث تحمل معها العناء والظلم إلى أن تصل بهم إلى إلقائهم بالشوارع. فمنهم شخص عمره ثماني وعشرون عاماً، حكى لي مأساته بنبرة متهدجة: إنه ذات يوم عندما كان صبياً صغيراً في سن العاشرة من عمره أُرهقت والدته من العراك وأمام عينيه غرست سكينًا في صدر والده.

ويحكي شخص آخر إنه كان لديه خمس سنوات عندما اصطحبته والدته مع شقيقته الصغرى لتهرب مع زوج سكير، كان يبرحهم ضربًا بالعصا. ثم أرسل نظره بعيداً، وبصوت خافت، أضاف وقال: "أمي كانت تحتاج إلى المال لمعيشتنا...وتتابع الرجال واحدًا تلو الآخر، فالأخير كان يكرهني ولا أعرف لماذا. ففي يوم من أيام الأحد، أشبعني ضربًا برجليه ثم ألقاني إلى الشارع. كان عمري خمسة عشر عاماً، وليس لديّ إلا

قميص واحد وبنطلون. والذي أتي بعده كان أيضاً مثله"، والمثير للشفقة أنه مضى يتسكع من مكان إلى آخر، يبحث عن عمل دون طائل، يشرب ليخفف آلامه، الزجاجة هي عزاؤه الوحيد، يسرق ويبحث عنه البوليس ثم يختبئ.

وأصبح الكل يردد أن: "أسوأ شيء عندما نشعر بأننا محتقرون ضائعون وخائفون كأفراد العصابات".

لكن هذا هو الشيء الغير المتوقع: فما أن شعروا بأن أصواتهم مسموعة دون احتقار، ويُفْهَمون، ومحبوبون كما هم، حينئذ أرادوا الاغتسال، الحلاقة، وارتداء ملابس تناسبهم. ولكن للأسف، فإن التخلص من الكحول، تلك قصة أخرى. ففي المساء وهم جالسون في تعاسة، يأخذون في الشرب وتعاطي المخدر، في ذات ليلة، وفي زاوية مظلمة من الشارع كانوا يموتون من جرعة زائدة، مثل الكلاب على الأرصفة. وحدهم في الظلام دون يد تساعدهم، دون صوت يطمئنهم، هذا هو مصير توني. عندما أُستدعيت إلى مستشفى "بونيه بفريچوس " **Bonnet à Fréjus**""، وقبل إغلاق نعشه إلى الأبد، قبّلته القبلة الأخيرة على جبهته. ففي هذه اللحظة، أقسمت بأن أقاوم بأقصى ما عندي وأن أعمل على إنقاذ هؤلاء الشباب الذين يسيرون نحو الموت. فهل نكتفي بذرف الدموع؟ أليس كل منا مسئولاً عن مصير الآخرين؟ وبالتعمق أكثر، أليس هناك شيء مشترك بين جميع البشر؟ أليس ما يفعله الفرد من أشياء جيدة، وعلى نحو لا يمكن تصوره أو من أشياء شاذة وسيئة يتعلق بي أنا أيضًا؟ يمكنني أنا أيضًا فعل نفس الشيء؛ فهل هناك فرق بين المعتقل الذي ذبح هذين الطفلين وبين الأخت إيمانويل؟ كلا إطلاقًا فعلى الرغم من أحداث حياتهم وظروف بيئتهم، وسط البؤس فإن هذا الرجل أخي من دمي.



لكن وجدت صعوبة في التعاون مع مشروعات دون أن أكون ممثلة فيها، لذلك قررت مجموعة متميزة من الجمعية - تستعد في التَكون تدريجيًا - إنشاء مركز استقبال صباحًا ومساءً بالتعاون معي. "برنارد جيرارد" ""Bernard Girard الرئيس الفخري، "چاك إيمبار" ""Jacques Imbert خبير المشروع، وبالأخص "برنارد دول" ""Bernard Dole متقاعد، والذي أراد أن يثير حماستهم وقدراتهم. وقد توجهنا جميعًا لبناء المشروع في حضن الطبيعة، وعمل مزرعة خاصة لأعداد التأهيل والتدريب. فبعد هذا التعب، لم يقبلنا أي عمدة بسبب ضغوط القرويين عليهم، فقد ارتابوا من الفكرة ومن استقبال المشردين SDF في مجتمعاتهم.

أيضًا اهتممنا أكثر بتشجيع الشباب العاطل، المحبطين لفشل كل مساعيهم. ولحمايتهم من الوقوع مرة أخرى في تعاطي المخدرات والخمور، والوقوف أسرى للسعادة الوهمية، كنا نريد أن نعرض عليهم سنة من التكوين تحت رعاية غرفة الزراعة بـ Var وبرئاسة شخصية معروفة مثل "كلود بونيه" ""Claude Bonnet. فهذا سيُمّكِنهم من الحصول على دبلوم رسمي؛ حيث أن وزير الزراعة قد دعّم مشروعنا. أمضيت فترة أبحث فيها بهدوء عن قطعة أرض زراعية صالحة لإقامة المشروع وفي الوقت الذي أكتب فيه يبدو أنني أخيرًا قد وجدت هذه الأرض. إحباطاتي السابقة جعلتني أكثر حرصًا. "يا للا، إلى الأمام" من المحتمل أنه سيكون آخر صراع في حياتي، ولكن الجد في العَمل انتصار.

من المرارة إلى المعجزة: التجسد

أعود إلى وقت حريتي في الإجابة بالقبول أو الرفض على كل ما يُعرض عليّ، وأنا لا أرفض أي شيء! دخلت في الإعداد لهذا. فقد تلقيت مكالمات من جمعياتي بفرنسا، سويسرا، بلچيكا، وهم يقدمونني بالراديو والتلفاز. فإن إيبارشية "راجنتس" "Ragnitz" وهي منطقة في "جراتز" "Graz" في النمسا "Autriche" دعاني أعضاؤها وأظهروا كرمًا لا يوصف. وبعد ذلك تعددت المؤتمرات، وقابلت شبابًا شديدي التفاني في بذل الذات، ودُعيت إلى كنائس ممتلئة عن آخرها.

ففي "Paray-le-Monial " حشد كبير من سبعة آلاف شخص، والغالبية منهم ما بين الخامسة عشر عامًا وحتى الثمانية عشر عامًا، يصلون ويرنمون. وفي باريس هتفتُ للبابا "يوحنا بولس الثاني" مع مليون من الشباب أثناء اليوم العالمي للشباب JMJ. وقد كلمني المخطوبين بخصوص استعدادتهم في التحضير الروحي للزواج. ودعتني عائلات محترمة على وجبة شهية.

والدعوة المذهلة التي تلقيتها منذ أول إفطار لي بكاليان، بادرت إلى ذهني بأنه بالطبع يوجد الشر ولكن الخير موجود أيضًا، ليس الكل فاسدًا. بعيدًا عن ذلك فإنه من علامات الصحة البدنية والعقلية أن أُجري لقاءً في كل خطوة، والآن أصبحت متحركة ونشطة مرة أخرى. لأني - شكرًا لله - لست منشغلة ولكن أقضي جزءًا جميلاً من السنة في الصلاة مع إخوتي، وأيضًا لأنني سمعت بوضوح دقات قلب الناس وأنا أُشاركهم أكثر في سعادتهم وآلامهم وازدادت صلواتي عمقًا لم أكن قد وصلت إليه من قبل.



لقد أصبحت في حالة حركة دائمة - في تلك الأثناء - وكنت دائمًا أُجيب: "إنني لا أحب أن أقول "لا" أيًا كان الشخص، وأتحمل المسئولية



وأُجيب الطلبات التي تُوكل إليّ؛ ليس هناك من سؤال لن أجيب عنه.

ولكن أتستطيعين يا إيمانويل أن تُلزمي نفسك بجادة الاعتدال؟ اعتدالي، هل أستطيع فعل هذا الأمر؟ فإنه يتطلب مني وقتًا، وبعض المقابلات مع رؤسائي وجمعيتي وفيليب حتى أفهم هذا، فيجب عليّ إيجاد التوازن بين أوقات الخروج لعطايا الآخرين وأوقات الدخول في تأمل هادئ وحياة الشركة في تعاون حتى أستعيد شحن طاقتي من جديد. كنت مرغمة على معرفة أنني لن أصل، فكثيرًا ما أمتلك الزمام حتى أوقد نشاطي إلا أنني أيضًا نشطة في سن الخامسة والتسعين. يا شيخوختي المشتعلة بالحماس، متى ستبدئين في تهدئة شبابي المتقد؟

حسنًا، فإن زوبعة الأنشطة هذه بدأت تتشكل شيئًا فشيئًا بحيث أتحملها. وعلى أثر هذا فإن الإعلام قد سبق أن التهمني وأيضًا المدارس، وبالأخص المكالمات، إلخ... وكل وسائط الإعلام تداخلت حتى تعطيني شهرة، ثم ازدادت الشهرة وأتت بالمزيد والمزيد من الطلبات لي، فرحبت بهذا، وقد تم استدراجي من قبل إلى هذه الدوامة. ثم فكرت للحظة بكل هذه المجاملات المفرطة، فهي مثل بالونة منتفخة بالغرور. ولحسن الحظ أن "العذراء مريم" كانت ترعى إيمانويل المسكينة وسط مخاطر كل هذه الأنشطة والتي كادت أن تفقدها هويتها. ففي الصلاة أدركت حجم هذه الخطورة؛ ورأيت أن كل هذا ليس إلا إغراءات مضللة.

ولكن كيف لم أترك نفسي لأغرق في هذا الخضم؟ كان عملي دائمًا فيه مسحة من المرارة، كان شيئًا بلا قيمة لا يتجاوز حد التسلية، ولم أتخلص منه. مثلما كنت في شبابي، فقد شعرت بالقهر من جديد، وهبطت من جديد إلى أدنى مرتبة. يا له من تراجع! فقد تحقق كل ما تمنيته في حياتي بوصولي إلى الأحياء الفقيرة، وتحقق حلمي! وكان هذا هو القمة

في حياتي ولن يوجد شيء أعلى من هذا. فإن القيمة الحقيقية لوجودي كانت تسير جنبًا إلى جنب مع القيمة التي حققتها من خلال عملي. وهكذا فإن حياتي وأنشطتي كانت تواجه خطر الضياع أو أن تفقد هذه القيمة التي وجدتها في الأحياء الفقيرة.

فترة "التقاعد" هذه أسلمتني عنوة إلى العوز والحرمان بما فيها من صخب الأنشطة الجديدة التي استمرت أعوامًا، وحاصرتني المطالب بأن أعطي دفعة جديدة ومعنًى جديدًا لها، ها أنا أغوص مختنقة بالتوجه القسري نحو التعمق.. أتأمل في أحوالي، ماذا عساي أن أكون؟ هل ذلك الموجود الذي تدفعه الظروف دائمًا نحو الخارج، والحساس بشأن ما يظنه الآخرون عنه؟ أم أنا ذلك الشخص اللطيف ذو الصوت المنخفض والذي يُبدي احتقاره لكل ما هو خارجي؟ كثيرًا ما عملت مع "فيليب أسو" كي نسمو إلى فوق إلى الأعالي ونتبين أخطاءنا، على نحو ما تركني ذلك مقيدة أُكابد إحساسًا بالضياع. ولقد أفرز هذا شعورًا قاسيًا حيث دفعني لأن أحتقر الأمور البشرية بلا مبرر.

شيئًا فشيئًا بدأت الدنو من حالة ثالثة ألا وهي قبول فكرة أنني ضعيفة، ناقصة وفارغة. بدأت أقدم ذاتي لسيدي في فقرها الحقيقي... فقر الروح. وها أنا أخيرًا أُدرك أنني لم أكن أعيش حياة الفقر؛ حيث أنني أُجبرت على الدخول في حياة الفقر المتعارف عليها على حين أنني كنت أعلى من ذاتي، وبإدراكي هذا بدأت أقترب من الفقر الحقيقي. إن الطوبى التي وعد بها السيد المسيح المساكين "بالروح" لم تكن تعني في حقيقتها عدم امتلاك شيء؛ كلا ولم تكن تعني الحياة مع الفقراء ومن أجل الفقراء، إن المساكين بالروح هم - في الحقيقة - من يدركون أنهم ليسوا إلا عدمًا، وهو الإفتراض الذي يسمح لهم بالدخول في المسيح المتجسد. ولقد رُوي عن القديسة "كاترين دي سيين" أنه قيل لها: "يا

ابنتي فلتفهمي من أنا، أنا الكائن الذي يكون، وأنكِ لستِ إلا عدمًا لم يعرف الوجود". إن الفقر الحقيقي هو الذي يُخلص نفسه ويُخلص العالم وهو الذي للمسيح. إن الكلمة صار جسدًا وهو الوحيد الذي حقق زواج الوجود والعدم (الإلهي والبشري). والكل يدخل إلى هذا الزواج الأغنياء والضعفاء، الحياة الأبدية والعدم. ومن خلال تحركها وانتقالها في نهر الحياة أو الطريق الذي هو يسوع المسيح يصبح اللا وجود وجودًا، وكل شيء يولد من جديد ويتشكل من جديد ليس بفضل جهودنا البشرية - فالله يعلم ما أنا فاعلة - ولكن بفضل الوحي المستمر الذي هو نفخة الله فإن هذا يتحقق بالدخول في والإتحاد بـ "ابن الله".

إننا لم نتحرر أبدًا بالكامل، ولكن هذا الطريق الثالث قد شَكّل بالنسبة لي تحررًا جديدًا؛ فمن خلال ضعفي - ولأن الضعف لا يتغير- عرفت الآن كيف أتحرر دقيقة بدقيقة حتى النهاية، لقد تذوقت بصورة أفضل الرسالة إلى البشرية التي وجهت إلى راهبة بولندية، طَوّبَها البابا "يوحنا بولس الثاني" ومضمونها: "كلما تعاظم الشقاء البشري استُحقّت رحمتي"، والخط الذي تحت الإستحقاق قد وضعته أنا.

لقد عَبَرْت من الشقاء إلى المعجزة. وفي هذا التحول نشأ في أعماقي شيء ذو صلات جمة وأيضًا حية، ففي ديناميكية التجسد استطعت أن أتحمل بصورة أفضل فقري الحقيقي وفي ذات الوقت أتقلد وأتبوأ كل ما هو بشري. إن التصالح الأنطولوچي (الوجودي) مع ذاتي - وهو في أساسه وجوهره تصالح ناقص - قد سمح لي بأن أُدرك أن كل ما له علاقة بالإنسان - حتى ضعفاته - له قيمته عند الله. وعليه - وبفضل الله - فإن عملي جعلني أُدرك بادئ ذي بدء قيمة كل إنسان، تلك القيمة التي تند عن كل قياس. لقد كان لَديّ دائمًا احترام للموجود البشري في شتى مظاهره وجوانبه وتجلياته، وهذا يعني من الآن فصاعدًا، النظر إلى الشخصية

الإنسانية على اعتبار أن لها قدسيتها. وكنت في الماضي لا أُدرك بالفعل إلا قيمة الفقراء، على حين أنني كنت احتقر- نوعًا ما - سطحية الأغنياء، وكنت في مشاركتي في مؤتمرات لا أحافظ على هذا التوازن في النظر إلى الناس! ولكن لكل إنسان قيمة عند الله. وكنت في القديم مفتونة بذلك التشابه الأولي بين الفقراء والمسيح؛ ويظل هذا صحيحًا، ولكن من الخطأ ألا تنسحب تلك النظرة على كل البشر أيًا كانوا؛ فكل ما كان يبدو لي دنيويًا تافهًا مخالفًا لملكوت الله، لم يكن في واقع الأمر كذلك.

وهكذا مضيت أوفق بين نظرتي ونظرة الله للإنسان. فنظرة الله هي دائمًا وأبدًا نظرة احترام وتفهم وهي دائمًا نظرة تسامح تشبه نظرة الأم لأولادها فهي تجد عذرًا لكل ما يصدر عن طفلها لأنه في نظرها دائمًا بريء. والله أيضًا لديه تسامح الآباء الذين إذا سقط أحد أبنائهم يساندونه في ضعفاته، وإذا أخطأ - وإن كانوا أقل إغفالاً للخطأ من الأم - فإنهم لا ينظرون إلى خطئه على أنه شيء فادح، ولا يفهمون عُرَى العلاقة مع ابنهم الحبيب. إن الله هو المدافع عن الإنسان، يبحث له دائمًا عن أسباب خطئه المفقودة التي لا يلتفت إليها أحد، لأن الله وحده هو العارف بأفكار القلوب وبمتاهات الحياة.

الإنسان لا يعرف نفسه

شيئًا فشيئًا وبينما أقوم بتلبية الطلبات التي تُقدم إليّ، بدأت أنظر إليها في افتراضها الحقيقي. كانت الجمعية تحتاج إليّ، وكان لابد لي من أن أُساهم في الإعلان عنها حتى وإن كان ذلك الإعلان ذا طابع إعلامي إلى حد ما. لقد تعلمت ألا أحتقر أمور العالم وأن أقبلها بشيء من الدعابة وأنا أعرف كيفية تجاوز مثل تلك الأمور؛ ففي الواقع هي لا تمثل معنى الحياة، ويجب تخطيها للتسامي بقيمتها نحو الأبدية.

ما معنى هذا؟ المقصود أن نتقبل كل الأشياء ببساطتها، نقبلها على الوجه الحسن. فلا شيء من أمور الإنسان جدير بالاحتقار، ثم أن المسيح ذاته قد لبس جسدًا مثلنا "أخلى نفسه، آخذًا صورة عبدٍ، صائرًا في شبه الناس" [52]. مما يعني أن الإنسان والله قد ظهرا في صورة شخص واحد، فهما مثل الجسد والروح في ذلك الشخص متمايزان لكنهما لا ينفصلان. لقد اقتنعت بأن أدخل - وهو ما يبدو في ظاهره دنيويًا - إلى ديناميكية التجسد. فإذا ما أردت المحافظة على ذاتي فلابد لي من أن أنتمي إلى جوهر الناسوت حتى أسمو بتلك الذات من خلال ذلك الجوهر. إن قبول الطبيعة البشرية في جسد المسيح يقضي على النقائص التي تشوب ذاتي وأفعالي، ومن ثم تتلاشى المرارة والتعاسة والقسوة.

علاوة على ذلك، فإن قاربي على وشك الرحيل من هذا الشاطئ ليفوز بالشاطئ الآخر. والشاطئ الذي غادرته توًا هو اللا وجود، هو الشهرة التي تذهب هباء والمديح الباطل. والشاطئ الآخر الذي سأرسو عليه هو العالم الآخر حيث القيم مختلفة.

إن الرؤية التي تنكشف من خلال السطور التالية هي بالأحرى رؤية صافية، وهي التي استطعت في السنوات الأخيرة - من خلال مبادراتي - التيقن منها.

52- في 7:2

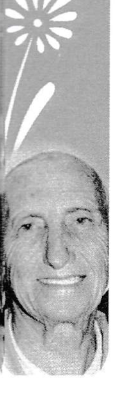
المستقبل مضمون!

أفراح وأتراح، تلك هي الحياة. في عام 1997م كان لي حظ من السعادة الغامرة؛ فلقد عدت إلى القاهرة لافتتاح إحدى مدارس ليسيه البنات، وهن البنات اللائي كسبن الرهان وحصلن على الدراسة الثانوية حتى الثانوية العامة. كن يشعرن بالفخر ونحن معهن!

أما "الأخت سارة" فقد أخذتني في أزقة أحياء الزبالين، على حين أن حشود الصبية ذوي الأسمال الرثة قد اختفت إلى حد كبير. مررنا أمام مدارس نظيفة بصورة تامة، ولم أعد أرى عشش الزبالين القديمة ولكن بيوتًا من الطوب الأحمر تزينها أنوال النسيج؛ فالزبالات اللائي يعملن بالحياكة الأسرية تزايدن، وهن يتلقين دروسًا في مبنى جديد ملاصق لمصنع السماد. وكانت رئيسة الجمعية التي تقود هذا النشاط هي "يسرية ساويرس" وتساعدها "ليلى كامل" و"آن ماري كومبو"، كن يشجعن الزبالات ويعملن على تنشيط أثر مدرسة الليسيه.

كان لديّ انطباع بأنني وسط المعجزة، فلترقصي ولتغني يا إيمانويل فإن مستقبل بناتنا يبدو مبشرًا.

سافرت من القاهرة إلى الخرطوم. فهل قلبي العجوز هذا سيقفز من الفرح؟ وقادني "جميل" بالسيارة الجيب التي كانت تتأرجح، وأوصلنا إلى مدارس استمتع فيها نظري بمشاهدة نظرات الشباب وهم يلعبون ويقفزون، فهم يتمتعون بعضلات قوية، وكنت سعيدة بنجاحهم في الامتحانات الرسمية: فهذا يبشر بأن غدهم مضمون! وفي المزارع كنت آكل الجبن والخضروات والفاكهة بشهية مفتوحة، فهذا إنتاج الشباب ذوي العيون المتلألئة بالحماس. ولقد أهدوا لي أيضًا هدية لرجليّ: زوجًا من الأحذية مصنوعة بالورش المسائية وهي مصنوعة صناعة ممتازة،



أخذتها كتذكار. شاركت بآخر اجتماع بساحة مليئة بجمهور من رؤوس حليقة، يعبرون عن سعادتهم بالألعاب النارية. ففي الحقيقة مجموعة الخرطوم فجرت الحياة في داخلي مثل نبع دافئ!

أنا مثل شجرة عجوز أُحيي أغصاني من خلال هذا النبع الدافئ. لا يوجد شيء يماثل عودة الإنسان إلى تجديد شبابه في العمل على أرض الواقع، ويرى عمله هذا يكبر ويتسع بشهادة وكلمات الجميع، ويواصل مهمته ورسالته حتى في سن الكبر ثم يرتاح الجسم وتهدأ الروح.

أثناء رجوعي إلى "كاليان" وصلتني أخبار جديدة أسعدتني مرة أخرى، وهي أن جمعية بروكسل - بعد أن انتهت من مشروعاتها في أحياء الزبالين - بدأت تستثمر مواردها في جنوب السودان التي ضُربت بالحرب والمجاعة. ثم أن جمعية باريس قابلت المطران "تابان" المعروف بأنه "أجرأ أساقفة المسكونة". وفي الواقع، في إيبارشيته في الجنوب، في "توريت"، التي ساعدت في أوقات نقص المواد الغذائية الجميع دون تمييز أو تفرقة؛ فكانت النتيجة صارمة، فقد واجه متاعب جمة - بثبات ودون تأثر- إنقاذ كل إنسان يتألم ويعاني. لم يهتم "بيير جيهوت"Pierre Gehot" " رئيس الفرع البلچيكي لجمعية "أصدقاء الأخت إيمانويل" بقُطّاع الطرق والأعمال الإجرامية، فكان يحضر إلى "توريت" حاملاً الإعانات من الأغذية للإنقاذ من الموت. فطلبت مساعدة "بيرنارد كوشنير" وهو صديق وَفّي منذ أن التقينا بالخرطوم. "كوشنير" الذي كان وسط مسئولياته الوزارية يسافر ومعه "جيهوت" إلى المناطق البدائية في الأدغال، وهناك أسسا معًا مستشفى للطوارئ. وعندما يعمل البلچيكيين والفرنسيين معًا، فإن النتائج تكون مدوية.

تنقذ جمعية "أصدقاء الأخت إيمانويل" في باريس وشريكاتها ستين

ألف طفل في جميع أنحاء العالم من الدعارة والبغاء والأمية والموت. يا له من فخر لكل من كفل ومن رعى ومن رسم البسمة على الوجوه السعيدة وكل من ساهم في النجاح الدراسي. ففي معسكرات العمل المفتوحة في العالم الثالث متطوعون ذوو سواعد صلبة وقلوب دافئة متحمسة، يساعدون عامل البناء في تشييد مدارس، ملاجئ، عيادات، ويتشاركون دون اضطراب من الحياة العسرة التي تعيشها البلد؛ فهم مثلاً في الفلبين زاروا سجن الأحداث وراحوا يعلمون، يثقفون، يغنون، ويضحكون مع الصبية، وقد أصبحوا مبهورين بمغامراتهم. وهذه هي شهادة أحدهم: "إن الحياة وسط الفقراء تُجَدِّد وتُثري، فالفقراء على استعداد دائم لتقاسم القليل الذي لديهم، وهم يشعون دفئًا إنسانيًا غير معروف لدينا، لأن كرمهم يشعرنا بالفرح والمودة. لقد تعلمت من تلك التجربة أن دخول الشباب ميدان العمل يُثمر تعاونًا وتعاطفًا ومودة.

كتبت هذه السطور في أواخر عام 1998م. ومازالت روحي تنزف من الرحلة الأخيرة إلى "بوركينا فاسو"، والتي كانت تصحبني فيها مجموعة من "أصدقاء الأخت إيمانويل". فهذه واحدة من أفقر بلاد الكرة الأرضية. اجتزت الكيلومترات من الطرق دون أن أرى أيًا من الحقول المزروعة وعيني لم تر سوى أدغالاً. وتتزايد درجة الحرارة في الصيف من أربعين إلى خمسين درجة مئوية، فكيف تُحرث الأرض بمجراف خشبي؟ وأثناء فصل المطر تُزرع الذُرة الرفيعة ثم يتبع الحصاد باقي شهور السنة، ويَحْصُد الإيدز الأحياء أيضًا، وسبيلهم الوحيد في الشفاء هو الأسبرين. كما كان يحدث في قديم الزمان، يبعد هذا المرض جميع ضحاياه من بيوتهم وقراهم. يهيمون على وجوههم دون شيء للتدفئة أو حتى مكان يعيشون فيه. إن أقوال "بي الحادي عشر" "Pie XI" في خطابه البابوي الذي تتوهج سطوره كالنار أمام عيني: "إن الشعوب التي تعاني من الجوع





تتضرع بطريقة مأساوية إلى الشعوب المترفة، فقد انتفضت الكنيسة أمام هذه الصرخة المقلقة". نعم، فلحسن الحظ أن كنيسة "بوركينا فاسو" قدمت رهبانًا وراهبات عازمين على إنعاش البلد والتي بها أيضًا مستثمرون يقومون بدورهم في هذا.

دعمت الجمعية أعمال "ماري- لور فريزون"، تلك المرأة التي لا تخشى من شيء أو من أحد؛ فهي تعتني وتستقبل أطفال الشوارع وتأخذ السكاكين منهم في سرعة. فهي تُطعم أطفال مقعدين وأمهات نحيفات. وقد كانت متحمسة جدًا أمام المستوصف المُجهز الذي ساهمنا في إنشائه، ففتحت فصلين للصغار من سن سنتين حتى سبع سنوات. وقد كان متطوعون من الشبان الفرنسيين يتحققون من توزيع الأغذية الضرورية.

كنت خائفة ألا أصمد، ولكن مجموعة "باريس" و"ماري- لور" كانوا يوقظونني بانتباه، لأنني في العقد التاسع من عمري. ثم عدنا ثانيًا إلى الأمل بالرغم من أن نشاطنا يبدو بلا جدوى في بلد مساحتها أربعة أضعاف فرنسا. وضعنا في خططنا مشروعين إعجازيين: أولاً مدرسة زراعية، وافق على دعمها "چاك دي لور"، وثانيًا برنامجًا لمكافحة الإيدز يقوم على رعايته "بيرنارد كوشنير". إن البذرة الصغيرة التي زُرعت في التربة، ستصبح شجرة كبيرة!

تقاعدي هذا توهج كالبرق؛ ففي الماضي كان بفضل مساعدين من الدرجة الأولى وأشخاص تمكنوا من إحياء الأمل، أما في الحاضر فقد تداخلت الأعمال التي أخذت تتوسع توسعًا هائلاً بفضل كفاءة الجمعيات ونشاط الشركاء المحليين.

فلتعيشي في سلام يا "إيمانويل".

إلى الشاطئ الآخر...

أنا الآن مستعدة أكثر من ذي قبل لأن أرفع عينيّ إلى هناك... إلى الشاطئ الآخر... إلى ما بعد الموت... أرفعهما بطريقة أكثر ثباتًا وأكثر تماسكًا ورسوخًا من أي وقت مضى في حياتي.

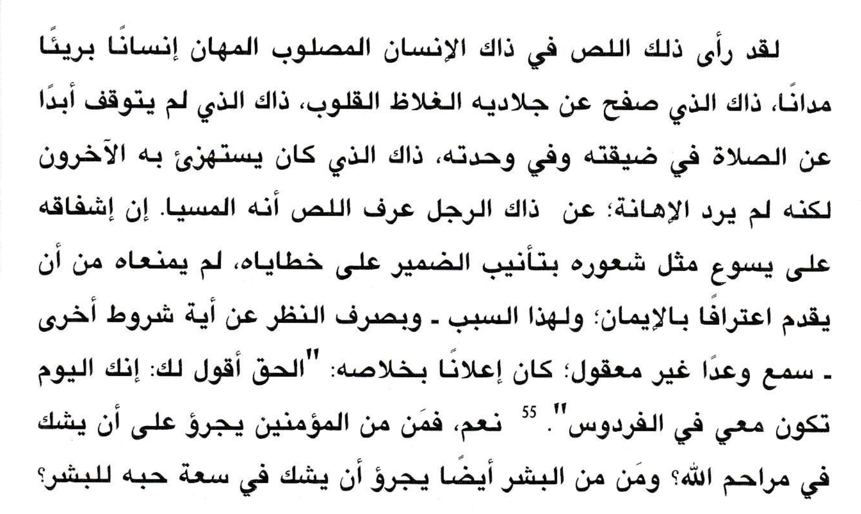
في الواقع، إن لديّ الكثير من الخيال، وأنا محتاجة الآن إلى صور، في غرفتي وتحت ناظري توجد لوحة "ما بعد الموت" وهي من إنتاج "دائرة الصفوة فرا أنجيليكو" فالنعمة المجنحة تصف رهبانًا يرقصون وكل راهب يده في يد ملاك، وهم يصعدون مهللين نحو النور. وأجد نفسي وسط الراقصين: قدمايّ فارقتا الأرض، الآن قد رحلت... وها أنا أمام باب... ينفتح الباب... ولم أكن وحدي... أدخل لأجد الكثيرين من الأحباء ينتظرونني!

ومن بين الرجال الذين عاشوا على الأرض، ثمة واحد قد ترك أثرًا لا يمحى عليّ، كنت أنظر إليه كمثل أعلى وأيضًا كمرجع لي: أعني من يطلقون عليه: اللص اليمين. إن التاريخ لم يذكر اسمه، ومع ذلك فهو مُجرم أثيم، قاطع طريق، ومن ثم فقد صلب من أجل أعماله الشريرة بموجب القانون الروماني، وكانت هذه فرصة عمره: فالمصلوب إلى جواره لم يكن إلا يسوع المسيح.

كان شيء يدور بجواره في تلك اللحظة، كلمات ساخرة مستهزئة، دعته إلى أن يضع كل ما فعله أمام ضميره، فبدلاً من أن يشارك الآخر الشرير في توجيه الكلمات الجارحة إلى يسوع، عرف الظلم الذي تحمله. "أما نحن فبعدل، لأننا ننال استحقاق ما فعلنا، وأما هذا فلم يفعل شيئًا ليس في محله".[53] ثم خرج من ذلك اللص إعتراف ضمني بالإيمان "ثم قال ليسوع: "اذكرني يارب متى جئت في ملكوتك".[54]

53- لو 23: 41

54- لو 23: 42



لقد رأى ذلك اللص في ذاك الإنسان المصلوب المهان إنسانًا بريئًا مدانًا، ذاك الذي صفح عن جلاديه الغلاظ القلوب، ذاك الذي لم يتوقف أبدًا عن الصلاة في ضيقته وفي وحدته، ذاك الذي كان يستهزئ به الآخرون لكنه لم يرد الإهانة؛ عن ذاك الرجل عرف اللص أنه المسيا. إن إشفاقه على يسوع مثل شعوره بتأنيب الضمير على خطاياه، لم يمنعاه من أن يقدم اعترافًا بالإيمان؛ ولهذا السبب - وبصرف النظر عن أية شروط أخرى - سمع وعدًا غير معقول؛ كان إعلانًا بخلاصه: "الحق أقول لك: إنك اليوم تكون معي في الفردوس".[55] نعم، فمَن من المؤمنين يجرؤ على أن يشك في مراحم الله؟ ومَن من البشر أيضًا يجرؤ أن يشك في سعة حبه للبشر؟

أنا أتحدث عن هذا الآن ولكن ماذا عن العذاب الآتي. وأنا على سرير الموت لا أعرف مصيري، أين سأكون؟ هل سأكون وسط الاضطراب وفقدان الرجاء واشتداد العذاب؟ الواقع، هذا عندي سيان، فليس هذا سوى جسر للعبور، ربما يكون فظيعا، ولكن ألم أقل للسيدة العذراء ملايين المرات: "صلي لأجلنا نحن الخطاة الآن وفي ساعة موتنا"؟ وكنت أقول "أمين"؛ أعني أنني أعتقد إنه في أحرج لحظة من لحظات حياتي - وفي سياق العلاقة الحميمة والعميقة التي تربطني بها - يبدو مستحيلاً ألا تكون هناك، بوصفها الملاذ الأخير مثل أم تَمُد يدها لطفلتها في هذه الساعة الرهيبة، إنني أحتاج لأمومتها. أو كما تقول القديسة "تريزا الطفل يسوع: "أُم احتفظت بكنوز لطفلتها". وأنا على يقين من أن العذراء ستستر ضعفاتي وقلة حيلتي بعباءة من ثرائها وغناها، وهذا بالنسبة لي يقين لا يعتريه الشك.

أما عن الباقي، فلا أعرف عنه شيئًا، والمهم إنني أعتقد أنها ستكون هناك، حتى لو لم أشعر بوجودها. وفي كل الأحوال فأنا دائمًا فياضة

55- لو 23:43

بالأحاسيس التي أضع ثقتي فيها بسبب خيالي العارم. ولعل هذا هو السبب في سعادتي فإني لم أرَ - طوال حياتي - ولم أشعر أبدًا بأشياء من هذا القبيل قد تسلمني للأوهام، وعلى الأقل فإنني طوال حياتي لم أقع فريسة للخيالات والأوهام. فالإيمان وحده يكفي.

هكذا فأنا مستعدة للموت، ولكن ليس للشيخوخة؛ ففيها تعطلت قوايّ. فحتى أبريل 2005م، يمكنني القول بأنني لم أشعر إنني إمرأة عجوز؛ فقد كنت أستطيع الكتابة حتى الواحدة صباحًا، وبالتأكيد كان ذلك بصعوبة. كنت أتنقل وأتحرك وحدي دون مساعدة من أحد. كنت على وشك القيام بجولة في بروكسل وباريس وچنيف وجراتس. قد وصلت إلى بلچيكا - عند بدء انعقاد مؤتمر- وسريعًا اقتادوني إليه حتى انْهرت فاقدة الوعي، وقد سمعت: "بسرعة، لقد سقطت في غيبوبة". حصاة صغيرة في القناة المرارية ألقتني بالفعل على الأرض. وحتى بعد أربعة أشهر من العلاج لم أعد كما كنت من قبل. كنت محتاجة إلى العون، في القيام والجلوس؛ لذلك فقد كنت أحتاج لكرسي متحرك ولشخص يدفعه، وكنت عادة أحس بالإرهاق وأحيانًا بالميل إلى النعاس. إذن، فقد أصبحت امرأة عجوزًا.

لم أكن مستعدة لهذا؛ أن أتحمل بابتسامة عفوية تعبي وعجزي البدني. لقد تعرضت على الدوام لضربات في جسدي، في نشاطي، وفي روحانياتي، ولكن جسدي ظل سليمًا. أما هذه المرة يبدو لي أن الضربة كانت موجهة إلى قلب تلك الإنسانة "إمانويل". فلم يسبق لي أن شعرت إطلاقًا بمثل هذا الذي أنا فيه؛ هذا الإفتقار إلى الوجود، إلى الحياة، إلى القدرة على السير، وعلى التصرف. بالنسبة لي كان هذا اختبارًا حقيقيًا، كيف أستجيب له؟ فلم أعد أعرف حتى كيف أُصلي كما كنت أفعل؟ ولم أعد أستطيع التركيز في العالم الآتي، في الله، وفي المسيح. كان خيالي يحملني بعيدًا عند كل ضربة.

ماذا أفعل؟ وجدت ردًا بسيطًا: صلاة السبحة، والتي أصبحت سلاحي. تلك الصلاة، كنت أرددها طوال النهار وأثناء الليل. ولقد ازدادت قيمة سبحتي لأن البابا "يوحنا بولس الثاني" كان قد أهداها لي يدًا بيد في "لورد" في 15 أغسطس 2004م. لقد كنت أرى ذلك الرجل - وهو ربما قد رحل عنا بالجسد - الذي كان يتمنى أن يصلي على رأس الموكب أمام المغارة –في لورد–، لكنه لم يقدر، لقد تداعى منهارًا وجلس. وقد نطق بضعة كلمات: "لقد أتيت وأنا مريض كي أصلي معكم أيها المرضى". لقد فهمت اليوم - وأنا أتمثل به - أن نذري الأول قد تحقق في نذري الحقيقي؛ ألا وهو أن أحيا مع الفقراء ومن أجلهم.

ربما الآن، أنا أقرب ما أكون للفقراء ضعاف الجسد، المرضى، المعاقين، والمسنين. أقرب لهم من أي وقت آخر. هذا بالنسبة للعيش معهم. ولكن ماذا عن الحياة من أجلهم؟ ومن أعالي السموات شعرت أن البابا "يوحنا بولس الثاني" يشجعني على أن أُكَثِف صلواتي من أجلهم ومن أجل كل العالم. وبينما أصابعي تدفع الحبات، أتأمل بسهولة كل مراحل سير حياة المسيح؛ لأنني أستطيع تخيل وجود العذراء في كل مرحلة منها، وهي تلتمس وتتضرع، وهي بالقرب من ابنها، من أجل الفقراء والمساكين والخطاة الذين هم نحن، وأنا من بينهم.

أيضًا، "هذا هو وقت الحب الأعظم" فليس لديّ الآن شيء يشاركونني فيه. كلا ولم أعد أستطيع أن أتخبط في الوحل معهم في مخلفات القمامة، في عشش الزبالين، ولكني أستطيع أن أدع روحي تغوص مع المسيح في الدراما الجهنمية التي يعيشها كوكبنا. فأنا لا أنسى العبارة التي قالها "باسكال": "إن المسيح يتألم حتى نهاية العالم، ولا يجب أن ترى عيوننا النوم خلال هذا الزمان". لا تنامي يا "إيمانويل"، فلتبقي في حالة تأهب، قلقة وسط أصوات الأسلحة، صراخ الجرحى، عذاب

المحتضرين، تَمَزّق اليائسين، وإله لا يراه أحد. فلتبقي إلى جوار الجثث التي تبتلعها الأرض كل يوم، وأمكثي مع العذراء، عذراء الجمعة الحزينة التي تُقدم فيها للآب ابنها المائت من أجل الخلاص والقيامة. ادخلي في الرجاء الذي له وشاركي في الصلوات التي لها. قدمي معها إلى الآب كل الموتى على الأرض، فسوف يقومون مع المسيح. لا تنامي يا "إيمانويل"، لا تدعي الشعلة تنطفئ، ولتبقي صامدة في صلاتك:

يسوعي، الحبيب، أنت يا من قهرت الألم بآلامك وانتصرت على موت الإنسان بموتك، يا الله المتجسد، فلتكشف لنا سرك.

هل هو سر الحب؟

هل حقًا بالحب يتحول الألم إلى رحمة، بها يمنح الإنسان قلبه لأخ له أو لأخت تتألم؟

هل حقاً بالحب يصير الموت حياة، من خلال القيامة؟

يسوعي، الحبيب، علمنا معنى الألم، ألم العجز وألم الموت. عرفنا معنى الحب، الحب الأقوى من العذاب، الحب الأقوى من الموت!

كي نظل دائمًا وسط الحب

كنت أريد أن أتم هذه الإعترافات لأنني ـ عما قريب ـ سأُتمم عملاً من أعمال النعمة في الأبدية. ففي يوم أول مناولة، أبرم عهد بين يسوع وبين الفتاة الصغيرة مادلين. فمنذ تسعين عامًا تقريبًا، كانت نادرة تلك اللحظات التي كان ينبض فيها قلبي بالحب ، لحضور، طقوس القداس والإفخارستيا والتناول بفعل النعمة. علاوة على ذلك فإن معنى كلمة "إفخارستيا" باليونانية هو تلقي النعمة وبشكل أبسط تقديم الشكر.





أشكر الله وأنا أسترجع ماضيّ. وفي صلاتي أشكر الله، وأنا أستعرض مدى الفرح لدى الانتصارات التي حققها الحب والعدل على قوة الموت. لقد فهمت وأنا في ركن الصلاة الهادئ كيف يتجلى هذا الصراع، إنه يتشكل داخل بساطة الحياة اليومية حين لا تُحقق المصلحة الشخصية هدفها إلا من خلال تعاسة الآخرين. كما فهمت أيضًا ما هي حدوده، حين يتم الفعل الأخوي بعيداً عن كل فساد وينشط بفعل نفحة أبدية. عندئذ يتحقق القول المأثور القديم: "عندما يسود الحب والمحبة فإن الله يكون هناك". فليست روحانية الفعل سوى روحانية التضامن. وبنفس هذه الحركة نلمس الحاضر والأبدية.

أشكر الله لأن هذه الانتصارات قد تحققت من خلال تجربة أصعب من كل التحديات الخارجية؛ أي المحنة الداخلية التي تتمثل في الشك في الله، الشك في نفسي، والشك في معنى حياتي، محنة شيخوختي، وتجربة موتي الآتي. كل التجارب - وبخاصة التجارب الداخلية - تدور في مُجملها حول الذات وعدم رؤية الآخرين؛ فكم من تجربة شخصية اجتاحت بصيرتنا وتركتنا نبكي على أنفسنا، فالطريق المسدود الذي نسير فيه سويًا ليس إلا هاوية لا فرار منها. حتى وأنا أعيش حالة من التراجع بالمقارنة "بزمان الحب الأعظم" والذي عشته في القاهرة، ثمة مجال جديد من العلاقات غير المتوقعة قد انفتح أمامي بحيث أنني قد اكتشفت أشكالاً جديدة للعمل وللحوار مع الله. ومع ذلك، عندما نلقي نظرة على الآخر ونصغي إلى صرخات البشر، فإن كل شيء ينقلب رأسًا على عقب. ليس فقط لأننا لم نعد "وحدنا في العالم" فحسب، ولكن أيضًا لأن التجربة لم تعد مُعاشة بنفس الطريقة. من الآن فصاعدًا العلاقات أصبحت جزءًا من المجتمع، فنحن نحيا معًا ونموت معًا ونقوم من الأموات معًا؛ فالآخرون أصبحوا مثل التوائم لنا، مولودون كلنا معًا من

نفس الرحم ونحمل نفس النير وممتلئون بنفس الرغبات ونسير معًا نحو نفس المصير. وأخيرًا فقد استطعت أن أفهم أن هذا يشكل شيئًا واحدًا لا يتجزأ. الإنسان كلٌ موحد بصرف النظر عن مشاعر الأفراد وتصرفاتهم داخل الجماعة، فالإنسان هو نفس الشخص الذي يظهر في خارجه ما يشعر به في داخله. لا شيء يستطيع أن يهرب من الظهور وسط شواغله وهمومه ونحن نستطيع أن نفهم ما بداخله من أفعاله التي يقوم بها بلا مبالاة. ولكن ربما تُوجد ظاهرة إتحاد، على حين تبقى ذاتي، إلا أنني أُكابد ما يعاني منه الآخر فهو قد دخل في ذاتي؛ أصبح جزءًا مني وأنا أعرف من خلاله. "فيكفي أن نحب بعضنا بعضًا" فنتوحد.

أقول شكرًا لله، لأنه جعلني أختبر أن لا شيء يدوم، لقد كنت أظن أنني سأستفيد من تقاعدي كما يستفيد الجندي من أكاليله بعد أن يرحل عن ميدان المعركة. ففي ميادين أخرى هناك معارك تنتظرني لكنها دائمًا نفس الحرب. كما في ميدان الإنجازات، في اختبارات الشهرة، وفي تجربة العجز، يوجد دائمًا مذاق الجراح والإحتراق الناتجة عن الإحساس بالضعف والشعور بالعدمية وبعدم القدرة والعجز. إنه دائمًا نفس النفق الذي نسير فيه، نفق الفقد والغياب والقصور، لكنه أيضًا نفس السلاح الذي يسمح لنا بأن يدوم انتصارنا حتى نعبر الهزيمة، ومع كل ضربة نُدرك في فقرنا قدرة الله. إن هاوية فقرنا تنفتح على الله لأن الله لا يعمل إلا في الفراغ في اللا شيء. إن فراغنا يستدعي وجود الله فيهرع إلينا. الله الكلي القدرة هو ذاته قد جَرّب الفقر والضعف. إن الفقر هو نقطة الالتقاء التي نتقابل فيها مع الله.

أقول شكرًا لله لأنه لم يدعنا نبحث بل كشف لنا عن الفقر. الفقر هو قدرة على الحب، والحب بكل صوره وأشكاله يفترض عوز القلب الذي يعرف حقيقة نفسه ويُدرك نقصه وعوزه، أينما كان وأيًا ما كان. ثمة



فجوة أُحاول أن أعترف بها، ولكن هذه الفجوة ليست هوة سوداء كتلك التي تبتلع كل شيء، لكنها على العكس، طاقة مفتوحة للنور وللآخر ولندائه. والكل يسمع ذلك النداء حتى ولو كان بلا شعور. الكل ينتظر هذا النداء لكي يستجيب له. وهذه ميزة الموجود البشري الحي، وهذا قد لا يتحقق أبدًا. لكل حب خافت الصوت، وكل استجابة تطلب التكرار. وطوال حياتي، أشهد أنني عندما أقيس عدميتي أجد ما يسد الطريق أمام استجابة قوية لحب حقيقي. ومن ثم فإنني أعتقد أن العدم الأخير وهو الموت، سوف يفتح الباب - يقينًا - أمام الحب. إنني أعتقد أن الحب واحد، سواء اتجه نحو الله أو نحو البشر؛ فالذي يحب الإنسان هو الذي يعرف كيف يحب الله. فما أيسر أن نحب لأن الحب ليس مثلاً أعلى ضائعًا في السحاب، إنه في الحياة اليومية، وهو في بساطة الحياة نفسها، ولهذا فأنا أُعلن أن الحب أقوى من الموت، ولم أقل أنه خارج الخبرة اليومية. ولا ينبغي لنا أن نتصور أن هذا يتعلق بشيء غريب، فأنا أرى حولي الكثير من الناس يؤدون أعمالاً وهي بلا شك لمصلحة الآخرين سواء أقارب، أزواج، زملاء، وقرناء. والشعور المتبادل بينهم حقيقي، وهو شعور ليس أساسه المنفعة؛ مَن منا لم يُقدم يدًا بالعون أو أُذنًا تستمع إلى شكوى أو قلبًا ينبض في تعاطف؟ هذا لا يمنع أن نرى أيضًا في ذات الفعل ظلال الأنانية، كما نرى أيضًا الأنا والآخر. قوة الحياة وقوة الموت متمازجتين ومرتبطتين ارتباطًا حميمًا، ولكن أثناء الموت وبعد الموت يوجد الله وهو وحده الذي يفصل ما بين الحنطة والزوّان، وسوف نجد هناك - بدهشة - كل لحظات حياتنا وكل ما صدر عنا.

وأخيرًا، أقول شكرًا لله من أجلك، عزيزي القارئ، لأنني كتبت هذا الكتاب جزئيًا من أجلي ولكنه بالتأكيد من أجلك! فأنا أتجاهل نظرتك إلى نفسك عندما تقرأ هذه السطور.. غير أن لكل واحد أعباء تثقله بها الحياة

اليومية والسنوات، وربما كنت - عزيزي القارئ - ممتلئًا بالرجاء والأمل في آفاق المستقبل أو بالنجاحات التي حققتها، وربما كنت على العكس تحس بسوء الحظ يحيط بك. لقد عشنا الماضي بكل إخفاقاته وهو شيء يمكن تجاوزه، وربما كنت في هذه اللحظة تمر بعاطفة أو بأخرى. ربما - من وجهة نظر الأبدية - يكون كل شيء نسبيًا. وبالتأكيد، فهي حياة ناجحة بمعنى أو بآخر، طبقًا للمعايير القيمية، وبقدر ما فيها من حب. ولكن طبقًا لنفس المعيار - ومهما كانت المظاهر - فليس هناك حياة كلها فشل أو حياة كلها انتصار. الحب - في الواقع - ليس له حدود وهو ليس شيئًا مكتسبًا وليس شيئًا صافيًا بلا شائبة، ولا أحد يستطيع أن يدّعي أنه أحب حبًا كاملاً، وعلى العكس، فلا أحد يستطيع أن يدّعي أنّ كل شيء قد ضاع، حتى الذين لم ينجحوا في أن يحبوا أو الذين أحبوا بطريقة خاطئة والذين فضلوا ذواتهم لدرجة قتل الآخر؛ فمثل اللص اليمين هناك لحظة من الشفقة على الآخر، لحظة اقتضاء العدالة ونداء لا متناهي طلبًا للرحمة، تسمح بتدخل الحب الإلهي، وهو مستعد دائمًا للمنح. لا توجد حياة كاملة، كما لا توجد حياة ضائعة تمامًا، فالكل سوف ينالون الخلاص.



أنا قريبة منك يا عزيزي القارئ، لأنني من الآن فصاعدًا قريبة من الله إله الحب. أريدك أن تفهم إنك تحب، وأن طاقة الحب لديك هي أكبر مما تظن. ارجع إلى قلبك وسوف تجد هناك شعلة الحب التي تُفَتِّش دومًا عن سعادة الآخرين، وهذا ما يعطي معنى للحياة وللموت. كن متاكدًا أننا سوف نتلاقى في الأبدية: إن من يحب لا يموت! وهذا سر لا يُقَدّر، لكني عشته أو عشت جانبًا منه. إنني أريد أن أعترف لك - يا عزيزي القارئ - بكل ما تبقى لي من قوة، بكل ما جرى لي حتى النفس الأخير،

C'est toujours le Temps
du
plus grand Amour!

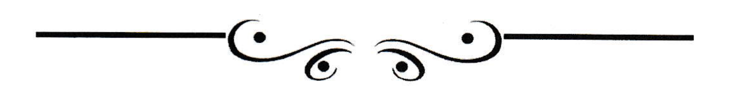
S. Emmanuelle







ملحقات









صلوات الأخت إيمانويل



صلاة للشباب المتزوجين

سيدي، نسلمك حبنا كي لا يموت أبدًا.

ولتكن أنت مصدر ذلك الحب، حتى يبحث كل منا في أن يحب بدلاً من أن يُحب، وفي أن يعطِي بدلاً من أن يُعطَى.

فأيامنا السعيدة لم تلهنا عن باقي العالم.

وأيام الألم لم توقفنا وإنما تشدد حبنا.

سيدي، أنت هو الحياة،

فأعطنا أن لا نرفض أبدًا الحياة التي ستتولد من حبنا.

سيدي، أنت هو الحق،

فأعطنا أن لا نرفض أبدًا الحقيقة بل تبقى واضحة بيننا.

سيدي، أنت هو الطريق،

فأعطنا أن لا نثقل خطواتنا أبدًا، ولكن نتقدم واليد في اليد.

سيدي، يا من أهديتنا مريم والدتك،

وهي حامية أسرتنا التي نؤسسها اليوم.

فهي دائمًا مخلصة، وهي الحضن والحنو، تحرسنا بإخلاص وقوة وحنان إلى الأبد.

أمين





كتبتُ السطور التالية في يونيو 1993م، أثناء فترة معسكر مع الأطفال على ضفاف بحيرة بالإسماعيلية. وقد نفد صبري من إحدى المدرسات. وعندما جاء المساء، وفي عذوبة ليل الصيف، والقمر يغمر وجه البحيرة، توسلت إلى الله أن يساعدني في إصلاح نفاد صبري هذا، ويخلصني منه، ثم كتبت هذه الصلاة حتى تخدم آخرين. وأيضًا حتى يصلوا من أجلى أنا المسكينة إيمانويل التي تبلغ أكثر من ثمانين عامًا ولا تُطَبِّق الوداعة الإلهية.

سيدي، امنحني وداعتك الإلهية

سيدي، امنحني وداعتك الإلهية،

أنت يا من ارتضيت أن تكون طفلاً صغيرًا ملفوفًا بأقمطة،

وصبيًا يطيع مريم ويوسف،

مسيح غير متفاخر،

بقيامة في الخفاء.

سيدي، امنحني وداعتك الإلهية،

يا من قُلت: "طوبى للودعاء، لأنهم يرثون الأرض."

اعطني أن ألتقط كل شيء بوداعة:

التليفون والحقيبة،

القلم والمكنسة،

الشوكة والطبق،

وبالأخص اليد التي تُمد إليّ.

سيدي، اعطني وداعتك الإلهية،

أنت يا من قلت: "تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب."

اعطني أن أُرحب بكل شيء في وداعة:

الجيد والسيء،

السعادة والألم،





التشجيع والنقد،

أيّا كانت اللحظة

وبالأخص اللحظة الحاضرة.

يا أيتها العذراء الممتلئة نعمة، يا أيتها العذراء المبتسمة،

ضعيني على طريق الوداعة الإلهية،

علميني أن أشفي مَن جرحتهم،

وليظهر حنانك على شفتيّ بكلمات الحب التي تحل بالسلام.

قد ترجمت ونسقت هذه الصلاة أثناء فترة نقاهة وبعد أزمة التهاب رئوي.

ومن خلال تأمل لـ"كريستيان لانسون" كان قد أرسله لي صديق أمريكي. إن الساعات التي مازلتُ فيها ضعيفة جدًا قد حولتها إلى صلاة، وقضيت تلك الساعات في الصلاة التي أحيت فيّ الشجاعة مرة أخرى.

سيدي، امنحني اليوم هذه النعمة

سيدي، امنحني اليوم هذه النعمة:

لكي لا يستطيع شيء تعكير صفو سلامي الداخلي،

وبخاصة عندما أبدأ حديثي عن الصحة والسعادة والرخاء،

لكل شخص سوف أُقابله،

حتى أستطيع مساعدته في اكتشاف مواهبه الداخلية.

وبصفة خاصة، ساعدني يا سيدي على معرفة الجانب المشرق في كل شخص رأيته،

فأحيانًا يصعب عليّ يا سيدي تجاوز أخطائهم،

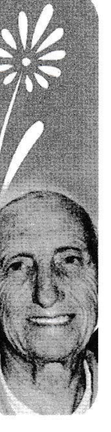
وبدلاً من أن تستوقفني صفاتهم المميزة والتي قد تفيدني،

أغضب منهم.

ساعدني أيضًا يا سيدي أن أرى وجهك المشرق،

حتى في مواجهة أسوأ الأحداث:

فليس هناك أحد إلا ويستطيع أن يكون مصدرًا للخير،



الذي قد لا أراه إلا إذا استندت إلى مريم العذراء.

امنحني يا سيدي النعمة

في ألا أعمل سوى ما هو للخير، للحق، وللجمال،

وأن أبحث عنها دون تعب، بداخل كل شخص،

شمعة مضيئة قد وضعتها على صورتك أثناء الخلق.

امنحني أيضًا قدرًا من الحماسة

لإنجاح الآخرين مثلما منحتني النجاح،

وأن أعمل المجهود ذاته لأُصلح نفسي أيضًا

حتى لا يكون لديّ الوقت لنقد الآخرين.

أود أيضًا يا سيدي، أن تهبني الحكمة

التي تجعلني لا أتذكر أخطاء الماضي حتى أصل سريعًا

نحو مستقبل أفضل.

اعطني في كل ساعة من هذا اليوم

أن أقدم وجهًا بشوشًا وابتسامة صداقة

لكل شخص، الذي هو ابن لك وأخ لي.

اعطني قلبًا

متسعًا جدًا حتى استوعب آلامي،

قلبًا نقيًا لتجنب الأحقاد،

قويًا في مواجهة الخوف،

منفتحًا ليقبل الآتي.

سيدي وإلهي، أسألك هذه النعم

لكل البشر الذين يُجاهدون مثلي،

حتى تقل الكراهية ويزداد الحب،

لأنه منذ قيامتك انهزم الكره والموت، بالحب والحياة.

افتح أعيننا لنرى الغير المنظور

حتى لا يتزعزع تفاؤل مَن يؤمنون بك

ومَن يؤمنون بالإنسان،

من يأمل فيك

ومن يأمل في الإنسان.

أمين





سيدي، علمني أن أبتسم

قال لي أحدهم ذات يوم:

"اعطي كل يوم ابتسامتك

فهذه أعظم هدية تقدمينها للحب

مع أنها لا تدوم سوى لحظة،

لكنها تجعل القلب يغني."

سيدي، علمني أن أبتسم مثل أخي الزبال...

فما هي مصدر سعادته؟

لماذا هذه النظرة المضيئة لهذا الرجل الغارق في القمامة؟

سيدي، علمني أن أبتسم مثل الطفل الزبال

فهو يغني وهو يرقص على كومة زبالته

يهب كل من يمر ابتسامته الجميلة.

فهل يجب عليّ يا سيدي أن أفتقر وأصغر حتى أعرف أن أبتسم؟

ولكنها ساعات، يا سيدي، وقلبي الثقيل الجريح يضيق...

ولا أعرف أن أبتسم مرة أخرى،

ولا أعرف ماذا أفعل، يا سيدي؟

إلا عند سماع كلمة ابنك:

"تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم."

قال لي أحدهم ذات يوم:

"اعطي لكل يوم ابتسامتك

فهذه أعظم هدية تقدمينها للحب!"



عندما دخلت حي الزبالين، وصلت في ثوب "الراهبة الطيبة"، الممتلئة حماسًا لحمل البشارة إلى هؤلاء الفقراء الذين قالوا لي عنهم بازدراء أنهم قتلة، لصوص، متعاطون وتجار حشيش، وأيًا منهم لم يضع يومًا قدمًا في الكنيسة.

لكن كان هؤلاء هم الذين - مع الأيام - بشروني. فقد كشفوا لي أحد أسرار الحب: حب ملؤه الإيثار الذي يكنه المسيح للصوص ولمريم المجدلية، حب ملؤه الرجاء "للخطاة المساكين" (وهذه الكلمات ليست لكي يسمعها هؤلاء). إنه إحساس من يتلقون هذا الحب وهم في لجة الهاوية ولم يستطيعوا الخلاص منها. كان هذا الحب بالنسبة لهم بصيصًا من الأمل: هذا الأمل هو الله في عظم مراحمه والعذراء أم الرحمة. إن صلوات الليل التي كنت أرفعها من أجل شخص أو آخر، لم تكن إلا صرخات أرفعها نحو المسيح المخلص.

ومنذ تجربتي في الحياة، وهبني الله نعمة التعرف على كل ما هو "فريسي" في داخلي وهو كثير، ففي أعماقي كان لي لحم ودم الفريسيين، وإن كنت لم أقتل ولم أسرق الحشيش أو أُتاجر فيه، وإن كنت لم أقف على الرصيف في انتظار "زبون" فهذه نعمة عظمى، ولكن لو قُدِّر لي أن أَمُر بظروف هؤلاء الناس، فربما كنت مثلهم... وكان الله سيشفق عليّ. لذلك تغيرت صلواتي.

سيدي، ها أنا أقف أمامك

سيدي، ها أنا أقف أمامك

مع الرجال والنساء الذين هم إخوتي وأخواتي، الذين مثلي تمامًا:

نماذج من الفقر، يريدون حقًا الخروج منه

ولكنهم لم يخرجوا:

المدمنون، المنكوبون،

وكل من لا يصمدون في مقاومة الشر،

اللصوص، القتلة،

والذين فقدوا الإيمان والرجاء والمحبة...

وكل الذين يتألمون.

سيدي، أنت أيضًا تنظر لنا

نظرة الحب

تلك النظرة التي نظرتها للمرأة الزانية،

للسامرية، لمريم المجدلية، وللص الذي صُلب بجانبك.

إننا نتضرع إليك يا سيدي:

أنقذنا، ما دمتِ تحبنا.

سيدي، أنت قلت،

إنك لم تأتِ من أجل الأصحاء، بل من أجل الفقراء،

من أجل المرضى، الخطاة، من أجلنا نحن، ومن أجلي.





سيدي، نحن كلنا نثق فيك،

لأني أؤمن بك،

أؤمن أنك خلصتنا،

أؤمن أن كل شخص منا نحن، النماذج الفقيرة،

ستقول لنا يوم نموت، تلك الكلمات التي قلتها للص الذي صُلب بجانبك:

"اليوم تكون معي في الفردوس"

لأنه سيأتي ليل فيه سوف تلبسنا ذاتك،

أنت هو الله، وأصبحت إنسانًا فقيرًا.

جُعت وعطشت مثلنا،

خُفت وبكيت مثلنا،

ومُت مثلنا،

ووُضع جسدك المجروح في القبر،

مثلما سنوضع نحن أيضًا،

وخرجت منه بهيئة أخرى،

مثلما سنخرج منه يومًا.

يا حبيبي، معك الموت جميل،

والقيامة بانتظارنا.

شكرًا لك.

خطاب البابا يوحنا بولس الثاني إلى الأخت إيمانويل

بمناسبة عيد الميلاد والعام الجديد، قد بعثتِ لنا الأماني الحارة وأوضحت لنا أنكِ على علم بشأن الرسالة البابوية، المجد الحقيقي veritatis splendor. وأكدتِ لنا أيضًا صلاتك من أجل الكنيسة. أشكرك جزيل الشكر على الاهتمام وعلى شعورك النبيل، وأود أن أُعرب عن امتناني و معي أيضًا كل المجتمع المسيحي، لهذه السنوات الطويلة من الكد الذي لا هوادة فيه لخدمة أكثر الناس فقرًا، وعلى نحو خاص على سنوات عملك في مصر.

ففي مهمتك المتواضعة والصلبة، عملتِ دون كلل، من أجل حقوق أكثر الضعفاء، ومن أجل حماية الأطفال، ورعايتهم، ولا سيما أولئك الذين يعيشون في ظروف صعبة أو في بلاد محرومة. إنكِ ساعدتِ الكثيرين من الأشخاص والكثير من العائلات المرفوضة من قِبل المجتمع الحديث، على استرداد كرامتهم وأن يكونوا موضعًا للحب. كنت خير دليل على صحة مقولة القديس اغريغوريوس دي نيس، بأن الفقراء "قد ارتدوا وجه مخلصنا"؛ وكنتِ سفيرة دءووبة تنقل عناية السيد المسيح ورعاية كنيسته وتعزياتها إلى إخوة المسيح الصغار، بتشجيع كل واحد على



العمل والتعليم، والاندماج في المجتمع الإنساني، حتى يتمكنوا من أن يصبحوا أكثر حرية وأكثر مسئولية عن مصائرهم. ومن هنا فقد دعوت كل الكنيسة بكامل هيئتها لدخول الأعمال الخيرية، لنجعل من عالمنا مجتمعًا أكثر عدلاً وأكثر أخوية وأكثر تضامنًا.

بينما كنتِ تكرسين اجتماعات صلاة من أجل مجد الله ومن أجل الكنيسة وسلام العالم، أود أن أُعرب لكِ عن أملي الكبير، في أن المسيح المخلص، ملك السلام، سوف يملؤكِ من نعمه ويهبك إكمال حياتك بسلام وفرح.

إنني على ثقة بشفاعة العذراء مريم، وأمنحك من صميم قلبي وبكل سرور البركة الرسولية ولتمتد بكل سرور لمن هم أعزاء لك، ولا سيما أولئك الذين يواصلون العمل الذي بدأتيه.

الفاتيكان، 24 فبراير 1994م.

Ouvrages écrits sur sœur Emmanuelle

Paul DREYFUS, *Sœur Emmanuelle. Aimer, l'unique nécessité*, Centurion, Paris, 1990 [1983]. Écrite par mon cousin, cette biographie est pour moi la meilleure : proche de la réalité, elle présente une excellente analyse de l'environnement.

Michèle BLIMER, Jean DUVERDIER, *Les Fumées bleues du Caire*, Blimer-Duvidier, 1987, rééditée par Desclée de Brouwer, Paris, 1991. Bande dessinée, pleine d'humour.

ASMAE (associations suisse et française), *La Force cachée*, Asmae, Paris, 1988. Album d'images sur les chiffonniers du Caire, sœur Sara et moi-même.

Thierry DESJARDINS, *L'Aventure de sœur Emmanuelle : la femme la plus heureuse du monde*, LGF, Paris, 1993. Cette biographie est certes très vivante, pleine d'humour, mais elle est aussi quelque peu romancée !

Pierre LUNEL, *Sœur Emmanuelle*, Fixot, Paris, 1993. Biographie vivante au style pittoresque.

Pierre LUNEL, *Sœur Emmanuelle, secrets de vie*, Anne Carrière, Paris, 2000. Une enquête selon un nouvel éclairage, léger et simplificateur.

Edmond BLATTCHEN, *Sœur Emmanuelle*, Éditeur Alice, Liège, 2000. Un dialogue nuancé et profond.

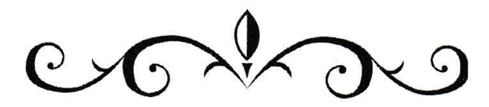
Sofia STRIL-REVER, *La Folie d'amour*, Flammarion, Paris, 2005. Un dialogue comportant quelques envolées sur le mysticisme et les grands mystiques chrétiens.

Pierre LUNEL, *Sœur Emmannuelle, la biographie*, Anne Carrière - Robert Laffont, Paris, 2006. Livre superficiel et répétitif, dont je ne m'attendais pas à la publication.

Sofia STRIL-REVER, *Mille et Un bonheurs*, Carnets Nord, Paris, 2007. C'est de moi et, dans un certain sens, ce n'est pas de moi : des entretiens effectivement recueillis ont été édités à la manière de l'auteur qui, avec les meilleures intentions, y a mis son cachet personnel.







Bibliographie

Ouvrages écrits par sœur Emmanuelle

Livres

Chiffonnière avec les chiffonniers, Les Éditions ouvrières, Paris, 1977.

Le Paradis, c'est les autres, entretiens avec Marlène Tuininga, Flammarion, Paris, 1995.

Jésus tel que je le connais, en collaboration avec Marlène Tuininga, Desclée de Brouwer-Flammarion, Paris, 1996.

Yalla, en avant les jeunes !, en collaboration avec Françoise Huart, Calmann-Lévy, Paris, 1997.

Richesse de la pauvreté, en collaboration avec Philippe Asso, Flammarion, Paris, 2001.

Vivre, à quoi ça sert ?, en collaboration avec Philippe Asso, Flammarion, Paris, 2004.

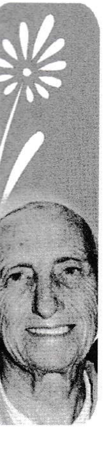
Opuscules

La Foi des chiffonniers, Le Livre ouvert, Mesnil-Saint-Loup, 1988.

Les Mots du rosaire, Actes Sud, Arles, 2002.

Chemin de croix, Panorama-Gallimard, Paris, 2002.

Un pauvre a crié, le Seigneur l'écoute, Éditions de l'Emmanuel, Paray-le-Monial, 2005.



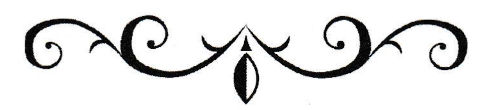


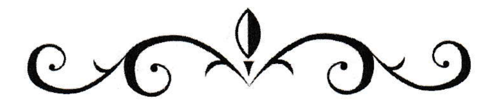
شكـــر

أصدقائي الآباء موريس مارتن، هنري بولاد، السيد إيريك بلانشارد، وشكر خاص لبنوا لامبيرت، الذين ساعدوني بكل قواهم في كتابة هذا العمل. إنني مدينة لهم لحسن تعاونهم مع الخوري فيليب أسو.

لهم جميعًا، جزيل شكري وامتناني.

كاليان، يوليو 2005.

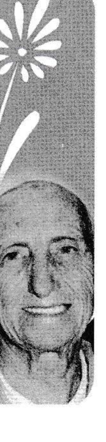




تعليق على اعترافات الأخت إيمانويل

عند قراءة هذه السطور، تكون الأخت إيمانويل قد فارقتنا. وفي هذه الساعة التي أكتب فيها، مازالت تحيا بيننا! في التاسعة والتسعين من عمرها، وهي في حالة غيظ من الشيخوخة التي أصابتها ومن أنها لم تعد تستطيع - كما كان الحال من قبل - أن تعمل حتى ساعة متأخرة من الليل. فهي غالبًا تعتريها حالة من الميل للاسترخاء والنعاس، كما تحتاج إلى جهاز لضبط التنفس، ولا تترك كرسيها المتحرك إلا إلى سريرها. لكن روحها مازالت في حالة من الصفاء والرصانة والسكون، ونظرتها إلى نفسها يسودها الهدوء. وهي دائمًا تستقبل زوارها، ترد على المكالمات، تتابع مشروعاتها والجمعيات والروابط التي أُنشئت تحت قيادتها. لقد توصلت - منذ عدة أشهر - إلى إجراء مقابلات ومحاورات خاصة بتوثيق برنامج "الأخت إيمانويل: قلبًا وروحًا" [56]، الذي يذاع هذه الأيام على القناة الخامسة الفرنسية. وفي هذا البرنامج تسجل بالكتابة تأملاتها. ويستمر تعاوننا معًا.

56- Coproduction Les Bons Clients, France 5, Ina. Réalisation: Élisabeth Kapnist. Entretiens : Philippe Asso.



لقد بدأت الأخت إيمانويل كتابة اعترافاتها في سنة 1993م. عند عودتها في ذلك العام إلى فرنسا، طلبت مني مساعدتها في تحرير اعترافاتها تحت عنوان "اعترافات راهبة". كنا قد تقابلنا لأول مرة قبل ذلك بسبع سنوات أثناء إحدى جولاتها من أجل أطفال السودان. ولأن الأخت إيمانويل كانت خبيرة في الموارد البشرية وبارعة في الكشف عن الطاقات الإنسانية التي يحتمل أن تخدم مشروعاتها، فقد أخذت ملاحظات عن أبحاثي اللاهوتية وعن تلك المتعلقة بعلوم اللغة. باختصار، فإن الأخت إيمانويل كانت - شأنها شأن الشخصيات المشهورة - تحتاج إلى جوارها شخص "خبير بمهنة الكتابة". ومنذ ذلك الحين لم نتوقف عن التحاور، وعن العمل معًا، في أوقات متقاربة أحيانًا ومتباعدة أحيانًا أخرى، طبقًا لمواعيد كتبها الأخرى في المطبعة. وكنا نعود مرارًا ونركز على إكمال وتصحيح "اعترافات راهبة".

وفي هذا الملحق، أريد أن أُبين للقارئ قصة وتاريخ كتابته ومن تعاونوا معنا في ذلك بشكل مقصود أو ضمني. وذلك مما أثرى معرفتنا بامرأة، راهبة، تريد أن تقدم شهادة دقيقة عن أفكارها وعن أعمالها، بل إن شئت الدقة، عن أفكارها خلال عملها.

الكتاب الأول والأخير

"الاعترافات" كان الكتاب الأول والأخير الذي كتبته الأخت إيمانويل. ولقد خطرت لها فكرة تأليف هذا الكتاب في القاهرة. وإذا استثنينا كتاب "زبّالة مع الزبالين" - والذي يُعتبر مجموعة من النوادر - سيكون "الاعترافات" أول كتاب أدبي حقيقي للأخت إيمانويل. وقد خططت له لينشر بعد رحيلها عنا، وكانت تعود إليه وتضيف له حتى شهر أغسطس عام 2006م. وهي بذلك تعتبره آخر شهادة لها أنجزتها قبل الرحيل.

الأول والأخير... قد يترك انطباعًا أنه لا توجد كتب أخرى. لهذا، وبصرف النظر عن بعض الكتيبات التي كتبتها، فإن كل العناوين التي كانت تُنشر لها بين الحين والآخر، كانت تأخذ منها مجهودًا مضنيًا في التأليف. وقد شارك كثيرون من الكُتّاب في صياغة فكر وتعبيرات الأخت إيمانويل. ولقد اتفقنا - نحن الإثنين - على أن يأتي هذا الكتاب عكس كل ما سبق؛ في صورة اعترافات. وبسبب طبيعته التسجيلية، يجب أن يأتي أقرب ما يكون للتعبيرات الأولية الصادرة عن مؤلفته. ومن ثم فإن "الاعترافات" هو الكتاب الوحيد الذي يُعتبر أقرب المخطوطات لأسلوب كتابة الأخت إيمانويل كما هو.

وإذا عدنا إلى نقطة الانطلاق في عام 1985م، نجد أن الأخت إيمانويل كانت تحت تأثير قراءاتها الذاتية لاعترافات القديس أوغسطينوس واعترافات روسو (هكذا!)، وبصورة أقل القديسة تريزا دافيلا، أجد أن الأخت





إيمانويل كانت تريد أن تحاول بطريقتها أن تقدم عرضًا يتسم "بالأصالة" لكل ما مرت به دون إخفاء شيء. وكان الكُتّاب الآخرون، المشاركون معها يحذرونها من تلك المخاطرة، إذن ما الفائدة؟ وما هي الدوافع؟ لقد عَبّرت عنها، ولكن لابد من إضافة إثنين من الدوافع. في المقام الأول، فهي لديها قناعة بأنها عاشت حياة ليست عادية، وأنها في هذه الاعترافات تقدم حسابًا ختاميًا، وبالنسبة لراهبة فإن هذا الحساب الختامي لا يمكن إلا أن يكون ذا طابع روحي يتمثل في إعادة قراءة الطرق التي قادها الله إليها وفيها. والاعتبار الثاني يتمثل في شهرتها الوليدة، وإحساسها بتلك الشهرة كان يتزايد مع تزايد شعبيتها: فحضورها الإعلامي تزايد، جمهورها تزايد، وبدأ شعورها يتزايد بالحاجة إلى تصويب مراميها وإلى الحد من سُبل المديح الذي تتلقاه من خلال كشف نقاط ضعفها وشكوكها وعما يعتريها من عدم و"فراغ داخلي". ولما كانت مُداوِمة على إتمام واجباتها الدينية وعلى ممارسة الأسرار والحصول على الغفران (بالإفخارستيا). فإن اعترافاتها هي بحق امتحان لضميرها ولأمانتها وهي إعلان واعتراف بإيمانها.

ولا تسير الكتابة في خط مستقيم، فقد بدأته هناك حيث تزامن وجود السر الذي سوف يتحقق. ولكن خلال بضعة أشهر مكثتها في كاليان كانت الأخت إيمانويل قد استشعرت الحاجة للابتعاد عن القاهرة لتجد الوقت والفرصة الملائمة للبدء في الكتابة. لذلك لما عادت نهائيًا إلى فرنسا (لكي تموت هناك، كما ظنت، ولكي تكتب أثناء ما تبقى من عمرها)، وقد وضعت مادة البابين الأولين، سواء بالتزامن أو على التوالي. وقد تفرغت لمساعديها الكثيرين الذين ذكرت أسماءهم في "الشكر" المنشور في صدر هذا الموضوع، وذلك بالإضافة إلى مستشاريها الكثيرين. وفي الواقع، إن الأخت إيمانويل كانت تجيد الحديث الشفهي أكثر من الكتابة؛

فأي شخص أُتيح له أن يتواجد في مؤتمراتها سوف يجد فيها خطيبة مفوهة لا تضاهي، فهي سيدة ذات ثقافة سمعية ومعلمة محنكة يحفزها وجود جمهور يستمع. أما الكتابة فلم تكن يسيرة بالنسبة لها. ونثرها المكتوب يميل بوضوح إلى أسلوب المعالجة الأكاديمي والمدرسي؛ ففيه الجفاف والعنت والعسر، أما خطبها المرتجلة فتفيض بالمشاعر المتدفقة الممتلئة حماسًا.

من المهم أن يسبق طبع أي عمل من أعمال الأخت إيمانويل نوع من "التصحيح" - بما في ذلك اعترافاتها - حيث نضطر إلى حذف نصف علامات التعجب مثلاً حتى نصل إلى جمل قصيرة ومفهومة، حيث نجد جملاً مطولة موصولة بحروف جر وأدوات وصل إلخ... ولكن المساعدة الأساسية التي يجب تقديمها لها هي مساعدتها على تجسيد أفكارها. ولأنها كانت امرأة عاملة، فإن كتابتها كانت تدور دائمًا حول الإنجاز. لقد كانت تكتب أثناء الليل ربما حتى الواحدة أو الثانية صباحًا. إن غياب الخيط الرئيسي - من آن لآخر والذي يربط الأفكار - قد يضفي مسحة من الغموض تواجه قارئ كتاباتها الأولى. هذا التسرع في الرد الذي يختفي بين طيات خطابها قد يشكل عمقًا يخفي تأملاتها. باختصار، إن التصحيح كان يتطلب إعادة تشكيل وتوضيح للوصول إلى المعنى الذي تريده الكاتبة.

لقد كان يوم العمل مع الأخت إيمانويل يبدأ ببعض التغييرات الجديدة، ثم سرعان ما تقول لي "هيا إلى العمل يا صغيري فيليب، لقد أرهقتني حتى الواحدة صباحًا!" ثم تضع أمامي الأوراق التي انتهت من كتابتها، فأضع أمامها الأوراق التي انتهيت من تصحيحها. في هوامش إحدى الفقرات المكونة من أربعة أسطر، والتي أعتقد أنها يجب أن تكون 15، أكتب: "لا أفهم." فتضيف سطرين لتوضح مرامها وهدفها، ولكن الفكرة





ما تزال غامضة. لكني أبدي اعتراضي: "مازلت لا أفهم." وكانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير؛ فتنفجر في وجهي: "أنت لا تفهم؟ لأنك غبي ! فأرد عليها: "نعم أنا غبي ، لكنك كسولة!" ننظر إلى بعضنا... ثم ننفجر ضاحكين.

فيما عدا بعض المشاغبات المتبادلة وزمالة العمل الجاد أحيانًا والمسليَ أحيانًا أخرى كنا في حالة بحث مستمرة، صفحة بعد صفحة، عن التوازن وعن الإلتزام بالخطة المبدئية للكتاب سطرًا سطرًا من التعبيرات والكلمات المعبرة بالضبط عن المعنى المراد. وكانت الأخت إيمانويل تنهمك في قاموس المترادفات الخاص بها لكي تتخلص من تكرار الكلمات المعادة(مثلاً، كلمة نظافة أو طهارة "**Proprette**"). كانت الأخت إيمانويل تعود إلى مفكرتها التي سجلت فيها التواريخ المهمة في حياتها. كنا نتناقش في أية مسألة عويصة تواجهنا سواء كانت لاهوتية أو إنسانية مما يقتضيه الموضوع الذي تتناوله. كانت المناقشة تطول أو تقصر سواء كانت غاضبة أو ممتلئة بالحدة، إلا أنها تمضي بدون تنازلات. وكانت المناقشة تنتهي حين تتوقف الأخت إيمانويل عن النظر إليّ. وتتثبت عيناها على نقطة مجهولة في أعماقها. وهناك ـ في أعماقها ـ أعرف أن الفكرة والتعبير أصبحتا ناضجتين. ثم تبدأ الأخت إيمانويل في الكلام إلى جمهور غير منظور. وهذه بالنسبة لي هي اللحظة التي أنتظرها على أحر من الجمر.

يمضي الحوار سنة بعد سنة، مما هذب بعض أساليبي وتعبيراتي لتلائم الموضوع. كما حدث هذا بالنسبة لبعض تعبيراتها هي أيضًا. لقد وصل كل منا إلى تفهم كيف يتكلم الآخر وكيف يفكر. لقد كان هذا مفيدًا تمامًا مما جعلني في كثير من الأحيان أكتب فقرات مقترحة بالكامل ـ مُقدّمًا ـ انطلاقًا من تعليماتها. حتى جاء اليوم الذي سلمتني فيه الأخت

إيمانويل ورقة مؤرخة وموقعة منها: "إنني أُوكل إلى فيليب أسو مهمة إنهاء كتاب "اعترافات راهبة"، إتمامًا لما أنجزناه معًا." ولقد قالت لي ببساطة: "خذ، فنحن لا نعرف أبدًا موعد رحيلي؛ وقد أرحل قبل إتمام هذه "الاعترافات." ولحسن الحظ لم يحدث هذا!

أحيانًا، كنت أُشارك في طباعة بعض منشورات الأخت إيمانويل الأخرى، في تعاون وثيق مع كُتّابها الآخرين المشاركين في العمل معها، مثل "مارلين توييننجا" على وجه الخصوص، ومع مديرتهم المخلصة "صوفي برلين". وكان عملي يتركز أساسًا في التحقق من أن الشكل والمضمون متماسكان، بالإضافة إلى ضبط جوانب الفكر اللاهوتي. وكما روت الأخت إيمانويل، فإنني جعلت منها جزءًا من عملية الكتابة فهي لم تكن بعد قد شرحت فكرها عن الأفعال الإنسانية ولا تأملاتها المستمرة في فلسفة بليز باسكال. ولسد هذه الثغرات كنا نكتب معًا آخر كتابين.

وهكذا فإن الاعترافات - في مجملها - جاءت بمثابة مراجعة لكل أعمالها الأخرى؛ فقد كانت الأخت إيمانويل تعتبر تلك الأعمال قالبًا ترسم من خلاله الخطوط الأولى لمراحل سيرتها الذاتية. وعلى النقيض تأتي التفسيرات التي يتطلبها الوصول إلى فكرها. وبمقارنة تلك التفسيرات الواردة في الاعترافات بما يماثلها من الأفكار التي وردت في كتب "يسوع كما عرفته" أو "غنى الفقر" أو "الحياة، ما جدواها؟"، سنجدها غالبًا أفضل. إذن، ماذا تُقدّم الاعترافات على وجه التحديد؟

هل هي سيرة ذاتية؟

عندما كانت تكتب الأخت إيمانويل، كانت تكرس نفسها للكتابة. ولأن مقصدها هو تقديم الحقيقة؛ فقد قدمت نفسها مجردة من كل تجميل. ولأن همها هوالبحث عن الهدوء وراحة البال - ولكم أن تتخيلوا أسئلة



الصحفيين التي سوف تتركز على تفاصيل معينة وتبرزها على حساب ما هو جوهري - فقد كانت تُقدم للقارئ - ولنفسها أيضًا - فهمها لذاتها ولتاريخها. ولا حاجة بنا إلى القول إن روايتها لن تكون أكثر صدقًا من رواية الشهود الآخرين لنفس الأحداث. وقد يرى أفراد عائلة الأخت إيمانويل؛ أخواتها في الرهبنة والمشاركون والمشاركات معها - عن حق - أن بعض الأحداث قد رويت مقتضبة وغير دقيقة، على حين أن أحداثًا أخرى قد مرت عليها مرور الكرام، بينما أحداث أخرى قد رويت بشيء من المبالغة، على حين سيطلب آخرون الحقيقة وحدها. وقد يرى البعض أن الاعترافات ما هي إلا تفسيرات أو تأويلات. ولم تكن الأخت إيمانويل تريد مجرد سرد قصة حياتها ولكنها تريد أن تسجل المغزى أو المعنى وراء ما مر بها من أحداث معقدة ومتناقضة. المعنى التي كانت مقتنعة به؛ وهو ما أراده الله لها، نعمة اللقاء به، ونعمة الأخوة معه، نعمة الله، والمعاني التي أعطاها لها.

وعليه، فقد أصبحت الأخت إيمانويل مهمومة بالدقة والأمانة إنطلاقًا من وتحقيقًا لأهداف ثلاثة. أولها، تصحيح "الحماقات" التي قيلت أو كُتبت عن موضوعها؛ فهي لم تكن تُمدح دائمًا ولم تقتنع بالأعمال التي تجعل منها قديسة (وفيما يتعلق بمؤلفاتها، فهي تُجمل تقديرها لكل واحد منهم). إنها تريد - بصفة خاصة - أن تعترض على الصورة التي من آن لآخر قد رُسمت لها؛ إن ارتباطها بالفقراء وبالأطفال قد بدأ في عشش الزبالين في القاهرة. تلك "الأسطورة الذهبية" التي تقول إنها - وهي في الثانية والستين - قد ذهبت إلى مغامرتها مع الفقر دون مراحل انتقالية، دون استعداد، إعداد، وتدريب لتلك الراهبة الصغيرة. كذلك فإن القارئ يعرف أن الدعوة الرهبانية تحققت وتمت - كما هو الحال في الأغلب الأعم - انطلاقًا من وجود أشواق قلبية للرهبنة، ولم تكمل إلا بوجود

مدرسة تديرها أخوات سيون في حي فقير في لندن مما عزز اختيار الأخت إيمانويل لتلك الجماعة الرهبانية بالذات. فمنذ عام 1940م، "بدأت تتملكها فكرة: أن تذهب لتعيش في بلدة تينيك ماهيلاسي Teneke Mahallesi، تعيش حياة الفقراء ومع الفقراء." مع الاحتفاظ بنفس نظام وفكرة جماعة سيون في موضوع التربية والتعليم كاستراتيچية تهتدي بها في عملها. ألم تتمثل المرحلة الأولى لرفع مستوى معيشة الزبالين في بناء حضانة أطفال لإيجاد المهنة التي تدخل السرور إلى قلب راهبة إسطنبول الشابة؟

الهدف الثاني للأخت إيمانويل، كان مرتبطًا بما سبق، وهو يتمثل في الكشف عن مدى التزامها وارتباطها "بجماعة سيون". ومن ثم، فهي تلتمس من رؤسائها في تلك الجماعة إعادة قراءة "الاعترافات"، وبخاصة الفقرات التي لها علاقة بسيون، وتلك التي تخص الأخت دومينيك، لكي ترى مدى التزامها بملاحظاتها الرقيقة بكل دقة. ولقد قصدت بهذا المثل الوحيد أن تعطي نموذجًا للتصحيح الذي يمكن أن يتم من خارج المحررين. نستخلص من هذا مدى تمسك الأخت إيمانويل والتزامها بكل تعاليم نوتردام دي سيون.

إن تكوين الأخت إيمانويل لم يقتصر على فترة التدريب التي تلقتها كراهبة مبتدئة ولا على وظيفتها الأولى في إسطنبول، فهناك تأثير المشرفتين اللتين كانتا مسئولتين عنها؛ وهما الأم ماري الفونس والأم إلفيرا، وهو تأثير "استمر معها طوال حياتها". إن الكاريزما الدينية التي لازمت الأخت إيمانويل لم تفتر مع إنهاكها في العمل، كما أن سمعة المؤسسات التعليمية التي أحرزتها أخوات سيون في مجال التعليم ذائعة الصيت ومشهورة بالجودة. هذا التعليم التربوي الموجه إلى بنات - غالبيتهن مسلمات - يستهدف رفع "مستواهن" وضمان مستقبلهن.



إن الكرازة في أوساط التلميذات المسلمات واليهوديات والمسيحيات غير الكاثوليكيات ممنوع. إن مجتمع الراهبات على علاقة بكل الأوساط الاجتماعية، السياسية، الإقتصادية، وبكافة الأديان والمذاهب والطوائف. باختصار، فإن الأخت إيمانويل تقول لنا جميعًا إن "زمان الحب الأعظم" - الذي يعتبر متفردًا إلى حد ما وعلى الهامش في أحيان أخرى - وأيضًا وقت "الاعتزال" لا يمكن فهمهما إلا على ضوء الأربعين سنة الأولى من حياتها.

وقبل المضي قدمًا في هذا المقال، لا يمكنني إغفال العلاقة بين الأخت إيمانويل ونوتردام دي سيون، والتي قبل مناقشتها معها وقبل عرض أمرها عليها تظل في حاجة إلى المزيد؛ وهي مسألة أصلها اليهودي. إن مؤسس هذه الجماعة "نوتردام دي سيون" كان يهوديًا اعتنق الكاثوليكية. واليوم يوجد بين راهبات سيون، راهبات تخصصن في الدراسات اليهودية وفي الحوار اليهودي - المسيحي. ومن ثم، فعندما شاخت الأخت إيمانويل، زاد تقديرها لأصولها اليهودية وأكدت أن أبويها لجدتها دريفوس كانا يهوديين ". لقد قلت لها إنها ليست من أصل يهودي طالما أن جدها فقط كان يهوديًا، فسمحت لي بأن أتصفح أوراقها الموجودة في سلة موضوعة على كرسي بجوار كرسيها المتحرك؛ وهي أوراق يختلط فيها الحابل بالنابل، وتتراكم مفكراتها، على بعض الكتب الروحية، والقصص البوليسية، بالإضافة إلى مضرب ذباب. فتشت في إنجيل الجيب الخاص بها، بالإضافة إلى تذكارين وحيدين لهما طابع ديني يُستخدمان للدلالة على الصفحات، وصورة جدها "عمانوئيل دريفوس"، وصورة جدها الأكبر "مويس دريفوس" بلحيته الطويلة النازلة على صدره، وكان يمسك في يده اليمنى كتابًا على غلافه نقشًا عبريًا مقروءًا **Sepher HaBerit** "كتاب العهد". كيف لا نقيم علاقة، إذن، بين جذور الأخت إيمانويل الأسرية المتدينة وبينها؟ علاوة على ذلك، فمما يثير الدهشة عن

أصلها اليهودي أنها - على حد قولها - لم تحصل عليه بالوراثة إذ أنها مسيحية بالمولد ولكنها بجذورها المسيحية تنتمي إلى يسوع الناصري مؤسس المسيحية (الذي كان في الأصل يهوديًا).

وإذا عدنا إلى أهداف كتابة السيرة الذاتية في "الاعترافات"؛ فإن الهدف الثالث والأخير يتمثل في أن الأخت إمانويل كانت تريد - بكتابتها "الاعترافات" - أن تبرز أهمية الشفاعة في إنجاح مشروعاتها. فهذا لم يكن يتوافق مع طبعها أو مزاجها؛ ففي كتاباتها الأولى كانت تمضي مباشرة من عرض المشكلة الإنسانية التي تواجهها إلى النجاح في حلها، فلا أحد ولا شيء يقف في وجه قضيتها العادلة. الشعلة المتأججة لمشاعرها الجياشة وأهوائها العنيفة، يبدو أنها تقهر ذاتها - بقوة تشبه السحر - لتدخل إلى عالم الفرح. هذا من ناحيتها "أنا أرى الحياة وردية". ومن ناحية أخرى نجد أن الأخت إمانويل تعطي قيمة عالية لعمل الآخرين، "العمل في جماعة، العمل في فريق"، تعطي النصيب الأكبر لعمل المنظمات والروابط، إلخ. وفي كتابها "غنى الفقر" تذكر بالتفصيل الأسباب التي تجعلها تعطى قيمة كبرى للعمل الإنساني. وهي حريصة على الاعتراف بالحقيقة وهي تفعل ذلك بجهد جديد وبعناء شديد. لقد استسلمت لي وللأخت صوفي برلين، لنحطم الصورة الخيالية "للبطلة التي على يديها ينجح كل شيء"، وعند ذكر المعارضات والتباطؤ الذي نعاني منه، وعند الإشارة إلى الأبعاد المؤسسة لكل المنجزات، تحرص الأخت إيمانويل على إبراز قيمة العمل الجماعي. تذكر الأخت إيمانويل أيضًا في اعترافاتها العديد من الأعمال التي أنجزها آخرون رهبانًا وراهبات، رجالاً ونساء، تذكر ذلك طواعية وبكامل السرور. هذه السيرة الذاتية تحتوي على أعمال أساسها الولاء والاحترام لكل المجروحين من غياب العدالة ولكل المناضلين في ميدان مكافحة الفقر سواء كانوا مشهورين أو مجهولين.

"أريد أن أكون قديسة"

كثيرًا ما صرحت الأخت إيمانويل وقالت لكل من أراد أن يسمع خبر فشلها في الحياة. إنها فشلت في تحقيق حلمها: "كنت أريد أن أكون قديسة." ما هو مفهومها عن القداسة بحيث تحكم سلبًا على حياتها؟ فعند دخولها الدير لأول مرة، كانت تتملكها فكرة البطولة، وكان أمام عينيها نماذج بطولية: القديسة تريزا الطفل يسوع التي كانت راهبة كرملية ماتت وهي في الرابعة والعشرين، كتبت مخطوطًا عن سيرتها الذاتية، وأيضًا الأب دميان الذي كرس حياته لخدمة مرضى الجُذام حتى أصيب بالعدوى من هذا المرض، والقديسة چان دارك التي انجذبت إلى صفاء طفولتها، مثل انجذابها إلى المبشرين الأوائل الشجعان الذين قُتِلوا واستشهدوا وأولئك الذين التهمتهم أفواه القبائل النائية من المتوحشين أكلة لحوم البشر.

دعنا لا نتسرع في الحكم على عالم وعلى ثقافة موروثة من القرن التاسع عشر ولا على آثارها الأليمة أو الإستعمارية. لقد عرفت الأخت إيمانويل من جانبها كيف تخرج من من كل هذه الأمور. وعندما طعنت في السن استمرت في مقارنة حياتها بتلك الأمثلة؛ لترى أن هناك تفاوتًا عظيمًا بينها وبينهم. ليس الوقت فقط هو الذي أثبت لها - بدون أدنى شك - أنها لم تَمُت ولم تستشهد ولم تكن ضمن إرسالية للتبشير، بل لم يكن لها نفس اللطف، الرقة، الصبر، واللا مبالاة بالعالم، تلك الصفات التي كان يتحلى بها القديسون وبالأخص القديسة تريزا دي ليسيو. لم تنجح - في آخر سنتين من رهبنتها - في أن تصير "قديسة يوضع اسمها على المذبح"، وحتى بعد خمس وسبعين عامًا من رهبنتها. إن الفشل الذي عانته نتج عنه زوال الوهم عن صورتها في عيني نفسها.

لن يغيب عن القارئ، أن يجد بين سطور هذه الاعترافات علاقات ضمنية بين تاريخ الأخت إيمانويل وبين ما كانت تريد تحقيقه في "فكرها". فهي في حالة ثورة دائمة، وربما عنف يَسْكُنها ونوبات الانفجار الانفعالي المفاجئ والذي عادةً ما يند عن السيطرة، ولا حاجة للمرء أن يكون محللاً نفسيًا ليفهم العنف الذي يكمن وراء هذا. في جميع مؤتمراتها ولقاءاتها وأعمالها تعود الأخت إيمانويل لتروي قصة وفاة أبيها الوحشية. الطفلة التي في أعماقها مازالت محرومة من حضور جوهري محبوب. هناك قوى غامضة تدفعها نحو الغرق في عجاج الجحيم، تسحبها نحو الإحساس بالعجز، وثمة إحساس بالقصور يلازمها بوسوساته التي لا تملك مقاومتها. "أنا لست إلا فراغ"، كانت تردد هذه العبارة من حين لآخر.

سر الحياة، أن هذا الفراغ ينبوع وعطش. ينبوع - تخرج منه القيامة - ضد قوى الموت الطاغية، ينبوع للذات العميقة في مرحلة الطفولة المُسْتذلة والعاجزة. التعطش للكفاح: "العقبة تقود إلى الفعل." التعطش للمطلق: "عندما يكون المشروع الإنساني "الكل باطل"، والإنسان بمفرده "ما أصغر هذا الإنسان" هل نستطيع أن نلبى تلك الاشياء التى من القلب؟ لقد وجدت الأخت إيمانويل نذرها الرهباني أولاً، ثم الكاريزما المنفردة لمواصلة الكفاح مع الفقراء ومن أجلهم، الصوت الهادئ الذي يرشدها ويساعدها على إخراج طاقة العنف لديها، وفي إخراج نوباتها الانفعالية .

وفي موضوع آخر، يُقال عن الأخت إيمانويل أنها ورثت من أمها وجدتها طريقة النساء العاملات، وقد استفادت من أخطائهما ومزاياهما. لقد اختبرت المرارة في مواجهة "الغرور"؛ وبدقة أكثر، لقد اختبرت الرضا والسرور الناتجين عن الشهرة. وهي لذلك مستعدة لكافة الصدمات التي قد تواجهها أثناء مسيرتها. كانت تهوى إلقاء الأوامر، ولا تحب أن تكون





مجرد شريك في أعمال الآخرين. كانت تحب السرور وكانت لديها روح الدعابة على منصة التليفزيون. كانت تحب صحبة كبار القوم. كانت تعرف كيف توظف ميولها لخدمة الفقراء، تلك الميول التي كانت تحاول دائمًا أن تروضها. في "البيزينس" فهي تعرفه! فهي تعرف كيف تكتشف الموارد البشرية النافعة في خدمة قضيتها وكيف تجندها. تعرف أهمية الموارد المالية وكيفية الحصول عليها. تعرف كيف تتعامل مع كل الأوساط الاجتماعية والثقافية، وهي وفقًا لتسميتها "حمارة اتصالات". كانت القوة هي أن نثبت أن العوائق يمكن أن تُصبح أوراقًا رابحة!

أنا أكتب هذا، ولكن الأخت إيمانويل ترفض دائمًا التفتيش في أسباب تصرفاتها، ومع ذلك فقد حدث تطور لأن "الاعترافات" أوشكت على الانتهاء. ليس فقط الإنتهاء من عمليات المراجعة للأجزاء الأخيرة وتنقيحها والإضافة إليها، ولكن نشعر أيضًا أن المرارة قد وَلّت وجاء دور القبول "الرقيق" للذات. لقد تم هذا من منطلق الحب لا التفكير أو تأمل الذات. والأخت إيمانويل نفسها وصفت المعارك التي دارت بداخلها في السنوات الأخيرة، ولنقتبس سطرين من أقوالها عن القوة.

الأول عن الحب الأخوي، وبالتأكيد فإن "إيمانويل" ("عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا") كانت تريد دائمًا أن تصبح "الأخت العالمية"، ولكن من وجهة نظرها، أن البعض أكثر جدارة من الآخرين، في النادي الخاص بها، للأطفال، للنساء، وللفقراء. وإذا قسنا أكثر "التناقضات" التي في داخلها والتي من خلالها تتوازن شخصيتها السوية، نجدها أكثر منا قربًا وتعاطفًا مع " هؤلاء الفقراء الذين هم نحن". كانت الأخت إيمانويل تقول دائمًا عن حق: "إن الناس يحبونني لأن لديّ كل أخطائهم". وهكذا فقد اكتشفت أن ضعفاتها المفترضة - إذا نحينا جانبًا كونها عقبات - ما هي إلا انتصارات مشتركة لأي إنسان أيًا كان.

لقد سمح لها الحب أن تجتاز مشاعر الكآبة التي مصدرها إحساسها "بالعدمية" بمعنى آخر. شيئًا فشيئًا، أدركت أنها عاشت حياتها حتى أصبحت هي نفسها حبًا متجسدًا. هذا الفهم للحب باعتباره تجسدًا، انفصل انفصالاً حاسمًا عن الحب الخيالي الحالم والبطولي.

هذان الطريقان يوصلان معًا إلى محبة أكبر للبشر وللأشياء البشرية. ولما كان كل البشر متشابهين وهي متشابهة معهم، وحيث أن شرط الحب هو التجسد الإنساني؛ إذن "فلا شيء بشري غريب عليها"، طبقا لما صاغه تيرنس **Térence**. فلا شيء بشري - حتى الغرور الإعلامي وجاه العالم الباطل - يمكن أن يصير محتقرًا في عيني الله.

"هذا فشل، ولكن لا يهم"، هكذا استطاعت أن تُعبّر - بصفاء أخيرًا - وهي في الثامنة والتسعين من عمرها. ولكن هل هو فشل بالفعل؟ من وجهة نظرها الشخصية: نعم، ولكن في عيون الآخرين - الذين لم يفهموا صراعها الداخلي، والذين ينظرون إليها على أنها نجمة الجماهير في عيونهم - هي بالتأكيد ليست فاشلة. "كثيرًا ما قلت وكررت أخطائي للناس دون جدوى، هذا جُهد ضائع ويزيد من إعجاب الناس بي." لكن في عيون المراقب اليقظ فإنني لست في مرتبة الأب دميان الذي عاش الحياة الأكثر فقرًا، عاش مع الفقراء وعاش من أجل الفقراء؟ ألا يجب عليها أن تكون مثل تريزا الطفل يسوع، "هذا الطفل الضعيف" [57]، فهي تتخلى عن رغباتها، تتخلى عن عملها التبشيري، عن حلم الاستشهاد، وعن حلم الكمال الوهمي لتستسلم للرحمة والحب [58]؟

57- Sainte Thérèse de l'Enfant – Jésus, Manuscrits autobiographiques, Office central de Lisieux, 1957, p. 227.

58- Ibidem, p. 223 - 226.



"صوفية العمل"

من منظور اللاهوت الروحي، فإن مسألة كاريزما الأخت إيمانويل تفرض نفسها، ولكن من ناحية أخرى إنها كانت تبني نفسها بعملها. فما الذي أدخلها في المسيحية في هذا العالم وفي هذا الزمان؟ الأفضل أن نبدأ بالتقليد الذي تنتمي إليه؛ فالأخت إيمانويل في بداية مشروعها لكتابة سيرتها الذاتية، لم يكن لها سوى صلة بعيدة بالقديسة تريزا الطفل يسوع التي يقال إنها من افيلا (1515 – 1582). مع ذلك فإن المقارنة الموضوعية بينهما تكشف عن نقاط التقاء عديدة؛ فإن القديسة تريزا - مُصلحة النظام الكرملي - لم تكتب فقط سيرة ذاتية كالأخت إيمانويل، لكنها أيضًا عاشت مثلها مرحلة رهبانية "عادية" قبل أن تُجرى عليها عملية تغيير شامل. ففي نحو الخمسين من عمرها تركت ديرها لتؤسس ديرًا آخر. وفي حوالي عشرين سنة نذرت نفسها بالشكل الذي ترتضيه، وفضلاً عن حياة التأمل، عَبّرت عن مواهبها كسيدة عمل. وفيما يتعلق بمشروعاتها: كانت عند موتها قد أنشأت بل وشيدت أكثر من خمسة عشر ديرًا. وكراهبة كانت على وعي بوجوب خضوع الإنسان [59]. وكانت جزئيًا من أصل يهودي.

القارئ نفسه سوف يقارن بين عناصر ومراحل حياة القديسة تريزا وبين الأخت إيمانويل. ولعله يجدر بنا أن نضيف حدثًا أخيرًا، فبروح التجرد قامت تريزا الطفل يسوع بحرق مخطوط أحد أعمالها ألا وهو "تأملات في حب الله"، وقد قامت الأخت إيمانويل أيضًا بإلقاء مذكراتها

59- "فلتحافظ كل منكن على الخضوع والطاعة، يا أخواتي"
Thérèsa d'Avila "Le chemin de la perfection", dans (Euvres complètes, Desclée de Brouwer, 1964, p. 453.

- عن محاضراتها في تونس - وما مرت به من أوقات عصيبة في النيران وكان ذلك في الإسكندرية. هذا التشابه يبرز جانبًا مهمًا من الاعترافات؛ ففي حياة الأخت إيمانويل، تعتبر "شهوة المعرفة" أهم وأكثر تأثيرًا من "شهوة الإحساس" [60]. إيمانها تعرض للمعاناة بسبب مباهج العقل، أكثر من المعاناة بسبب مباهج الحواس.

وإذا تجاوزنا المقارنة بين السيرة الذاتية لكل منهما، فإن روحانيات كل منهما تشير إلى ميل مشترك؛ يظهر فيهما صلة قوية بشخص يسوع المسيح، فكلتاهما يعلنان حبهما له باعتباره زوجًا ومحبوبًا. كل منهما حققت أعمالاً عظيمة من خلال اعترافهما بضعفهما الكامل. كلتاهما كرست صلاتها - وهي الأمر الجوهري بالنسبة لهما - لصالح الحب باعتباره عملاً متجسدًا وعلاقة مع القريب:

"نحن نعلم - على ما يبدو لي - أننا يجب علينا أن نحافظ على الأمرين (حب الله وحب القريب)، فإذا عرفنا جيدًا كيف ننفذ وصية حب القريب؛ فهذه ستكون علامة لا شك فيها؛ فنحن لا نستطيع أن نعرف ما إذ كنا نحب الله، لكننا نستطيع أن نعرف - بالتأكيد - ما إذا كنا نحب القريب. [61] "

إلا أن المقارنة تتوقف هنا؛ فلا يوجد "ظاهرة صوفية" في مسار الأخت إيمانويل، فضلاً عن أنها صرحت ذات مرة أنها "لم تمر بتجارب صوفية". إنها لم تكن بأي حال من الأحوال راهبة تحيا حياة التأمل، فالتضرع الصامت أمر عسر على مخيلتها الدائمة التجوال، لكنها مع ذلك

60- Soeur Emmanuelle, avec Philippe Asso, Vivre à quoi ça sert?, Flammarion, Paris, 2004, p.58-53 ,41-37.

61- Thérèse d'Avila, "le château intérieur", dans (Euvres complètes, op. cit., p. 941.



تثبت أنها راهبة متأملة ولكن بطريقة مختلفة عن النمط المألوف. حين تُصرح "لقد سقطت في محيط"، تعليقًا على تجربتها في عشش الزبالين، وذلك كما لو كنا نتحدث عن محيط شاسع وحمّال أثقال. إن الحياة مع الفقراء، العمل معهم ومن أجلهم، والحضور الدائم الذي تستشعره دون أن تتلمسه لذلك المحب المحبوب يسوع المسيح: "ففي كل خطوة وفي قسمات كل وجه كان دائمًا معي وكنت دائمًا معه." كانت تريزا دافيلا تعرف ـ بلا تردد ـ "الصحبة" الدائمة لذلك "الصديق الرائع" [62]، تعرف نعمة الاتحاد بالله. ولكن بالنسبة للأخت إيمانويل فقد تم ذلك في العمل وليس في التضرع والهذيذ والصلاة، عرفت الأخت إيمانويل الأعراس الصوفية السمائية: "بدون ارتفاع حرارة الحماسة والتماجيد، بدون رعشة المتعة، عاشت السعادة الهادئة كالسهم الذي قال عنه القديس توما الأكويني الذي حين يصيب هدفه، لا يعود يهتز". [63]

إن اللقاء مع الله من خلال العلاقة مع الفقراء ليست حكرًا على الأخت إيمانويل؛ ولكن اختلافها مع الآخرين من أبطال أعمال البر ـ مثل الأم تريزا على سبيل المثال ـ يتمثل في أن الأخت إيمانويل لم تُنشيء نظامًا رهبانيًا، لقد كانت بالأحرى تريد لمؤسساتها ألا تكون ذات طابع ديني. لقد كانت امرأة من عصرنا، كانت تريد دمج المنظمات العلمانية المنفصلة شرعًا عن الدين مع المنظمات الدينية العاملة في مجال البر في الغرب المعاصر. ولكن هذه المشكلة لن تُحل إلا عن طريق تفكيكها؛ ففي فكر الأخت إيمانويل فإن الاتصال العميق بين "الإيمان بالإنسان" و"الإيمان بالله" ليس تقليلاً من شأن المسيحية بحيث تصبح مجرد

62-Thérèse d'Avila, "Autobiographie", dans (Euvres complètes, op. cit., p. 152.

63- Soeur Emmanuelle, avec Marléne Tuininga, Jèsus tel que je le connais, Desclée de Brouwer_ Flammarion, 1996, p. 107.

نزعة إنسانية، وليست استردادًا للفلسفة الإنسانية لتستوعبها المسيحية، ولكن هذا الاتصال هو إعلان لإيمان في جوهره مسيحي: لأنه من خلال جسد الإنسان وتاريخه يستعلن الله ويتجلى المسيح يسوع.

إن الجانب الإلهي في الإنسان عاشته الأخت إيمانويل قبل أن تُفكر وقبل أن تكتب. بجوار الزبالين لم تكن الأخت إيمانويل إلا مادلين الصغيرة المفتونة بطفل المزود: كانت تمكث بجوار الطفل يسوع، الطفل الملك، الموضوع فوق القش عريانًا وفقيرًا. وفي تجربتها التي تجددت في سن الشيخوخة والاعتزال تتصالح الأخت إيمانويل مع "فراغها"، فهي نفسها تصبح أخيرًا فقيرة وشيئًا فشيئًا ينتشر في داخلها سر آلام المسيح على الصليب، آلامه من أجل الإنسان، إله يستمع إلى صرخات المضطهدين، والذين يصرخون تحت نير السخرة (خر3)، إله أخلى ذاته لكي يحررنا. "يا يسوع فلتتجسد في شخصي حتى أُكمل طريقك، طريق الفقر والحب." [64]

ولن تُفضِّل الأخت إيمانويل كوني أُنهي هذا التذييل بعبارة مسيحية قلبًا وقالبًا. فقد كان طموحها أن توجه كتابها إلى كل الناس، بحيث يجد كل أحد نفسه فيه. كانت تريد أن تقدم رسالتها الروحية للمؤمنين وغير المؤمنين. إن "دين الإنسان" - في هذا الوقت - يكمن في سر العمل الذي عرضته في اعترافاتها، والذي يضرب بعنف طغيان العواطف والإثارة الخيالية. إن سعادة الإنسان الأبدية لن تنبع إلا من داخل ذاته وسيكون الإنسان بالحقيقة إنسانًا إذا عرف الفقر وقَبِلَه. وسيصير الإنسان إنسانًا عندما يقيم صلات مع الآخرين ويحيا من أجلهم وسوف يحصل الإنسان على نصيبه في الأبدية عندما يتجسد فيه الحب.

فيليب أسو،

في عيد ميلاد إيمانويل التاسع والتسعين

64- Soeur Emmanuelle, avec Marléne Tuininga, Jèsus tel que je le connais, Desclée de Brouwer_ Flammarion, 1996, p. 107.

من منا لم يرَ أحياءً عشوائية ، وفقراء يعيشون حياة لا تليق بالبشر ؟!

كثيرون منا رأوا وتألموا... لكن قليلين هم الذين يتحركون ويبذلون

من أموالهم .. وآخرين يبذلون حياتهم وأعمارهم .. ومن بين هؤلاء

الأخت إيمانويل .. التي أتت من وراء البحار لتهتم بفقرائنا .. لذا استحقت

محبة المصريين لها .. واستحقت تقدير الدولة بأن منحتها

" الجنسية المصرية "

إليك يا أخت إيمانويل محبتنا على كل ما بذلتيه من أجلنا...!

هذا الكتاب سيرة ذاتية خطته في حياتها وأوصت بأن ينشر بعد وفاتها

دون تعديلات وتعليقات .

ولكننا التزمنا مراعاة الخصوصية الثقافية.

وقد تمت ترجمته من الفرنسية.

الناشر،



مركز بيت الحياة
House of Life Center